الدكتور عماد الدين خليل

دراسة في السيرة

برهان

مؤسسة الرسالة

دار النفائس

الطبعة الثالثة عشر

١٤١٢هـ - ١٩٩١م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ - ص.ب ٧٤٦٠ برقياً، بيوشران

دار النفائس

بيروت: ص ب ٦٣٤٧ - هاتف ٨١٠١٩٤ - برقياً: دانفايسكو


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا كتاب دراسي (أكاديمي) أريـدَ منه بالدرجة الأولى عرض وتحليل الهيكل الأساسي المتفق عليه لأحداث سيرة الرسول ﷺ، وتوزيع مساحات البحث بشكل متكافىء على كافة جوانب الموضوع .. وهذا الكتاب يجيء ثمرة طبيعية لتدريس هذه المادة في كلية الآداب ما يزيد على الست سنوات ، الأمر الذي أتاح لي احتكاكاً عملياً مباشراً بالموضوع ، ودفعني للبحث عن أشد الصور المنهجية ملائمة لتوصيل المادة للطالب الجامعي ، وتمكينه من الاحاطة بوحداتها الأساسية احاطة علميـــة مركزة ومتوازنة ، ترفض الجنوح صوب الخيال القصصي الاسرائيلي ، والتهويل الاسطوري ، أو التطرف - في الوقت ذاتـه - صوب النظرة المادية التي تقتل في السيرة روحها وتطمس على شخصيتها .

كما ان هذه الدراسة تسعى لتجاوز منطق الدفـاع - قدر الامكان - لكي تجعل الحقـائق المجردة نفسها تشكل في ذهن الدارس النسق الحقيقي للسيرة ، وتدفع كل ما علق بها في الماضي والحاضر من تهاويل وإضافات ومفتريات ما كان لها أن تصمد أمام (الواقعة) التاريخيـة نفسها ، وليس غير الواقعة التاريخية

حكماً وقاضياً . ومن ثم كان الرجوع إلى طبقة المصادر الأساسية في الموضوع (وبخاصة سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري ومغازي الواقدي وأنساب البلاذري وصحيح البخاري ...) ، والتعامل المباشر معها ، وتجاوز (التضخّم) الذي عانتـــه المصادر المتأخرة ، و (الارتجال) الذي مارسته المراجع الحديثة ، أمران لازمان لبنـاء صورة أقرب إلى الواقع التاريخي قدر المستطاع[1] .

إن سيرة رسولنا ﷺ تجربــة غنية بأحداثها ، زاخرة بدلالاتها ، متنوعة بمعطياتها ، وما كان لباحث يسعى إلى إيفائها حقها من البحث والتحليل إلا أن يوسع نطاق رؤياه ويصبّ اهتماماته على هذا الجوانب جميعاً : حركية وسياسية وعسكرية وشخصية وفقهية وروحية وواقعية وغيبية وعقيدية وحضارية .

ولم أشأ – من أجل تركيز الصورة وتحديد أبعادها بدقـة – ان التزم الخط الزمني لأحداث السيرة ، ذلك الخط الذي وقـــع في أسره معظم الباحثين ، فضاعت في مجراه حقائق ، وطمست دلالات وقيم ، ما كان لهـا أن تضيع أو تنطمس لو قسمت وقـائع السيرة إلى وحدات متجانسة خصصت لكل وحدة منها مساحة مناسبة في البحث ، استقصيت فيها سائر جوانبها ونُسقت جُلُّ وقائعها ، وحللت معظم دلالاتها وقيمها .

ومعروف أن التزام المجرى الزمني يدفع الباحث الى أن يحشر في النقطة الواحدة، أو المقطع الواحد ، مجموعة أحداث ووقائع متنافرة متقاطعة غير متجانسة ، ويلجئه أحياناً أخرى إلى تقطيع الواقعة الواحدة إلى أجزاء متناثرة لا يضمها اطار واحد ولا يوحدها تجانس نوعي . وهذا – بطبيعة الحال – نتيجة محتمة للسعي وراء منطق التقسيم الرياضي الصارم للأيام والسنين ، وهو الأسلوب الذي

(1) عن نقد مصادر السيرة انظر جواد علي : تاريخ العرب في الاسلام ، الفصل الاول ص ٦ – ٣٥ ومقاله القيم في مجلة (المجمع العلمي العراقي) المجلد الاول ، السنة الاولى .

اعتمده مؤرخونا القدماء وعرفوه باسم (الحوليات) ، حيث لم يكن علم التاريخ ولا مناهج البحث فيه قد استكملت أسبابها بعد .

من أجل ذلك جاء هذا البحث يعرض احداث السيرة كوحدات محـــددة الأبعاد ، وبخاصة في عصرهـــا المدني حيث تكثر الروايات وتتكاثف الأخبار وتزدحم التفاصيل.. تناولت فيها على التوالي : محمد بين الميلاد والنبوة ، الدعوة في عصرها المكي ، تحليل للهجرة ، دولة الإسلام في المدينة ، الصراع مع الوثنية، الملاقات بين الإسلام والجبهة البيزنطية – النصرانية ، الصراع مع اليهود ، ثم حركة النفاق في العصر المدني . وبقدر ما رأيت في بعض الروايات والأخبـــار قوة وأهمية ، فوقفت عندها طويلاً محللاً مستنتجاً ، رابطاً اياها في نسقها النوعي من الوقائع ،بقدر ما لمست في روايات وأخبار أخرى ضعفاً وانعدام أهميـــة فاغفلتها إغفالاً تاماً،أو مررت بها مروراً سريعاً معتمداً في ذلك على المقياس الصارم وهو قبول كل ما لا يتعارض مع آيات القرآن الكريم ومعطيـات السنن الصحيحة ، ورفض ما عدا ذلك أو – على الأقل – عدم التسليم المطلق به .

إن اعتماد بعض المؤرخين المحدثين على عـدد من مصادر المتأخرين (كالحلبي وأبي الفدا والمقريزي وابن الأثير . . الخ) كمصادر محورية ، وتغافلهم عـــن واحد أو أكثر من المصادر الأساسية الواردة،آنفاً ، جعلهم يتركون ثغرات عميقة في صلب ابحاثهم ، كما دفعهم إلى سرد الكثير من الاضافات (المتأخرة) الـتي لا تعرفها المصادر الأولى ، ومن ثم تضخيم وقائع السيرة إلى أضعـــاف حجمها الحقيقي على حساب الوقائع نفسها. . لذا كان لا بد – مرة أخرى – من عرض كافة الروايات على معطيات القرآن والسنة والمصادر الأولى – على ما في الأخيرة من إضافات وثغرات – وعلى مقولات العقل الخالص ، ثم على الأرضية التاريخية التي تحركت فوقها الأحداث ، ونمت ، واكتسبت ملامحها النهائية . وكل ما لا ينسجم مع هذا أو مع ذاك كان له ان يلغى من حساب المؤرخ الجاد، أو ينسحب – على الأقل – إلى الخط الثاني من روايات السيرة ووقائعها الفنية المتشابكة .

إن النبي العربي – يقول الدكتور جواد علي [٢] – هو « محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب . وهو عبدالله ورسوله ، ونبي وبشر مثل سائر البشر إلا في النبوة ونزول الوحي عليه . فقد ورد في القرآن الكريم [قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما الحكم إله واحد] [٣] . وعلى هذه الآية وبوحيها يجب السير في تدوين السيرة النبوية وتاريخها ، ولو سار المؤرخ بموجبها وبموجب وحي آيات القرآن الأخرى ، لجنب نفسه الوقوع في المزالق والمآخذ ، وجعل السيرة النبوية ، سيرة حية : سيرة نبي مرسل بالمعنى الإسلامي الصحيح الذي نجد روحه في الآية المذكورة . ولو جنب أصحاب السير المتأخرون سيرهم القصص الاسرائيلي الذي ادخل على السيرة وعلى الاسلام ، والذي لا يتفق مع هذه الآية ومع أحكام القرآن ، لأراحوا السيرة وجنبّوا الناس الأخذ بهذا القصص الذي بنى عليه بعض المستشرقين احكاماً وآراء أساءت كثيراً إلى الإسلام ، وأرادوا بها التشكيك بصاحب الرسالة والمسلمين » [٤] .

ويؤكد المؤرخ المذكور أن « في أغلب الروايات التي يتصل سندها بكعب الأحبار أو محمد بن كعب القرظي أو النعمان السبائي ، وهم من مسلمة يهود ، أو غيرهم من مسلمة أهل الكتاب طابع القصص الاسرائيلي ، وفي أغلبه دسّ على الرسول وعلى الإسلام ، كما في قصة الغرانيق وفي أمور أخرى ... ويظهر من دراسة هذا النوع من القَصص أن أصحابه كانوا يريدون من روايته ونشره وإدخاله بين المسلمين أمراً ، وأن قلوبهم لم تكن مسلمة كألسنتهم ، وأنهم كذبوا على التوراة والأنجيل أحياناً وذلك على سبيل التودد إلى المسلمين والتقرب اليهم

---

(٢) تاريخ العرب في الاسلام ، الجزء الاول ، هو من ادق المراجع الحديثة في السيرة ، ولا تقل عنه دقة واهمية ابحاث كل من : صالح احمد العلي ومحمد عزة دروزة وابراهيم احمد الشريف ومحمد الغزالي في الطبعات الاخيرة لكتابه (فقه السيرة) التي خرج الشيخ الالباني احاديثها ومحمد سعيد رمضان ومحمود شيت خطاب ، (انظر قائمة المصادر والمراجع) .

(٣) سورة الكهف : ١١١ .

(٤) جواد علي : تاريخ ٧٥/١ .

على ما يبدو» .. ويمضي إلى القول بأن مما يلاحظ «أن معظم هذا القصص المتقدم هو ما يرد في الكتب المتأخرة، أما الكتب الواصلة إلينا من أول عهد المسلمين بالتدوين، فقد كانت تتحاشاه في الغالب، ولا تميل إليه ولا إلى الخوارق والمعاجز، وهو قصص مخالف لما جاء في القرآن الكريم عن الرسول ولحديث الرسول، ولروح الإسلام، ولهذا وجب أن يكون اعتماد المؤرخ على هذا الموارد المتقدمة المحترمة في نظر النقاد أمثال: كتب الصحاح في الحديث وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري. وسندنا الأول بالطبع ومرشدنا قبل كل هذه هو القرآن» «1» .

وعلى المستوى الحربي يقول محمود شيت خطاب، بصدد المنهج الذي اعتمده في كتابه عن (الرسول القائد) : «وقد أغفلت ذكر الحوادث التي لا يمكن أن تحدث في الحرب فعلا، تلك الحوادث التي يرددها بعض المؤرخين ليثبتوا للناس أن انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم كان بالخوارق غير الاعتيادية بالدرجة الأولى، لا بتطبيق مبادىء الحرب. ومن الغريب أنهم يعتبرون ذلك من مظاهر الإيمان برسالة النبي.. لقد كان محمد واقعيا بعيدا عن الخيال، وكان إذا أراد شيئا هيّأ له أسبابه.. وقد عمل بكل مبادىء الحرب المعروفة، إضافة إلى مزاياه الشخصية الآخرى في القيادة، لهذا انتصر على أعدائه، ولو أغفل شيئا من الحذر والحيطة والاستعداد لتبدّل الحال غير الحال» «2» .

ونحن نلتقي بهذا التحذير من تضخيم السيرة، وبخاصة فيما قبل البعثة، بحشد من القصص والإسرائيليات والخوارق، في كتاب محمد عزة دروزة القيّم

---

(1) جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام 1/ 33- 34.

(2) الرسول القائد، المقدمة ص 6- 7.

(عصر الرسول) فهو يقول: «من العجيب أن يكون في القرآن آيات كثيرة فيها الكفاية لرسم صورة صادقة لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها قرائن وإشارات ودلالات

عديدة تساعد على التعرف على نشأته وسيرته قبل البعثة، ثم يعمد بعض المسلمين بل بعض علمائهم إلى تجاوز ذلك إلى ما لا تساعد عليه نصوص القرآن، بل ما تتناقض معه. فإذا كنت ممن تسنى لهم أن يستمعوا قصة من هذه القصص التي تتلى في حفلات المولد، فقد سمعت ولا ريب نماذج من الغلوّ الذي يكاد يجعل للنبي صلى الله عليه وسلم شخصية لاهوتية أو في نطاق اللاهوتية. ولقد وقع غير واحد من كتاب السيرة والشمائل وشراحها في هذا الغلوّ (وبخاصة ما يتعلق بالميلاد) دون أن يكون لذلك أصل من قرآن أو سند من حديث صحيح أو دعامة من منطق معقول. ويبدو أن غلاة المسلمين لم يكتفوا بالوقوف عند الإنسان الكامل في النبي صلى الله عليه وسلم الذي يتجلى بالتميز في عظم الخلق وصفاء النفس وكبر القلب وقوة الإيمان، والمهمة العظمى التي اضطلع بها، ورأوا أنه لا بد أن يكون من لوازم نبوته واصطفائه أن تكون ثمة مقدمات وبشائر» «1» .

لكن أيا من المؤرخين السابقين، أو غيرهم من المؤرخين الجادّين، لم يقل إن الضرورة المنهجية الملحّة لرفض الإسرائيليات والقصص والخوارق تدعونا أن نقطع السيرة عن أية صلة لها بعالم الغيب (الميتافيزيقا) - كما يرغب دعاة التفسير المادي للتاريخ أن يكون- لأن معنى هذا بوضوح نكران لنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم واتصاله عن طريق الوحي غير المرئي- بعالم (الغيب) في السماء، كما أنهم لم يقولوا- ولا أي من المؤرخين الجادين- أن رفض القصص والخوارق يدعونا بالضرورة إلى رفض الاعتقاد بأن الله سبحانه طمس على أعين المشركين الذين حاصروا دار الرسول صلى الله عليه وسلم، قبل هجرته، سعيا وراء قتله، أو أنه صدّهم عن إلقاء القبض عليه وهو مختبىء وصاحبه في الغار، أو أنه أنزل ملائكته من السماء لتنصر القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة في معركة بدر، ومعارك أخرى تلتها..

---

(1) عصر الرسول 1/ 25- 26.

ان كثيراً من وقائع السيرة واخبارها أوضح من أن تتكلف فيها الشروح والتفاسير والتعليقات ، ومن ثم فهي لن تحتاج إلا إلى قدر معقول من تنسيق المادة الأولية وترتيبها ، قائم على منهج علمي في الانتقاء والاستبعاد ، ليس كذلك الذي اعتمده كثير من الباحثين المحدثين ، وبخاصة طبقة المستشرقين الأولين التي حكّمت الظن وانساقت وراء الهوى ، وهي تنتقي وتستبعد ، أو تحلل وتستنتج وفق منهج بحث لا تقرّه بداهات العلم .

وهنا أحب أن أقف بعض الوقت لأعرض بإيجاز لهذه المسألة المنهجية ، التي سوف لن أعود إليها مرة أخرى إلا لماما، خوف أن تندّ بي عن المنهج الموضوعي في دراسة السيرة من مصادرها (الأساسية) وبيئتها (الواقعية) بعيداً عن الرؤى والاسقاطات المعاصرة ، شخصية ومذهبية ، مما يتطلب بحثاً آخر يضم مطولات من الردود والاثباتات والتحليل والمناقشات أحسب انها تتم فعلاً وانها في طريقها إلى الظهور(٩) .

يقول الدكتور جواد علي « .. أخذ على بعض المستشرقين تسرعهم في اصدار الأحكام في تاريخ الاسلام ، وتأثرهم بعواطفهم لأخذهم بالخبر الضعيف في بعض الأحيان ، وحكمهم بموجبه ، ولإصدارهم أحكاماً بنيت على الألفاظ المشتركة أو التشابه ، مع قولهم بوجوب استعمال النقد ، وباحتراسهم في الأمور ووجوب التأكد من معرفة الآخذ قبل الحكم عليه .. وآية ذلك ان معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين أو من المتخرجين من كليات (اللاهوت) وانهم ان تطرقوا إلى الموضوعات الحسّاسة من الاسلام حاولوا جهد امكانهم ردّها إلى أصل نصراني . وطائفة المستشرقين من يهود وخاصة بعد تأسيس (اسرائيل) وتحكم الصهيونية في غالبيتهم ، يجهدون أنفسهم لردّ

---

(٩) يذكر احد الاساتذة ان صديقه الدكتور حسين مؤنس اخبره انه يعكف منذ مدة ليست بالقصيرة على دراسة كافة معطيات المستشرقين في حقل السيرة ، ومناقشتها مناقشة شاملة في بحث مستقل .

كل ما هو اسلامي وعربي لأصل يهودي ، وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهواء »[10] .

ويمضي الدكتور جواد علي إلى القول بأن كثيراً من المستشرقين « غالوا في كتاباتهم في السيرة النبوية ، واجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السيرة . وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول ﷺ ، ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجود النبي . وطريقة مثل هذه دفعتهم إلى الاستعانة بالشاذ والغريب فقدموه على المعروف المشهور . استعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً ، أو كان من النوع الذي استغربه النقدة وأشاروا إلى نشوزه ، تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ هو الاداة الوحيدة في اثارة الشك . ومهما قالوا في نسبة التاريخ الصحيح في سيرة الرسول ﷺ فان سيرة الرسول هي أوضح وأطول سيرة نعرفها بين سير جميع الرسل والأنبياء .. والذين يؤاخذون المستشرقين على سلوكهم هذا المسلك من النقد يؤاخذون كذلك من يحاول من المسلمين كتابة التاريخ متأثراً بعاطفته وهواه . فهم لا يريدون توجيه اللوم إلى المستشرقين وحدهم لتأثرهم بعاطفتهم ثم يتركون من يركب هذا المركب من الشرقيين دون لوم ولا تعنيف »[11] .

فالمنهج العلمي هو المنهج العلمي ، والخروج عنه خروج عن العلم الصحيح سواء مارسه رجل في أقصى الغرب أم في أقصى الشرق ، وسواء كان وراءه انسان يتعبد في كنيسة أم يصلّي في مسجد .. والرسول ﷺ نفسه يقول (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) .. ولم يحدد ﷺ هوية الكاذبين وانتماءاتهم الدينية والجغرافية .

ويحدثنا الدكتور (صالح أحمد العلي) كيف ان بداية الحركة الاستشراقية في مواقفها الظنية والعاطفية من حياة الرسول ﷺ ، كانت قد جانفت العلم كثيراً ، ثم بدأت تعتدل شيئاً فشيئاً « لقد تناول المستشرقون الغربيون حياة

---

(10) تاريخ 8/1 — 9 .

(11) المصدر السابق 9/1 — 11 .

الرسول ﷺ فيما تناولوا من الأبحاث عـــن التاريخ الاسلامي . ولا شك ان التعصب والتحامل كانا يطغيان على كتــابات المستشرقين القدامى نظراً لتأثرهم بروح التعصب الديني الذي كان مسيطراً ومتبلوراً بتأثــير الحروب الصليبية ، ونظراً لضعف معرفتهم باللغة العربية ، وقلة المصادر المتوفرة لديهم . غير انه لم يخل الغرب منذ أوائل العصور الحديثة من مفكرين معتدلين امتدحوا الاسلام[١٢] ولكن منذ القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بدراسة المخطوطات العربية وطبعها ، وأخــذ المستشرقون يدرسون تاريخ الشرق لذاته متّبعين الطريقة العلمية التي كانت قــد قطعت شوطاً كبيراً من التقدم في الغرب .. ومع ان فريقاً منهم لم يتقن كل ذلك ، إلا ان عدداً غير قليل كان يتميّز بسعة الاطلاع ، وبعد النظر ، وعمق التفكير ، مما ساعدهم على انتاج مباحث تستثير التفكير والتقدير ، رغم انه لا يمكن القول بأن أحكامهم نهائية »[١٣] .

ويعود جواد علي ليبين لنــا كيف ان (كيتاني) وهو من كبار المستشرقين الأوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول ﷺ ، كان يعتمد منهجاً (معكوساً) في البحث يذكرنا بكثير مــن المختصين الجدد في حقل التاريخ الاسلامي ، والذين يعملون وفق منهج خاطىء من أساسه إذ أنهم يبيّتون فكرة مسبقة ثم يجيئون إلى وقائع التاريخ لكي يستلّـوا منها ما يؤيد فكرتهم ويستبعدوا ما دون ذلك . فلقد كان كيتاني « ذا رأي وفكرة ، وضع رأيه و كوّنه في السيرة قبل الشروع في تدوينها ، فلمــا شرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به ، ضعيفها وقويها ، وتمسّك بها كلها ، ولا سيما مــا يلائم رأيه ، لم يبال بالخبر الضعيف ، بل قواه وسنده وعدّه حجة ، وبنى حكمه عليه . ومـــن يدري ؟ فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء ، ولكنه عفا عنها وغضّ نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها ، لأنه صاحب فكرة يريد اثباتها بأية طريقة كانت

---

(١٢) انظر عنهم تور اندريه : محمد ص ٢٤٣ ــ ٢٤٧ .
محاضرات في تاريخ العرب ١/٢٥٥ ــ ٢٥٦ .

وكيف يتمكن من اثباتها واظهارهـا وتدوينها ان ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث ؟ »[١٤] .

ومن المستشرقين أنفسهم من دفعهم جـدّهم وموضوعيتهم — وهم ليسوا بالقليل — إلى نقد وتفنيد الأخطاء المنهجية التي مارسها رفاقهم في دراسة التاريخ عامة وحياة الرسول ﷺ خاصة ، وإلى تعرية الدوافع التي تكمن وراء موقفهم هذا ، سواء كانت محتشدة في الوعي أو منسربة في اللاشعور .. « لقد رأى (دينيه) انه من المتعذر ، إن لم يكن من المستحيل ، ان يتجرد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة ، وانهم لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرةالنبي والصحابة مبلغاً يخشى على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها ، ورغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي الجاد فانا نلمس من خلال كتاباتهم محمداً يتحدث بلهجة ألمانية ، إذا كان المؤلف ألمانياً ، وبلهجة ايطالية إذا كان الكاتب ايطالياً،وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسيةالكاتب. واذا بحثنا في هذه السير عن الصورة الصحيحة فانا لا نكاد نجد لها من أثر. إن المستشرقين يقدمون لنا صوراً خيالية هي أبعد ما تكون عن الحقيقة ! انها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها امثال (وولتر سكوت) و(اسكندر ديماس)وذلك ان هؤلاء يصورون اشخاصاً منابناء قومهم ، فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة ، أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة ، فصوروهم حسب منطقهـم الغربي وخيالهم العصري . وأن الدكتور (سنوك هيرغرنجة) ليقول بحق في نهاية نقده لكتاب المستشرق غريم (إننا نرى أن الاستاذ غريم لو اقتصر على درس السيرة النبوية القديمة وبحثها بعمق لكان أفضل ، وان الثمار التي كان يمكن أن يجنيها من مثل هذا الدرس لهي أجدر ببلوغ الغاية التي توخّاها ، ولكنه ظن أن هذا عمل ليست له أهمية كبيرة ، وأراد أن يطرف الناس بنبأ جديد ففشل في وضع السيرة

---

(١٤) تاريخ ٩٥/١ .

النبوية).. »[١٥] .

وفي ختام كتاب (اتيين دينيه) القيم (الشرق كما يراه الغرب) ترد بعض الآراء حول (المنهج) حيث يقول « لقد أصاب الدكتور سنوك هيرغرنجة بقوله (ان سيرة محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضي عليها بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأي سابق) . هذه حقيقة يجمل بمستشرقي العصر جميعاً أن يضعوها نصب أعينهم ، فانها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التي تكلفهم من الجهود ما يجاوز حدّ الطاقة فيصلون إلى نتائج لا شك خاطئة[١٦] . فقد يحتاجون في تأييد رأي من الآراء إلى هدم بعض الأخبار ، وليس هذا بالأمر الهين ، ثم إلى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا ، وهذا أمر لا ريب مستحيل . ان العالم في القرن العشرين يحتاج إلى معرفة كثير من العوامل الجوهرية كالزمن والبيئة والاقليم والعادات والحاجات والمطامح والميول .. الخ لا سيما إدراك تلك القوى الباطنة التي لا تقع تحت مقاييس المعقول والتي يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات» . ثم ما يلبث دينيه أن يضرب (مثلاً عكسياً) فيقول « ما رأي الأوروبيين في عالم من أقصى الصين يتناول المتناقضات التي تكثر عن مؤرخي الفرنسيين ويمحصها بمنطقها الشرقي البعيد ، ثم يهدم قصة (الكاردينال ريشيليو) كما نعرفها ، ليعيد لنا ريشيليو آخر له عقلية كاهن من كهنة بكّين وسماته وطباعه !؟ إن مستشرقي العصر الحاضر قد انتهوا إلى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق برسمهم الحديث في سيرة الرسول ﷺ . ويخيل الينا اننا نسمع محمداً يتحدث في مؤلفاتهم إما باللهجة الألمانية أو البريطانية أو الفرنسية ولا نتمثله قط – بهذه العقلية والطباع التي الصقت به – يحدّث عرباً باللغة العربية » ، وينتهي المستشرق

---

(١٥) اتيين دينيه : محمد رسول الله ، مقدمة عبد الحليم محمود ص ٢٧ – ٢٨ وانظر عن بعض نماذج تخبط المستشرقين في دراسة السيرة : المقدمة نفسها ص ٢٨ – ٣٣ وهوامشها . وعن موقف القسيس لامانس (النموذجي) من السيرة انظر : المقدمة ص ٣٥ – ٤١ .

(١٦) انظر رأي جواد علي في كايتاني قبل قليل .

الفرنسي – الذي أعلن اسلامه – إلى القول « إن صورة نبيّنا الجليلة التي خلفها المنقول الاسلامي تبدو أجلّ وأسمى إذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التي صيغت في ظلال المكاتب بجهد جهيد »(١٧) .

ويحدثنا المستشرق البريطاني المعاصر (مونتكمري وات) في كتابه (محمد في مكة) كيف « ان عزيمة محمد في تحمّل الاضطهاد من أجل عقيدته ، والخلق السامي للرجال الذين آمنوا به ، وكان لهم بمثابة القائد ، وأخيراً عظمة عمله في منجزاته الأخيرة ، كل ذلك يشهد باستقامته التي لا تتزعزع ؛ فاتهام محمد بأنه دجّال Imposteur يثير من المشاكل أكثر مما يحلّ ، ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حطّ من قدرها في الغرب كمحمد . فقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عـــن محمد . وكلما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الوقائع ممكناً قبلوه » . ثم يقدم (وات) قاعدة منهجية تكاد تكون بديهة من بداهات المنهج الأساسية ، إلا انها في موقف الغربيين ازاء شخصية محمد تضيع ويوقف العمل بها .. « فاذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدده ، فيجب علينا في كل حالة من الحالات ، لا يقوم الدليل القاطع على ضدّها ، أن نتمسك بصلابة بصدقه ، ويجب علينا ألا ننسى أيضاً أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكناً ، وانه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه »(١٨) .

وفي مكان آخر يضرب (وات) بالمستشرق الفرنسي (لامانس) مثلاً على الانحرافات المنهجية التي يمارسها كثير من المستشرقين ، وبخاصة ذلك (الخطأ) الذي سبق أن ذكرناه والذي يقوم على جعل الوقائع التاريخية مجالاً انتقائياً للتدليل على فكرة مسبقة أو اتجاه محدّد سلفاً. ان لامانس « للأسف !! يتجاوز الأدلة كثيراً في ناحية أخرى ، إذ أن طريقته العابثة (!!) في المعالجة ليست

---

(١٧) دينيه : محمد ، المقدمة ص ٤٣ – ٤٤ .
(١٨) محمد في مكة ص ٩٤ .

طريقة علمية (!!) ، فهو يرفض هذا الرأي ويقبل الآخر حسب أفكاره الخاصة ومعتقداته ، دون أن يعبأ بالموضوعية . ففي عبارة (الأحابيش وعبيد أهل مكة) نجد أن (الواو) تفسيرية تشير إلى أن الأحابيش من ضمن العبيد ، بينما نجد في عبارة (الأحابيش ومن اطاعهم — أي القرشيين — من قبائل كنانة وأهل تهامة) ان (الواو) تدل على تمييز تام . ولكن لماذا يفعل لامانس ذلك ؟ يبدو انه يؤكد تحقيق النظرية التي يحاول التدليل عليها »[١٩] .

ونحن نستطيع أن نحصل على عشرات ، بل مئات ، من هـذا (الانتقاء الكيفي) أو التفسير (الاختياري) للنصوص التاريخيـة في كثير من كتب المستشرقين وبخاصة أجيالهم الأولى . فبروكلمان — على سبيل المثال — لا يشير إلى دور اليهود في تأليب الأحزاب على المدينة ، ولا إلى نقض بني قريظة عهدها مع الرسول ﷺ في أشد ساعات محنته ، ولكنه يقول « ثم هاجم المسلمون بني قريظة الذين كان سلوكهم غامضاً على كل حـــال[٢٠] » . ويتغاضى (اسرائيل ولفنسون) عن حادثة نعيم بن مسعود في معركة الخندق كسبب في انعدام الثقة بين المشركين واليهود[٢١] ، ولعله يريد أن يوحي بذلك أن اليهود لا يمكن أن يخدعوا !!

ودرمنغم يشير هو الآخر ، وبوضوح أشد ، إلى الأزمة المنهجية التي تعرّض معظم البحاث الغربيين عن حياة الرسول ﷺ لأخطاء لن يغفرها العلم ، وكيف أنها — في العقود الأخيرة — بدأت تخف تدريجياً ، ان سيرته — يقول درمنغم — « تحاط في زماننا بكثير من التحفظات ، ولا ريب في مجاوزة النقد للحد أحياناً على وجوه مختلفة مع الأسف ، ولكن من المؤكد أنه لا يحدث اليوم عن حيــاة محمد بتعابير ووجهات نظر كالتي جاءت في كتب التراجم الأخيرة التي ظهرت في

---

(١٩) المصدر السابق ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .
(٢٠) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٥٣ — ٥٤ .
(٢١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٤٥ — ١٤٦ .

المكتبة الفرنسية منذ خمسين سنة ككتاب واشنطن أرفنج، ويمضي درمنغم إلى القول بأنه « جد في البحث العلمي بعض العلماء في القرن التاسع عشر ومنهم كوسان دو برسفال وموير وفيسل ومرغليوث ونولدكه وشبرنجر وهورغرنجه ودوزي، ثم تناوله – أي النبي ﷺ – مؤخراً كيتاني ولامانس وماسنيون ومونته وكازانوفا وبيل وهوار وهوداس وأرنولد ومارسيه وغريم وغولد سيهر وغودفروا ومونبيه وغيرهم . ومن المؤسف حقاً أن غـالى بعض هؤلاء المتخصصين في النقد أحياناً ، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص.. ومن المحزن ألا تزال النتائج التي انتهى اليها المستشرقون سلبية ناقصة ، ولن تقوم سيرة على النفي ، وليس من مقاصد كتابي أن يقوم على سلسلة من المجادلات المتناقضة ... ومن دواعي الأسف ان كان الأب لامانس ، الذي هو من أفضل المستشرقــين المعاصرين ، من أشدهم تعصباً ، وأنه شوّه كتبه الرائعة الدقيقة وأفسدها بكرهه للاسلام ونبي الإسلام فعند هذا العالم اليسوعي أن الحديث إذا وافق القرآن كان منقولاً عن القرآن ، فلا أدري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلـين تهادمهما بحكم الضرورة ، بدلاً من أن يؤيد أحدهما الآخر ؟ »[٢٢] .

وهذا يقودنا إلى موقف بعض المستشرقين من القرآن ، كمصـدر أساسي من مصادر السيرة ، ذلك أن اعتماد القرآن في هذا المجال يمكن أن يعتبر سلاحاً ذا حدين ، اعتمد جانبه الايجابي مؤرخون كجواد علي وصالح أحمد العلي ومحمد عزة دروزة ، واعتمد الجانب السلبي مستشرقون كوات وشبرنجر وولفنسون ، وغيرهم ، وذلك بنفي الكثير من أحداث السيرة ، ما دامت لم ترد في القرآن الكريم ؛ وكأن القرآن كتاب تاريخي خاص بتفاصيل حياة محمد ﷺ !! وهذا مكنهم من عمليــة انتقاء مفرضة ذات طابع سلبي معاكس ، وهي التشكيك ورفض كل رواية لا ترد مؤيداتها في القرآن ، إذا كان في هذه الرواية تمجيد للنبي ﷺ ، أو إذا كان في نفيها تأكيد لأحدى وجهات النظر الاستشراقيـة .

---

(٢٢) حياة محمد : المقدمة ص ٨ ، ١٠ – ١١ .

فمثلاً نجد Sprenger يرى أن اسم النبي ورد في أربع سور من القرآن هي آل عمران والأحزاب ومحمد والفتح ، وكلها سور مدنية ، ومن ثم فان لفظة (محمد) لم تكن اسم علم للرسول قبل الهجرة ، وانما اتخذه بتأثير قراءته للانجيل واتصاله بالنصارى !![23] وإذا كان النبي ﷺ قد التقط اسم (محمد) من خلال قراءاته لنبوءات الانجيل فأين ذهب إذن (محمد) الحقيقي الذي بشر به العهدان القديم والجديد ؟

وهنالك مثل آخر ، أن اسرائيل ولفنسون يشير ، بصدد مهاجمة يهود بني النضير ، إلى أن مؤرخي العرب يذكرون سبباً آخر لاعلان الحرب على هذه الطائفة اليهودية ذلك هو محاولتهم اغتيال الرسول ﷺ « لكن المستشرقين — يقول ولفنسون — ينكرون صحة هذه الرواية ويستدلون على كذبها بعدم وجود ذكر لها في سورة الحشر التي نزلت بعد اجلاء بني النضير .. والذي يظهر لكل ذي عينين (!!) ان بني النضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبي واغتياله على مثل هذه الصورة لأنهم كانوا يخشون عاقبة فعلتهم هذه من أنصاره[24] ولو أنهم كانوا ينوون اغتياله غدراً لما كانت هناك ضرورة لالقاء الصخرة عليه من فوق الحائط ، كان في استطاعتهم أن يفاجئوه وهو يحادثهم إذ لم يكن معه غير قليل من أصحابه »[25] ، ويبدو أن ولفنسون يغفل هنا مسألة التركيب النفسي (لليهودي) وتجنّبه المعروف لأيّة مجابهة حقيقية !!

إننا في مجال الانتقاء والتفسير والنفي الاعتباطي هذا، نرجع — مرة أخرى — إلى عبارة (وات) الذكية والتي قالها في هذا الصدد ، لكنه لم يلتزم العمل بها دائماً !.. « .. إذا أردنا أن نصحّح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدد محمد ، فيجب علينا في كل حالة من الحالات لا يقوم الدليل القاطع على ضدها أن نتمسك بصلابة بصدقه ، ويجب ألا ننسى أيضاً أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من

---

(٢٣) انظر جواد علي : تاريخ ٧٨/١ وهوامشها .

(٢٤) وهل كانت سايكولوجية الاغتيال ترتكز دائما على حسابات عقلية ؟

(٢٥) تاريخ اليهود ص ١٣٥ — ١٣٧ .

كونه ممكناً ، وانه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه »[٢٦] .

وفضلاً عن هذا ، نجد ان الطابع العلماني ، الوضعي ، للمناهج الغربية في تعاملها مع تاريخنا، أوقع عدداً من المستشرقين في خطأ آخر مفاده ان الرسول ﷺ لم يكن يخطو خطوة واحـــدة وهو يعلم مسبقاً ما الذي يليها !! أي ان نشاطه كانت توحي به الظروف (الراهنة) ومتطلباتها ولوازمها . وابرز مثل في هذا المجال ما ذكره (فلهاوزن) وعدد من رفاقه حول قومية الحركة الاسلامية في عصرها المكي ، وانها لم تنتقل إلى المرحلة العالمية – في العصر المدني – إلا بعد أن أتاحت لها (الظروف) ذلك ، ولم يكن الرسول ﷺ ليفكر بذلك من قبل ، وما قالوه حول اعتماد الرسول ﷺ أسلوب (اللاعنف) في العصر المكي وتحوله إلى القوة بعد أن شكل دولة في المدينة وتجمع حوله المقاتلون « لقد كان في وسع محمد – يقول فلهاوزن – من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التي ترسمها رابطة الدم ، أن يحطم رابطة الدم هـذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها ، ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة ، هذا هو الذي جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب عنها ، ولكن محمداً لم يرد ذلك . ومن الجائز أيضاً انـــه لم يكن يستطيع أن يتصور امكان رابطة دينيـة في حدود غير حدود رابطة الدم »[٢٧] .

وفي مكان آخر يقول « وليس ثَمّ مـا يدعو الانسان لأن يعيب عليه – أي محمد – انه حقق انشاء مملكة الله في الأرض على الأساس الطبيعي الذي وجده أمامه ، فهو وإن كانت الضرورات العملية ، في كثير من الأحيان، قد اضطرته أو هي انحرفت به إلى استعمال وسائل غير مقدّسة ، من غير أن يسند ذلك إلا إلى الله ، فلا يسوغ للمؤرخ من أجل ذلك أن يعتبره منافقاً »[٢٨] .

---

(٢٦) محمد في مكة ص ٩٤ .
(٢٧) الدولة العربية وسقوطها ص ٤ .
(٢٨) المصدر السابق ص ٢٢ .

ويرفض (سير توماس ارنولد) في كتابه (الدعوة إلى الاسلام) هذه الرؤية الخاطئة فيقول « من الغريب أن ينكر بعض المؤرخين ان الاسلام قد قصد به مؤسسه في بادىء الأمر أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الآيات البيّنات[٢٩] .. ومن بينهم السير وليم موير إذ يقول (إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد ، وان هذه الفكرة ، على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها ، لم يفكر فيها محمد نفسه ، وعلى فرض أنه فكر فيها ، فقد كانت الفكرة غامضة فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب ، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها. وأن محمداً لم يوجه دعوته، منذ بعث إلى أن مات ، الا للعرب دون غيرهم . وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست ، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك فانما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج »[٣٠] .

وفي مكان آخر يقول أرنولد« لم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلادالعرب بل إن للعالم أجمع نصيباً فيها ، ولم يكن هناك غير إله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى اليه الناس كافة »[٣١] .

ولم يقف أرنولد وحده بمواجهة هذا الخطأ الواضح إنما هناك كولد زيهر[٣٢] ونولدكه[٣٣] وسخاو[٣٤] الذي يؤكد « ان الرسالة الإلهية ليست مقصورة على العرب ، بل إن إرادة الله تشمل جميع المخلوقات ، ومعنى ذلك خضوع الإنسانية كلها خضوعاً مطلقاً . وقد كان لمحمد بوصفه رسولاً من الله ، حق المطالبة بهذه

---

(٢٩) يستشهد ارنولد بالآيات التالية : سورة ٣٦ اية ٦٩ — ٧٠ سورة ٢١ اية ١٠٧ سورة ٢٥ اية ١ سورة ٢٤ اية ٧ سورة ٦١ اية ٩ ... الخ .

(٣٠) The Caliphate: pp. 43-44. وكايتاني آخر من يؤكد هذا الرأي : Annali dell Islam: vol.V.pp.323-324 عن ارنولد : الدعوة الى الاسلام هامش٢ ص٤٩-٥٠ .

(٣١) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٣٢) عن ارنولد : الدعوة ، هامش ١ ص ٤٨. vorles ungen uber den lslam,p,25.

(٣٣) عن المصدر السابق ، نفس الصفحة والهامش . WZKM, vol. XXi, pp.307-308.

(٣٤) عن المصدر السابق ، نفس الصفحة والهامش .

الطاعة ، وقد كان عليه أن يطالب بها ، وهذا ما ظهر من أول الأمر جزء لا ينفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادىء ... »[٣٥].

ويرفض أرنولد الخطأ الآخر الذي يرى أن محمداً قد تحوّل إلى القوة بمجرد أن واتته الظروف، وهو رأي قد صرّح به – نقلاً عن فلهاوزن– بعض الباحثين ولا سيما ميور عندما تحدث عن مذبحة بني قريظة فقال « إن الدعائم التي سار عليها محمد قدماً كانت سياسية محضة ، إذ أنه لم يكن قد أقر حتى ذلك الحين طريقة إكراه الناس على اعتناق الإسلام أو معاقبتهم على رفضه .. »[٣٦] .. إذ يقول أرنولد « إنما المهم أن نتبين كيف أن محمداً ، عندما رأى أنه على رأس جماعة مسلّحة من اتباعه لم يتحوّل دفعه واحدة ، كما قد يريدنا البعض على الاعتقاد ، من داعية مسالم إلى متعصّب يحمل سيفه بيده ويفرض دينه على كل من استطاع ، وقد أكّد الكتّاب الاوروبيون على ذلك مراراً »[٣٧] .

إلا أن ارنولد لم ينج من الوقوع في الخطأ نفسه عندما يقول « كانت رغبة محمد ترمي إلى تأسيس دين جديد ، وقد نجح في هذا السبيل ، ولكنه في الوقت نفسه أقام نظاماً سياسياً له صفة جديدة متميزة تميزاً تاماً . وكانت رغبته بادىء الأمر مقصورة على توجيه بني وطنه إلى الاعتقاد بوحدانية الله »[٣٨] .

غير ان أسوأ نموذج يمكن أن نجده لهذا الانحراف المنهجي ، حول مسألة تأثر الرسول ﷺ بالظروف الراهنة، وتحركه وفق مستلزماتها ، ما ذكره بندلي جوزي ، أحد رواد التفسير المادّي للتاريخ الاسلامي ، في كتابه (من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام) حيث يقول « إن سياسة النبي مع المكيين قد تغيّرت كثيراً في المدينة تحت تأثير عوامل جديدة ولأسباب عديدة أوجدتها الظروف وأدى إليها الاختيار وحب النبي لوطنه الأصلي وأهله وذويه إلى غير

(٣٥) ارنولد : الدعوة ، هامش ١ ص ٤٨ .
(٣٦) المصدر السابق ، هامش ١ ص ٥٤ .
(٣٧) المصدر السابق ، ص ٥٣ — ٥٤ .
(٣٨) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

ذلك من الانفعالات النفسية والعوامل السياسية التي ظهرت بعد موقعتي بدر وأحد وحصار المدينة ، وكان من نتائجها ان النبي أخذ يلطّف من سياسته نحو إخوانه المكيين ، كما أن اصحاب السلطة في مكة رأوا – بعد ما أصابهم في موقعة بدر ، وبعد ما لحق بتجارتهم من الخسائر – أن يتساهلوا في أمور كثيرة مع النبي على شروط تضمن لهم بقاء الكعبة والحج وعكاظ على ما كانت عليه قبل الاسلام ، وأن يشملهم بالعفو – إلا بعض أشخاص – ويشركهم في عمله الجديد الذي أخذوا يتوقعون منـــه خيراً لأنفسهم . وربما كان من شروط التفاهم[٣٩] أن يبقى النبي في المدينة وأن لا يتعرض في كلامه لأمورهم المالية ، فكانت الحديبية ، وسياسة (تأليف القلوب) أو بعبارة أخرى سياسة التسامح والتساهل المتبادل (Compromis) فصار الناس(يدخلون في دين الله أفواجاً) لا عن اعتقاد بصحة الدين الجديد الذي لم يكونوا يعرفون عنه إلا الشيء القليل ، بل عن رغبة في التقرب من أصحاب السلطة الجدد ، وحفظاً لمراكزهم القديمة وثروتهم المجموعة في أجيال . يخيل لي – يقول جوزي – ان من جملة الشروط التي اتفق عليها الطرفان في الحديبية أو في زمـــان ومكان آخرين ، ان يكفّ النبي عـــن الطعن في الملأ المكي ، وان لا يحرّض صعاليك العاصمة الحجازية وأرقاءها عليه ، وهذا – على ما يظهر لي – أحد أهم أسباب خلو السور المدنية ، ولا سيا تلك التي نزلت في الدور الأخير ، من العبارات القارصة والطعن في سكان مكة[٤٠] . وهناك سبب آخر لا يقل خطورة عن الذي ذكرناه الآن ، وهو ان حالة النبي الاجتماعية في المدينة تغيرت – كما هو معلوم – تغيراً ظاهراً أدى إلى تغيير نفسيته. فكان من نتائج هذا التغيير ومن الأسباب التي ذكرنا بعضها

---

(٣٩) اي تفاهم هذا ؟ وفي اي مكان وزمان تم ؟ واية رواية اوردته ؟ وفي اي مصدر علـــى الاطـــلاق ؟

(٤٠) هذه غاية ما يمكن ان يصل اليه مؤرخ من خروج على مستلزمـــات البحث العلمي ، وعبث صريح بالوقائع التاريخية ، والا ففي اي زمان ومكان وضعت هذه الشروط ؟ واين هي من شروط صلح الحديبيه التي تواترت بنصوصها الحرفية في كافـــة المصادر والمراجـــع ؟

وغيرها مما لم نذكر (؟) ان بعض اصلاحات النبي الاجتماعية والدينية جاءت مبتورة ، وفيها شيء مما يدعوه الأوروبيون: التساهل »[41].

ويمضي بندلي جوزي إلى القول بأن « الدور المكي كان دور تمهيد واستعداد ، دور بثّ دعوة جديدة بين طبقات الأمة ، دور حرب ونزاع كلامي بين رجل ثابت في مبادئه ، مخلص في عمله، وبين طبقة من الناس شعرت بالخطر على ثروتها وزعامتها في البلاد ، فهبّت تقاوم ذلك الرجل وتناوئه ، دور جهود وأحلام لو تحققت كلها لقلبت البلاد رأساً على عقب . ما أجمل هذا الدور وما أعظمه وما أحلى تلك الأحلام والمساعي التي بذلت في تحقيقها !! وأما الدور الثاني فكان دور عمل وتنظيم ، ودور حروب وافتتاحات ، ودور سياسة ومكاشفات أدّت إلى تساهل من الطرفين . ومعنى التساهل في مثل هذه الثورات الاجتماعية هو التنازل عن بعض مطالب أو مبادىء ، أو التلطّف في الطلب ، والرجوع عن بعض الأفكار ، أو وضعها في قالب يرضاه الفريقان . وهذا ما كان من أمر النبي العربي،ورئيس جمهورية مكة (أبو سفيان)الخبير المحنك الذي كان يتكلم بلسان الملأ المكي ، هذا يعترف بسيادة النبي الروحية والعالمية ، ويهجر الأوثان ، ويؤدي الزكاة ويقيم الصلاة ، وذاك يتعهد أن تبقى مكة مركز البلاد العربية الديني وأن يجعل لأعيـــان مكة وقادة أفكارها حظاً في إدارة المملكة أو الجمهورية الروحية الجديدة، وأن يتركهم وشأنهم يتاجرون ويعيشون كما يشاؤون أما الفريق الثالث (أي الفقراء) ، وهو الطرف الذي استمرت الحرب لأجله ، وظهرت الدعوة لتحسين أحواله ، فقد أرضوه في بادىء الامر بشيء مـــن الصدقات والزكاة ثم نسوه أو تناسوه بعد وفاة النبي وخلفائه الاولين ، فرجع إلى حالته الاولى بل إلى ما هو أسوأ منها »[42] .

إن فهم السيرة لا يمكن أن يتم إلا وفـــق نظرة شمولية تدرس حركة

(٤١) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ٤٩ — ٥٠ .
(٤٢) المصدر السابق ، ص ٥١ — ٥٣ .

الاسلام كخطوات في برنامج شامل مرسوم في علم الله ، ومحدّد في قرآنه ، وأن الرسول ﷺ لم يكن سوى منفّذ لهذا البرنامج بأسلوب يعتمد على قدراته واخلاقيته وذكائه وإمكاناته الفذة في التخطيط والتنفيذ .. ورغم ان القرآن الكريم نزل منجما ، وراحت آياته تنزل على مكث لكي تلامس الأحداث وتعلق عليها (بعد وقوعها) إلا أنه بمجموعه كمبدأ (أيديولوجية) لا يخرج عن نطاق كونه برنامجاً إلهياً شاملاً ترتبط ممارساته الجزئية بكليّات شاملة محددة سلفاً في علم الله . ومن ثم فان (الظروف الراهنة) ليست هي الحتمية الموقتة التي تحدد مسار الإسلام وخطى رسوله إنما هناك (الهدف) الذي يفرض أحياناً (وقفة) ضد الأعراف والظروف و(تمرداً) عليها و(انقلاباً) شاملا على مواضعاتها ، وهذا ما يبدو واضحاً منذ أول لحظة ، في الشعار الحاسم الذي طرحه الرسول ﷺ بوجه الجاهلية (لا إله إلا الله !!) ، فأي ظرف راهن ، موقوت ،أوحى بهذا الشعار الانقلابي الشامل الذي جاء يدمر على الوجود الجاهلي جلّ قيمه وأهدافه ومعالمه ومفاهيمه وعاداته وتقاليده ؟!

إن توماس أرنولد يشير إلى ذلك بوضوح عندما يقول « لا يعزب عن البال كيف ظهر جلياً أن الاسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية ، وكيف كانت تتعارض والمثل العليا في هذين المجتمعين تعارضاً تاماً. ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب وإنما كان انقلاباً كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل ... والواقع أن المبادىء الأساسية في دعوة محمد كانت تعارض كثيراً ما كان ينظر اليه العرب نظرة ملؤها التقدير والاجلال حتى ذلك الحين ، كما أنها كانت تعلّم حديثي العهد بالإسلام أن يعدوا من الفضائل صفات كانوا قبل اسلامهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار»[٤٣].

إن القرآن الكريم كان قضية فوقية جاءت آياته لتقود الإنسان في كل زمان

---

(٤٣) الدعوة الى الاسلام ص ٦١ — ٦٢ ، وانظر بالتفصيل غولدتسيهر في مؤلفه :
Muhammedanische Studien, Vol. i.

ومكان إلى عصر جديد ، ولم يكن (ينفعل) انفعالاً موقتاً بالوضع السائد ، سلباً وإيجاباً ، كما يتصور معظم المستشرقين مسيحيين وماركسيين ، وإنما كان ينظر نظرة شمولية بعيدة كل البعد عن ردّ الفعل المباشر ، وهذا هو الذي يفسر لنا الكثير من الأخطاء التي مارستها مناهج البحث الغربية .

ونحن لا نطلب من الغربيين هنا أن يؤمنوا أن القرآن منزل من السماء وأن محمداً رسول .. وإنما نطلب أن يكونوا أكثر تجرّداً وموضوعية فينظروا إلى سيرة الرسول ﷺ كوحدة عضوية متكاملة، وإلى القرآن الكريم كبرنامج Ideology مترابط، تعلو معطياته على الظروف الموقوتة زماناً ومكاناً، رغم ملامساتها اليومية المباشرة للوقائع الزمانية والمكانية، ولكنها الملامسة التي تنبثق عنها قيم ودلالات ذات طابع شمولي ما كان للمستشرقين أن يغفلوا عن أبعادها !!

***

وكما كشف المستشرقون ، بتعمقهم ونفاذهم وإحاطتهم ، النقاب عن الكثير من الجوانب المضطربة الغامضة في تاريخنا الإسلامي عامة ، بما فيه سيرة الرسول ﷺ ، إلا أنهم – بأخطائهم المنهجية آنفة الذكر – طرحوا الكثير من النتائج والمعطيات الموضوعية الخاطئة ، وهذا أمر طبيعي ، فالخطأ لا ينتج إلاّ الخطأ ، والبعد عن الموضوعية ، لا يقود إلا إلى نتائج لا تحمل من روح العلم والجدية إلا قليلاً .

وليس هنا مجال عرض هذه المعطيات والنتائج ، ومناقشتها، فلهذا مجال آخر كما سبق وأن ذكرنا ... إلاّ أننا نطرح فيما يلي نماذج محدودة فحسب من حصاد ضخم يمكن أن يجتنيه كل دارس بتأن وروّية ، لما كتبوه عن حياة الرسول ﷺ وهو حصاد يحمل في ثنـــاياه عناصر تناقضه واضطرابه وخروجه عن البحث المنهجي الدقيق .

يقول بروكلمان: « في هذه الأثناء كان مسلمو مكة، على ما تقول الروايات ،

يعانون أزمة جديدة . ذلك أن حديث محمد عن اسرائه العجيب ، برفقة جبريل إلى بيت المقدس، ومن ثم إلى السماء، كان قد أوقع موجة من الشك في نفوس بعض المؤمنين، ولكن أبا بكر ضرب بإيمانه الراسخ مثلا طيباً لهؤلاء المتشككين فزايلتهم الريب والظنون . ومن الجائز أن تكون هذه الرحلة السماوية التي كثيراً ما أشير اليها بعد في الأساطير الغريبة التي خلفتها لنا الكتب الإسلامية جميعها ، أقدم من ذلك عهداً ، ولعلها ترجع إلى الأيام الأولى للبعثة النبوية . وأمثال هذه الرؤى في أثناء تهجّد العرّاف معروفة ثابتة لدى بعض الشعوب البدائية »[٤٤] .

« وقد حالت الظروف بين الرسول وبين الشروع في شن حملة نظامية مباشرة على المشركين . فقد كانت فكرة الشرف العربية القديمـة تمسك المهاجرين عن محاربة إخوانهم من قريش في حين كان المدنيون غير شديدي الميل إلى تعكير صفو السلم مع جيرانهم الأقوياء ... حتى إذا كان شهر رجب الحرام وجه جماعة من الغزاة بأوامر سرّية ، فوفقت إلى مباغتة قافـلة بالعروض ، كانت حاميتها العسكرية تتقدمها مطمئنة إلى حرمة الشهر ، فأصابت غنائم عظيمة عادت بهـا إلى المدينة . ولكن هذا النقض للقانون الخلقي القبـلي لم يلبث أن أثار عاصفة من الاستنكار في المدينة نفسها ، فما كان من محمد إلا أن أنكر صنيع أتباعه ، الذي تم وفقاً لرغباته بلا خلاف ، وعزاه إلى سوء فهم لأوامره . ولم يجرؤ على اعلان شرعية الحرب ضد المشركين ، وتوزيع الغنائم حتى في الشهر الحرام ، إلا في آيات متأخرة، بعد أن كانت الغنائم العظيمة قد أثارت مطامعه إثارة كافية »[٤٥] .

« وتأثرت اتجاهات النبي الدينية ، في الأيام الأولى من اقامته في المدينـة ، بالصلة التي كانت بينه وبين اليهود ، وأغلب الظن انه كان يرجو ، عقب وصوله إلى المدينة ، أن يدخل اليهود في دينه ، وهكذا حاول ان يكسبهم عن طريق تكييف شعائر الاسلام بحيث تتفق وشعائرهم في بعض النـاحي .. ولم يطل

---

(٤٤) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٤٤ .
(٤٥) المصدر السابق ص ٤٨ — ٤٩ .

العهد بمحمد حتى شجر النزاع بينه وبين أحبار اليهود ، فالواقع انهم على الرغم مما تم لهم من علم هزيل في تلك البقعة النائيـــة ، كانوا يفوقون النبي الأمي في المعلومات الوضعية وفي حدة الادراك . فالفجوات المختلفة التي تكشف عنهـا علمه بالعهد القديم والتي كان قد تركها عارية في السور المكية ، لم يعد من الممكن أن تظل خافية عليهم . ولكن إشارتهم الساخرة إلى هذه الفجوات كانت أعجز من أن تزعزع إيمانه بصحّة ما يوحى اليه » (٤٦) .

« وكان على محمد أن يعوّض خسارة (أحد) التي أصابت مجده العسكري ، من طريق آخر ، ففكر في القضاء على اليهود ، فهـاجم بني النضير لسبب واهٍ » (٤٧) .

« وفي سنة ٦٢٨ (= ٧ هـ) حـــاول النبي أن يعوض فشله الظاهري في الحديبية فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خيبر » (٤٨) .

دوزي : « كان محمد يشاطر بني جلدته نظرتهم (القائمة على الاحتقار) إلى اليمنيين والزراع حتى ليؤثر عنه انه سمع رجلا ينشد بيتاً يشير فيه إلى انه حميري وليس أسلافه من ربيعة ولا مضر ، فقال له ما معناه : أفّ لك ، إن هذا نسب يبعدك عن الله ورسوله . ويقال أيضاً انـه رأى محراثاً في بيت رجل من أهل المدينة ، فذكر له أنه ما دخل دار قوم إلا دخلها الذل . إلا انه لما يئس

---

(٤٦) المصدر السابق ص ٤٧ ، ولا بد من الاشارة هنا الى تعليق لمترجمي الكتاب : البعلبكي وفارس ، ورد بصدد هذه العبارة ، ومفاده ان الرســول (ص) قد علم ان التــوراة مبدلة لان فرق اليهود كانت مختلفة ، وان السامريين (اليهود الذين يسكنون اليـوم في نابلس — قبل قيام اسرائيل —) يقولون ان لديهم توراة هي الصحيحة ، بينما التــوراة التي يملكها سائر اليهود غير صحيحة . ثم ان في العهد القديم اساطير كثيرة ، فاذا كان محمد قد رفضها فانه قد فعل ذلك على اساس علمي و (رفض الخطأ ليس جهلا) : المترجمان ، حاشية ١ ص ٤٧ .

(٤٧) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٤٨) المصدر السابق ص ٥٦ ، وما لبث برو كلمان ان ذكر في نفس الصفحة ان المستقبل ما عتم ان برر موقف النبي في الحديبية ؟!

من حمل اهل جنسه من التجار والبدو على اعتناق مبادئه ، ولما رأى انه مهدد في حياته منذ أن مات عمه وحاميه أبو طالب ، فقد اضطر لتناسي هذه النظرة وقبول كل مساعدة من أي جانب صدرت عنه . فرحب بوفود عرب المدينـة الذين عطفوا عليه وأكرموه لما أنزل به المكيون من الاضطهاد والتنكيل»[٤٩].

« وطال أمد النضال بينهم وبـين مشركي مكة حتى استغرق ثماني سنوات نشرت خلالها جيوش المسلمين الرعب في شتى بقاع شبه الجزيرة مما حمل كثيراً من القبائـل على اعتناق الدين الجديد ... وانتهى الأمر أخيراً بفتح مكة ، الذي يصوّر الذروة التي آلت اليها قوة محمد . ففي هذا اليوم تطلّع أهل المدينة للأخذ بثأرهم من هؤلاء التجار المتكبرين الساخرين بهم .. غير أن أحلامهم تلاشت إذ أمر الرسول قواده باصطناع الرأفة البالغة ، وساعده المكيون — صامتين — في تحطيم أصنامهم المنصوبة في الكعبة .. تعبدها شتى القبائل التي اعترفت بمحمـد رسولاً لله ، والغيظ يملأ قلبها ، وكتمت في نفسها الانتقام إلى يوم تسنح لها فيه الفرصة من هؤلاء الأجلاف : يهود المدينـة (!!) الذين دنسوا الشرف بغزوهم لبلدهم . وبعد أن تم فتح مكة رأت القبائل الباقيـــة على شركها عدم جدوى المقاومة واعتنقت الإسلام ، تحت عامل الخوف من حرب مهلكة ، إذ كان قواد محمد يدعون للدين حاملين القرآن في يد والسيف في أخرى »[٥٠] .

فلهاوزن: «ولم يبقَ الإسلام على تسامحه — بعد بدر — بل شرع في الأخذ بسياسة الإرهاب في داخل المدينة ، وكانت اثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول .. أما اليهود فقد حاول أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد . وفي غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية ، أو قضى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة حيث كانوا يكوّنون جماعات متماسكة كالقبائل العربية ، وقد التمس لذلك أسباباً واهية ... »[٥١] .

---

(٤٩) تاريخ مسلمي الاندلس ٢٧/١ .

(٥٠) المصدر السابق ٢٧/١ — ٢٨ .

(٥١) الدولة العربية وسقوطها ص ١٥ — ١٦ .

مركوليوث : « عاش محمد هذه السنين الست ، بعد هجرته إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب ، ولكن نهب أهل مكة قـــد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة . فقد كان هناك على أي حـال سبب ما – حقيقيا كان أم مصطنعاً – يدعو إلى انتقامه منهم ، إلا أن خيبر التي تبعد عن المدينة كل هذا البعد لم يرتكب أهلها في حقه ولا في حق اتباعه خطأ يعتبر تعدياً منهم جميعاً ، لأن قتل أحدهم رسول محمد لا يصح أن يكون ذريعة للانتقام.. وهذا يبين لنا ذلك التطور العظيم الذي طرأ على سياسة محمد ، ففي أيامه الأولى في المدينة أعلن معاملة اليهود كمعاملة المسلـمين ، لكنه الآن (بعد سنة ٦ هـ) أصبح يخالف تماماً موقفه ذاك . فقد أصبح مجرد القول بأن جماعة ما غير مسلمة يعتبر كافياً لشن الغارة عليها ... وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التي سيطرت على نفس محمد ، والتي دفعته إلى شن غارات متتابعة ، كما سيطرت على نفس الاسكندر من قبل ونابليون من بعد ... ان استيلاء محمد على خيبر يبين لنا إلى أي حد قد أصبح الإسلام خطراً على العالم »[٥٢] .

نولدكه : « لو أن القبائل العربية استطاعت أن تعقد بينها محالفات حربية دقيقة ضد محمد للدفاع عن طقوسهم وشعائرهم الدينية ، والذود عن استقلالهم ، لأصبح جهاد محمد ضدهم غير مجدٍ ، إلا أن عجز العربي عـــن أن يجمع شتات القبائل المتفرقة قد سمح له أن يخضعهم لدينه ، القبيلة تلو الأخرى ، وأن ينتصر عليهم بكل وسيلة ، فتـارة بالقوة والقهر ، وتارة بالمحالفات الودية والوسائل السلمية »[٥٣] .

« كان النبي لا يتحرج في اختيار الوسائل التي تضمن له النجاح والظفر في الوقت الذي كان خيالياً ، ولم يكن له سلطان على خياله وعواطفه »[٥٤] .

---

(٥٢) مرغوليوث : محمد وقيام الاسلام ص ٢٦٢ – ٢٦٣ عن فتحي عثمـان : اضواء علـى التاريخ الاسلامي ص ١٦٩ – ١٧٠ .

(٥٣) تاريخ العالم للمؤرخين ١١/٨ عن فتحي عثمان : اضواء ص ١٧٠ .

(٥٤) عن فتحي عثمان : اضواء ص ١٧١ – ١٧٢ .

بندلي جوزي[٥٥] : « لا شك أن النبي العربي لم يقصد بأقواله وأفعاله في مكة والمدينة إلى أن يستأصل أسباب الشر الاجتماعي ، ويقتل جميع جراثيمه ، كما يحاول أن يفعل اليوم جماعة الاشتراكيين على اختلاف أسمائهم ونزعاتهم . بل كانت غايته الكبرى أن يخفف من وطأة تلك الأمراض على بعض طبقات الناس ممن خلقوا بعد قسمة الأرزاق أو وقعوا في الفقر والرق لأسباب لم يقوَ على مقاومتها . وإلا فلو أراد أن يقتل جراثيم الأمراض الاجتماعية كلها لكان لجأ بعد أن أصبح صاحب الأمر والنهي في جزيرة العرب ، إلى وسائل غير تلك التي ذكرناها . وما مثل النبي من هذا الوجه إلا كمثل سائر الأنبياء الذين سبقوه ، ولا سيما أنبياء بني اسرائيل ، أي انه فضّل استعمال الوسائل الأدبية — إلا فيما ندر من الظروف — على غيرها من الطرق التي لجأ اليها بعصرنا بعض مصلحي وسياسي أوروبا كلنين وموسوليني وغيرهما .. وعليه يمكننا أن نقول إن محمداً أجاد في وصف الأمراض الاجتماعية العربية وتعدادها أكثر منه في علاجها واستئصال جراثيمها .. »[٥٦] .

مونتكمري وات : « إن زيارة محمد لحراء ، وهو جبل قريب من مكة ، بصحبة عائلته أو بدونها ، ليست مستحيلة ، ويمكن أن يكون ذلك للفرار من أتون المدينة خلال فصل الصيف للذين لا يستطيعون التوجه إلى الطائف، ويمكن للتأثير اليهودي — المسيحي ولا سيما مثل الرهبان ، أو تجربة شخصية لمحمد ، أن يكون قد أثار فيه الحاجة للخلوة والرغبة فيها »[٥٧] .

« تعتبر كلمة ناموس عادة مشتقة من كلمة Nomos اليونانية ، وهي تعني

---

(٥٥) بندلي جوزي (١٨٧١ — ١٩٤٢) من اهل القدس ، تخصص في قازان باللغات السامية والدراسات الشرقية ، وتولى التدريس في معهد الرهبان ثم في جامعة قازان ثم في جامعة باو الى ان توفي ، وقد عده المستشرقون الروس مرجعا من مراجعهم : عن كتاب نجيب العقيقي : المستشرقون ، جزء ٣ ص ٩٣١ .

(٥٦) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ٤٤ — ٤٥ .

(٥٧) محمد في مكة ص ٨١ .

اذن (الشريعة) أو (الكتب المقدسة) ، وهذا يتفق تماماً مع ذكر موسى . وقد أبدى ورقة ملاحظة ، بعد أن أخذ محمد يتلقى الوحي ، وهي تعني ان ما نزل على محمد مماثل لكتب اليهود والمسيحيين المقدسة . كما أن محمداً سمع ما يوهمه بأنه مؤسس أمة ومشرع لها وإذا كان محمد ، كما يبدو ، متردداً بطبعه ، فان هذا التشجيع باقامة بناء ضخم على تجاربه يرتدي أكبر أهمية لتطوره الداخلي.. وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيراً بافكار ورقة »[٥٨] .

وفي مكان آخر من كتاب وات نقرأ هذه العبارات « ادعى كايتاني أن سكان المدينة رضموا بمحمد ككاهن أعلى فقط لأنهم كانوا بحاجة إلى الاستقرار الداخلي في المدينة ، وليس لأنهم يقبلون تعاليم القرآن بأكملها . وبعضهم كانوا مسلمين حقاً .. ومن الممكن أيضاً أن يكون محمد ، نوعاً ما ، حاملاً للأفكار اليهودية المسيحية في القرآن ، بألفاظ عربية جاهلية ، ولهذا اساء فهمها – كما يقول كايتاني – ولكن المدنيين الذين كانوا يدافعون عن محمد كانوا يفهمون مبادىء الإسلام الأساسية ويؤمنون بها . فالله خالق الكون وسيّد العالم ، وهو الحكم في اليوم الأخير ، ومحمد حامل رسالة الله إلى العرب . وكان المسلمون يقيمون مجتمعاً جديداً في المدينة ، وكان هذا المجتمع يتطلب أساساً فكرياً واضحاً ومحدداً . ومن الممكن أن يكون القليل من المسلمين في المدينة يدفعه حماس ديني قوي ولكنهم كانوا جميعاً مؤمنين بالروابط الدينية ليشاركوا في بناء مجتمع يقوم على هذه الروابط بدلاً من روابط النسب »[٥٩] .

ويحضرنا ، ونحن نعرض لتناقض المستشرقين في مسألة الأخذ عن الصحف القديمة ، قول جواد علي بهذا الصدد « لا أهمية ولا معنى لقول شبرنكر ان محمداً قرأ وأخذ من مصدر آخر هو (صحف ابراهيم) المذكورة في القرآن الكريم . وقد ردّ على هذا الرأي نولدكه بقوله (لو فرضنا أن محمداً أخذ من هذه الصحف

---

(٥٨) المصدر السابق ص ٩٢ — ٩٣ .
(٥٩) المصدر السابق ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

ونسبه لنفسه وادعاه على أنه وحي أوحى الله به اليه ، لو فرضنا ذلك ، فان من غير المعقول عندئذ ذكر محمد لتلك الصحف في القرآن، لأن ذكرها فيه معناه ارشاد الناس الى المورد الذي أخذ منه واتهام نفسه، ولهذا لا يعقل الأخذ بكلام شپرنكر »[٦٠] .

ونمضي مع وات لنراه يقول في مكان آخر « لم يكن الاسلام .. حركة رجال من طبقة مستضعفة من حثالة الناس أو من طفيليين صماليك حطوا رحالهم في مكة ، ولم يستمد الاسلام قوته من رجال الدرجة السفلى من السلّم الاجتماعي، بل من أولئك الذين كانوا في الوسط وأدركوا الفرق بينهم وبين أصحاب الامتيازات في الذروة ، فأخذوا يقنعون أنفسهم بأنهم أقل امتيازاً منهم ، فنشأ صراع ليس بين الملاكين والمعوزين، بل بين الملاكين والذين هم أقل منهم »[٦١] .

« كان الأشخاص الذين اتصل بهم محمـــد (في الطائف) ، وهم عبد ياليل واخوته ، ينتمون لقبيلة عمرو بن عمير المنتمية للأحلاف ، فكانوا بذلك أنصار قريش ،وربما راود محمداً الأمل باستمالتهم إليه بالتلويح لهم بتحريرهم من سيطرة مخزوم المالية »[٦٢] .

***

ونتوقف عن سرد هذه (النماذج) للأخطاء (الموضوعية) التي قادت إليها الثغرات العديدة في (مناهج) البحث الاستشراقية لسيرة الرسول ﷺ ، فهي كثيرة لا يحصيها عدّ .. وننتقل — من ثمّ — لكي نعرض لهذه السيرة نفسها ،

---

(٦٠) تاريخ العرب في الاسلام ١٤٢/١ — ١٤٣ ، وليس شپرنكر اول من صرح بهـذا القول ، بل قالت به قريش ايضا في مبدا نزول الوحي : المصدر السابق ص ١٤٣ ، وانظر حول مسالة (أمية) الرسول (ص) وما دار حولها من مناقشات : جواد علي : المصدر السابق ص ١٣٦ — ١٤٣ .

(٦١) محمد في مكة ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٦٢) المصدر السابق ص ٢٢١ عن لامانس : الطائف ص ٢١٢ ، ٢١٧ .

وفق (منهج) أقرب ما يكون(لروح) هذه السيرة و (بنيتها) و (معطياتها) و (أرضيتها التاريخية) و (مصادرها الأساسية) .

أستميح القارىء عذراً ان قصّرت أو أخطأت، وأنتظر الفرصة التي يتيحها لي لتلافي التقصير وتسديد الخطأ .. فكل بنى آدم خطّاء ، وخير الخطائين التوابون .. وصدق رسول الله .

عماد الدين خليل

الفصل الأول

محمد ﷺ بين الميلاد والنبوة



١

ولد محمد بن عبد الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل (حوالي سنة ٥٧٠ — ٥٧١ م) لأبوين عريقين في نسبهما ينتمي أحدهما ، وهو عبد الله إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب وتنتمي الأخرى ، وهي آمنة إلى وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ابن كعب حيث تلتقي مع نسب زوجها عبد الله[١] . وكان منبت محمد ﷺ في أسرة لها شأنها بعض ما أعد الله لرسالته من نجاح. فالمجتمع العربي الأول كان يقوم على العصبيات القبلية الحادة ، العصبيات التي تفنى القبيلة كلها دفاعاً عن كرامتها الخاصة وكرامة من يمت اليها[٢] . وقد توفي أبوه ، وهو في بطن أمه ، خلال عودته من تجارة له إلى الشام ، ونظراً إلى ما نعرفه من وجود الأوبئة في يثرب ، ولا سيما وباء الملاريا (حمى يثرب) فلا يستبعد أن يكون هذا المرض هو السبب في وفاة عبد الله في المدينة ودفنه هناك[٣] .

وما أن رأت عينا محمد ﷺ النور حتى أرسلت أمه إلى جده عبد المطلب « إنه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه » ، فجاءه وحمله إلى الكعبة حيث راح

---

(١) ابن هشام : تهذيب السيرة ص ٢٠ — ٢١ ابن سعد : الطبقات ٦١/١/١ — ٦٤ المسعودي مروج الذهب ٢٦٥/٢ — ٢٦٦ ، وانظر عن نسب الرسول واجداده : مونتكمري وات : محمد في مكة ص ٦١ — ٢٦٦ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٢/٢ — و ٢٥٩ وخليفة بن خياط : تاريخ ٨/١ — ٩ البلاذري : انساب الاشراف ٩١/١ — ٩٢ وعن تسمية (محمد) انظر بالتفصيل جواد علي في ٧٥ — ٩٠ .

(٢) محمد الغزالي : فقه السيرة ص ٥٨ .

(٣) جواد علي : تاريخ العرب في الاسلام ص ٩٥ .

يدعو الله ويشكر له ما أعطاه ، ثم أعاده إلى أمه ريثما يلقى مرضعة له ، ووقع اختياره على امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها حليمة بنت أبي ذؤيب [٤] استصحبته معها إلى مضارب بني سعد حيث ظل محمد ﷺ يشب وينمو ، يشرب من لبن مرضعته ويتنفس من هواء الصحراء الطلق ويزداد قوة وصحة وعافية ، ولم يبلغ السنتين من عمره ، حيث فطمته حليمة ، حتى حملته وزوجها إلى أمه في مكة ، وهما أحرص ما يكونان على مكثه فيهم لما كانوا يرون من بركته ، فكلمت حليمة أمه وقالت لها « لو تركت ابنك عندي حتى يغلظ ، فاني أخاف عليه وبأ مكة » ، ولم تزل بها حتى أجابتها إلى طلبها [٥] .

وهناك ، بعد أشهر من عودته إلى مضارب بني سعد ، وقعت حادثة شق الصدر وعاد أخوه من الرضاعة يوماً ، وهو يلهث ، فقال لأمه وأبيه ، وهما يرعيان أغناماً لهما خلف دورهم : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيضاء فاضجعاه وشقّا بطنه ، فهما يسوطانه [٦] ، فخرجت حليمة وزوجها نحوه فوجداه قائماً منتقع الوجه فسألاه : مالك يا بني ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو .. وسرعان ما عادت به حليمة وزوجها إلى خبائهما [٧] . وظن الأب أن الغلام قد أصيب وطلب من زوجته أن تعيده إلى

---

(٤) ابن هشام ص ٢٨ البلاذري : انساب الاشراف ١/٩٣ .

(٥) ابن هشام ص ٣٠ — ٣١ ابن سعد ١/١/٧٠ وانظر
L. Caetani , Annali Dell Islam , vol. I. p. 125, 151.

(٦) اي يحركانه .

(٧) وفي صيغة اخرى للحادث عن انس ان رسول الله (ص) اتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فاخذه فصرعه فشق قلبه فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ... ثم لامه وأعاده الى مكانه . وجاء الغلمان يسعون الى امه — يعني مرضعته — ان محمدا قد قتل فاستقلبوه وهو منتقع اللون (اخرجه مسلم ١/١٠١ — ١٠٢ واحمد ٣ /١٢١) ويرى درمنغم ان هذه (القصة) نشأت عن قول القرآن (الم نشرح لك صدرك ...) وان هذه العملية امر باطني قام على تطهير ذلك القلب وتوسيعه ليتلقى رسالة الله عن حسن نية ويبلغها باخلاص تام ويحتمل عبئها الثقيل (حياة محمد ص ٤٨) .

أهله قبل أن يستفحل به ذلك ويظهر ، فحملته مرضمته وقدمت به إلى أمـــه فأعلمتها أنه قد بلغ ، وأنها قد قضت الذي عليها ، فأخذته أمه حيث ظلت ترعاه في حماية واشراف من جده عبد المطلب.وعندما بلغ السادسة من عمره توفيت أمه بالأبواء ، وهي في طريق عودتها إلى مكة في أعقاب زيارة لأهلهـا من بني عديّ بن النجار قصدت بها أن تزيره اياهم، فتولى أمره جده عبد المطلب الذي كان يقمده إلى جواره في مجلسه في ظل الكعبة ، ويقول لبنيه إذا ما أرادوا ابماده عنه « دعوا ابني ، فوالله إن له لشأناً »ثم يمسح ظهره بيده ويسرّه ما يراه يصنع[٨] .

لم تطل رعاية الجد وعطفه الذي عوّض حفيـده حدب الأب وحنان الام ، إذ ما لبث أن توفي ، ومحمد لم يجاوز الثامنة من عمره فتولى أمره عمه أبو طالب، لانه وعبد الله والد الرسول ﷺ كانا لأم واحدة[٩] ، ولم يكن أبو طالب بالرجل الموفور المال ، وكان يعيل عدداً من الأبناء الامر الذي اضطر محمداً ﷺ أن يعينه في كسب قوته حسب طاقته ، فكان يرعى له الاغنام وعندما قرر عمه الخروج في تجارة إلى الشام – وكان قد بلغ آنذاك التاسعة من عمره – رجاه أن يصحبه معه ، فرق له أبو طالب وقال « والله لاخرجن بـــه معي ، ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً »[١٠] .

لدى وصول المركب مدينة بصرى الواقعة على طريق التجارة إلى الشام ،وهي أبعد مكان رآه الرسول ﷺ في حياته وأقصى موقع زاره في بلاده الشام[١١] نلتقي برواية طرحها عدد من مؤرخي السيرة القدماء دون نقد ولا تمحيص تقول انهم

---

(٨) ابن هشام ٣١ – ٣٢ ابن سعد ٧٠/١/١ – ٧١ ، ٧٣ – ٧٤ ، المسعودي : مروج الذهب ٢٧٥/٢ البلاذري : انساب ٨١/١ – ٨٢ ، ٩٤ – ٩٥ اليعقوبي : تاريخ ٧/٢ ، ٩ انظر : Caetani Op. cit; 1-131,156

(٩) الطبري : تاريـخ ٢٧٧/٢ .

(١٠) ابن هشام ٣٣ – ٣٤ الطبري : تاريخ ٢٧٧/٢ ابن سعد ٧٥/١/١ – ٧٦ ، ٧٩ – ٨٠ البلاذري : انساب ٩٦/١ .

(١١) جواد علي : تاريخ العرب ص ١٠٦ .

لما نزلوا قريباً من بصرى دعاهم إلى الطعام راهب يدعى (بحيرى) منقطع إلى صومعته يدرس فيها التوراة والانجيل ويعبد الله..فلما حضروا جميعاً راح بحيرى يركز أنظاره على الصبيّ ويلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده كأنه كان يبحث ويمعن النظر في الصفات والملامح التي تحدثت عنها التوراة والانجيل في النبي الذي حان موعد ظهوره . حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام اليه بحيرى وقال له: يا غلام ،أسألك بحق اللاّت والعزّى الاّ ما أخبرتني عما أسألك عنه.فأجابه محمد: لاتسألني باللات والعزّى فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما . قال بحيرى : فبالله الا ما أخبرتني عما أسألك عنه . قال محمد : سلني ما بدا لك . فجعل بحيرى يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره ، فجعل محمد يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفاته..فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابن أخي .. قال : ما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به .قال بحيرى صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنّه شراً فانه كائن لابن أخيك شأن عظيم[١٢] .

كان محمد ﷺ قد قام منذ صباه ــ لمساعدة عمه الفقير كثير العيال ــ برعي الاغنام لاهله وأهل مكة، كما قام بأعمال أخرى.. ولكن الرعي وهذه المساعدات لم تفده وقد بلغ هذا العمر ، ولهذا كان أبو طالب يفكر في رزق يسوقه الله اليه يكون فيه أمن وطمأنينة له وكان ذلك عن طريق البيع والشراء والتجارة على عادة أغلب أهـــل مكة في ذلك العهد ، وقد تكسّب محمد بالاشتغال بالبيع

(١٢)ابن هشام ص ٣٤ ــ ٣٦ الطبري : تاريخ ٢٧٧/٢ ــ ٢٧٩ ابن سعد ٧٦/١/١ البلاذري : انساب ٩٦/١ ــ ٩٧ المسعودي : مروج ٢٨٦/٢ ابن الاثير : الكامل ٣٧/٢ ــ ٣٨ ابن كثير : البداية والنهاية ٢٨٣/٢ ــ ٢٨٦ المقدسي : البدء والتاريخ ١٣٤/٤ .
Caetani: Op. cit; 1-160
ولم يقف ازاء الرواية ناقداً ممحصاً سوى ابن سيد الناس في (عيون الأثر) ص ٤٣ (مكتبة القدس ، القاهرة١٣٥٦ هـ) والذهبي في (تاريخ الإسلام) ٣٨/١ ، ٣٩ (مكتبة القدس القاهرة) انظر بحث (تحقيق قصة بحيري) للدكتور محسن عبد الحميد (مجلة الجامعة ، عدد ٤ سنة ٩ ص ٦٩ ـ ٧٣) وسوف نرجع الى هذه الرواية كرة أخرى لدى الحديث عن العلاقات بين الاسلام والجبهة البيزنطية ـ النصرانية) (انظر ص ٢٧١ ـ ٢٧٢) .

والشراء مستقلاً بأعماله أحياناً ومشتركاً مع غيره أحياناً أخرى .. وقد تاجر بشراء البزّ وبيعه يشتريه من سوق حُباشة ، على طريق اليمن ، وهي سوق مشهورة لبيع هذه البضاعة ، ويبيعه في مكة .. وقد عرف الرسول ﷺ بالامانة والصدق في المعاملة ، ولكنه لم يكسب من عمله في البيع والشراء مالاً يذكر ولا ثروة تساعده وتساعد عمه أبا طالب في تمشية أموره .. لذا عرض عليه عمه أن يسهم في تجارة خديجة علها تدر عليه ربحاً[13] . وورد في بعض كتب السير[14] أن محمداً قام لخديجة بسفرة أو سفرتين أو أربع سفرات إلى اليمن ، إلى سوق حباشة أو إلى جُرَش ، وذلك قبل قيامه بسفرته المشهورة إلى بصرى .. وأن خديجة دفعت له بعيراً عن كل سفرة قام بها إلى اليمن وأربع بكرات عن سفرته إلى بلاد الشام[15] .

بلغ محمد ﷺ العشرين من عمره وبدأ يسهم في تجارب قريش السياسية والعسكرية والدينية ، حيثما رأى في هذه التجارب حقاً وعدلاً ، رافضاً — من جهة أخرى — كل تصوراتها الخاطئة ومعتقداتها الوثنية واخلاقياتها المتهافتة الساقطة .. اشترك ، وهو في العشرين من عمره ، في حرب الفِجَار التي سميت كذلك لوقوعها في الأشهر الحرُم ، والتي نشبت بين كنانة وقريش من جهة وبين قيس عيلان من جهة أخرى ، وكان قائد قريش وكنانة فيها حرب بن أمية الذي تمكن وسط النهار أن يتجاوز الهزيمة التي مني فيها أول الأمر وان يحقق النصر على قيس . وكان محمد ﷺ آنئذ ينبّل لاعمامه ويرد عنهم نبال عدوهم[16] . واشترك في حلف

(13) جواد علي ص ١٠٩ ـ ١١٠ —
(14) امتاع الاسماع ، السيرة الحلبية ، الروض الانف ، عيون الاثر ...
(15) جواد علي ص ١١٢ .
(16) ابن هشام ص ٣٦ ابن سعد ١/١/١٠ ـ ٨٢ المسعودي : مروج ٢/٢٦٨ — ٢٦٩ اليعقوبي ٢/١٢ — ١٣ المقدسي ٤/١٣٥ — ١٣٦ . Caetani : op, cit, 1-163
وانظر عن أيام الفجار بالتفصيل البلاذري : انساب ١/١٠٠ — ١٠٣ وابن كثير : البداية ٢/٢٨٩ — ٢٩٠ ويقرر اسرائيل ولفنسون (تاريخ اليهود) ان قريشا خاضت اربع فجارات كان عمر النبي (ص) في اولاها عشر سنين وفي آخرها اربع عشرة او خمس عشرة سنة وانظر : درمنغم ص ٥٥ — ٥٩ وجواد علي ص ١٠٧ — ١٠٨ .

الفضول الذي تم عقده في أعقاب حرب الفجار التي يبدو أنها كانت الدافع الأساسي الذي استفز زعماء قريش لعقد هذا الحلف الذي يصفه ابن سعد بأنه « أشرف حلف كان قط » . وكان أول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب ، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم وغيرهـا من عشائر قريش في دار عبدالله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً وتعاقدوا وتعاهدوا بالله « لنكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه » كما تعاهدوا على « التآسي في المعاش » وسموا ذلك الحلف (حلف الفضول) . وقد قال عنه الرسول ﷺ بعد نبوته ، وهو يسترجع ذكرياته « ما أحب ان لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم .. ولو دعيت به – في الإسلام – لأجبت » (١٧) .

وقد روى كل من المسعودي واليعقوبي (١٨) وعدد من المؤرخين ان سبب إنشاء هذا الحلف انما كان بسبب الغبن الذي ألحقه أحد سادة قريش : العاص بن وائل السهمي برجل من اليمن ، حيث ماطله في ثمن السلعة التي اشتراها منه ، حتى يئس الرجل ، فعلا جبل أبي قبيس ونادى قريشاً وهي في مجالسها حول الكعبة بشعر يصف فيه ظلامته « فمشت قريش بعضها إلى بعض... » . ويظهر من دراسة الاصول القديمة لروايات حلف الفضول أن الحاجة إلى الامن والاستقرار بعد حرب الفجار هي التي دفعت قبائل قريش إلى الاجتماع في دار عبد الله بن جدعان للتفاوض في أمر إحلال الامن والسلام في مكة لان حياة أهل مكة تقوم على الوافدين إليها من الحجاج والتجار ، وان الذي دعا إلى ذلك نفر من قريش وأن الذي تزعم الدعوة وتبناها وجمع بين الرؤساء هو عبد الله بن جدعان أحد أثرياء مكة (١٩) .

---

(١٧) ابن سعد ٨٢/١/١ المسعودي : مروج ٢٧٠/٢ – ٢٧١ اليعقوبي ١٣/٢ – ١٤ المقدسي ١٣٦/٤ – ١٣٧ ابن الاثير : الكامل ٤١/٢ – ٤٢ ابن كثير : البداية ٢٩٠/٢ – ٢٩٣ .

(١٨) المصدران السابقان ، نفس الصفحات .

(١٩) جواد علي ص ١٠٩ وانظر عن هذا الحلف بالتفصيل مونتكمري وات : محمد في مكة ص ٢٣ – ٢٥ ، ٣٩ – ٤٠ وجواد علي ص ١٠٨ – ١٠٩ .

وفي الخامسة والثلاثين من عمره مارس ﷺ مهمة التحكيم في مسألة وضع الحجر الأسود . كانت قريش قد أجمعت أمرها على إعادة بناء الكعبة وتسقيفها بعد ما أصابها من السيول المنحدرة إليها من المرتفعات المجاورة ، وبعد محاولة لسرقة محتوياتها من قبل نفر من قريش، وكانت الكعبة منضودة من حجارة بعضها فوق بعض من غير ملاط[٢٠] وكان البحر قد رمى بسفينة لرجل من تجار الروم قريباً من جدة ، فتحطمت وحمل خشبها إلى مكة للافادة منه في أعمال البناء . وصادف أن كان بمكة آنذاك رجل قبطي نجار فارتأوا ضرورة البدء بالعمل . وتعاونت قبائل قريش جميعاً في البناء ، كل تناول جانباً ،هدماً وبناءً . وعندما بلغوا موضع الركن حيث يوضع الحجر الأسود ، اختصموا ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، فانحاز كل رجل إلى قبيلته ، وتأهب الجميع للقتال . وظل الأمر على ذلك أربع ليالٍ . وحينذاك تقدم أبو أمية بن المغيرة – وكان عامئذ أسنّ قريش – فقال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هـذا المسجد يقضي بينكم فيه . فأقرّوا رأيه ، وراحوا ينتظرون أول داخل ، فكان محمداً ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد !! فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال : هلمّ إليّ ثوباً ، فجيء به ،فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بجانب من الثوب ثم ارفعوه جميعاً . ففعلوا ، حتى إذا بلغوا بـه موضعه ، وضعه هو بيده ثم بنى عليه[٢١] .

في الخامسة والعشرين من عمره كان محمد ﷺ قد اجتاز تجربة زواجه الأول وكانت تجربة ناجحة لعبت دوراً كبيراً في حياته قبل البعثة وبعدها على السواء.

---

(٢٠) الطبري تاريخ ٢٨٣/٢ .

(٢١) ابن هشام ص ٤٠ – ٤٢ الطبري ٢٨٧/٢ – ٢٩٠ ابن سعد ٩٣/١/١ – ٩٥ البلاذري : انساب ١٠٠/١ المسعودي : مروج ٢٧١/٢ – ٢٧٣ اليعقوبي : تاريخ ١٤/٢ – ١٥ ابن الاثير : الكامل ٤٢/٢ – ٤٥ المقدسي ١٣٩/٤ – ١٤٠ ابن كثير : البداية ٢٩٨/٢ – ٣٠٥ وانظر : درمنغم : حياة محمد ص ٦٤ – ٦٧ .

كان محمد قد اختير بوساطة عمه أبي طالب، من قبل السيدة خديجة ذات الشرف والمال في قريش ليكون أميناً لتجارتها إلى الشام برفقة خادمها ميسرة لما كانت قد سمعته عن محمد « من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه » . وقد وافق محمد على القيام بالمهمة لقاء أجر غير زهيد قررت خديجة منحه إياه لدى عودته رابحاً من الشام . ولقد عاد بعدئذ مضاعفاً، بصدقه وأمانته ونشاطه ربح التجارة التي كلف بادارتها، فأعجبت خديجة به، وزادها إعجاباً وتقديراً ما حدثها به خادمها ميسرة عن أخلاق محمد وصفاته . وعلى عادة العرب في الوضوح والصراحة وعدم الالتواء، بعثت إليه من يقول له : إني قد رغبت فيك لقرابتك وشرفك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك . ثم عرضت عليه الزواج.وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على خطبتها لو يقدر على ذلك[٢٢].

استشار محمد ﷺ أعمامه فخرج معه عمه حمزة (رض) ودخل على خويلد بن أسد فخطب ابنته لابن أخيه، فوافق الأب وتم الزواج المبارك، فكان من ثماره أبناء رسول الله كلهم إلا إبراهيم، وهم : القاسم، وكان ﷺ يكنى به، وعبدالله (الذي يلقب بالطاهروالطيب) وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . وقد توفي القاسم وعبد الله قبل مبعثه، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن إلى المدينة[٢٣] .

---

(٢٢) ابن هشام ص ٣٧ — ٣٨ ابن سعد ٨٢/١/١ — ٨٥ البلاذري : انساب ٩٧/١ — ٩٩ : اليعقوبي ١٥/٢ — ١٦ .

(٢٣) ابن هشام ص ٣٨ الطبري : تاريخ ٢٨٠/٢ — ٢٨٢ ابن سعد ٨٥/١/١ ابن الاثير : الكامل ٣٩/٢ — ٤٠ ابن كثير : البداية ٢٩٣/٢ — ٢٩٥ المقدسي ١٣٨/٤ — ١٣٩ وانظر : Caetani: Op. cit ; 1 - 138 sprenger : die lehre des Mohammed 1- 194.

٢

إن الإطار التاريخي لسيرة رسولنا عليه السلام ، منذ مولده حتى وفاته ، يضم حشداً كبيراً من الروايات ، يكثر ويتكاثف في مرحلة ويقل ويتباعد طيلة الأربعين سنة التي سبقت مبعثه في غار حراء ،فلا يكاد يغطي سوى مساحات قليلة من هذه السنين الطويلة ولا يكاد يرسم سوى خطوط عريضة عن طفولة وشباب الرجل الذي قدّر له أن يعيد صياغة الحياة الدنيا بما ينسجم ونواميس الكون .. وتلك هي الصعوبة الكبرى في تاريخ الرجال الكبار في حياة البشرية . إن اهتمام الناس بأبطالهم يقتفي أثر النواميس الطبيعية ذاتها ، فحينما تجمعت الأضواء في جانب حينما زادت الظلال المجاورة عتمة وخفاء .. وما أن يبرز البطل فجأة على مسرح الأحداث حتى تسلط عليه الأضواء فلا يتبقى من سيرته أية مساحة غير معرضة للانارة والتلوين .. لكنه قبل أن يظهر .. قبــل أن يجيء من وراء الكواليس ، يحيطه الغموض ، ويصعب على الناظرين تمييز جل مساحات حياته مهما امتدت سنوّ هذه الحياة ..

إن أربعين سنة من حياة رسولنا العظيم ﷺ هي الأرضية التي أقيمت عليها نبوته الشامخة .. ترى ما الذي قدمته لنا الروايات عن أمداء هذه الأرضية ؟.. النسب الأصيل لأمه وأبيه في بيئة (ترفض) الهجناء والمختلطين .. اليتم السريع للأب والأم ولما يتجاوز المولود عهد طفولته .. الفقر والحرمان في صحراء تزيد نار الفقر والحرمان اشتعالاً .. رحلتان بعيدتان إلى الشام احداهما صبياً برفقة عمه أبي طالب والأخرى شاباً مسؤولاً عن تجـارة للسيدة خديجة .. الاسهام الحريص في عدد من الأحداث المهمة التي شهدتها مكة : حرب الفجار ، حلف الفضول ، بناء الكعبة .. الزواج بالسيدة خديجة بعد عودته من رحلته الثانية إلى الشام .. الرفض الحاسم لقيم الوثنية وعاداتها واخلاقياتها وتقاليـدها .. ثم فترات من العزلة والتأمل في غار حراء بعيداً عن صخب مكة وضجيجها .

وبين هذه الأحداث المرئية الأبعاد جميعاً لمحات غير مرئية الأبعاد، ذات دلالة عميقة، أكدتها الروايات والأسانيد، جاءت بمثابة ارهاصات أولية عن أن هذا الانسان سيلعب دوره في القضية الكبرى في تاريخ البشرية، قضية الحوار المفتوح بين السماء والأرض .. الخير العميم الذي راح يتدفق في مضارب مرضعته حليمة بعد إعسار وجفاف. شق صدره واستخراج علقة سوداء من قلبه قبل أن يتفتح وعيه على الحياة .. إشارات أولى عن نبوته تصدر عن الراهب (بحيرا) على تخوم الشام .. ولن نذكر هنا أية واقعة أخرى لعب الخيال الشعبي والاسرائيلي دوراً بارزاً فيها .

تلك هي النقاط الأساسية التي لم يتمكن (باحث) لحدّ الآن أن يعثر على ما يفوقها أهمية أو ما يضيف إليها حقائق أخرى .. ولن نلقي اللوم على رواتنا ومؤرخينا فتلك هي كما قلنا طبيعة التاريخ، فالأبطال – أنبياء وغير أنبياء – يظلون مجهولين يتحركون في مناطق الظلال لكي ما يلبثوا أن ينتقلوا فجأة لأداء أدوارهم حيث تسلط الأضواء .. ولنا أن نحمد الله سبحانه على أن هيأ لنا هذا القليل عن هذه المرحلة الطويلة الأساسية من حياة الرسول ﷺ . فهذه القلة – على ندرتها – يمكن أن تقدم لنا الكثير إذا ما استنطقناها بالأسلوب العلمي الهادىء الرصين، بعيداً عن ضجيج النزعات الخطابية والانشائية والتهويلية .

إن البطل في التاريخ، نبياً أو غير نبي، لكي يلعب دوره الحاسم، لا بدّ أن يستكمل شرطين أساسيين أحدهما يتعلق بتكوينه الذاتي الخاص، والآخر بالعالم الذي يضطرب فيه عبر دوائره التي تبدأ بعلاقاته الضيقة ثم تتسع عبر الاقليم والوطن والجماعة والشعب والأمة، لكي تشمل العالم كله .. ومن ثم فإن أي حوار ينفتح بين الانسان والعالم سوف لن يبعث أبطالاً إن لم يكن كلا الطرفين مهيأ لانجاح ذلك الحوار .. وهكذا فإن أية دراسة عن حياة رسولنا ﷺ قبل مبعثه وبعده، سوف لن تتوغل في فهم هذه الحياة، توغلاً كافياً، إن لم تضع في حسبانها هذين الطرفين، وتتمعن فيهما عن كثب بقدر ما تسعفها الوقائع والأحداث.

فأما ما يتعلق بالجانب الذاتي لسيرة الرسول ﷺ قبل البعثة فيبدو أن الظروف (البيئية)و (الوراثية) التي تسهم معاً في تكوين الانسان وتمنحه صفاته الخَلْقية والخلقية ، وتصوغ بنيانه الجسدي والنفسي ، وتحدد قدراته العقلية واستجاباته العاطفية قد اجتمعت لكي تجعل من محمد ﷺ الانسان المهيّأ لتحمل المسؤولية التي أنيطت به بعد أربعين سنة من ميلاده .. أربع عقود في حياة الانسان المحدودة ، تمثل امتداداً زمنياً طويلاً أريد به أن يستكمل محمد الانسان كل مساحات تكوينه الذاتي ونضجه البشري قبل أن يتاح له أول لقاء مع الوحي الأمين ، وما أصعب اللقاء الأول بين ممثلي السماء والأرض ، وما أشق الحوار !!

طيلة هذه العقود الأربع ومحمد ﷺ يأخذ ويتلقى ويجابه ويهضم ويتمثل شتى المؤثرات الوراثية والبيئية لكي يحولها إلى خلايا تبني كيانه وسمات مادية وروحية تهيئه لليوم المظيم. فمن (أصالة) أبيه وأمه أخذ الرسول ﷺ في دمه وأعصابه أصالة الشخصية ووضوحها ونقائها ، وكسب على المستوى الاجتماعي احتراماً وتقديراً في بيئة كانت تستهجن مجهولي الأنساب وتحتقر الخلطاء . ومن مرارة اليتم ووحشة العزلة وانقطاع معين العطف والحنان ، قبس الرسول ﷺ الصلابة والاستقلال والقدرة على التحمل ، والارادة النافذة ، والتحدي الذي لا تنكسر له قناة . وبالفقر والحرمان تربى ونما بعيداً عن ترف الغنى وميوعة الدلال واتكالية الواجدين . وعبر رحلته الأولى إلى الشام في رعاية عمه ، فتح محمد ﷺ عينيه ووعيه تجاه العالم الذي يتجاوز حدود الصحراء وسكونها إلى حيث المجتمعات المدنية التي تضطرب نشاطاً وقلقاً ، والجماعات العربية التي فصلتها عن شقيقاتها في الصحراء الأم ، سلطات أجنبية أحكمت قبضتها على الأعناق ، وساقت الشيوخ والأمراء العرب إلى ما تريد هي وتهوى لا ما يريدون ويهوَون .

وفي رحلته الثانية إلى الشام ، مسؤولاً عن تجارة للسيدة خديجة ، تعلم

الرسول الكثير الكثير، ممثّق في حسّه معطيات الرحلة الأولى وزاد عليها إدراكاً أكثر لما يحدث في أطراف عالمه العربي من علاقات بين الغالب والمغلوب، والسيّد والمسود، وإفادة أغنى من كل ما يتعلمه الذين يرحلون من مكان إلى مكان فيتعلمون من رحيلهم طبائع الجماعات والشعوب، وكنه العلاقات بينها واختلاف البيئات والأوضاع .. ويزدادون مرونة وقدرة على التعامل المنفتح الذي لا ينقطع له خيط مع شتى الطبائع، وفهماً لما يتطلبه الانسان في عصر من العصور بعد اطلاع مباشر على عينات من هذا الانسان في سعادته وهنائه، أو في تعاسته وشقائه.. وفوق هـــذا وذاك فقد اتيح للرسول في رحلته هذه تنمية وامتحان قدراته الخاصة التي تعلمها أيام الرعي صبياً، وهاهو الآن (يدير) تجارة لسيدة تملك الكثير، فيعرف كيف يحيل القليل كثيراً، ويصمد إزاء اغراء الذهب والفضة أميناً لا تلحق أمانته ذرة من غبـار .. قديراً على الارتفاع فوق مستويات الاغراء إلى آخر لحظة .

ثم يجيء إسهامه في القضايا الكبرى التي عاشتها مكة آنذاك، متنوعاً شاملاً مغطياً شتى مساحات العمل البشري الجماعي، وكأنه أريد له أن يجرب كل شيء، أن يسهم عاملاً في كل اتجاه، وان يبني عبر نشاطاته المتنوعة جميعاً شخصية قادرة على التصدي لكل مشكلة، والاسهام الإيجابي الفعال في كل ما من شأنه أن يعيد حقاً أو يقيم عدلاً.. في حرب الفجار مارس الرسول ﷺ شؤون القتال، وفي حلف الفضول شارك في تجربة السياسة والحكم، وفي بناء الكعبة أعرب عن بداهته المثيرة للاعجاب في حل المشاكل التي تلعب فيها المعتقدات والقيم والمقدسات دوراً كبيراً .. وخلال هذا وذاك يتزوج الرسول ﷺ فيمارس في أعقاب زواجه ذاك، كبرى التجارب الاجتماعية في حياة الانسان، وينجح في التجربة، ومن وراء نجاحه ذاك تقف السيدة البرّة التي وضعها الله في طريق رسوله لكي تكون سنده النفسي واليقيني الأول في السنين الصعبة الطويلة التي تطيش معها ألباب الثائرين الذين بعثوا لتغيير العالم والانقلاب على الأوضاع والمألوفات .

هكذا تبدو حياة رسولنا الكريم قبل مبعثه ، سلسلة مترابطة الحلقات ، منطقية التعاقب من التجارب والخبرات في شق المساحات : عائلية ونفسية واقتصادية وحركية وحربية وسياسية ودينية واجتماعية . أما البعد الاخلاقي في حياة الرسول المديدة هذه فيتمثل واضحاً نقياً في انسلاخه الحاسم عن كل ممارسات الجاهليين اللااخلاقية التي كانت تعج بها الحياة العربية في المدينة والصحراء : شرباً للخمر واستمراءً للزنى ولعباً للميسر وتصعيداً للربا وتهافتاً على مال اليتيم ووأداً للبنات وظلماً للذين لا يقدرون على ردّ الظلم ، واستعباداً محزناً للذين لا يعرفون طعم الحرية .. ممارسات شق لا يحصيها العدّ ، كانت تجري على مسرح الجزيرة العربية ، وممثلتها مكة ، ليل نهار . ويغدو من تعاقبها وتكرارها أن تصبح الفاً وعادة ، ثم تتجاوز هذا لكي ما تلبث أن تصبح مفاخر ومكرمات يتبارى العرب في الاتيان بالمزيد المزيد منها .. ومحمد ﷺ بعيد عن هذا كله ، منسلخ منه .. ولقد منحه موقفه النبيل هذا نظافة وطهراً لم يعرفها انسان قط ، وعلمه في الوقت نفسه كيف يكون الرفض والتمرد على الوضع الدنيء ، الوضع اللاانساني مهما حُمّل هذا الوضع من تبريرات انتقلت به من كونه إثماً وفسقاً وفجوراً إلى مرتبة الالف والعادة ، ثم إلى مصاف القيم والمفاخر والمعتقدات .

ولم يبق – ثمة – إلا البعد الروحي – الفكري ، وهو أشد الأبعاد ثقلاً وخطراً في حياة الانسان . والروايات القليلة التي تحدثنا عن عزلة الرسول ﷺ بعيداً عن صخب مكة وضجيجها ، حيناً بعد حين ، وعن انقطاعه إلى الصحراء وحيداً ، متأملاً ، باحثاً ، منقباً ، مقلباً وجهه في أمداء السماوات والأرض .. هذه الروايات تكفي لالتقاط الاشارة الأخيرة الحاسمة المتممة للصورة التي علينا أن نعرفها عن حياة الرسول ﷺ قبل مبعثه .

فكما علمه الانشقاق الأخلاقي عن الوضع المكي القدرة على الرفض والتمرد ، فقد جاء تغرّبه وعزلته وانقطاعه إمداداً نفسياً باتجاه آخر ، لكنه متمم ، وبدونه

لا يمكن لانسان ما أن يلعب دوره الحاسم الكبير .. إنه إمداد باتجاه الاندماج والاتصال ، بمواجهة رفض الجاهلية والتمرد على قياداتها وأعرافها وسلطاتها .. إندماج بالكون على انفساحه.. بالعالم الجديد الذي جاء لكي ينقل البشرية اليه، بالنواميس التي سيبعث عما قريب كي يحمل الانسان في كل مكان وزمان يعود اليها ويلسجم في مساراتها المعجزة، مغادراً مواضعه المنحرفة الخاطئة التي ساقته اليها زعامات جائرة ، وسلطات مستبدة والوهيات زائفة ، وأعراف وبيئات مليئة بالدنس والوحل والخطيئة ، واتصال – عبر البحث والقلق والتقلب الطويل – بالسلطة الواحدة التي تشرف على الكون وتحرك الانسان والخلائق في ساحاته الكبرى وفق خرائط غاية في الدقة والاتقان .. اتصال بالمصدر الوحيد للحيوان والأشياء ، بالارادة التي تنبثق عنها سائر الارادات وتؤول اليها .. بالله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ..

كان محمد ﷺ إذن يستكمل ـ دون أن يدري ـ بناءه النفسي واستعداداته التجريبية وخبراته التي بنتها السنون الطويلة والأعمال التي غطت كل المساحات.. كان يضع ـ بمشيئة الله ـ اللمسة الأخيرة الحاسمة، للانسان الذي سيغدو نبياً عما قريب..

إن عزلة رسولنا وانقطاعه ، واتساع مساحات هذه العزلة والانقطاع ، عكساً ازاء طغيان الجاهلية ، وطرداً تجاه يوم الوحي ، كانت بمثابة الارهاص الأكبر والأخطر والأخير ، في الوقت نفسه ، إلى أن موعد القطاف قد حان ، وان هذه الشخصية التي ربتها عناية الله في مدى أربعين سنة ، قد غدت على استعداد تام للتلقي، والاتصال المباشر بمبعوث الله في آخر حلقة من حلقات تعاليم السماوات للأرض !!

وإزاء هذا الهيكل المرئي من حياة الرسول الكريم ﷺ قبل مبعثه ، يقف عدد من الاشارات والأحداث، ملفتاً الانظار في ذلك الحين، وفي كل حين، إلى أن هذا الانسان من بين كل الناس، قد اختير لأداء دور ما، لانجاز عمل أو الانقلاب على وضع.. وأن هنالك عناية تفوق كل العنايات واهتماماً يتعدى كل الاهتمامات تجاه هذا

الانسان بالذات تمهد له الطريق ، وتسهم إسهاماً غيبياً يندّ عن التحليل والتعليل في تكوينه النفسي الذي سيمكنــه من أن يكون نبياً عما قريب .. وان هــذه الأحداث الموثوقة التي انتزعناها من بين حشد من الأحداث والروايات الضعيفة والمكذوبة ، لهي ، فضلاً عن كونها اسلوباً من أساليب العناية الالهية في تربيــة الأنبياء والشهداء والقديسين، أشبه بالرموز المكثفة والدلالات العميقة على ابعاد الدور الذي سيلعبه هذا الانسان .

إن تدفق الخـــير على مضارب القبيلة التي احتضنت محمداً طفلاً ، بعد أيام العسر والمجاعة والجفاف، توحي - فيما توحي - إلى أن مجاعة العالم كله ، وجفاف الروح الانسانية جميعاً وعسر الحضارة البشرية في تمخضها الدائم ، تنتظر من يعيد توجيهها وصياغتها من جديد فيحيل الجوع شبعاً ورياً ، وجفاف الروح امتلاءً وانطلاقاً ، وعسر الحركة الحضارية تدفقاً وابداعاً .. وان هــذا الطفل الذي تفجرت بميلاده ينابيع الخير سيكون هذا الرجل .. وانه قد آن الأوان ... وهذه الحادثة ستقال مراراً وتكراراً بعد أن يكبر الطفل ويفتح وعيـــه على الحياة، وستلعب دورها ولا ريب في صياغته النفسية وفي لفت الأنظار إلى تفرده وتميزه ، والتمهيد لقبول الدور (الخاص) الذي سيلعبه بعد عدة عقود من السنين. ومن أجل مزيد من لفت النظر والتمهيد تجيء اشارات عدد من اليهود والنصارى إلى أن ظهور النبي الموعود قد حان وان العصر الراهن بارهاصاته انما هو عصر النبوة الجديدة وهي اشارات الاديان السابقة جميعاً، واقرارها بصدق رسالة النبي الأخير التي أكدتها عهودهم القديمة والحديثة على السواء ، ومن ثم تلعب دورهــا - هي الأخرى - في عملية لفت النظر والتمهيد للنبوة الجديدة كي لا تجيء فجأة دونما سوابق من اشارات وأحداث ذات دلالة وإرهاصات، وسواء على المستوى العربي الجاهلي أم على المستوى الديني اليهودي - النصراني ، فان هذه الاشارات قد جاءت وليس ثمة معذر لكل من يقول ان رسالة الرسول تنزلت مفاجأة دون مقدمات ولا تمهيد .

وأما حادثة شق الصدر، فهي ولا ريب مما يندّ عن مواضعات علمنا البشري في ميداني النفس والتشريح ، لأنها – كأية تجربة أو حدث روحي – لا تخضع لمقاييس العقل والحسّ المحدودة ، وكيف يخضع الكليّ المطلق للمقيد المحدود ؟! يكفينا أن نلتقط منها رمزاً أو دلالة تغطي مساحة ما في صورة الأربعين سنة من حياة محمد . يقول محمد الغزالي « لو كان الشر إفراز غـــدة في الجسم ينحسم بانحسامها ، ولو كان الخير مادة يزود بها القلب كما تزود الطائرة بالوقود فلمستطيع السمو والتحليق ، لقلنا : إن ظواهر هـــذه الاثار مقصودة . ولكن أمر الخير والشر أبعد من ذلك ، بل من البديهي أنه بالناحية الروحية في الانسان ألصق . وإذا اتصل الأمر بالحدود التي يعمل الروح في نطاقها ، أو بتعبير آخر ، عندمـــا ينتهي البحث إلى ضرورة استكشاف الوسائل التي يسير بهـــا الروح هذا الغلاف المنسوج من اللحم والدم ، يصبح البحث لا جدوى منـــه ، لأنه فوق الطاقة . وشيء واحد هو الذي نستطيع استنتاجه من هـــــذه الاثار ، ان بشراً ممتازاً كمحمد ﷺ لا تدعه العنايـــة عرضاً للوساوس الصغيرة التي تتناوش غيره من سائر الناس . فاذا كانت هناك (موجات) تملأ الآفاق ، وكانت هنـــاك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها ، فقلوب النبيين – بتولي الله لها – لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها ، وبذلك يكون جهد المرسلين في متابعة الترقي لا في مقاومة التدني ، وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته »[٢٤] .

وهذا يكفي .. فما دمنا بصدد تحليل المؤثرات البيئية والوراثية والغيبية في تكوين الرسول ﷺ وتهيئته للرسالة ، فان حادثة شق الصدر تقف في القمة من المؤثرات جميعاً، صياغة روحية ـ مادية لشخصية النبي الانسان ، وتهيئة من لدن العليم بمنسربات النفوس، الخبير بتعقيدات الشخصية البشرية..لكي يكون هذا الرجل بالذات ، ووفق تكوينه الموجّه هـــذا ، قادراً على التقاط اشارة

---

(٢٤) فقه السيرة ص ٦٤ – ٦٥ .

السماء ومقابلة الوحي، وتحمل المسؤوليـة ، نبياً إلى الناس جميعاً ، صعدا بهم إلى القمم الشامخة التي تتقطع دونها أنفاس الرجال !!

* * *

وعلى قدر ما تشح الروايات والأحاديث عن حيـاة الرسول الانسان قبل مبعثه .. على قدر ما تزيد وتتسع لكي تمنحنا ما فيه الكفاية عن العالم الذي ولد فيه محمد ﷺ ، وذلك أمر معروف أيضاً .. إن المدى يتسع هنا لكي يحتوي في دوائره الممتدة شيئاً فشيئاً ، عشائر وقبائل وشعوباً وأمماً كانت قـد مهدت بممارساتها وتوقعاتهـا في الوقت نفسه الطريق إلى المولد الجديد .. بالأحرى إن تاريخ العالم كله ، في فترة قـد تجاوز الأربعة أو الخمسة قرون ، بعد استنفاد النصرانية دورها ومهمتها ، هي الساحة التي تهم الباحثين في مجال كهذا ، وما أكثر الروايات والأحاديث والابحاث عن هذه المساحة الواسعة زماناً ومكاناً !! مما لا يتسع بحث خاص بالسيرة لمجرد الاشارة اليه[٢٥] .

ومن ثم فان كل ما يمكن أن يقال ، ايجازاً وتركيزاً لهذا المدى الواسع ، هو أن العالم كان قد فسد في القرن الذي ولد فيه الرسول ، والانسان — ثانية — كان قد ضاع.. الانسان فرداً والانسان في جماعة.. حيثما التفتنا ، انى قلبنا وجوهنا في جهات العالم الأربع فلـن نعثر إلا على الفساد والضياع . وابتـداء بأعمق أعاميق النفس البشرية وانتهاء بالعالم في مـداه الشامل ، مروراً بالتجارب والممارسات الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية، لا نجد إلاّ السوس ينخر في البنيان ، والعفن ينسرب عميقاً في ضمائر الأشياء والتجارب والممارسات ، لكي

---

(٢٥) انظر على سبيل المثال شهادات بتلر في (فتـح العرب لمصر) وغوستاف لوبون في (حضارة العرب) وتاريخ العالم للمؤرخـين وجيبون في (الامبراطورية الرومانية) و هـ.ج. ولز في (مختصر تاريخ العالم) ومكاريوس في (تاريخ ايران) وكرستنسن في (ايران في عهد الساسانيين) . وانظر بالتفصيل الفصول الاولى من كتاب النـدوي (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ومقال المؤلف (ملاحظات في الميلاد) مجلـة الوعي الاسلامي ، السنة الثامنة .

ما يلبث السوس والعفن أن يفسدا كل شيء ويدنسا كل حياة .

هكذا .. في كل ميدان ، وفي أي اتجاه ، لا نعثر إلا على الفساد والضياع .. إن العالم الذي بعث فيه محمد عالم في أمسّ الحاجة إلى منقذ ، وهو يفسّر بوضعه الراهن ذاك لماذا جاء الرسول في ذلك العصر بالذات.. إن القرآن الكريم، تحدث فيما بعد ، عن أبعاد الأزمة البشرية عندما قال : (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، لنذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) !!

لقد جاءت هذه الآية بمثابة انذار وبشارة في الوقت نفسه ، انذاراً إلى أن هذا العفن الذي يغمر العالم انما هو صنع أبنائه أنفسهم ، وأنهم يغرقون الآن إلى أذقانهم بما صنعوا !! وبشارة لكل الذين انشقوا على دنس العصر واستعلوا على عفنه وفساده ، وآلوا على أنفسهم أن يتحملوا المسؤولية ، وأن يسيروا وراء رسولهم بعيداً عن الحفرة التي كان العالم يختنق فيها ، من أجل أن (يخرجوا) بالناس، من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ،وتلك هي قمة الحرية التي بعث الرسول لكي يمنحها للإنسان، وغاية الدور الكبير الذي يفسّر مبعث رسولنا عليه السلام .

إن مهمة أي دين سماوي شامل هي أن ينقل البشرية من وضع معين إلى وضع أرقى منه وفقاً للمهمة التي انيطت بالإنسان عندمـــا استخلفه الله على الأرض واستعمره فيها ... وعندما انتصف القرن السادس للميـلاد كانت جميع الأديان والمذاهب قد عجزت تماماً،بما عانت من تمزقات وما استضافته من أجسام وقيم خاطئة غريبة ، عن أداء دورها المنشود... وما كان لها ، من ثم ، إلا أن تفسح الطريق للقادم الجديد كي يأخذ على عاتقه مهمة القيادة في عملية الإعمار والتحضّر. ولقد كان محمد هذا القادم .. وبعد أربعين سنة من ميلاده تلقى رسالة الإسلام إلى العالم كله فأشار إلى الطريق الواحد لكل من يريد ان يحيا كإنسان استخلفه الله في الأرض وكرّمه على العالمين .. وإلا فإن هنالك الف طريق !!

الفصل الثاني

الدعوة في عصرها المكي



١

أخذت خلوات الرسول ﷺ وانعزاله عن مجرى الحيـــاة المكية الصاخب تزداد وتتسع وهو يقترب من الاربعين حيث أعـــده الله سبحانه لأول لقاء مع وحيه الأمين من أجل تكليفه مسؤولية النبوة واخراج الناس– بها – من ظلمات الجـاهلية ودنسها إلى نور الإسلام ونقائه . فكان يغادر مكة بين الحين والحين ، مجتازاً اسوارهـــا الجبلية ، منقلاً خطواته الثابتة الواسعة عبر رمال الصحراء المترامية حتى تحجب عنه البيوت والاسواق ويغيبه الافق وتستقبله شعاب مكة وبطون اوديتها ثم يلج بعيداً إلى جبل النور حيث ينتهي به المطاف إلى غار هناك يدعى (غـار حراء) ، فيمكث فيه الايام والاسابيع الطوال لا يعود إلى مكة إلا ريثما يتزود بالطعام والماء ثم يقفل عائداً إلى المكان الذي سيبعث فيه إلى العالم كله . وتذكر الروايات انه كان يجاور في حراء من كل سنة شهراً فإذا قضى شهره ذاك انصرف إلى الكعبة فطاف بها سبعاً ثم عاد إلى بيته[١] .

استغرق محمد ﷺ في تفكير عميق مركز ، كان يشغله امداً طويلاً ، تفكير

---

(١) ابن هشام ص ٤٥ – ٤٦ الطبري : تاريخ ٢/٣٠٠ ، ابن سعد ١/١/١٢٩ ، البلاذري : انساب ١/١٠٥ .

في حالة قومه وفي اوضاعهم وفي تقربهم من الاوثان ، وفي الكون والحياة ومصير الانسان ، والموت وما بعـــد الموت ، وفيما شاكل ذلك من امور تطوف برأس المفكر المتبصر في هذه الحياة فتصرفه إلى النظر فيهـــا وتبعده عن التفكير في التماس الملذات التي يقع في غرامها الانسان في هذه السن على المعتاد . كان الرسول حائراً مفكراً يريد الوصول إلى شيء مقنع له مطمئن يحل له كل هـــذه الأسئلة والالغاز التي كانت قد تراكمت في فكره وتوالت عليه..وتقول الاخبار انه كان منـــذ صغره يحب الخلوة والانزواء .. حتى بانت عليه ، إذ لم يظهر عليه ميل إلى عبث ولهو ولعب وغير ذلك مما يلهي من في سنه ويجعله يمضي وقته بهـا حتى يبلغ رشده . فعرف بين أهل مكة بالهدوء وبعدم الميل إلى المماكسة .. كما عرف بالجد وبكراهيته العدوان واهانة الناس والاستخفاف بهم لِيُتمٍ وفقرٍ واملاقٍ ،كل ذلك حببه لأهل مكة ولقومه ممـا جعلهم ينظرون اليه نظرة تختلف عن نظرتهم إلى الآخرين من الشبان والرجال الطائشين النزقين[٢] .

وراحت ملامح الطريق إلى النبوة تزداد ايحاء ووضوحاً وتقترب بمحمد يوماً بعد يوم من نداء الله . وتحدثنا عائشة (رضي الله عنها) انـ اول ما بدىء به رسول الله ﷺ من النبوة ، حين أراد الله كرامته ورحمـــة العباد بـه ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح، وحبب الله تعالى اليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب اليه من أن يخلو وحده[٣] .

وفي رمضان من السنة الأربعين من عمره خرج محمد ﷺ كعادته إلى غـــار حراء متأملاً متفكراً مقلباً وجهه في السموات، وفي ليلة إثنين من الليالي الأخيرة من الشهر نفسه جاءه جبريل (ع) بأمر الله تعـالى . ولنستمع إلى رسولنا ﷺ نفسه وهو يحدثنا عن تجربة لقائه الأول الحـــاسم مع مبعوث الله إلى أنبيائه

---

(٢) جواد علي : تاريخ العرب في الاسلام ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .
(٣) ابن هشام ص ٤٥ ، الطبري ٢٩٨/٢ ، ابن سعد ١٢٩/١/١ ، البلاذري : انســاب ١٠٥/١ البخاري : تجريد ٥/١ .

الكرام : « فجاءني جبريل وأنا نائم بخط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ .
قلت : ما أنا بقارىء. فغتني به[٤] حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ.
قلت : ما أنا بقارىء . فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ .
فقلت : ماذا أقرأ ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ .
فقلت : ماذا أقرأ ؟ فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل !! فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك . ثم انصرف عني . وانصرفت راجعاً إلى أهلي ، حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها[٥] فقالت : يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا أعلى مكة ورجعوا إلي . ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت : ابشر يا ابن عم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة !! »[٦] .

وعن جابر قال : حدثنا رسول الله ﷺ قال : « جاورت في حراء فلما

---

(٤) غتني : عصرني عصرا شديدا (عن تهذيب سيرة ابن هشام) .
(٥) مضيفا اليها : ملتصقا بها (المصدر السابق) .
(٦) ابن هشام ص ٤٦ — ٤٧ ، الطبري : تاريخ ٢٩٨/٢ — ٣٠٢ ، وانظر البلاذري : انساب ١٠٨/١ — ١١٠ ، البخاري : تجريد ٥/١ ، المقدسي ١٤٠/٤ — ١٤٢ . وفي عدد من الروايات انها قالت له « ابشر فوالله لا يخزيك الله ابدا ، انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقوي الضعيف وتعين على نوائب الحق » .

قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي ، فنودي ، فنظرت أمامي وخلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، فلم أر شيئاً . فنظرت فإذا أنا بـه – يعني الملك – بين السماء والأرض ، فانطلقت إلى خديجـة فقلت : دثروني . فدثروني وصبوا علي ماء فأنزلت (يا أيها المدثر قم فأنذر) .. »[٧] .

وقد رأى بعض الصحابة – فيما سيتلو من ايام – رسولهم ﷺ وقـد ظهرت وبدت عليه علائم نزول الوحي ، ورأوه وقد نزل عليه الوحي واشتد به ، وقد أجمعوا كلهم على انه كان يعاني في اثنائه شدة وصعوبة ، يبقى على ذلك مـا شاء الله ، فلا يهدأ ولا يذهب عنه الروع إلا بعد انتهاء الوحي ، فيجلس عندئذ وقد تصبب عرقاً ، يجلس ليرتاح ويجفف عرقه ، ثم يتلو على من عنده من أصحابه ما وعاه وما حفظه من الوحي . فإذا فصم عنه كان قد وعى كل مـــا قاله الملك له وحفظه لا يذهب عنه حرفٌ . وقد ورد في سورة طه (المكية) ما يفيد ان الرسول ﷺ كان يعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليه وحيه وذلـك في الآية (ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه ، وقل رب زدني علمـاً)[٨] فحثّ على التثبيت في السماع وعلى ترك الاستعجال في تلقيه وتلقنه . وقـد ورد في موضع آخر من القرآن الكريم (لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه)[٩] .

انطلقت خديجة (رضيَ الله عنها) إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل ، فأخبرته بما أخبرهـــا به

---

(٧) البخاري : تجريد ٦/١ ، البلاذري : انساب ١٠٩/١ – ١١٠ .

(٨) طـه : ١١٤ .

(٩) القيامة : ١٦ وما بعدها عن جواد علي : تاريخ العرب في الاسلام ص ١٣٤ – ١٣٥ ، وانظر عن صور نزول الوحي ابن كثير : البداية والنهاية ٢١/٣ – ٢٢ . وعن مفهوم الوحي ومداه وكيفية بدء اتصاله بالنبي (ص) ووقت نزول القرآن واوائل آياته واثـر الوحي لاول عهده في نفس النبي انظر : دروزة : سيرة الرسول ، ١٢١/١ – ١٤٦ و Encyclopeadia of Islam مادتي Rasul و Nabi والفصل السادس من كتاب : Tor Andrea ومقال Bell في مجلة العالم الاسلامي (The Muslim World) عدد ٢٤ ، سنة ١٩٣٤ .

رسول الله ﷺ فقال ورقة : « قدّوس ، قدّوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر[10] الذي كان يأتي موسى ، وانه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت » فرجعت خديجة وأخبرت محمداً بما قاله ورقة . فذهب بنفسه اليه وطلب ورقة منه ان يعيد حديثه ، فلما اتمه ﷺ قال ورقة : والذي نفسي بيده ، انك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكذّبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ! ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لانصرنّ الله نصراً يعلمه . ثم أدنى رأسه منه فقبّل يافوخه . ثم عاد الرسول ﷺ إلى منزله[11] .

كانت خديجة (رضي الله عنها) اول المؤمنين بدعوة الرسول ﷺ وكان لايمانها ذاك اثر عميق في معنوية الرسول ﷺ وهو يجابه بالتوحيد شرك العرب جميعاً ، فكان كلما سمع من معارضيه رداً أو تكذيباً ، شكى ما يلقى لزوجته البرّة فتثبته وتخفف عنه وتهوّن عليه أمر الناس . وكان علي (رضي الله عنه) أول من آمن من الذكور ، ولم يتجاوز – بعد – العاشرة من عمره ، حيث كان الرسول قد أخذه ليعيله في داره تخفيفاً عن أبي طالب الذي لم يكن يملك ما يكفيه وأبناءه جميعاً . وكان زيد بن حارثة ثالث من أسلموا ، وكان هو الآخر يقطن مع الرسول ﷺ في بيته ، حيث كانت خديجة قد اختارته من بين عدد من العبيد الغلمان الذين استقدمهم أحد التجار من الشام فرآه الرسول فاستوهبه منها فوهبته له فأعتقه وتبناه قبل مبعثه . أما رابع المسلمين وأول الرجال فهو أبو بكر عتيق بن أبي قحافة الذي ما إن أسلم حتى راح يدعو إلى الله من يثق به محمد ، ويتردد عليه ويجلس إليه . وبجهوده ودأبه ومقدرته على الاقناع أسلم قادة الدعوة ورواد الحركة الاسلامية الأولى : عثمان بن عفان ، الزبير بن العوام،

---

(10) الناموس الاكبر : الملك الذي جاءه بالوحي واصل الناموس صاحب سر الرجل (عن تهذيب ابن هشام) .

(11) ابن هشام ص ٤٨ ، الطبري ٢٩٩/٢ – ٣٠٢ ، ابن سعد ١٢٩/١/١ – ١٣٠ وانظر البلاذري : انساب : ١١١/١ والبخاري : تجريد ٦/١ والبخاري ٦/١ .

عبد الرحمن بن عوف ، سعد بن أبي وقاص ، طلحة بن عبيد الله ، وأعقب هؤلاء النفر التسعة مجموعة أخرى من المسلمين الأوائل وهم : أبو عبيدة بن الجراح ، أبو سلمة بن عبد الأسد ، الأرقم بن أبي الأرقم ، الذي اتخذ الرسول من داره الواقعة على الصفا مخبأ سرياً للحركة الاسلامية ، عثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ، عبيدة بن الحارث ، سعيد بن زيد بن عمرو وامرأته فاطمة أخت عمر ابن الخطاب ، اسماء وعائشة ابنتا أبي بكر ، خباب بن الأرت ، عمير بن أبي وقاص ، عبد الله بن مسعود ، مسعود بن القارىء ، سليط بن عمرو ، عياش بن أبي ربيعة وامرأته اسماء بنت سلامة ، خنيس بن حذافة ، عامر بن ربيعة ، عبد الله بن جحش وأخوه أبو احمد ، جعفر بن أبي طالب وامرأته اسماء بنت عميس ، حاطب بن الحارث وامرأته فاطمة بنت المجلل وأخوه حطاب وامرأته فكيهة بنت يسار ، معمر بن الحارث ، السائب بن عثمان بن مظعون ، المطلب بن أزهر وامرأته رملة بنت أبي العوف ، نعيم بن عبد الله ، عامر بن فهيرة ، خالد ابن سعيد بن العاص وامرأته امينة بنت خلف ، حاطب بن عمرو ، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، واقد بن عبد الله ، خالد وعامر وعاقل وأياس بنو البكير بن عبد يا ليل ، عمار بن ياسر وأبوه وأمه ، صهيب بن سنان الرومي[١٢] .

ويلاحظ أن أول من أسلم كان من احداث الرجال أو من لدات الرسول ﷺ أو ممن لا يكبره في السن كثيراً ، أما الشيوخ المسنون فلم يستجيبوا لدعوته استكباراً وأنفة ، فللسن عند العرب منزلة .. والعرف أعمق جذوراً في نفوس المسنين . وكان من العار على المسن تغيير ما هو عليه وما ورثه عن آبائه وأجداده[١٣] ولم يكن عدد المسلمين قد جاوز الاربعين شخصاً في هذه الفترة ،

---

(١٢) ابن هشام ص ٤٩ ــ ٥٤ ، الطبري : تاريخ ٣٠٦/٢ ــ ٣٠٧ ، ٣٠٩ ــ ٣١٨ ، البلاذري : انساب ١١٢/١ ــ ١١٣ ، المسعودي : مروج ٢٧٦/٢ ــ ٢٧٨ ، اليعقوبي ١٨/٢ ــ ١٩ ، المقدسي ١٤٣/٤ ــ ١٤٦ ، ابن الاثير : الكامل ٥٧/٢ ــ ٦٠ ابن كثير : البداية ٢٤/٣ ــ ٣٣ .

(١٣) جواد علي : تاريخ ص ١٥٧ .

هم كل من اسلموا خلال هذه المدة : ثلاث أو أربع سنين ، وكل ذخيرة الاسلام وعدته للمستقبل . وهي مدة طويلة كان من الممكن اسلام اضعاف اضعاف هذا العدد لو أن الرسول ﷺ قام بالدعوة فيها جهاراً ، ولكنه لم يكن يومئذ قد كلف وجوب الجهر بالإسلام وبالتبليغ إلا لمن وجد في قلبه ميلاً للاسلام . ولهذا لم يتجاوز المسلمون يومئذ العدد المذكور القليل بالنسبة لسكان مكة — الذين كانوا عدة آلاف — والكثير في الحاده وايمانه وقوة عقيدته وتضحيته في سبيلها[١٤] .

وقد أمر الرسول ﷺ اتباعه بالتزام الحيطة والحذر والتخفي وعدم الاعلان عن الاسلام إلى أن يقضي الله أمره. فكانوا إذا ارادوا الصلاة خرجوا فرادى إلى الشعاب والبرية يصلون على حذر ولهم عيون ترى القادم لتنبيه المصلين عليه فلا يؤخذوا على غرة ، ويظهر أمرهم للناس ، وقد بقوا على ذلك طوال مدة الاستخفاء[١٥] ويحدثنا ابن هشام كيف أن سعد بن أبي وقاص خرج يوماً في نفر من المسلمين الاوائل إلى شعب من شعاب مكة ، فاذا بجماعة من المشركين يظهرون عليهم ، وهم يصلون فاستنكروا عملهم وعابوا عليهم ما يصنعون ، وما لبث الطرفان أن دخلا في شجار عنيف واضطر سعد — يومئذ — أن يجرح رجلاً من من المشركين ، فكان كما يقول ابن هشام « أول دم اهرق في الاسلام »[١٦] وكان سعيد بن زيد يقول : استخفينا بالاسلام سنة ، ما نصلي إلا في بيت مغلق أو شعب خال ينظر بعضنا لبعض[١٧] . وفي رواية للبلاذري أن النبي وأصحابه كانوا إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب فصلوا ، فرادى ومثنى ، فبينما رجلان من المسلمين يصليان في احدى شعاب مكة إذ هجم عليهما رجلان من المشركين « كانا فاحشين » فناقشوهما ورموهما بالحجارة ، ساعة ، حتى خرجا

---

(١٤) المرجع السابق ص ١٥٨ .

(١٥) المرجع السابق ص ١٥٩ .

(١٦) تهذيب ص ٥٤ — ٥٥ ، الطبري : تاريخ ٣١٨/٢ ، البلاذري : انساب ١١٦/١ .

(١٧) انساب : ١١٦/١ .

فانصرفا[١٨] .

هذان الحادثان من الاعتداء على المسلمين خلال صلاتهم في الشعاب ، وأمثالهما وان بدوا و كأنهما عبث من عبث الصبيان، لكنهما تركا أثراً في نفوس جهال مكة وحمل الرسول على نصح المسلمين بالتخفي والتزام البيوت مـــدة من الزمن حتى تستقر الأحوال وتهدأ الأعصاب ودخل هو وجماعة من أصحابه بيت الارقم بن أبي الارقم وبقي فيه مختفياً مع جماعته لا يخرج إلى أن اذن الله له بالخروج . وكان بعض المسلمين الذين بقوا خارج البيت يراجعون دار الارقم لتلقي أوامر النبي وتنفيذ ما يحتاج اليه . وفي هذه الدار أيضاً أسلم بعض المسلمين ... وليس في كتب الأخبار والسير والتواريخ تاريخ مضبوط للوقت الذي استخفى فيه الرسول والمسلمون في دار الارقم . فالروايات في ذلك مضطربة ، ولكن المرجح على ما يبـــدو من غربلتها انه كان في أواخر السنة الثالثة من النبوة أو في السنة الرابعة أي في أواخر عهد الكتمان .. والروايات متضاربة في مدة الاستخفاء في دار الارقم فهناك من يجعل مدتها شهراً فقط[١٩] ثم انها متضاربة كذلك في كيفية الاستخفاء هل كان استخفاء تاماً من الناس في تلك الدار فلا يخرج منها أحد ؟ أو كان استخفاء في أوقات قصيرة من النهار وذلك في أوقات اجتماعهم بالنبي مثلاً لأجل الصلاة وتوضيح الإسلام والتبشير به من الله وقبول أحد فيه[٢٠] ؟

ويؤكد ارنولد ان شدة معارضة قريش (ربما) كانت السبب الذي من أجله اتخذ محمد ﷺ مقره في السنة الرابعة من البعثة في دار الارقم .. وكانت هذه الدار في مركز متوسط يؤمها الحجيج والغرباء. وقد استطاع الرسول أن يواصل فيها نشر مبادىء الاسلام بين الذين كانوا يقصدونه في هدوء وطمأنينة . وتعد الفترة التي قضاها محمد ﷺ في هذه الدار فترة هامة في الدعاية الإسلامية بمكة

(١٨) المصدر السابق ١/١١٧ .
(١٩) السيرة الحلبيـــة : ١/٣١٩ .
(٢٠) جواد علي : تاريخ ص ١٦٥ — ١٦٦ .

حتى أن كثيراً من المسلمين يؤرخون دخولهم في الاسلام بتلك الأيام التي كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الأرقم[٢١] .

إلا أن سرية الدعوة في هذا العهد وتواصي المسلمين بالحذر والحيطة وتلافي الاصطدام المباشر مع المشركين. لا يعني ان المجابهة العقيدية بين الدين الجديد والشرك كانت صامتة ، بل اننا نجدها على أعنف ما تكون في القرآن الكريم نفسه وفي آياته الأولى . ففي سورة العلق حملة عنيفة على أحد زعماء قريش ، في وقت لم يكن النبي قد آمن بدعوته – بعد – سوى نفر يعدون على الأصابع ، ومن ثم يتبين لنا الموقف العصيب الذي واجهه الرسول ﷺ والجرأة العظيمة التي واجه بها هذا الموقف بأمر ربه ، بما كان يوجهه إلى الزعيم القوي الغني الطاغي: المغيرة بن هشام المخزومي ، مما يوحي اليه من آيات فيها الصفعات الداميات والشرر المحرق: (كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة. فليدع ناديه سندعو الزبانية كلا لا تطعه ...) . ثم بما كان من تثبيت القرآن له على دعوته وعبادته وثباته فيها فعلاً ، تبين لنا العظمة الخلقية والايمان العميق والجرأة الشديدة في الحق على كل باغ مهما كان قوياً عاتياً . ولقد كان هذا دأبه في كل المواقف التالية لهذا الموقف العصيب سواء كانت في الخطوات الأولى أو ما بعدها ، وفي هذا سر من أسرار اصطفائه للرسالة العظمى من دون ريب[٢٢] .

٢

وما لبث الوقت أن حان لاعلان الدعوة ، وأصدر الله سبحانه أمره إلى الرسول ﷺ أن (يصدع) بما جاءه منه وأن يتجاوز الطور السري للدعوة الذي استغرق ما يزيد على الثلاث سنوات إلى الجهر والعلن تنفيذاً لأمر الله (فاصدع

---

(٢١) الدعوة الى الاسلام ص ٣٨ وعن دار الارقم : انظر
Encyclopeadia of Islam vol I. p.p. 434-35.

(٢٢) دروزة : سيرة الرسول ١٦٢/١ .

بما تؤمر وأعرض عن المشركين) ولقوله تعالى (وانذر عشيرتك الاقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . وقل : اني أنا النذير المبين) .

وقد بدأ الرسول ﷺ الدور الجديد للدعوة بأن صعد إلى الصفا ودعا بني المطلب أن يجتمعوا اليه ، فاجتمع اليه منهم حوالي الأربعين ، فيهم عدد من أعمامه ، وبدأ حديثه معهم : يا بني فلان ، يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ارأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً، قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقاطعه أبو لهب ساخراً : تباً لك !! ما جمعتنا إلا لهذا . ثم انصرف بنو عبد المطلب في أعقابه[٢٣] .

ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول دعوته العلنية بانذار عشيرته الأقربين ، إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية ، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يمين على نصرته وتأييده وحمايته . كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص لما لهذا البلد من مركز ديني خطير فجلبها الى حظيرة الإسلام لا بد وأن يكون له وقع كبير على بقية القبائل .. على أن هذا لا يعني أن رسالة الاسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش ،لأن الاسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش كخطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية.والواقع أن كثيراً من الآيات المكية كانت تنص على أن القرآن (ما هو إلا ذكر للعالمين)[٢٤] الأمر الذي يدل على أن فكرة الدعوة العالمية كانت قائمة منذ هذا الوقت المبكر[٢٥] .

---

(٢٣) الطبري : تاريخ ٣١٩/٢ ، البلاذري : انساب ١١٩/١ — ١٢١ ، ابن سعد ١/١ ١٣٣ ، ابن الاثير : الكامل ٦٠/٢ — ٦٣ ، ابن كثير : ٣٨/٣ — ٤١ .

(٢٤) هود ١١٤ وانظر : الانعام ٩٠ ، التكوير ٢٧ ، القلم ٥٢ .

(٢٥) صالح احمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ٣٢٨/١ — ٣٢٩ . وعن الدائرة الواسعة لعشيرة الرسول (ص) التي وسعتها علاقات الزواج والمصاهرة انظر بالتفصيل المصدر السابق ٣٢٩/١ — ٣٣٣ ، وعن اسماء المسلمين في العصر المكي انظر القوائم الدقيقة التي ثبتها العلي في كتابه انف الذكر ص ٣٨١ — ٣٩٠ والملحق الاخير لكتاب مونتكمري وات : محمد في مكة وقوائم كايتاني في كتابه (حوليات الاسلام) وانظر كذلك : وات ، المرجع السابق ص ١٤٤ — ١٤٧ .

ما لبث الرسول ﷺ أن جوبه بمعارضة شديدة من قومه، وباجماع منهم على مقاومته وصدّه، سيما بعد الحملات الشديدة التي راح يشنها على آلهتهم وأصنامهم[٢٦] ووقف عمه أبو طالب ينافح عنده ضد قريش، فرأى زعماؤها أن يبعثوا اليه وفداً من أشرافهم علهم يقنعونه بوقف ابن أخيه عن المضي في دعوته، أو - على الأقل - بالتخلي عن اسناده وحمايته. والتقى رجالات الوفد بأبي طالب وقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديلنا وسفه أحلامنا وضلّل اباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلّي بيننا وبينه. فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردهم رداً جميلا فانصرفوا عنه[٢٧].

مضى الرسول ﷺ في طريقه، يظهر دين الله ويدعو اليه، بينما ظل بعض كبار أصحابه كأبي بكر وسعيد بن زيد وعثمان على سريتهم وكتمانهم، زيادة في الحيطة، أما حمزة وأبو عبيدة وعمر - فيما بعد - فقد راحوا يجهرون[٢٨] واشتد العداء بين محمد والوثنية عمقاً، وامتلأت صدور المشركين حقداً عليه وهم يرونه يعلن حربه التي لا هوادة فيها ضد قيمهم والهتهم، وراحوا يكثرون الحديث في أمره، ويتآمرون ضده، ويحضّ بعضهم بعضاً عليه. ثم ارتأوا أن يقابلوا أبا طالب مرة أخرى وقالوا: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب الهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. فبعث أبو طالب إلى ابن أخيه وقال له: يا ابن أخي ان قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، فابق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق[٢٩].

---

(٢٦) انظر البلاذري : انساب ١/١١٥ - ١١٦ .

(٢٧) ابن هشام ص ٥٤ - ٥٥ ، الطبري : تاريخ ٢/٣٢٢ - ٣٢٣ ، اليعقوبي ٢/١٩ - ٢٠ .

(٢٨) البلاذري : انساب ١/١٢٣ .

(٢٩) ابن هشام ص ٥٥ - ٥٦ ، الطبري ٢/٣٢٣ .

ظن الرسول ﷺ أن عمه قد ضعف عن نصرته، وانـه ربما خذله وأسلمه لأعدائه فقال: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه» فما كان جواب عمه إلا أن قال: «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا اسلمك لشيء أبداً»[٣٠].

وعندما أدركت قريش إصرار أبي طالب على حماية ابن أخيه، ساروا اليه ثالثة، ومعهم عمارة بن المغيرة، وقالوا: يا أبا طالب، هـذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه واتخذه ولداً، فهو لك، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفّه أحلامهم، فنقتله، فانما هو رجل برجل فأجابهم أبو طالب: والله لبئس مـا تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هـذا والله ما لا يكون أبداً[٣١].

ويورد ابن سعد رواية لا نجدها في المصادر الأخرى، ولا ندري مـدى صحتها، تشير إلى محاولة مبكرة من زعماء قريش لاغتيال الرسول ﷺ، وكيف أنهم بعد فشل مفاوضاتهم مع أبي طالب وعجزهم عن إغراء الرسول ﷺ قالوا «ما خير من أن يغتال محمد». فلما كان مساء تلك الليلة، فقد الرسول ﷺ، فبحث عنه أبو طالب فلم يجده فظن أنه قد أصيب بمكروه، فجمع فتياناً من بني هاشم وبني المطلب وأمر كـلا منهم أن يحمل حديدة صارمة لقتال زعماء القوم إذا ثبت قتلهم لمحمد ﷺ. إلا أن أبا طالب سرعان مـا أبلغ أن محمداً يجلس الآن في داره بالصفا بمنأى عن الشر. وفي اليوم التالي صحب أبو طالب ابن أخيه إلى أندية القرشيين ومعه فتيان بني هاشم والمطلب، وراح يقول لهم «يا معشر قريش، هل تدرون ما هممت به؟» قالوا: لا، فأخبرهم الخبر وقال للفتيان: اكشفوا عما في أيديكم، فكشفوا فاذا كل رجـل منهم يحمل حديدة

---

(٣٠) ابن هشام ص ٦٥، الطبري: تاريخ ٣٢٦/٢، ابن الاثير ٦٤/٢.

(٣١) ابن هشام ص ٥٦ — ٥٧، الطبري ٣٢٦/٢ — ٣٢٧، ابن سعد ١٣٤/١/١ — ١٣٥، ابن الاثير: الكامل: ٦٤/٢ — ٦٥.

صارمة . فقال : والله لو قتلتموه ما بقيت ومنكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم . فانكسر القوم ، وكان أبو جهل أشدهم انكساراً [٣٢]. ولعل هذه الرواية تفسّر لنا لماذا سكت القرشيون في السنين التالية عن وقف خطر انتشار الدعوة بقتل الرسول ، واكتفائهم بفتنة ضعاف المسلمين ، وأنهم لم يعودوا إلى اعتماد أسلوب الاغتيال إلا بعد أن حزب الأمر ، وامتد نشاط الرسول ﷺ إلى خارج مكة وبدأ المسلمون هجرتهم صوب يثرب لتأسيس دولتهم هناك .

أدركت قريش ألا جدوى من أية محاولة تبذلها لاستمالة أبي طالب ووقف حمايته للرسول ﷺ ، فقررت أن تدع أسلوب المفاوضة والحوار الى العنف والقوة ، وأن تعلن حربها ضد الدعوة الجديدة والمنتمين اليهـا ، وأن تدفع كل قبيلة منها الى أن تنقضّ على المسلمين من أبنائها فتعمل فيهم تعذيباً وتفتنهم عن دينهم ، فنفذت القبائل تعليمات الزعامة الوثنية وصبّت عـلى رؤوس المسلمين عذابها ومطارداتها وأذاهـا ، وأغرت سفهاءها بالرسول ﷺ فكذبوه وأذوه واتهموه بالسحر والشعر والكهانة والجنون ، ومحمد ماض في هجومه على دينهم واعتزال أوثانهم ورفض قيمهم وأعرافهم .

وكانوا يجتمعون قريباً مـن الكعبة حتى اذا طاف بها الرسول ﷺ غمزوه ببعض القول فكان يرد عليهم « أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح » [٣٣] وعندما كانوا يأخذون بمجامع ردائه ويقولون له أنت الذي تقول كذا وكذا في عيب آلهتنـا وديننا ، كان يجيبهم بصراحة لا التواء فيها « نعم أنا الذي أقول ذلك » . وسعى أحدهم — مرة — الى الحاق الأذى به فلوى ثوبـه في عنقه وخنقه خنقاً شديداً ، فنافح أبو بكر دونه وهو يقول « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ » [٣٤] . وقال أبو جهل ، وقد أغاظه ازدياد أتباع النبي يوماً بعد يوم : والله لئن رأيت محمداً يصلي ، لأطأن رقبته . فبلغه أنه

(٣٢) الطبقـات ١/١/١٣٥ .
(٣٣) كناية عن الهلاك ان لم يؤمنوا (عن تهذيب سيرة بن هشام) .
(٣٤) ابن هشام ص ٥٧ — ٦٠ ، الطبري : تاريخ ٢/٣٣٢ — ٣٣٣ .

يصلي فأقبل مسرعاً فقال : ألم أنهك يا محمد عن الصلاة ؟ فانتهره رسول الله ﷺ فأجاب : أتنتهرني وتتهددني وأنا أعز أهل البطحاء ؟ [٣٥] .

وعندما اقترب موسم الحج خاف زعمـاء قريش أن يفيد الرسول ﷺ من فرصة التجمع البشري هذه فيتصل بوفود العرب وقبائلها ويعرض عليها الاسلام فدعا أحد كبارهم وهو الوليد بن المغيرة قومه إلى أن يجتمعوا اليه وأعلمهم أن الموسم قد حضر وأن وفود العرب قادمة إلى مكة ، وأن عليهم أن يصدروا في أمر الرسول عن رأي واحد كيلا يختلفوا ويكذب بعضهم بعضاً . فقال بعضهم : نقول انه كاهن ، فأجاب الوليد : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . فقال اخرون : نقول مجنون . أجاب : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فمـا هو بخنقه ولا وسوسته . قالت فئة ثالثة . نقول شاعر . فأجاب الوليد : مـا هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قال بعضهم : فنقول ساحر . أجاب الوليد : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحّار وسحرهم فمـا هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما تقول أنت ؟ قال : « والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق[٣٦] وان فرعه لجناة [٣٧] ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل . وإنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته . وتفرق القوم على هذا الرأي وانتشروافي مداخل مكة ومسالكها حيث تمر الوفود لأداء مناسك الحج، فكلما مرّ بهم وفد حذروه دعوة الرسول ﷺ واتهموه بالسحر. وجاءت محاولتهم هـذه بعكس النتائج التي توقعوها ، ذلك أن العرب صدروا ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها ، فكأن قريشاً

---

(٣٥) البلاذري : انساب ١٢٦/١ .
(٣٦) العذق : النخلة (عن تهذيب سيرة ابن هشام) .
(٣٧) الجناة : ما يجنى (المصدر السابق) .

سمعت – من حيث لم تشعر ولم ترد – إلى نشر الدعوة الناشئة في الآفاق(٣٨) .

مضت الدعوة تشق طريقها الصعب في مكة بين قبائل قريش رجالاً ونساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين وأسلم حمزة بن عبد المطلب غضباً لابن أخيه من أبي جهل الذي آذاه وشتمه ونال منه ورأت قريش أن تعود – ثانية – حيث لم تجد الفتنـة والاضطهاد ، إلى أسلوب المفاوضة والاغراء ، فاجتمع أشرافهـا من كل قبيلة : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، أبو سفيان بن حرب ، النضر بن الحارث ، أبو البختري بن هشام ، الأسـود بن عبد المطلب ، زمعـة بن الأسود ، الوليد بن المغيرة ، أبو جهل بن هشام ، عبد الله بن أبي أمية ، العاص بن وائل ، نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأمية بن خلف اجتمعوا بعد غروب الشمس قريباً من الكعبة وقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه . فبعثوا اليه أن أشراف قومك قـد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم . فجاءهم رسول الله ﷺ مسرعاً ، فقالوا له : يا محمد إنا قد بعثنا اليك لنكلمك وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما ادخلت على قومك ، لقـد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيّا تراه قـد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فأجابهم رسول الله : ما بي مـا تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني اليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم .

---

(٣٨) ابن هشام : ص ٥٧ – ٥٨ ، البلاذري : انساب ١/ ١٢٣ .

حينذاك طلب زعماء قريش منه أن يأتيهم بمعجزة مـا ، أن يوسع عليهم وادي مكة ، أو يفجر فيـه الأنهار ، أو يبعث أحد آبائهم حياً كي يخبرهم عن صدق نبوته ، أو يجعل لهم جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة ، أو يسقط السماء عليهم كسفاً ، أو يسأل ربه أن يبعث معه ملكاً يصدقه بما يقول « فانك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً فيما تزعم . فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل » . فما كان جواب الرسول ﷺ إلا أن ظلّ يردد عليهم« ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت اليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فان تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه عليّ اصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم »(٣٩) .

وخلال ذلك كان اتباع الدين الجديد يقاسون شتى أنواع العذاب والاضطهاد وكانت كل قبيلة تثب على من فيهـا من المسلمين ، أحراراً وعبيداً ، فتحبسهم وتعذبهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي ينصب عليهم ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم. وقد روى مجاهد أن المستضعفين من المسلمين البسوا دروع الحديد، وصهروا في الشمس حتى بلغ الجهد منهم(٤٠) .

كان بلال بن رباح مؤمناً صادق الايمان ، طاهر القلب ، وكان سيده أمية بن خلف الجمحي يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد...فيضع أمية في عنقه حبلاً ويأمر الصبيان فيجرونه.وكان ورقـة ابن نوفل يمر به وهو يعذب ويصرخ أحد أحد، فيقول: أحد أحد والله يا بلال. وظل بلال على هذه الحال إلى أن أعتقه أبو بكر وأعتق معه ست رقاب أخرى من

(٣٩) ابن هشام : ص ٦٤ — ٦٧ .
(٤٠) البلاذري : انساب ١/١٥٨ .

ضعفاء مكة من الرجال والنساء ، وعندما قال له ابوه ، يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً ، لو أنك إذ فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك . أجاب أبو بكر : يا أبتِ إني إنما أريدالله عز وجل(٤١) .

يقول عمرو بن العاص : مررت ببلال وهو يعذب في الرمضاء ، لو أن بضعة لحم وضعت لنضجت ، وهو يقول : أنا كافر باللات والعزى ، وأمية بن خلف مغتاظ عليه فيزيده عذاباً فيغشى عليـــه ثم يفيق .. ويقول حسان بن ثابت : اعتمرت ، فرأيت بلالا في حبل طويل ، تمده الصبيان، ومعه فيه عامر بن فهيرة وهو يقول : أحد أحد ، أنا كافر باللات والعزى ، فاضجعه أمية على الرمضاء . ويقول مجاهد: جعلوا في عنق بلال حبلا وأمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين جبلي مكة ، ففعلوا ذلك وهو يقول : أحد أحـــد .. ويقول عروة : كان بلال من المستضعفين من المؤمنين وكان يضرب حين اسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ... ويقول بلال نفسه : اعطشوني يوماً وليلة ، ثم أخرجوني فعذبوني في الرمضاء في يوم حار(٤٢) .

وكان أبو فكيهة المسمى (أفلح) عبداً لصفوان بن أمية ، فمر به أبو بكر وقد أخذه أمية بن خلف فربط في رجله حبلا وأمر به فجر ثم القاه في الرمضاء.. وجعل يغلظ عليه ويخنقه ومعه أخوه أبيّ بن خلف يقول : زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره ، ولم يزل على تلك الحال حتى ظنوا انه قد مات ، ثم افاق فاشتراه ابو بكر وأعتقه(٤٣) .

وكانت زنيرة قد عذبت حتى عميت ، فقال لها ابو جهل : إن اللات والعزى فعلتا بك ما ترين فقالت وهي لا تبصره: وما تدري اللات والعزى من يعبدهما ممن لا يعبدهما ، ولكن هذا أمر من السماء .. فاشتراهـــا أبو بكر وأعتقها .

---

(٤١) المصدر السابق ١/١٨٤ — ١٨٥ ، ابن هشام ص ٦٩ — ٧١ .
(٤٢) البلاذري : انساب ١/١٨٥ — ١٨٦ .
(٤٣) المصدر السابق ١/١٩٤ — ١٩٥ .

وكانت النهدية أَمة لامرأة من بني عبدالدار وكانت تعذبها وتقول: والله لا اقلعت عنك أو يعتقك بعض من صباتك فابتاعها أبو بكر وأعتقها . وكانت أم عنيس أَمة لبني زهرة فكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها فابتاعها أبو بكر وأعتقها[٤٤].

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم في رمضاء مكة ، فيمر بهم الرسول ﷺ فيقول: صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة !! وقتلت أمه وهي تأبى إلا الإسلام فكانت أول شهيدة في الإسلام ، ويقال أنها أغلظت لأبي جهل في القول فطعنها في بطنها .. وكان عمار يعذب حتى لا يدري ما يقول[٤٥] وجيىء بخباب بن الارت فجعلوا يلصقون ظهره بالأرض على الرضف حتى ذهب ماء متنه ، فجاء إلى النبي ﷺ يوماً يشكو ما أصابه فقال له الرسول ﷺ : لقد كان الرجل من قبلكم يمشط بامشاط الحديد حتى يخلص إلى ما دون عظمه من لحم وعصب ، ويشق بالمناشير ، فلا يردّه ذلك عن دينه وأنتم تعجلون . والله ليمضين هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله وحده ، والذئب على غنمه[٤٦] . ويحدثنا خباب نفسه فيقول : لقد رأيتني يوماً وقد أوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها ، ثم وضع رجل رجله على صدري ، فما أتيت الأرض إلا بظهري (ثم كشف خباب عن ظهره فاذا هو قد برص) ، ولولا اني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يتمنين أحدكم الموت) لتمنيته !![٤٧] .

وكان صهيب بن سنان الرومي من المؤمنين المستضعفين الذين يعذبون في الله، وكان يمر بقريش يصحبه خبـــاب وعمار ، فكانوا يقولون : هؤلاء جلساء محمد ويهزؤون ... فيرد صهيب : نحن جلساء نبي الله ، آمنـــا وكفرتم وصدقناه

---

(٤٤) المصدر السابق ١/١٩٦ .
(٤٥) المصدر السابق ١/١٥٨ — ١٥٩ .
(٤٦) المصدر السابق ١/١٧٦ .
(٤٧) المصدر السابق ١/١٧٨ .

وكذبتموه ، ولا خسيسة مع الاسلام ولا عز مع الشرك . فجعلوا يعذبونـه ويضربونه وهم يقولون : انتم الذين مَنّ الله عليكم من بيننا ؟[٤٨]

وكان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة، أنّبه وأخزاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك . لنسفهن حلمك ولنقبحن رأيك ولنضعن شرفك . وإن كان تاجراً قال : والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك . وإن كان ضعيفاً أغرى به[٤٩] .

واجتمع أصحاب الرسول ﷺ يوماً فقالوا : والله مـا سمعت قريش بهذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يُسمِعهُموه ؟ فقال عبدالله بن مسعود : أنا ! قالوا : إنا نخشاهم عليك إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونـه من القوم إن أرادوه . فقال : دعوني فإن الله سيمنعني . وانطلق إلى الكعبـة ، وقريش في أنديتها ، وراح يتلو هناك بصوت عـال (الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمـه البيان . .) فتأمل القرشيون فيه وجعلوا يتساءلون : ما يقول ابن أم عبـد ؟ أجاب بعضهم : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا اليه وجعلوا يضربون في وجهه وهو ماض في تلاوة السورة ، حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وآثار اللطمات على وجهه ، فقالوا : هذا الذي خشينا عليك ! قال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن ، لئن شئتم لاغادينهم غداً بمثلها ! قالوا : لا . حسبك ، فقد أسمعتهم ما يكرهون[٥٠] . وروى الطبري في سياق تفسير آيات سورة العنكبوت (٨ — ٩) أن سعد بن أبي وقاص كان يقول لأمه التي أخذت تلح عليه بالارتداد « يا أمه ، والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت ديني » ![٥١] .

---

(٤٨) المصدر السابق ١٨٤/١ .
(٤٩) المصدر السابق ١٩٨/١ . ابن هشام ص ٧١ — ٧٢ .
(٥٠) الطبري : تاريخ ٢٣٤/٢ — ٢٣٥ .
(٥١) دروزة : سيرة الرسول ٢٨٠/١ .

ويظهر أن بعض المسلمين قد تضعضعوا أمام المحنة ولم يطيقوا تحمل الأذى والاضطهاد ، وأنهم أبدوا شكهم في نصر الله الموعود للمسلمين فنزلت الآيات ١١ — ١٥ من سورة الحج تحمل على هذا النوع من الناس باسلوب عام حملة لاذعة في سياق وبيان مراتب الناس من عبادة الله والاعتراف به والاخلاص له ، فالمخلص يجب أن يؤمل في رحمة الله ونصره وإن تأخرا ، وإذا لم ينلهما في الدنيا فهو نائلهما في الآخرة ، والإيمان المشروط بألاّ ينال صاحبه إلا النفع ، لا يليق بمؤمن صادق لأن الإيمان مسألة مستقلة لا علاقة لها باعراف الدنيا المتقلبة على الناس (. .ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون الله ما لا يضره ومالا ينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد)[٥٢] .

عن سعيد بن جبير قال : قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال :نعم والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرب الذي نزل به ! ![٥٣] .

ومن جهة أخرى ، لنا أن نتساءل فيما إذا كان من المسلمين من كان يقابل الأذى والعدوان بمثله في مكة ، أو همّ بذلك ؟ فنقول إن في بعض الآيات ما يلهم بالإيجاب الذي نعتقد انه مما يتّسق مع طبيعة الأمور ، إذ لا يصح أن يفترض خضوع المسلمين كافة للأذى وصبرهم عليه ، وكان فيهم الأقوياء في أشخاصهم أمثال عمر وحمزة ، كما كان فيهم الأقوياء بعصبياتهم أيضاً وخاصة في بيئة مثل بيئة النبي ﷺ وعصره قويت فيها العصبية الاجتماعية وكانت ناظماً مهماً في علاقات الناس بعضهم ببعض . إلا أن القرآن أمرهم أن يكفوا أيديهم لأن

---

(٥٢) المرجع السابق ٢٨٣/١ — ٢٨٤ .
(٥٣) ابن هشام ص ٧٢ . البلاذري : انساب ١٩٧/١ .

وقت المجابهة لم يحن بعد . وهنالك من الآيات(٥٤) ما يلهم بقوة أن بعض المسلمين كانوا أحياناً يوجهون الشتائم إلى الكفار بسبيل التنديد بهم وبعقائدهم مواجهة ، وهذا لا يكون إلا من أناس أقوياء الشخصية جرآء على الباطل مهما قوي أصحابه وبالتالي تلهم بقوة أن من المسلمين من كانوا كذلك وكانوا لا يرون أن يسكتوا على الكفار وفجارهم(٥٥). وفي تفسير الطبري لآيات سورة النحل (١٢٥–١٢٨) عن بعض التابعين أن بعض المسلمين في مكة قالوا : يا رسول الله لو أذن لنا الله لانتصرنا من هؤلاء الكلاب ، فأنزل الله الآيات المذكورة(٥٦) .

٣

أدرك رسول الله ﷺ بعد سنتين من الجهر بالدعوة ، ألا قدرة له على حماية أتباعه من البلاء الذي ينزل بهم ليل نهار ، وأن الزعامة الوثنية ماضية في عنفها واضطهادها وتعذيبها لهم ، مصممة على استخدام أي اسلوب لوقف الدعوة عند حدها وخنقها وهي بعد في المهد .. ورأى أن يمنح المعذبين المضطهدين فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم ويستعيدون قواهم النفسية والجسدية ، ويعودون ثانية إلى ساحة الصراع وهم أقدر وأصلب .. وعسى الله أن يحدث – خلال ذلك – أمراً كان مفعولا . فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة « فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد » حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه . فاستجاب له المسلمون وتسلل عدد منهم من مكة صوب الساحل ، كي تقلهم سفينتان كانتا متجهتين صوب الجنوب . وخرج نفر من قريش في آثارهم ، وعندما بلغوا الساحل

---

(٥٤) الانعام : ١٠٨ .

(٥٥) دروزة : سيرة الرسول ١/٣٠٩ – ٣١٠ .

(٥٦) المرجع السابق ، هامش ١ ، ١/٣١٢ وعن تفسير الآيات التي تعرضت لمقاومة المشركين للدعوة ، انظر : تفسير الطبري ٢/٢١٩ ، ٧/٢٧ ، ١٨٤ ، ٢٠٧ ، ٨/١٧ ، ٩/ ١٥١ ، ١٤/٤٨ – ٥١ ، ١٥/٧٥ ، ١٠٧ – ١١٠ ، ١٦/١١ ، ١٧/٦ ، ٩٢ ، ١٨/ ١٢٦ ، ١٣٩ ، ٢٣/٢٠ – ٢٥ ، ٤٠ ، ٨٠ ، ٢٩/١٤ – ١٥ ، ٩٦ ، ١٢٤ ، ١٣٨ .

كانت السفن قد بعدت عنه[٥٧] . وكان أول من هاجر منهم ، عثمان بن عفان وامرأته رقية ابنة الرسول ﷺ ، أبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل ، الزبير بن العوام ، مصعب بن عمير ، عبد الرحمن بن عوف ، أبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية ، عثمان بن مظعون عامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي حيثمة ، أبو سبرة بن أبي رهم وسهيل بن بيضاء . وقد أمّر عليهم جميعاً عثمان بن مظعون . ثم خرج جعفر ابن أبي طالب، وتتابع المهاجرون منفردين أو مع أهليهم ، حتى اجتمعوا بأرض الحبشة بضعة وثمانين مهاجراً عدا أبنائهم الصغار الذين خرجوا معهم أو ولدوا هناك[٥٨] .

كان اختيار الحبشة داراً لهجرة المسلمين خطوة موفقة من خطوات الرسول المدروسة فهناك ، إضافة إلى الصفة التي وصف ملكها بها في الحديث المروي عن النبي ، تيّسر السفر اليها بالسفن ، ومساعدة الرياح الموسمية لهذا السفر البحري في ظروفه ، فضلاً عن العلاقات المذهبية الطيبة بين الاسلام والنصرانية .. بل انه ليخطر بالبال أن من أسباب اختيار الحبشة أمل وجود مجال للدعوة فيها

(٥٧) الطبري : تاريخ ٣٢٩/٢ .

(٥٨) ابن هشام ص ٧٢ — ٧٣ ، الطبري ٣٢٩/٢ — ٣٣١ ، ابن سعد ١٣٦/١/١ — ١٣٧ ، اليعقوبي : تاريخ ٢٢/٢ . ابن الاثير الكامل ٧٦/٢ — ٧٧ . ابن كثير : البداية ٦٦/٣ — ٦٩ . المقدسي : ١٤٩/٤ — ١٥١ . وانظر عن المهاجرين بالتفصيل : البلاذري : انساب ١٩٨/١ — ٢٢٩ . حيث يقدم معلومات مفصلة عن مسألة الهجرة الى الحبشة لا نجد غالبها في المصادر الاخرى . وهو يذكر — فيما يستعرض من تفاصيل — ان ابا بكر الصديق (رض) عزم هو الاخر على الهجرة الى الحبشة بسبب اذى المشركين واضطهادهم له . ولقد غادر مكة فعلا الا ان سيد قبائل القارة الحارث بن يزيد الملقب بابن الدغينة اعترضه في الطريق واقنعه بالرجوع واعلن للمشركين عن جواره له . لكن ابا بكر استمر — وهو في مكة — يؤدي شعائر الاسلام ويدعو اليه ، الامر الذي دفع ابن الدغينة الى انهاء جواره له ، فما كان من ابي بكر الا ان قال : ارجع اليك جوارك وأرضى بجوار الله !! . (انساب : ٢٠٥/١ — ٢٠٦ ، وانظر نفس الرواية في البخاري : تجريد ٧١/٢ — ٧٢ ، درمنغم : حياة محمد ص ١٢ — ١٢٤) ..

وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلاً بهذا الأمل . ولعل ما روي عن إسلام النجاشي وغيره من الاحباش ووفادة بعضهم على النبي مسلمين مستطلمين مـــا يستأنس به على صحة هذا الخاطر ، إذ يرى أثر نجاح لهــــذه الدعوة في هاتيك الديار . ولعل حادثـــة انتصار الأحباش لنصارى اليمن التي كانت حاضرة في أذهان العرب كانت ذات تأثير أيضاً في توجيه الهجرة إلى هذه البلاد ، فالمسلمون بهذا يكسبون حليفاً قوياً تجمع بينهم وبينه الرابطة الدينية . والمشركون يقع في نفوسهم شيء من الخوف والتوجس والجنوح إلى الارعواء بسبب توثق الصلة بين المسلمين وهذا الحليف القوي[٥٩] . هذا إلى أن اختيار منطقة كاليمن أو يثرب سوف يعرض المهاجرين لبطش العناصر الوثنية واليهودية المنتشرة هناك .

ويضطرب (وات) في تحليل أسباب الهجرة إلى الحبشة وبقاء المسلمين هنـاك ردحاً طويلاً ، بين خمسة أسباب أولها الهروب من الاضطهاد وثانيها البعد عن خطر الارتداد وثالثها ممارسة النشاط التجاري ورابعها السعي للحصول على مساعدة حربية من الأحباش . ثم يشكك في جدوى الاعتماد على هـذه الأسباب ويقول « مـــن الصعب مقاومة الفكرة القائلة بوجوب الاطمئنان إلى السبب الخامس وهو أنه نشأ انقسام قوي في الرأي داخل أمة الاسلام الناشئة »[٦٠] . وفي مكان سابق كان وات قد قال « ويبدو أن إقامة خالد بن سعيد الطويلة في الحبشة تشير إلى أنه كان على خلاف مع محمد في سياسته وأنه لم يكن يوافق على التوجيه السياسي المتزايد للاسلام ، ولا على أهمية الدور السياسي لمحمد بسبب نبوته ، ولو أن خالداً اهتم بالنواحي السياسية للرسالة لدفن خلافه مع محمد وعاد إلى مكة قبل السنة السابعة للهجرة »[٦١] .

يستنتج وات من هذه الأخبار القليلة التي ساقهـا – كما يقول صالح العلي –

---

(٥٩) دروزة : سيرة الرسول ١/٢٧٢ – ٢٧٣ . وانظر بوهل في
Ency. art: Muhammad

(٦٠) انظر بالتفصيل وات : محمد في مكة ص ١٨٢ – ١٨٩ .

(٦١) المرجع السابق : ص ١٦٢ .

حدوث خلاف في الرأي بين المسلمين ، وخاصة مع أبي بكر الذي كانت له مكانة قوية عند الرسول ﷺ ويرى أن الرسول أوعز لمخالفي أبي بكر بالهجرة إلى الحبشة تفادياً للأخطار التي قد تنجم عن هذا الخلاف . غير أن الأدلة التي يسوقها وات ليست قوية ، فان بعض من هاجر إلى الحبشة كعثمان وطلحة كانوا من أصحاب أبي بكر. وتروى بعض الروايات أن أبابكر هو الذي جاء بهم إلى الرسول ليسلموا . كما أن اختفاء أسماء بعض المسلمين الأول المهاجرين وعدم لعبهم دوراً رئيسياً في السياسة فيما بعد ، وخاصة في عهد أبي بكر ، لا يمكن أن يعزى إلى خلافهم معه فقط بل قد يرجع إلى انشغالهم بأمور أخرى في الحياة . والواقع أن أبا بكر استعان بكثير ممن أسلم عند فتح مكة أو بعدها وبأولاد كثير ممن قاوم الإسلام فلو أهمل أبو بكر رجلاً لماضيه لكان الأجدر به أن يهمل هؤلاء ولا يسلمهم قيادة الجيوش الإسلامية التي أحسنوا قيادتها . والواقع أن الآيات القرآنية[٦٢] توحي بأن دافع الهجرة هو الاضطهاد الشديد الذي وقع على المسلمين والمحاولات التي بذلها المشركون لفتنتهم ، وأنها هي التي دفعت الرسول إلى الإيعاز اليهم بالهجرة[٦٣] . الأمر الذي كاد أن يدفع أبا بكر نفسه إلى الهجرة لولا أن أجاره أحد الزعماء[٦٤] .

كان المهاجرون ينتمون إلى مختلف القبائل : فمن بني هاشم واحد ومن بني عبد بن قصي واحد ومن نوفل واحد (حليف) ومن عبد شمس اثنان (واحد حليف)ومن تيم اثنان ومن أسد بن عبدالعزي أربعة ومن عدي خمسة (منهم واحد حليف) ومن أمية سبعة (منهم أربعة حلفاء) ومن زهرة سبعة (منهم ثلاثة حلفاء) ومن عبد الدار سبعة ومن مخزوم ثمانية (منهم واحد حليف) ومن عامر سبعة (منهم واحد حليف) ومن الحارث بن فهر ثمانية ومن جمح

---

(٦٢) انظر العنكبوت ١ — ٢٣ ، ١٠ البروج ١٠ القصص ٥٧ الزمر ١٠ ، النحل ٤١ ، ١١٠ .

(٦٣) العلي : محاضرات ص ١/٣٦٨ .

(٦٤) البلاذري : انساب ١/٢٠٥ — ٢٠٦ وانظر هامش ٥٨ .

اثنا عشر ومن سهم أربعة عشر (منهم واحد حليف[٦٥]) .

وبمجرد القاء نظرة سريعة على هذه القائمة تتبدى لنا سعة الدائرة البشرية التي امتدت اليها الدعوة الاسلامية لكي تجذب اليها عناصر من شق القبائل المكية وتجاوزت بذلك دائرة العصبية الضيقة في طريقها الطبيعي صوب الاتساع والشمول لكي تضم العرب جميعاً ... وهذا (التنوع) في أصول المهاجرين إلى الحبشة يقدم لنا دليلاً آخر لما سنذكره فيما بعد بصدد رفض فكرة (الدافع المادي) للانتماء إلى الدعوة الجديدة أو مقاومتها . فلا يعقل أن يكون هذا الدافع هو الذي قاد هؤلاء الرجال ، ذوي الأصول القبلية العديدة ، والذين ينتمي أغلبهم إلى أسر مكية عريقة ، إلى الاسلام ، تماماً كما لا يعقل أن يكون دافع (العصبية القبلية) وحده هو الرائد في هذا الميدان بما تطرحه علينا القائمة الآنفة من (تنوع) في الأصول .

ولا ننسى هنا (المرأة المسلمة) التي تحملت أعباء الاضطهاد والهجرة ، جنباً إلى جنب مع الرجل في سبيل الهدف الذي آمنت به .. وستتكرر هذه المواقف مرة تلو مرة ، في السلم والحرب ، لكي يتبين لنا المدى الواسع الذي أفسحه الاسلام للمرأة ، والمكانة العالية التي رفعها إليها ، والمسؤوليات الجسيمة التي حمّلها إياها ، بعد ما كانت تعانيه من ضيق واحتقار وإهمال في عهود الجاهلية .

ويذكر دروزة ، أنه باستثناء النفر من حلفاء قريش ونسائهم لا تذكر الروايات أسماء أرقاء ومساكين في جملة المهاجرين . وأن تعليل ذلك يعود إلى أن ضغط زعماء قريش كان أكثر شدة على أبناء أسرهم لأنهم تحسّبوا من عواقب إسلامهم بالنسبة لعامة الناس وسائر شباب الأسر ، في حين أنه لم يكن ما يخشونه من مثل ذلك من المساكين والأرقاء والفقراء والغرباء ، وأن هذه صورة مخالفة لما قد يكون في الأذهان[٦٦] .

---

(٦٥) العلي : ص ٣٦٤ .
(٦٦) دروزة : سيرة الرسول ١/٢٧٢ .

عندما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة قرر زعماؤها أن يبعثوا في طلبهم رجلين قديرين إلى النجاشي لكي يردوا المهاجرين فيمارسوا معهم من جديد الفتنة والاضطهاد واتجه الموفدان عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلى الحبشة وهما يحملان الهدايا للنجاشي ولبطارقته. وبدآ بالبطارقة فسلما كلا هدية وقالا له : إنه قد لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فان قومهم أعلم بما عابوا عليهم. فقال البطارقة : نعم . وعندما اتجه عمـــرو ورفيقه إلى النجاشي وعرضا عليه طلبهما بتسليم المهاجرين ، وقالت البطارقة من حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما ، غضب النجاشي وقال : لا والله ، إذن لا أسلمهم اليهما ، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمهم اليهما ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني(٦٧) .

وما لبث النجاشي أن دعـــا المهاجرين لحضور مجلسه ، وعندما سألهم عن طبيعة الدين الذي دفعهم إلى مفارقة قومهم ، تقدم جعفر بن أبي طالب وقال : « أيهـا الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منـا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله الينـا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، واداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك بـه

(٦٧) ابن هشام : ص ٧٣ — ٧٥ .

شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .. فصدقناه وآمنا بـه واتبعناه على ما جاء بـه من الله . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى . . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبـين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك .. ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك » . فطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ عن الله ، فتلى عليه صدراً من سورة مريم . فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم ، وقال النجاشي « ان هـــذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحـدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم اليكما[68] » .

لكن عمرو بن العاص لم ييأس ، وعاد إلى النجاشي في اليوم التالي وقال له : انهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل اليهم فسلهم عما يقولون فيه. فاستدعاهم وسألهم ، فأجابه جعفر : « نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها إلى مريم العذراء البتول». فتناول النجاشي عوداً وقال : والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود فأبدى بطارقته استياءهم فردهم وأعلن عن حمايته للمهاجرين وقال لمن حوله: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها ، فغادر عمرو ورفيقه أرض الحبشة عائدين إلى مكة[69] .

بلغت طلائع المهاجرين ، بعـــد شهرين من اقامتهم في الحبشة أنبـاء تشير إلى أن أهل مكة قـد اعتنقوا الاسلام ، فقفل بضعة وثلاثون رجلا منهم عائدين إلى بلادهم ، وما أن اقتربوا منها حتى أيقنوا كذب تلك الأنباء ، فتسلل بعضهم مستخفياً إلى مكة ، ودخل آخرون بجوار بعض المشركين ،

---

(٦٨) المصدر السابق ص ٧٥ ــ ٧٦ . اليعقوبي : تاريخ ٢٣/٢ ــ ٢٤ .
(٦٩) ابن هشام ص ٧٦ ــ ٧٧ . الطبري : تاريخ ٣٣٥/٢ . المقدسي : ١٥١/٤ ــ ١٥٢ . ابن الاثير : الكامل ٧٩/٢ ــ ٨٢ . ابن كثير : البداية ٧٠/٣ ــ ٧٩ .

ورجعت فئة ثالثة من حيث أتت [٧٠] . وقد ظل معظم المهاجرين في أرض الحبشة حتى السنة السادسة للهجرة حيث عقد الرسول ﷺ مع قريش صلح الحديبية وبعث إلى النجاشي عمراً بن أمية الضمري يطلب إعادة المهاجرين إلى بلادهم فحملهم في سفينتين وقدِمَ بهم على الرسول ﷺ في أعقاب فتحه خيبر في مطلع السنة السابعة . ولقد سرّ الرسول ﷺ سروراً عظيماً لمقدمهم حتى أنه قبل زعيمهم جعفر بن أبي طالب واحتضنه قائلاً : ما أدري بأيها أنا أسرّ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ وكان عدد العائدين من الحبشة قريباً من العشرين رجلاً وعدداً من النساء والأطفال الذين ولدوا هناك ، فضلاً عن بعض الأرامل اللواتي توفي أزواجهن أيام الاقامة في الحبشة [٧١] . وكان بعض المهاجرين قد غادر الحبشة في بداية عهد المسلمين بالهجرة الى المدينة فمات بعضهم في مكة ، واعتقل البعض الآخر ، وتمكنت فئة ثالثة من اللحاق بالمدينة والاشتراك في معركة بدر وما تلاها من وقائع [٧٢] .

٤

عندما أيقنت قريش أنها قد هُزمت في محاولتها استرداد المهاجرين الى الحبشة ، وأن الاسلام أخذ ينتشر بين القبائل ، فضلا عن إسلام عمر بن الخطاب الذي عزّز جانب المسلمين في صراعهم ضد الوثنية [٧٣] ، حتى أن عبد الله بن مسعود كان يقول « ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب ، فلما

---

(٧٠) ابن هشام ص ٨٨ — ٨٩ . ابن سعد ١٤٨/١/١ . البلاذري : انساب ٢٢٧/١ — ٢٢٨ الطبري : تاريخ ٣٤٠/٢ .

(٧١) ابن هشام ص ٢٦٧ — ٢٦٨ . الطبري : تاريخ ٣٤٣ . ابن سعد ٧٨/١/٣ .

(٧٢) ابن سعد ١٢٩/١/١ وعن الهجرة الى الحبشة والعودة منها انظر وات : محمد في مكة ، ملحق (و) و (ز) .

(٧٣) انظر تفاصيل اسلامه ابن الاثير : الكامل ٨٣/٢ — ٨٧ . وابن كثير : البداية ٧٩/٣ — ٨٢ . و Ency. vol. Iv P. 67.

أسلم قاتل قريشاً ، حتى صلّى عند الكعبة وصلينا معه [٧٤] ». والحق – كما يقول أرنولد – أن إسلام عمر بن الخطاب يعد" نقطة تحول في تاريخ الاسلام،فقد استطاع المسلمون أن يسلكوا منذ ذلك الحين مسلكاً أشد جرأة،وبدأ المؤمنون يجهرون بتأدية شعائر الاسلام جماعات حول الكعبة [٧٥]. حينذاك عقدت قريش اجتماعاً في مطلع السنة السابعة من بعثة الرسول ﷺ ، قرر فيه زعماؤها أن يتعمدوا أسلوباً جديداً في مجابهة الحركة الاسلامية يقوم على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب الذين كان أبو طالب قد دعاهم الى ما هو فيه من منع الرسول ﷺ دون قريش ، وكل من يساندهم وينتمي اليهم مسلمين ومشركين ، وأن تكون هذه المقاطعة شاملة لكافة المعاملات والعلائق الاجتماعية والمالية .

ويذكر البلاذري أن قريشاً توعدت بقتل الرسول ﷺ « سراً أو علانية » بعد أن أصر" على مهاجمة آلهتهم فقال أبو طالب « اللهم إن قومنا قد أبوا الا البغي ، فعجل نصرنا وحل بينهم وبين قتل ابن أخي ». وقالت قريش: لا صلح بيننا وبين بني هاشم وبني المطلب ولا رحم ولا حرمة الا على قتل هذا الرجل الكذاب السفيه . وعمد أبو طالب الى الشعب بابن أخيه وبني هاشم وبني المطلب ، وكان أمرهم واحداً ، وقال : نموت من عند آخرنا قبل أن يوصل إلى رسول الله ﷺ..وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بني المطلب. ودخل الشعب من كان من هؤلاء مؤمناً أو كافراً [٧٦] .

كتبت قريش صحيفة بالمقاطعة ، وتعاهدت على تنفيذ بنودها وعلقتها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ، وقد جاء فيها « باسمك اللهم . على بني هاشم وبني المطلب على الا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، ولا يعاملوهم حتى يدفعوا اليهم محمداً فيقتلوه [٧٧] ». فلما سرى

---

(٧٤) ابن هشام ص ٧٩ .
(٧٥) الدعوة الى الاسلام ص ٣٩ — ٤٠ .
(٧٦) انساب الاشراف ٢٣٠/١ .
(٧٧) محمد حميد الله : الوثائق ص ٢٦ .

النبأ في مكة انضم بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ودخلوا معه الشعب المسمى باسمه [٧٨] .

استمرت المقاطعة سنتين وعدة أشهر ، كان لا يصل المسلمين خلالها شيء إلا سراً ، يحمله اليهم مستخفياً من أراد مساعدتهم من قريش بدافع من عصبية أو نخوة أو عطف . ولاقى المسلمون ونبيهم ﷺ خلال ذلك آلاماً قاسية من الجوع والخوف والعزلة والحرب النفسية [٧٩] . ولا بد من الاشارة هنا إلى أن حلف الفضول الذي عقدته بعض بطون قريش وتعاهدت فيه على منع الظلم في مكة، قد تعطّل، فلم يتناد أصحابه بنصرة المظلومين ممن كان يقع عليهم العذاب ويبدو أن الملأ من قريش كان يخشى ان يطالب بنو هاشم حلفاءهم من أصحاب الفضول بالوقوف الى جانبهم ، ومن أجل ذلك كان حرصهم على الاجماع وعلى التواثق على ذلك في صحيفة مكتوبة . وقد استجابت كل البطون القرشية – ما عدا بني هاشم وبني المطلب – لأنهم اعتبروا الدعوة الاسلامية ذات خطر على مكة يهدد الجميع بالخراب لذلك اجتمعوا وتضامنوا على ايقاف هذا التيار [٨٠].

شددت الزعامة الوثنية من حملتها ضد النبي ﷺ وراحت تهمزه وتهزأ به وتخاصمه وتدفع من يرميه بالحجارة ويضع في طريقه الشوك . وفي الجهة المقابلة مضى الرسول ﷺ في دعوته لا يصدّه عائق ، وتنزلت آيات القرآن متتالية كالحمم تقرع الرؤوس الوثنية واحداً واحداً .. أبو لهب يدفع زوجته أم جميل بنت حرب لكي تحمل الشوك وتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر

---

(٧٨) ابن هشام ص ٨٢ – ٨٣ . الطبري : تاريخ ٣٣٥/٢ – ٣٣٦ . ابن سعد : ١٣٩/١ – ١٤٠ . البلاذري : انساب ٢٢٩/١ – ٢٣٠ . اليعقوبي : تاريخ ٢٤/٢ – ٢٥ ابن الاثير : الكامل ٨٧/٢ – ٩٠ . ابن كثير : البداية : ٨٤/٣ – ٨٧

(٧٩) ابن هشام ص ٨٣ . الطبري : تاريخ ١٣٦/٢ البلاذري : انساب ٢٣٤/١ .

(٨٠) احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص ٢٧٤ – ٢٧٥ .

فيجابهه القرآن (تبت يدا أبي لهب، وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب : سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد) . وأمية بن خلف يقف في درب الرسول حتى إذا مرّ به همزه ولمزه ، فيندد به القرآن (ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالاً وعدده . يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذنّ في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة . التي تطّلع على الأفئدة . إنها عليهم مؤصدة . في عمد ممددة) .. وأبو جهل بن هشام يجابه الرسول ﷺ ويقول له : « والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذي تعبد » فتجيء تعليمات القرآن (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) . والنضر بن الحارث بن كلدة ، يعقب الرسول في مجالسه فيحدثهم عن ملوك فارس وعظمتهم ثم يقول « والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبتها كما اكتتبها محمد ، فيسخر به القرآن (وقالوا : أساطير الأولين ، اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض أنه كان غفوراً رحيماً) ويندد به (ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم) .

والأخنس بن شريق الثقفي ، أحد أشراف القوم ، وممن يستمع لكلامهم ، يتصدى لرسول الله ويرد عليه ، فينزل الله فيه (ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . عتل بعد ذلك زنيم) .. والوليد بن المغيرة يتساءل : أينزل على محمد ، وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ؟ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ، ونحن عظيما القريتين ؟ فيجيبه القرآن (وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ...) .

وأبيّ بن خلف يجد رفيقه عتبة بن ابي معيط ، يجلس إلى الرسول ويستمع منه فيقسم ألا يكلمه حتى يأتيه فيتفل في وجهه ، فيفعل ذلك عدو الله فيقرعه

القرآن (ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلا . لقد اضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولاً ...) .

ويمشي أبيّ بن خلف إلى الرسول بعظم بال ويقول له: أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما ارّم؟ ويفتّه أبيّ في يده ثم ينفخه في الريح بوجه رسول الله ، فيجيبه الرسول : نعم أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار !! ويردّ القرآن : (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال : من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل : يحييها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون) .

ويعترض الرسول ﷺ عدد من رؤوس الوثنية وذوي الكلمة في قومهم ، فيقولون : يا محمد هلمّ فلنعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فان كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وان كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه . فيأمره القرآن (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين) .. وآخرون يضعون في قدره الذي يطبخ فيه رحم شاة أو يطرحونها عليه وهو يصلّي ، فكان يخرج به في أعقاب صلاته ويقول : يا بني عبد مناف ، أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق[81] ...

طالت أيام الحصار ، واشتد الأذى بالمنقطعين في شعب أبي طالب ، فلم يكن لأحد من قريش أن يزوجهم أو يتزوج منهم ، ولا أن يبيعهم أو يبتاع منهم فعصرهم الجوع عصراً. وكان المحاصرون لا يخرجون من الشعب طيلة سني الحصار « إلا من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجهد ، وتضاغى صبيانهم فسمع ضغاؤهم من وراء الشعب . وقال عبدالله بن عباس : حصرنا في الشعب ثلاث سنين ، وقطعوا

---

(81) ابن هشام ص ٨٣ — ٨٨ . الطبري : تاريخ ٢/٣٣٧ — ٣٤٣ .

عنا الميرة حتى أن الرجل ليخرج بالنفقة فما يباع شيئاً حتى مات منا قوم [٨٢] ».
ولم يكن ما يجيئهم سراً ليسكت نداء الجوع الذي لا يرحم ، حتى أن أحدهم اضطر يوماً أن يطحن قطعة من جلد بعير ويمزجها بالماء ويلتهمها التهاماً ..

وبدأ بعض رجالات قريش وشبابهـا يتذمرون للظلم الصارخ الذي نزل بحماة الرسول من بني هاشم وبني المطلب ، فسعوا إلى وقف القطيعة ، وتمزيق الصحيفة الغادرة ، وإعادة الأمور إلى مجاريهـا . وكان على رأس هؤلاء هشام بن عمرو ، الذي تصله ببني هاشم صلة من قرابة ، وكان ذا شرف في قومه ، وكان قـد بذل جهده أيام الحصار في إيصال الطعام سرّاً إلى الشعب.. فلقد اتصل بزهير بن أبي أمية ، وكانت امه عاتكة بنت عبد المطلب ، وقـال له . يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعـام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، واخوالك حيث قد علمت لا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟ أمـا أني لاحلف بالله أن لو كانوا اخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم مـــا اجابك ابداً . فأجابه زهير : فماذا اصنع ؟ انما أنا رجل واحـد ، والله ان لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى انقضها . قال هشام : قد وجدت رجلاً . قال : فمن هو ؟ اجابه هشام : انا . قال زهير : ابغنا رجلا ثالثـاً . وتمكن هشام من اقناع ثلاثة رجال آخرين هم المطعم بن عدي وابو البختري بن هشام وزمعة بن الاسود بن المطلب ، بضرورة تمزيق الصحيفة وإنهاء المقاطعة . واتعد الرجـال الخمسة على اللقاء ليلاً بأعلى مكة وهناك اجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيـــام بتمزيق الصحيفة . وقـال زهير : أنا ابدؤكم فأكون أول من يتكلم . وفي صباح اليوم التالي أقبل زهير على الناس وقـال : يا أهل مكة ، انأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هـاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمـة . فرد عليه أبو جهل : كذبت ، والله لا تشق !! قـال زمعة بن الاسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت .

---

(٨٢) البلاذري : انساب ١/٢٣٥ ــ ٢٣٦ .

وسرعان ما أيده رفاقه الثلاث . فقال أبو جهل : هذا أمر قضي بليل !! وما لبث المطعم أن قام إلى الصحيفة فمزقها [٨٣] . ثم لبس ورفاقه السلاح واتجهوا إلى الشعب وامروا بني هاشم وبني المطلب بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا . وعندما رأت قريش ذلك اسقط في ايديها وعرفت انهم لن يسلموهم [٨٤] .

٥

ما لبث الرسول ﷺ أن فجع بأعز أقربائه اليه : زوجته البرّة خديجة وعمه أبي طالب ففقد بذلك سنديه النفسي والاجتماعي ، وحزن لفقدهما حزناً عميقاً ، حتى ان ذلك العام – الذي سبق الهجرة بثلاث سنين – سمي بعام الحزن . وانتهزت قريش الفرصة فألحقت بالرسول ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب . وقد اعترضه – مرة – أحد سفهاء قريش في الطريق ، ونثر على رأسه تراباً ، فدخل الرسول بيته والتراب على رأسه فقامت إحدى بناته لتنفضه عنه وهي تبكي ورسول الله يقول لها : لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك !! [٨٥] .

ونظراً إلى أن الحجة الرئيسية للمقاطعة – التي لم يمض عليها كبير وقت – هي حماية (بني هاشم) للمسلمين ، وانها كان لها تأثير سيء في أعمال بني هاشم ، فالظاهر انهم أدركوا الأضرار التي تنجم عن استمرار حمايتهم للرسول ﷺ . ويبدو انهم بعد موت أبي طالب بدؤوا يتخلون عن تلك الحماية . ولعل أبا طالب هو العامل الأكبر في استنهاض همم بني هاشم لمساندة الرسول وحمايتهم له ، فلما

---

(٨٣) ابن هشام ص ٨٩ – ٩١ . الطبري : ٣٤١/٢ – ٣٤٣ . البلاذري : انساب ٢٣٥/١ – ٢٣٦ . ابن الاثير : الكامل ٨٧/٢ – ٩٠ .

(٨٤) ابن سعد : ١٤١/١/١ . البلاذري : انساب ٢٣٦/١ .

(٨٥) ابن هشام : ص ٩٩ . الطبري : تاريخ ٣٤٣/٢ – ٣٤٤ . ابن سعد ١٤١/١/١ . اليعقوبي : تاريخ ٢٨/٢ – ٢٩ . ابن الاثير : الكامل ٩٠/٢ – ٩١ . وانظر البلاذري : انساب ٢٣٦/١ – ٢٣٧ .

مات خففت هاشم من تأييدها وربما أدركت - بعد المقاطعة - ما يصيبها من أضرار مادية ومعنوية إذا استمرت في حمايته ، لذا أخذت تتخلى عن ذلك ، ويتجلى هذا واضحاً في أعقاب رجوع الرسول ﷺ من الطائف[86] .

أدرك الرسول ﷺ أن القيادة الوثنية في مكة مصرّة على الوقوف بوجه دعوته ماضية في إلحاق أذاها به ، واضطهاد أتباعه وفتنتهم عن دينهم ، فرأى أنّ يغادرها إلى مكان آخر ينشر فيه دعوة الاسلام ويطلب من أهله النصرة والمنعة ، فوقع اختياره على الطائف حيث تقطن ثقيف كبرى القبائل العربية بعد قريش . فغادر مكة في شوال من السنة العاشرة للبعثة ، يصحبه زيد بن حارثة . ولما انتهى إلى هناك عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادتها وأشرافها ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ، وعرض عليهم المهمة التي جاء من أجلها وهي أن ينصروه على الاسلام ويمنعوه من قومه ، فلم يلتفتوا اليه وعلقوا على دعوته ساخرين ، فقال أحدهم : انني أمزق ثياب الكعبة ان كان الله أرسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك !!

فغادرهم الرسول ﷺ بعد أن طلب منهم أن يكتموا ما جرى بينه وبينهم ، اذ كره أن يبلغ قومه ذلك فيجرئهم عليه. لكن زعماء ثقيف لم يستجيبوا لطلبه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به ، ويرمونه بالحجارة ، فلم يكن يرفع قدماً ويضع أخرى إلا على الحجارة، حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة ، وكانا هناك ، فتفرق عنه سفهاء الطائف وقدماه تنزفان دماً ، فعمد إلى ظل كرمة ونادى ربه : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس .. يا أرحم الراحمين ، أنت ربّ

---

(٨٦) العلي : محاضرات ١/٣٧٥ - ٣٧٦ .

المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري ؟ ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » !! فلما رآه ابنا ربيعة ، وشاهدا ما لقي ، تحركت له رحمهما ، فطلبا من غلام نصرانيّ لهما يدعى (عدّاس) أن يحمل اليه طبقاً من عنب . فلما أتى به الغلام ووضعه بين يديه ، مدّ الرسول ﷺ يده قائلاً : باسم الله ، ثم بدأ يأكل العنب ، فعجب الغلام لسماعه عبارة لم يألف سماعها في أرض وثنية . فقال للرسول ﷺ : والله ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فسأله الرسول : ومن أي البلاد أنت ، وما دينك ؟ أجاب : نصرانيّ ، من أهل نينوى . فسأله الرسول : من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى ؟ أجاب الغلام دهشاً : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال الرسول : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبيّ . فأكب عدّاس على رسول الله ﷺ يوسعه لثماً وتقبيلاً .. وما أن غادر الرسول البستان حتى حذره سيداه : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك ، فان دينك خير من دينه !!(٨٧) .

عندما قفل الرسول ﷺ عائداً الى مكة كانت الأمور هناك قد بلغت حداً كبيراً من السوء ، ووجد الرسول ﷺ نفسه مضطراً إلى أن يحتمي بجوار أحد من زعماء قريش ، ريثما يواصل طريق الدعوة .. فبعث الى مكة رجلاً يلتمس له الجوار ، وعرض الرجل الأمر على الأخلس بن شريق وسهيل بن عمرو فرفضا متعللين ببعض الأسباب ، ووافق المطعم بن عدي على الجوار ، ولبس وبنوه وأقرباؤه السلاح استعداداً لكل طارىء . ومن ثم دخل الرسول مكة وراح يواصل المهمة الملقاة على عاتقه . وجابهه - يوماً - جماعة من القرشيين بزعامة

---

(٨٧) ابن هشام ص ١٠١ - ١٠٣ . الطبري : تاريخ ٣٤٤/٢ - ٣٤٦ . ابن سعد ٤٢/١/١ البلاذري : انساب ٢٢٧/١ . اليعقوبي : تاريخ ٢٩/٢ - ٣٠ . المقدسي : ٥٥/٤ ابن الاثير : الكامل : ٩١/٢ - ٩٣ . ابن كثير : ١٣٥/٢ - ١٣٧ .

أبي جهل ، بسخرياتهم المألوفة ، فصرخ الرسول في وجوههم « ... أما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير كبير مــن الدهر حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً . وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش ، فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون ، وأنتم كارهون [٨٨] ».

لم ييأس الرسول ﷺ وقرر أن يستمر في عرض دعوته على قبائل العرب القادمة الى مكة في مواسم الحج والعمرة والتجارة ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدّقوه ويمنعوه حتى يبين الله ما بعثه به . وكان يتبعه عمه ابو لهب الى منزل كل قبيلة يذهب اليها فيناديهم « ان هذا انما يدعوكم الى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم .. الى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه [٨٩] ».

عرض الرسول دعوته وحمايته على كندة وبني كلب فأبوا عليه ... وعرضها على بني عامر بن صعصعة ، فسأله أحد رجالها (بحيرة بن فراس) : أرايت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ فأجاب الرسول : الأمر الى الله يضعه حيث يشاء ، فقال الرجـــل : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنـــا بأمرك !!

كما عرض الرسول دعوته وحمايته على بني حنيفة ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم ... وعرضها على بني محارب وفزارة وغسان ومرة وسليم وعبس وبني نضر وبني البكاء والحارث بن كعب وعذرة والحضارمة ، دون أن تستجيب له احداها .. وهكذا مضى رسول الله ﷺ يعرض الاسلام ويطلب

---

(٨٨) الطبري : ٣٤٧/٢ — ٣٤٨ . البلاذري : انساب : ٢٢٧/١ .
وانظر ابن سعد : ١٤٢/١/١ .

(٨٩) ابن هشام : ص ١٠٤ — ١٠٥ . الطبري : تاريخ ٣٤٨/٢ — ٣٤٩ .
ابن سعد : ١٤٥/١/١ .

نصرة القبائل واحدة واحدة وهي تأبى عليه وتصدّ عن هديه ، ولم يكتف بذلك بل راح يتصدّى لكل قادم إلى مكة له مكانة في قومه.. يعرض عليه مبادىء الدين الجديد ويدعوه إلى الله[90] .

---

(٩٠) ابن هشام : ص ١٠٤ — ١٠٧ .
الطبري : ٣٤٩/٢ — ٣٥١ .
ابن سعد : ١٤٥/١/١ .
البلاذري : انساب ٢٣٧/١ — ٢٣٨
ابن الاثير ; الكامل ٩٣/٢ — ٩٤ .
ابن كثير : البداية ١٢٨/٣ — ١٤٦

الفصل الثالث

مسائل من العصر المكي



١

ليس بإمكان أي مؤرخ أن يحدّد الأبعاد الكاملة لطبيعة اللقاء الأول ، وما تلاه من لقاءات ، بين الوحي الكريم وبين محمد ﷺ . . وكل ما ذكرته الروايات ، اعتماداً على رؤية الرسول وهو يتلقى الوحي ، أو أحاديثه القصيرة الموجزة بهذا الصدد ، لا يعدو أن يكون (وصفاً) خارجياً للتجربة الـتي تمخض عنها البناء القرآني المعجز . . وما دام الأمر في امتداده وغيابه يندّ عـن المشاهدة المباشرة والفحص التجريبي باعتباره أمراً (غيبياً) ، فليس من السهل أن نخوض فيه ، كما أنه ليس من السهل أن نخوض في أي من الأمور الغيبية الـتي لم يتح لأجهزتنا الحسّية والعقلية التعامل معها ، والإحاطة بأبعادها علمـــاً . وكل المحاولات – الشرقية والغربية – التي جهدت من أجل تحليل تجربة (الوحي) تحليلا يخضعها في نهاية الأمر للمعرفة البشرية المحدودة ، وقعت في الخطأ من حيث أنها اعتمدت الظن والتخمين في مسألة من أخطر المسائل الغيبية . . والأهم مـــن ذلك هو ما تمخض عنه هذا الأسلوب الإلهي في تعليم البشرية ، والذي يعدّ من المصادر اليقينية للمعرفة . فالقرآن – إذن – والحركة الإسلامية التي رافقته ، على خط متواز صاعد ، هما اللذان يجب أن ينصب عليهما البحث والتحليل ومحاولة الإحاطة ، من أجل أن تكون المحاولة جادة وليست ضرباً في غير هدف !

لقد تنزل الوحي على الرسول ﷺ في أعقاب فترة زمنية طويلة ، جاوزت الأربعين عاماً ، كانت الإرادة الإلهية تهيء فيها - كما رأينا - المهدات البيئية والوراثية لتكوين (الشخصية) التي سيلقى على عاتقها حمل مسؤولية الرسالة الصعبة .. وأعقب ذلك تمهيد نفسي وذهني (مباشر) تمثل بتلك الأسابيع الطوال من العزلة والتأمل والتحنث في غار حراء ، انشقاقاً على الأعراف والممارسات الجاهلية ، واندماجاً في الكون على مداه ، وبحثاً عن (العلّة الكافية) لخلقه على هذه الصورة من الدقّة والتنسيق والتماسك والنظام ، وسعيا وراء (الشريعة) التي تعيد الانسان إلى الانسجام مع النواميس التي تتحرك بموجبها السماوات والأرض ..

وما لبث الوحي الأمين ان جاء ، في اللحظة المناسبة والمكان المناسب اللذين اختارتهما العناية الالهية لإرسال محمد الى الناس كافة .. محمد الذي لم يكن يعرف ، حتى هذه اللحظة ، المصير الذي ينتظره ، والدور الذى سيكلف بأدائه ازاء الانسان والعالم . ومن ثم جاءت (هزّة) الوحي مفاجأة مذهلة لهذا الرجل المنعزل في الغار بعيداً عن الناس .. رافقها وأعقبها رعب وقلق وشك واضطراب وتمزق نفسي وحمى قاسية ، جعلت الرسول ﷺ يغادر المكان في أعقاب كل لقاء ، وهو يرتجف خوفاً واشفاقاً ، من أجل أن يلجأ الى سنده العاطفي الأول والأخير متمثلا بزوجته البرة خديجة التي كانت عند حسن الظن دوماً ..

وما أن اطمأن الرسول ﷺ الى صدق رسالته ، في أعقاب تأكيدات خديجة وابن عمها ورقة بن نوفل ، وإثر تكرر نزول الوحي عليه ، حتى بدأ - بأمر من هذا الوحي - بالعمل .. كان عليه أن يدع مرحلة (العزلة) والانقطاع ، وأن يمزق دثار الخوف والقلق والشك .. وأن ينطلق ليبدأ أولى اتصالاته من أجل بناء الحلقات الأولى من الدعاة ، أولئك الذين كتب عليهم أن يتحملوا شرف الانضواء الى أول قاعدة بشرية للدعوة الاسلامية في تاريخها الطويل .. وإذ كانت الدعوة الجديدة تتحرك تحت شعار (لا إله الا الله) بكل أبعاده الشاملة

وآفاقه الرحبة ، فقد كانت تمثل رداً حاسماً على كل القيم الجاهلية ، وانقلاباً جذرياً على مواضعات العصر وممارساته ومطامحه القريبة العاجلة .. وكان ارتطامها بمراكز السلطة والنفوذ والتوجيه في مجتمع كهذا أمراً محتماً .. ومن ثم كان على الرسول ﷺ أن يجتاز مرحلة من (العمل السرّي) ، غير المعلن ، من أجل أن يرسي دعائم حركته ويضم إليها أوثق العناصر وأعمقها إيماناً ، ويسعى خلال ذلك الى مزيد من توثيق هذا الايمان وتعميقه في نفوس الدعاة .. فعليهم ستقع المسؤولية ، وعلى مدى مقدرتهم على التحمل سيقوم البناء .. ولقد بدأ الرسول اتصالاته بأقرب الناس اليه ، من أجل مزيد من السرية والكتمان : الزوجة والصديق وابن الأخ والابن (المتبنى) .. ثم انطلق بعد ذلك في توسيع نطاق الدعوة ، يعضده ساعده الايمن ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) . وما لبثت اللبنات أن ازدادت عدداً ، والبناء ارتفاعاً ، والاسس عمقاً ورسوخاً ..

استمر العمل السرّي ثلاث أو أربع سنوات ، على خلاف في الروايات ، والدعوة خلاله تسير ببطء شديد ، رغبة في التركيز والاختيار البصير بالعناصر الأكثر جدارة و كفاءة ومقدرة على تحمل مسؤولية الايمان .. وكان القرآن الكريم يتنزل خلال ذلك مؤكّداً على قضية واحدة وأمر واحد ، لم يتجاوزه إلى (المسائل) الأخرى الا قليلاً ، تلك هي قضية (العقيدة) التي راح القرآن يحبك ، بأسلوبه المعجز وآياته البينات ، جوانبها الشاملة وبناءها المتشابك في نفوس أتباعه وعقولهم وضمائرهم ، ويحيلهم واحداً بعد آخر ، ويوماً بعد يوم ، الى شخوص حيّة تتحرك بالقرآن ، فتكون حركتها تعبيراً حيوياً واقعياً عن التصور الجديد الذي طرحه القرآن ، والذي جاء لينعكس بالضرورة على السلوك اليومي للانسان المسلم .. وكلما تقدم الزمن بالدعوة الاسلامية وتنزلت الآيات البينات لبناء العقيدة ، كلما نمت قواعد الدعوة الاسلامية وازدادت (تمثلا) لهذه الآيات ، الأمر الذي جعلها تنمو بشكل مواز تماماً لنمو البناء العقيدي الذي يطرحه القرآن ذاته لكي يحرك به (واقع) النفس البشرية ويتعامل معها تعاملا حركياً يرفض منطق الجدل واللاهوت والنظريات .

ولقد مرت هذه السنون الطويلة من مرحلة العمل السرّي ولم يتجاوز عدد الدعاة خلالها – كما رأينا – الخمسين رجلا وامرأة ، وهو عدد قليل جداً إذا ما قورن بهذا الامتداد الزمني الطويل .. إلا ان التركيز والعمق الذي تميز به كل واحد من هؤلاء ، جعل المنتمين إلى الاسلام قادرين ، بعد قليل ، على تحمل الضغوط الوثنية القاسية التي ستصبّ عليهم من اجل فتلتهم عن دينهم : تعذيباً واضطهاداً وقتلا ونفياً وسخرية وقطيعة واحتقاراً .. وعلى تجاوز (المحنة) السوداء وهم اصلب عودا واعمق ثقة واشد ايماناً .. وفي جوارهم آيات القرآن تشد ازرهم وتعمق يقينهم الجديد .. والرسول ﷺ يقودهم من ساحة إلى ساحة صوب مشارف الفوز والانتصار .

ولا ريب ان اعتماد (المقاييس المادية) – كما فعل عدد من المستشرقين امثال كريمر وجرمه وغيرهما – لفحص الدوافع التي قادت المسلمين وغير المسلمين للانتماء إلى الدين الجديد أو إلى اية عقيدة أو دين ، امر يرفضه واقع (التجربة) في ابعادها الشاملة الرحيبة ، فلم يكن البحث عن (الحق) والتشبث في الانتماء اليه، امر معدة تبحث عن طعامها وجسد يرنو إلى الاشباع، بقدر ما هي مسألة نفسية متكاملة يلعب فيها الظمأ الروحي واليقين الفكري والقناعة الذاتيةدورها الأول والاخير ، بحيث أن سائر الامور الاخرى الحسّية والجسدية بقيت (ثانوية) بالنسبة لهذه العوامل الاساسية .

هذا على المستوى النفسي ، أما على المستوى التاريخي ، فان هذا المقياس (المادي) الذي أخذ يشيع في العقود الأخيرة ، كإسقاط معاصر على الوقائع التاريخية الماضية ، سرعان ما يتهافت بمجرد إلقاء نظرة متأنية على قوائم المسلمين الاول الذين كان اكثرهم – كما يقول صالح العلي – من التجار ورجال الطبقة الوسطى ، وممن كانت لهم عشائر تحميهم وتدفع عنهم . بل حتى وجود الحلفاء والمستضعفين في الاسلام ، لا ينهض دليلا على صحة هذا الرأي . إذ أن هؤلاء نالوا كثيراً من الاضطهاد بسبب عقائدهم ، ومنّوا بكثير من الآمال إذا

تركوه ، فرفضوا واصرّوا على التمسك بالدين الجديد ، ممـــا يدل على أن دافع العقيدة هو الذي كان يدفعهم إلى اعتناق الاسلام . والواقع أن الروايات اشارت صراحـــة إلى دوافع بعضهم ، فعثمان بن مظعون كان من قبل ظهور الاسلام من الباحثين عن الدين ، وسعيد بن زيد بن عمرو هو ابن الرجـــل الذى كان حنيفياً يبحث عن دين إبراهيم ، وخـالد بن سعيد بن العاص اعتنق الاسلام لأنـه رأى نفسه في المنام على حـافة هاوية من النار يدفعه إليها أبوه ، ويدفعه عنهـا رجل آخر لينقذه منهـا . ويمكن تفسير ذلك بانشغال عقله الباطن في الأمور الدينية واعتناقه الاسلام لاعتقاده بأن فيه المنجى والخلاص . أما عمر بن الخطاب الذي أسلم بعد هذه الفترة فقد أسلم لتأثره من سماعـــه آيات القرآن ومن رؤيته اخته تتأذى [1] .

ترى ؟ كم من المسلمين قـــادتهم إلى الاسلام ، تلك (الهزة الوجدانية) التي احدثتها آيات القرآن الكريم الساحرة المعجزة وهي تتلى عليهم، فتغسل ضمائرهم وتزيل رين قلوبهم ، وتعيد ألق الذكاء إلى عقولهـــم ، ونور اليقين إلى بصائرهم وافئدتهم ؟ وهل بعد هذه(الهزة) الشاملة التي تنقل الانسان من حال إلى حال، تفكير (منفعي) محدود في امعاء تمتلىء طعاماً ، وجيوب تفيض فضة وذهباً ؟ ! مـا الذى دفع عثمان بن عفان ، وهو في قمة قريش غنى ومكانة وأماناً ومحبـــة وجاهـاً ، إلى أن يتمرد على جاهليته ، ويقف في لحظـــات الدعوة الأولى ، الصعبة، الغامضة ، الخطيرة ، بمواجهة قومه وعشيرته ، رافضاً الغنى والمكانـة والجاه والمحبة، مختاراً بدلاً منها الفقر والاحتقار والزراية والخوف والكراهية؟ حتى انه ليستهين بسياط عمـــه وهي تنزل على ظهره من أجل أن يعود ثانية إلى حظيرة الآباء والاجداد ؟ وما الذي دفع أبا بكر - وعشرات غـــيره - إلى أن ينفقوا من أموالهم الخـــاصة التي سهروا وكدحوا على جمعهـــا وتنميتها ، ينفقوها حتى آخر درهم ، حتى أن الرسول ليسأل رفيقه الصديق : ومـــا الذي

---

(1) محاضرات في تاريخ العرب ٣٣٨/١ .

ابقيت لعيالك يا أبا بكر؟ فيكون جوابه: أبقيت لهم الله ورسوله !! وما الذي دفع سعد بن أبي وقاص ، الغني المدلل ، الى ان يرفض توسلات أمه ، وقد أوثقته رباطاً ، من أجل ان يرتد عن دينه ، حتى ليسلمها الهم من جراء ذلك إلى المرض ، فما يكون جوابه الا ان يقول للأم التي هي أعز الأحبة على قلوب الأبناء : والله يا أم لو رأيتك تموتين مائة مرة ثم تعودين ثانية إلى الحياة ماردّني ذلك عن ديني !!.. وغير عثمان وأبي بكر وسعد ... كثيرون ! !

لقد انتمى إلى الإسلام – كما يقول مونتكمري وات – شباب من أفضل العائلات ، وخالد بن سعيد أفضل ممثل لهذه الفئة ، ولكن هنالك آخرون غيره وكانوا ينحدرون من أقوى العائلات وأشهر القبائل ، تربطهم روابط متينة بالرجال الذين يملكون السلطة في مكة ، وكانوا في مقدمة اعداء محمد . ومن المهم ان نشير إلى أنه وجد في معركة بدر أمثلة على الأخوة والآباء والابناء والعم وابن الأخ الذين كانوا يقاتلون في صفوف كلا الحزبين .. ويمضي (وات) إلى القول بأن أهم فكرة نستخرجها من هذا (العرض عن المسلمين الاول) هو ان الاسلام الفتي كان في الأساس حركة شباب . إذ أن معظم الذين نعرف اعمارهم لم يتجاوزوا الاربعين عند الهجرة – وبعضهم كانوا أصغر كثيراً – وكثير منهم كانوا قد اعتنقوا الاسلام منذ ثماني سنوات . ولم يكن الاسلام ، من جهة ثانية ، حركة رجال من طبقة مستضعفة من حثالة الناس أو من طفيليين صعاليك حطوا رحالهم في مكة . ولم يستمد الاسلام قوته من رجال الدرجة السفلى في السلّم الاجتماعي بل من اولئك الذين كانوا في الوسط [٢] . ثم ما يلبث (وات) أن يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه معظم الغربيين الذين يجدون أنفسهم ملزمين بتطبيق مقاييسهم الخاصة على تاريخنا .. وقد ناقشنا هذه المسألة في مقدمة هذه الدراسة عن سيرة الرسول ﷺ .

وإلى أي دين كان ينتمي هؤلاء المترفون الاغنياء ومتوسطو الحال ، الذين

---

(٢) محمد في مكه ص ١٥٩ – ١٦٠ .

ينتمون إلى أشهر القبائل المكية واعلاها سلطة ومكانـة ؟ إلى الدين الذي كانت حملات كتابه الكريم تتنزل منذ بداياتهـــا الاولى (العلق ، القلم وغيرهما) [٣] صواعق على رؤوس الاغنياء والزعماء تلك الآيات التي « .. نددت بالأغنياء الذين يقبضون أيديهم عن مساعدة الطبقات المعوزة وحثت على الانفاق كثيراً ، كما أنها حاربت الزعامة الطاغية الباغية المعتزة بالقوة والمتكبرة عن الحق[٤] » . . وهكذا تبدو طبيعة الدعوة الإسلامية منذ بدئها، عظيمة رائعة في حدبها على هذه الطبقة التي تتألف منها عادة أكثرية الجماهير ، وتحريرها ورفع مستواها[٥] .

٢

ولن تتكامل الصورة إلاّ بأن نتجاوز ، في تحليلنــا هذا ، مرحلة الدعوة السرّية الى المرحلة المكية عامة لنرى في الجهة المقابلة الدوافع الحقيقية التي قادت المشركين وزعماءهم إلى مقاومة الدعوة ، وهي دوافع لا تنصبّ على الجـانب المادي فحسب ، بل تمتد الى كل مساحات التصوّر والشعور والحياة الجاهلية ، وإن كان للجانب (المادي) أهمية كبيرة بين هذه الدوافع إلا أنه لا يمكن أن يغطي المساحة كلها ويحجب الدوافع الأخرى ، الدينيـة والنفسية والسياسية والثقافية ، عن أعين الباحثين . ذلك « ان مقاومـة المشركين للاسلام ، رغم الجمود الظاهر لديانتهم ، يمكن تعليله بأن دينهم ، وإن لم يكن يلعب دوراً كبيراً ظاهراً في حياتهم اليومية ، الا أنه كان متغلغلاً في نفوسهم ومتعمقاً في اللاشعور

(٣) انظر سورة الزخرف ٢٢ ــ ٢٣ هود ١١٦ المزمل ١١ ــ ١٢ الاسـراء ١٦ الواقعة ٤١ ــ ٤٨ الحاقة ٢٥ ــ ٢٩ الهمزة ١ ــ ٤ سبأ ٣١ ــ ٣٧ غافر ٤٧ ــ ٤٨ ابراهيم ٢١ الاحزاب ٦٦ ــ ٦٧ الاعراف ٣٦ ــ ٤٠ الفرقان ٢١ الانعام ١٣٣ الجاثية ٣١ الجن ٢٤ النازعــات ٢٨ ــ ٢٩ النبأ ٢١ ــ ٢٢ وانظر صالح احمد العلي : محاضرات ١/٣٥٧ ــ ٣٥٩ .

(٤) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ١/١٦٥ .

(٥) المرجع السابق ١/١٨١ ــ ١٨٢ .

فيهم ، فهم يعيشون فيه دون أن يفهموه أو يدركوه . كما انـــه لطول أمد استقراره لم تكن هناك حاجة للتحدث به أو الدفاع عنه . ولكن الاسلام بنقده لدينهم كان تحديه موجهاً لا إلى عقـائدهم فحسب بل الى ذاتيتهم وإلى كيانهم الروحي ، فاندفعوا يدافعون عنه بقوة . ومما زاد في قوة هذه المقاومة ، روح المحافظة التي تتجلى عند البدو بصورة خاصة . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين أثر روح المحافظة في المقاومة غير المفكرة التي واجهوا الاسلام بها (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا : ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) [٦] .. ومما زاد في عنف مقاومتهم أن دعوة الرسول ﷺ للوحدانيـــة كانت جديدة عليهم ، فلم يكن قد أتاهم من قبله رسول »[٧] .

ولا ريب أن هذا الدافع (اللاشعوري) هو الذي يفسّر لنا إصرار زعماء (الشرك) ، خلال تعذيبهم للمسلمين ، وضغوطهم ضد الرسول ﷺ ، أن يدعوا سب آلهتهم وشتم آبائهم وأجدادهم وهو الأمر الذي كان يتكرر كثيراً في ميدان العلاقات الوثنية - الإسلامية ، كما يفسّر لنا تشبث رجل عـــاقل كأبي طالب بدينه الوثني ، رغم حمايته المعروفة لابن أخيه ، بحجة أن هذا التغيـير لا يليق برجل كبير موقر مثله .. فتغيير دين الآباء والأجداد (عار) لا يلائم كبـــار رجالات مكة وشيوخها أولئك الذين كان يقود خطـــاهم إحساس (رجعي) متأصل في نفوسهم ، تعبر عنه الآية الكريمة (وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) .. وغيرها كثير ..

ولعل من أهم أسباب المقاومة كذلك - يقول دروزة - ما كان للزعامـــة الوثنية من دور خطير في المجتمع العربي حيث كان الزعماء - وخاصة الزعماء الأغنياء - يتمتعون بنفوذ السيادة .. ومنها ما كان من رسوخ عصبية التقاليد

---

(٦) سبأ ٤٣ وانظر : الزخرف ٢٢ - ٢٤ لقمان ٢١ البقرة ١٧٠ المائـدة ١٠٤ الصافات ٦٩ - ٧١ .

(٧) المـلي : محاضرات ٣٤١/١ - ٣٤٢ .

في المجتمع العربي، وما استهدفته الدعوة من هدم كثير من تقاليد العرب الأصلية والفرعية، أو تعديلها : كالشرك على أنواعه، والاستشفاع بالملائكة، وما شاب الشرك من وثنية مادية، وكالعصبية الاجتماعية الضيقة وما كانت تتشدد فيه من حزبيات عائلية وقبلية [٨]، وشؤون القيان والمرأة والرقيق والتحريم والتحليل في كثير من الأمور .. وخوف الزعامة القرشية وأغنياء مكة معنا على ما كان لهم ولمكة من مركز ومنافع أدبية ومادية عظيمة، بسبب وجود بيت الله في مكة وسدانتهم له .. ثم هناك ما أثاره فيهم الانذار بالبعث والقيامة، والوصف المسهب للحياة الاخروية، الوارد في القرآن من عجب واستغراب، لا سيما ان هذا لم يكن مما هو معروف بهذه الصراحة والاسهاب عند الامم الكتابية التي كان لها أثر في أفكار العرب ومعارفهم .. ولعل في تجريد الأغنياء والأقوياء من أسباب قوتهم ومكانتهم، وتحقيرهم الدائم، إثارة للسواد على الزعماء وتحريضاً على عصيانهم فيما يأمرونهم به من عدم الاستجابة الى الدعوة . وقد كانت طبيعة النبي البشر، من أسباب المقاومة كذلك .. إذ كان العرب يتخيّلون أن النبي لا بد أن يكون ذا قوى خارقة يفترق بها عن طبائع البشر ويستطيع أن يفعل ما لا يفعله سائر الناس من خوارق المشاهد .. فلما رأوه مثلهم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وسمعوه يعلن بلسان القرآن أنه بشر مثلهم .. جحدوا نبوته وكذبوا صلته بالله، ونعتوه بالمجنون والشاعر أو الساحر أو الكاهن [٩] ..

ونمضي في تعمّق أسباب المقاومة الوثنية للدعوة، فنجد (وات) يحدثنا عن مجموعة أخرى من الأسباب، مؤكداً في الوقت نفسه دور الأسباب التي سبق ذكرها ... « ان السبب الأساسي في المعارضة كان بدون شك ٠ ان زعماء قريش وجدوا أن إيمان محمد بأنه نبي ستكون له نتائج سياسية . وكانت السنة العربية القديمة تقول : إن الرئاسة في القبيلة يجب أن تكون من نصيب أكثر الرجال حظاً من

---

(٨) انظر تفسير ابن كثير لآيات سورة الانعام ٣٣ — ٣٦ .

(٩) انظر بالتفصيل : دروزة : سيرة الرسول ١٨٣/١ — ١٩٣ .

الحكمة والحذر والعقل ، فلو ان أهالي مكة أخذوا يؤمنون بانذار محمد ووعيده وجعلوا يستفسرون عن الطريقة التي يجب أن تدار بها شؤونهم ، فمنذا الذي يحق له نصحهم غير محمد نفسه ؟ » ويمضي وات إلى القول بأن زعماء مكة كانوا من بعد النظر بحيث أقروا بالتناقض بين تعاليم القرآن الأخلاقية ورأس المال التجاري الذي كان عماد حياتهم .. كما كان العرب بطبيعتهم ، أو حسب تربيتهم محافظين .. ويقول الزهري بأن سبب المعارضة ، بالاضافة الى مهاجمة الأصنام، القول بأن مصير أجدادهم النار . ويرتبط احترام الأجداد هذا ارتباطاً وثيقاً بتقديس العادات والتقاليد القديمة . وبينما كان بعض المعارضين ذوي نزعة فردية قوية ، فقد كان أكثرهم محافظة يعترف ببعض الولاء للجماعة ، فكانوا يرون إذن في نزعة الاسلام لاحداث انقسامات حادة في العائلة دليلاً آخر على ان التخلي عن الطريق الذي سلكه الأجداد يؤدي الى نتائج وخيمة ، وربما بدا لهم ذلك جديراً بتهديم المجتمع بأكمله ، وكان هذا ما يحدث فعلاً ... وما يلبث (وات) أن يخلص الى القول بأن أسباب معارضة الاسلام – اذا وضعنا جانباً كل مصلحة شخصية – كانت الخوف من نتائجه السياسية والاقتصادية والنزعة المحافظة الصرفة ، وكانت المشكلة التي جابهها محمد لها جوانب اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية ، غير ان رسالته كانت في الأساس دينية بحيث انها حاولت علاج الأسباب الدينية الكامنة لهذه المشكلة ولكنها انتهت لمعالجة الجوانب الأخرى ولهذا اتخذت المعارضة أشكالاً مختلفة[١٠] .

إن شعار (لا إله إلا الله) الذي أمر محمد ﷺ برفعه في وجه الجاهلية ، جاء انقلاباً شاملاً على كل المستويات الدينية والاجتماعية و الفكرية والنفسية والاخلاقية والسياسية والسلوكية ، إذ هو إشعار واضح بضرورة ردّ الأمر كله الى الله (الحاكم) و (المشرع) وتجريد الانسان فرداً وجماعة ، من الخضوع لمقاييسه الجزئية القاصرة ، واتباع (الهوى) و (الظن) في كل صغيرة وكبيرة .

ولقد رأينا خلال عرضنا للطور العلني للدعوة أن جلّ كلمات القرشيين

---

(١٠) محمد في مكه ص ٢١٤ ، ٢١٥ – ٢١٦ .

ومرتكزات حوارهم مع أبي طالب ، أو مع محمد ﷺ نفسه ، من أجل إقناعه بالعدول عن دعوته ، ما كانت لتنصب على الدفاع عن مصالحهم المادية ، بقدر تشبثها بمعتقداتهم وقيمهم ، كما نلمح من خلالها إدراكهم الكامل لأبعاد عبارة (لا إله إلا الله) وخطورتها الشاملة إزاء وجودهم الجاهلي كله . ويمكن أن نذكر هنا - على سبيل المثال - رواية ابن سعد التي تقول ان وفداً من زعماء قريش قدموا إلى أبي طالب ليلتمسوا اليه أن يكف ابن أخيه ، فاستدعاه وقال له « يا ابن أخي ، هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا أن ينصفوك . فقال رسول الله ﷺ : قولوا أسمع !! قالوا : تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك . قال أبو طالب : قد أنصفك القوم فاقبل منهم . فقال رسول الله . أرأيتم إن أعطيتكم هذه ، هل أنتم معطيّ كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم العرب ، ودانت لكم بها العجم ؟ فقال أبو جهل : ان هذه كلمة مربحة ، نعم وأبيك ، لنقولنها وعشر أمثالها !! فقال الرسول : قولوا (لا اله الا الله) !! فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون (اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد) »[11].

فليست الحركة الإسلامية اذن حركة طبقة ضد طبقة ، فقد انتمى اليها أناس من شتى الطبقات. وسواء كانت هذه السمة (الطبقية) ناتجة عن تحرك الفقراء ضد الأغنياء ، كما يرى بعض الباحثين ، أو من الأغنياء لكبت ما تحسسوا منه رائحة ثورة شاملة سيقوم بها الفقراء ضد مصالحهم ومراكزهم ، كما ارتأى باحثون آخرون[12] .. فإن هذه الافتراضات ، التي ينقض بعضها بعضاً ، تعود لكي تنتقض نهائياً بمجرد عرضها على (الواقعة التاريخية) نفسها. . اذا ما أردنا البحث الموضوعي الجاد . والا فإن التخمين والاستنتاج والإسقاط المعاصر على التاريخ ، دون رؤية وارتكاز على أبعاد الواقعة نفسها يقودنا ولا ريب الى (اسرائيليات) من نوع جديد ، تتدثر بدثار العلم والموضوعية وما هي منها بشيء !!

---

(١١) الطبقات ١٣٥/١/١ وانظر المصدر نفسه ١٣٧/١/١ والبلاذري : انساب ١٢٦/١ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٤١ وابن الاثير : الكامل ٦٥/٢ .

(١٢) انظر عبد العزيز الدوري ورفاقه : تفسير التاريخ ص ١٥ - ١٦ .

٣

بعد أن تم بناء القاعدة (الصلبة) للدعوة متمثلة بأولئك الرواد الأوائل من المسلمين الذين انتموا للاسلام عبر سنيه الصعبة وغربته ، والذين علمتهم التجارب المقدرةعلى الصمود بوجه الضغوط مهما غلا الثمن، والذين أنضجتهم حشود الآيات القرآنية التي كانت تتنزل (على مكث) حيناً بعد حين ... أصدر الله أمره إلى رسوله الكريم أن يتجاوز المرحلة السرّيـة للدعوة صوب الجهر والاعلان ... وهذا أمرٌ لا بدّ منه لدعوة عالمية شاملة جاءت لكي تثبت وجودها المنظور في الأرض العربية أولاً ، وفي العالم المحيط ثانياً .. كل ذلك في فترة لا تعدو ما تبقى للرسول ﷺ من سني عمره المحدود .

كان اجتماع الرسول ﷺ بعشيرته الأقربين في أطراف مكة هو بداية العهد الجديد . وقد انتهى ذلك الاجتماع الحاشد بصدّ محزن عن دعوة الرسول ﷺ وإنذاره.. ومنذ تلك اللحظةانفجر الصراع الواضح المكشوفبين المعسكرين.. المشركون الذين استخدموا كل أسلوب والتمسوا كل وسيلة لوقف حركة الإسلام إلى الأمـــام ... والمسلمون الذين لم يؤمروا بالعنف – طيلة العصر المكي – لئلا يتعرضوا لعملية إبادة تحقق للوثنية ما كانت تأمله وترجوه ..

وقد بدأ رجال الملأ نشاطهم المضاد في سلسلة من الاتصالات المبطنة بالوعد والوعيد مع أبي طالب ومحمد ﷺ ، فلما اعقبت – جميعها – فشلا ، وأعلن النبي عن موقفه الذي لا مهادنة فيه ولا مساومة ، في كلمته الحاسمة « والله يا عم.. » وجدت الوثنية نفسها مسوقة إلى استخدام أساليب العنف والاضطهاد والحرب النفسية ، لوقف الخطر الجديد ، وانقضّت كل عشيرة على ابنائها وعبيدها المسلمين تعمل فيهم تعذيباً وتحطيما للمعنويات واضطهاداً ، ولم ينج الرسول نفسه من هذا البلاء النازل ، وهو وأصحابه صامدون صابرون للمحنة ، تسندهم تجارب سنين طويلة من العمل والنمو العقيدي ، وتمنحهم المعنوية والثقة آيات القرآن البينات

التي كانت تتنزل في قلب المحنة لكي ترفع المؤمنين إلى أفق الأمل واليقين بالنصر..

والى جانب هذا وذاك كان الرسول ﷺ ينفخ في أصحابه روح الثبات والمقاومة ويرسم لهم بذكائه الثاقب ، وبالهدي الالهي ، الطرائق والأساليب التي تقترب بهم يوماً بعد يوم من الهدف الذي كان الرسول ﷺ قد وعد أصحابه ببلوغه مهما طال الطريق وعظمت المصائب .. ولم يكن التخطيط للهجرة الموقوتة إلى الحبشة ، والاتصال المستمر بالقبائل والوفود القادمة الى مكة ، والذهاب إلى الطائف ، ولقاءات العقبة الثلاث إلا خطوات على الطريق ...

وكلما ازدادت المحنة وعظم البلاء ساق الله إلى الدعوة رجالاً كباراً لهم وزنهم في مجرى الأحداث وقدرتهم على المقاومة والتحدي والتغيير . ولم يكن اسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب (رض) إلا أمثلة بيّنة على الارادة المعجزة التي تسوق ، وفق منطقها وقضائها الذي لا رادّ له ، رجالاً من قلب الجاهلية ، ومن صميم زعامتها ، الى ساحة الحركة الجديدة ، ليسوا اتباعاً عاديين ، وانما قادة وزعماء يلعبون دورهم في إيجاد نوع من التوازن في القوى بين الدين الجديد والجاهلية يمكن الإسلام من أن يشق طريقه وسط ركام من العوائق والمصاعب والآلام .

وإذ شعرت قريش أنها أخفقت في كل الأساليب التي اعتمدتها لوقف انتشار النار ، فقد ارتأت في أعقاب اجتماع عقده زعماؤها أن ترفع سلاح (المقاطعة الشاملة) كعقاب (جماعي) للمسلمين وحماتهم من بني هاشم وبني المطلب ، علها تضعف قدرة أتباع محمد على المقاومة ، وتدفع حماتهم ، الذين تشدهم إليهم نخوة العصبية ، إلى أن ينفضوا من حولهم ويتركوهم وحيدين ، معزولين ، مجردين من الحماية ، وسط عاصفة الغضب الهوجاء التي اجتاحت صدور المشركين وساحات مكة .. إلا أن السلاح الجديد يشل هو الآخر إزاء مقاومة المسلمين وقدرتهم العجيبة على التحمل، وإزاء التركيب الاجتماعي في مكة ، ذلك الذي دفع عدداً من أبنائها الذين تربطهم العصبية بواحد أو أكثر من المحاصرين في شعب أبي طالب

إلى أن يتحركوا لوقف هذه المظلمة ، وتمزيق الصحيفة التي سطرت فيها كلمات القطيعة .. ويخرج المسلمون من الأسر الصعب بعد ثلاث سنين من العزلة والجوع والحرب النفسية . وهم أصلب عوداً ، وأغنى تجربة ، وأكثر قدرة على التحرك صوب الهدف الذي آلوا أن يسيروا إليه وراء رسولهم ، حتى ولو كلفهم ذلك أنهاراً من الدماء ..

وكانت الأحداث تتلاحق والاضطهاد الوثني يزداد عنفاً وشراسة ، ويزيده فتكاً وإيلاماً ، وفاة سندي الرسول العاطفي والاجتماعي : الزوجة والعم ، وفشل رحلته الى الطائف ، وكأن ارادة الله كانت تمهد ، من وراء الظلام الذي ازداد عتمة وكثافة ، بالفجر القادم الذي لا ريب فيه ... ولن يكون ذلك الا بالأسباب .. وهل بعد (الأسباب) التي منحها الرسول فكره وأعصابه وطاقاته وهمومه جميعاً ، بقادرة على أن تحقق (وعد الله) ! (ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدّل لكلمات الله ...) [١٣].

٤

في هذه الفترة ، جاءت حادثة (الإسراء والمعراج) [١٤] تثبيتاً للرسول ﷺ على طريق المقاومة الطويل ، وتكريماً له في أعقاب سنين طويلة من العمل والصمود والكدح ، وتتويجاً لهذه السنين الصعبة ، رفعه الى قلب السماوات ، وأطلعه على جوانب الإعجاز الإلهي الباهر في الكون الكبير وهي امتحان — في الوقت نفسه —

---

(١٣) الانعـــام : ٣٤ .

(١٤) قبل الهجرة بعام وبعض عام ، وكان عمر الرسول (ص) آنذاك — كما يروي المسعودي — احدى وخمسين سنة وثمانية اشهر وعشرين يوما (مروج ٢٨٣/٢) . ولا بد ان نشير الى ان هنالك خلافا في زمن وقوع الحادثة حيث يذهب بعضهم الى انها وقعت قبيل منتصف العهد المكي : ولم يكن المهاجرون الى الحبشة قد هاجروا اليها بعد (انظر دروزة : سيرة الرسول ٢٢٢/١) . ونحن نرجح الروايات التي تجعلها في اواخر العصر المكي انسجاما مع مغزاها ..

لقدرات أصحابه على تصوّر المدى الذي ينافحون مع رسولهم ﷺ من أجل اخراج (الانسان) اليه ، وهو مدى رحيب يتجاوز أبعاد الملموس والمسموع والمنظور ، وينأى عن الأحجام المباشرة للأشياء ، ويمتد بعيداً – صوب الآفاق التي – بإيمان الإنسان بها وحركته صوبها – يغدو انساناً والا ّ فهو كالأنعام ، وأضل من الأنعام التي لا تعرف غير أن تأكل وتشرب وتنام ، ولا ترى الا ّ الأشياء المرئية التي تنعكس اشعاعاتها على قرنية عينيها ، ولا تسمع إلا الأصوات التي تلامس طبلات اذنيها ، وأمّا ما وراء ذلك فهو العدم الذي لا تحس به ولا تعرف عنه شيئاً !!

ورواية الاسراء والمعراج ترد في صحيح البخاري بهذا الشكل : « عن مالك بن صعصعة (رضي الله عنه) ان نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال : بينما أنا في الحطيم – وربما قال في الحجر – مضطجعاً اذ أتاني آتٍ فقد ، قال وسمعته يقول ، فشقّ ما بين هذه الى هذه ... ، فاستخرج قلبي ثم اتيت بطست من ذهب مملوءة ايماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم اعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار ، أبيض ، قال الراوي وهو البراق ، يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه ، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل اليه؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح ، فلما خلصت فاذا فيها آدم فقال : هذا أبوك آدم فسلّم عليه ، فسلمت عليه فردّ السلام ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية ، فاستفتح ... » ومن ثم تستعرض الرواية ، بنفس الأسلوب ، اجتياز الرسول السماوات السبع واحدة بعد واحدة ولقاءاته بيحيى وعيسى ويوسف وادريس وهارون وموسى وابراهيم (ع) ، وكل منهم يستقبل الرسول ﷺ قائلاً : (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح) . ويستأنف الراوي حديثه « ثم رفعت – يقول الرسول ﷺ – الى سدرة المنتهى ، فاذا نبتها مثل قلال هجر ، واذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قال جبريل : هذه سدرة المنتهى . واذا أربعة أنهار ، نهران ظاهران ونهران باطنان

فقلت : ما هذا يا جبريل؟ قال : أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات . ثم رفع لي البيت المعمور ، فاذا هو يدخله كل يوم سبعون الف ملك ، ثم أتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل ، فأخذت اللبن فقال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك ، ثم فرضت علي الصلوات خمسين صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى ، فقال: بم أمرت ؟ قلت : أمرت بخمسين صلاة كل يوم !! قال : فارجع الى ربك فأسأله التخفيف لأمتـــك ، فرجعت .. » ثم تستعرض الرواية التماسات الرسول من الله سبحانه تخفيف عدد الصلوات الى أن أنقصها الى خمس ... « قلت ... أرضى واسلم ، فلما جاوزت ناداني منادٍ : أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي» [١٥] .

وفي حديث لعبد الله بن مسعود، في سيرة ابن هشام ترد الرواية التالية «أُتي رسول الله ﷺ بالبراق ، وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله ، تضع حافرها في منتهى طرفها ، فحمل عليها ، ثم خرج به صاحبه يريه الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى انتهى الى بيت المقدس، فوجد فيه ابراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء ، قد جمعوا له ، فصلى بهم ثم أتي بثلاث آنية ... الى آخر الحديث »[١٦] . قـال ابن اسحق وحدثت عن الحسن انه قـال : « قال رسول الله ﷺ : بينما أنا نائم في الحجر اذ جاءني جبريل فهمزني بقدمه ، فجلست فلم أر شيئاً ، فعدت الى مضجعي ، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئاً ، فعدت الى مضجعي، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي فقمت معه ، فخرج بي الى باب المسجد ، فاذا دابة أبيض ، بين البغل والحمار في فخذيه جناحان ، يحفز بهما رجليه ، يضع يده في منتهى طرفه ، فحملني عليه ، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته ... الى آخر الرواية[١٧] ... ».

---

(١٥) التجريد الصريح ٦٨/٢ — ٧٠ وانظر حديث انس بن مالك عن ابي ذر نفس المصدر ٣٨/١ — ٣٩ ، الطبري : تاريخ ٣٠٧/٢ — ٣٠٩ ابن سعد ١٣٢/١/١ — ١٣٣ .

(١٦) ابن هشام ص ٩٣ .

(١٧) المصدر السابق ص ٩٣ — ٩٤ .

وأما الآيات الكريمة التي وردت بشأن حادثتي الإسراء والمعراج فنجدها في سورتي (الاسراء) و (النجم) اولاهما (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير [18]) والاخرى (ولقد رآه [19] نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى) [20] « فتعليل الاسراء – كما نصت الآية – أن الله يريد أن يري عبده بعض آياته . ثم أوضحت آيات المعراج ان الرسول (ﷺ) شهد بالفعل بعض هذه الآيات الكبرى . وقد اختلف العلماء ، من قديم ، أكان السرى الخارق بالروح وحده أم بالروح والجسد جميعاً ؟ والجمهور على القول الأخير [21] » .

في صبيحة اليوم التالي غدا الرسول (ﷺ) على قريش ، فأخبرهم الخبر ، فقال اكثر الناس « هذا والله الإمر البيّن ! والله ان العير لتطرد شهراً من مكة الى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ » . وذهب الناس الى ابي بكر ، رفيق الرسول (ﷺ) وأول رجل آمن بدعوته ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر ، في صاحبك ، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلّى فيه ورجع الى مكة ؟ فقال لهم أبو بكر : انكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ها هو ذاك في المسجد يحدّث به الناس. فقال ابو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله انه ليخبرني

---

(18) الاسراء : 1 .

(19) يعني جبريل .

(20) النجم : 13 – 18 .

(21) الغزالي : فقه السيرة من 135 وانظر Tor Andrae: Mahomet, p .49
وهو من القائلين باسراء محمد بالروح دون الجسد . وعن التاثيرات الادبية لحادث الاسراء والمعراج والروايات التي اضيفت اليها فيما بعد ، على (الكوميديا الالهية) للشاعر الايطالي دانتي انظر :
Miguel Asin: Islam and the Divine Comedy. Tr. H.sunderland (London 1926).

ان الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فأصدقه! فهذا أبعد مما تعجبون منه. وأقبل أبو بكر على الرسول (ﷺ) وسأله: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: نعم. قال ابو بكر: يا نبي الله فصفه لي، فإني قد جئته، فقال رسول الله (ﷺ) «فرفع لي - اي بيت المقدس - حتى نظرت اليه» ثم راح يصفه لأبي بكر وأبو بكر يقول: صدقت، أشهد أنك رسول الله. حتى اذا انتهى الرسول من وصفه، التفت الى صاحبه وقال: أنت يا أبا بكر الصدّيق!! [٢٢]

وينقل ابن اسحق عن الحسن قوله ان كثيراً ممن أسلم ارتد في اعقاب سماعهم الرسول يتحدث بأمر الإسراء والمعراج [٢٣]، ولا ريب أن في هذا التعليق مبالغة إذا ما عرضناه على المنطق الذي ناقش به ابو بكر الصديق القضية كلها: إن المسلمين الأوائل الذين انتموا للإسلام، في عهد محنته، تصديقاً، بما يجيئهم من الرسول (ﷺ) من خبر السماء لا يمكن أن يهزهم نبأ الإسراء والمعراج، ويردهم الى حظيرة الكفر.. لكن هذا لا يمنع أن (قلة) من ضعاف الإيمان، الذين يؤرجحهم التردد، ويرهقهم طغيان قريش وحربها النفسية قد يجدون في هذا النبأ مجالاً للانفلات الى عالم الكفر الذي خرجوا منه عن غير وعي أصيل، والخلاص من الامتحان والاضطهاد اللذين أدركوا أنهما سيزدادان في أعقاب النبأ الجديد. يؤكد هذا ما ورد في مسند احمد [٢٤] من حديث ابن عباس الذي قال فيه «اسري بالنبي (ﷺ) الى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره الى بيت المقدس، وبعيرهم، فقال ناس: نحن نصدّق محمداً بما يقول؟ فارتدوا كفاراً، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل» اي في معركة بدر.

هذا هو الهيكل العام لقضية الاسراء والمعراج، وردود الفعل التي أثارتها. وقبل أن نبدأ تحليل (البعد الزمني) للقضية، وهو أخطر ما في الموضوع، لا

---

(٢٢) ابن هشام من ٩٤ – ٩٥ وانظر ابن سعد ١٤٤/١/١ .

(٢٣) ابن هشام ص ٩٤ .

(٢٤) حديث رقم ٤٥٤٦ .

بد أن نستعرض – اولاً – القيم والمعاني التي تتبدى من خلالها .

لقد أسري بالرسول (ﷺ) من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى تأكيداً للرباط المتين الذي يشد البلدين الى بعضهما ، حيث انطلق الانبياء على مدار القرون ، يدعون الى عبادة الله الواحد ورفض الصنميات الفانية .. في مكة حيث أقام ابراهيم ابو الأنبياء ، وابنه اسماعيل أول بيت لله على الأرض .. وفي القدس حيث انبعثت نبوات متتالية تكافح من أجل تعزيز دعوة النبي الأب ابراهيم . وهناك كان الأنبياء الكرام السابقون ينتظرون (خاتمهم) لكي يؤمهم في صلاة جماعية ، تعبيراً عن الدور الواحد الذي جاؤوا الى العالم لأدائه ، واتجاهاً الى الهدف الواحد الذي بعثوا لتحريك الناس اليه ، وسجوداً لله الواحد الذي كرم الانسان وشرفه بالدين .. ووقوفاً وراء النبي الذي جاء لكي يتمم البناء ويضع اللبنات المحكمة الأخيرة فيه .. ويمضي .. ومنذ البدء كان الله سبحانه قد أخذ ميثاق النبيين وعهدهم على أن يصدق بعضهم بعضاً ويتمم اللاحقون منهم الشوط الذي كان السابقون قد بلغوه (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنّه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا : أقررنا : قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) (آل عمران ٨١).

ثم تجيء التحيات المتبادلة بين النبي (ﷺ) وبين اخوانه السابقين (ع) ، وهو يصعد بصحبة جبريل عبر السماوات ، تأكيداً وتعزيزاً لهذه (الوحدة) النبوية التي لا انفصام لها وتقديراً للمبعوث (الأخير) الذي كتب عليه شرف إتمام البناء وإكمال الدين وتحميل الانسان مسؤوليته الكاملة ،أياً كان هذا الانسان. إن نبينا (ﷺ) يحدثنا بنفسه فيقول « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاّ وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة ،

وأنا خاتم النبيين [٢٥] » . وكان المسيح (ع) قد أكد لأتباعه على هذا الرجل الذي سيبعث لإتمام البناء [٢٦] .

وفي ليلة الإسراء والمعراج ، يقول محمد الغزالي « تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين وهي أنه دين الفطرة ، ففي الحديث (.. ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن ...) إن سلامة الفطرة لب الاسلام.ويستحيل أن تفتح أبواب السماء لرجل فاسد السريرة عليل القلب . إن الفطرة الرديئة كالعين الحمئة لا تسيل إلا قذراً وسواداً . وربما أخفي هذا السواد الكريه وراء ألوان زاهية، ومظاهر مزوقة ، بيد أن ما ينطلي على الناس لا يخدع به رب الناس. .وفي المعراج شرعت الصلوات الخمس ، شرعت في السماء لتكون معراجاً يرقى بالناس كلما تدلت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا .. [٢٧] » .

والنيل والفرات ، ما صلتهما بالرحلة عبر السماوات ؟ « لقد عرف محمد في هذه الرحلة أن رسالته ستنساح في الأرض، وتتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات وتنتزع هذه البقاع من مجوسية الفرس وتثليث الروم . بل إن أهل هذه الأودية سيكونون حملة الإسلام جيلاً في أعقاب جيل . وهذا معنى رؤية النيل والفرات في الجنة، وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة كما يظن السذّج والبله» [٢٨] وفي روايــة أنس بن مالك الــتي ذكرها البخاري في صحيحه [٢٩] ، يرد قول الرسول ﷺ « ... ثم انطلق بي حتى انتهى إلى ســـدرة المنتهى ، وغشيها ألوان ما أدري ما هي ؟ .. » .. ونحن نسمع اليوم مـــن رواد الفضاء ، عن الألوان التي تتراءى لهم عبر رحلاتهم في الفضاء وإلى القمر ، لا يدرون ما هي .. وهل يضم عالمنا الأرضي كل الألوان وكل المسميات ؟ ! وهل بمقدور لغات العالم

---

(٢٥) اخرجه البخاري ٤٣٦/٦ ومسلم ٦٤/٧ — ٦٥ .
(٢٦) انظر فصل (الاسلام والجبهة البيزنطية — النصرانية) في هذه الدراسة .
(٢٧) الغزالي : فقه السيرة ص ١٤٢ — ١٤٣ .
(٢٨) المرجع السابق ص ١٣٩ .
(٢٩) التجريد ٣٨/١ — ٣٩ .

كله ومصطلحاته أن(تعبّر) عـــن (موجودات) الكون الفسيح واحداثه التي تنأى عن علمنا وبداهاتنا ومسلماتنا ؟[٣٠] « ان رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملكوت السماوات والأرض له أثره الحاسم في توهـين كيد الكافرين وتصغير جموعهم ومعرفة عقباهم .. والله عز وجل يتيح لرسله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستناداً اليه إذ يواجهون قوى الكفار المتألبـــة ويهاجمون سلطانهم القائم .. لقد جاء الاسراء والمعراج قريباً من منتصف فترة الرسالة الـــتي مكثت ثلاثة وعشرين عاماً وبذلك كانا علاجاً مسح متاعب الماضي ، ووضع جذور النجاح للمستقبل[٣١] » .

ولم تكن حادثة الاسراء والمعراج معجزة قاهرة أريـد منها قهر الناس على الاعتقاد بصدق نبوة الرسول ﷺ كما كان يحدث للانبياء السابقين ، ذلك أن القرآن الكريم سلك أسلوباً آخر في الاقناع يقوم على التأمل والمشاهدة والتجريب والحجة والبرهان . والا لكانت حادثة الاسراء والمعراج قد جاءت في الأيام الأولى للدعوة حيث ضيق المشركون الخناق عليها وطاردوا اتباعها في كل مكان « فقد تكفل القرآن الكريم باقناع أولي النهى من أول يوم ، وجاءت في طريق الرسول ﷺ ضرباً من التكريم لشخصه ، والايناس له ، غير معطلة للمنهج العقلي الذي اشترعه القرآن . وقد اقترح المشركون على النبي – يوماً – أن يرقى في السماء ، فجـــاء الجواب من عند الله (قل : سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟) فلما رقي في السماء بعدئذ ، لم يذكر قط أن ذلك رد على التحدي أو إجابـة على الاقتراح السابق[٣٢] » على العكس وجـدنا الروايات تحدثنا عن أن

---

(٣٠) يقول م. كريسي موريسون في كتابه Man Doesnot Stand Alone ص ١٨٢ « اذا كانت الروح الخالدة تستطيع رؤية الاشياء كما هي ، فانها تقدر ان تكتسب جميع الحواس المختلفة الرقيقة التي لكل الكائنات الحية . وبذا تستطيع ان تدخل في ميادين جديدة عجيبة للمعرفة والتجربة والشعور ... وهنـــاك الوان ازهى من ان تتحملـــها عيون البشرية تنتظر تطور قدرتنا على الاحاطة بها ... » !!

(٣١) الغزالي : فقه السيرة ، مقتطفات ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٣٢) المرجع السابق ص ١٤٠ .

صعوبة تصديق حادث غيبي كهذا دفع المشركين إلى مزيد من التحدي والاستهتار ورد نفراً من المسلمين من ضعاف الايمان إلى كفرهم !! ومهما يكن من أمر فان حادث (التكريم) هذا « ترك ثماره في نفس الرسول ﷺ فاستراح إلى حمد الخالق وقل اكتراثه لذم الهمل من الجاحدين والجاهلين . ثم نشط إلى متابعة الدعوة ، موقنا أن كل يوم يمر بها هو خطوة إلى النصر القريب [٣٣] » .

تأتي بعد ذلك مسألة البعد (الزمني) لحادثة الاسراء والمعراج ، هـذه التي اجتاز بها الرسول في ليلة واحدة ، أو جزء من ليلة ، المسافات الفاصلة بين مكة والقدس ، وهي المسافات التي تتضاءل وتضيع إذا مـا عرضناها على الامداء الكونية الهائلة التي قطعها الرسول ﷺ عبر السماوات ، في أعماق ذلك الليل !! ولنرجع إلى القرآن نفسه نتمعن في بعض آياته ونستنطقها حول هذه المسألة .

فهنالك حشد من الآيات واللمسات والإشارات منبثة في حنايا السور ، نذكر منها – على سبيل المثال – هذه الآيات الموحيـة ذات الدلالة العميقة (قال كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم : البقرة ٢٥٩) (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار: يونس ٤٥) (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم إلا قليلا : الإسراء ٥٢) (قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين : المؤمنون ١٣) (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة : الروم ٥٥) (ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون : السجدة ٥) (يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن : الرحمن ٢٩) (إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثت إلا يوماً : طه ١٠٤) (وإن يوماً عند ربك كألف سنة ممـا تعدّون : الحج ٤٧) (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام : الأعراف ٥٤) (أدعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب : غافر ٤٩) ...

إن بين هذه الآيات المنبثة في حنايا القرآن ، وغيرهـا ، ترابطاً وانسجاماً رياضياً دقيقاً ، وان فيها تأكيداً مستمراً على الحقيقة « الطبيعية » التي لم تتكشف

---

(٣٣) المرجع السابق ص ١٤٥ .

بعض جوانبها للعلم إلا أخيراً ، تلك هي أن الزمن في الأرض والزمن في امداء الكون ليسا سواء،وأن هناك فرقاً شاسعاً بين الوحدة الزمنية الأرضية والوحدة الزمنية الكونية يبلغ تارة ٣٦٥،٠٠٠ ضعف ويبلغ تارة أخرى ١٨،٢٥٠،٠٠٠ بحساب القرآن الكريم نفسه !! ومن أجـــل ذلك سيُشْده الناس يوم القيامة ، وسيظنون أن حياتهم الدنيا لم تكن سوى ساعة من نهار وأنهم لم يلبثوا إلا قليلاً .. ومن أجل ذلك لنا أن نتصور لا بحسابنا الأرضي ، ولكن بحساب المطلقات القرآنية الامداء الزمانية (للأيام الست) التي خلق فيها الله سبحانه بناء السماوات والأرض ، وأعدّ كرتنا الأرضية لاستقبال الحياة وإنمائها وتطويرها عـــلى يد الانسان خليفة الله في الأرض وسيد مخلوقاتها .

ولنتدبر – بعد ذلك – هـذه الآية (سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبراً جميلا. إنهم يرونه بعيداً. ونراه قريباً: المعارج١–٧) . إن الملائكة والروح ، وقد تجردت من عوائق الجسد والتراب التي تقيد الانسان، وتجاوزت قوانين الزمان والمكان الأرضية النسبية ، تصعد الآن في طريقها إلى بارئها عبر معارج وأمداء لا يحيطها قط خيال إنسان ، لأنها ستجتاز هذه الأمداء التي تبعثرت فيها خمسمائة مليون مجرة ، في كل منها آلاف المجموعات الشمسية ، كمجموعتنا وأكبر ، تجتازها في يوم واحد لكنه ليس كأيامنا، إنه بحساب أيامنا ثمانية عشر مليوناً وربع المليون يوماً .. إنه اليـــوم الكوني الذي أشار إليه (أينشتاين) في (نسبيته) التي قادته إلى آفاق جديدة رحبة في ميدان العلوم الطبيعية والرياضية . حتى أنه ليقال إن وصول إنسان مـا إلى إحدى المجرّات يحتاج إلى خمسمائة سنة ضوئية ، لكن هذا الإنسان نفسه إذا ما تيسر له جهاز ينقله عبر الفضاء بسرعة الضوء فانه سيختزل هذه المدة الشاسعة إلى ما يقرب من خمسين سنة فحسب !!

إن الملائكة والروح المتخفف من أعباء الجسد وشد الأعضاء لا يعجزها أن تفوق في حركتها سرعة الضوء ، ومن ثم فهي تعرج الكون كله في طريقهـا إلى

خالق الكون جلّ وعلا في يوم واحد في حساب حركتها الزمنية عبر الكون لا بحسابنـا .. ومن ثم ينادي الله في علاه رسوله الكريم وهو يشقى بدعوة الناس يرون يوم الحساب بعيداً كبعد السراب (فاصبر صبراً جميلا . انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) . وهذا يقربنا بعض الشيء من فهم حادثتين زمنيتين عرضهما علينا القرآن الكريم في سيرة نبيين من أنبيائه عليهم السلام تكريمـاً لهما وتقديراً : حادثة نقل عرش بلقيس في جزء من لحظة وحادثـة الاسراء والمعراج التي نحن بصددها .

ونحن نقرأ عن الحادثة الأولى (قال : يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك بـه قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربـي ليبلوني أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فانمـا يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم. قال:نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون. فلمـا جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنـه هو !! وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين : النمل ٣٨ – ٤٢) .

ألا تلفتنا في هذا العرض عبارات كهذه (عنده علم من الكتاب) (وأوتينا العلم من قبلها) ؟ ثم ألا يثير تساؤلنا تفوق (الانسان) الذي عنده علم مـن الكتاب على (العفريت) وتمكنه من اختزال عمليـة النقل من ست ساعات إلى سدس اللحظة ، وربط سليمان اتيانـه العلم من قبلها بكونه مسلماً ، أي منقاداً لأمر الله وسننه ونواميسه ؟ ثم ألا يعني هذا كله ان منح (علم الكتاب) لرجل أو عفريت أو نبي أو ملك هو اطلاعـه على الدستور الرياضي والطبيعي لقوانين الكون ومن ثم تسخيرها إلى أقصى مدى ممكن لتحقيق منجزات زمنية ومكانية تبدو بالمقاييس الراهنة خارقة معجزة ؟

إن الناس قبل أن يسخروا قوى البخار والكهرباء والذرة كانوا يقطعون عدة

مئات من الأميال في شهرين أو ثلاثة ، ولو قيل لهم آنذاك أن بامكان الانسان – لو حظي بمزيد من العلم بنواميس الطبيعة وسننها – أن يختزل هذه المدة إلى أيام وإلى ساعات فانهم سوف لن يصدقوا وسيتهمون القائل بشطط الخيال على أقل تقدير .. ومضت القرون وسخر البخار والكهرباء والذرة وصرنا نصل إلى أطراف الأرض في ساعات معدودة ، ونجتاز عالمنا الصغير صوب القمر ، ونتطلع للذهاب إلى ما هو أبعد في مجموعتنا الشمسية . ولو قال لنا قائل الآن انه سيجيء يوم يكشف فيه العلماء عن مزيد من (السنن والقوانين) الطبيعية والرياضية وانهم سيتمكنون بذلك من صنع أجهزة تنقل الانسان إلى القمر في ساعتين أو ثلاث لاتهمناه هو الآخر بشطط الخيال .. لكن ذلك اليوم سيجيء ، وسيجيء حتماً طالما كان هنالك سعي دائب للكشف عن مزيد من جوانب العلم الذي تسير به السماوات والأرض .

وكثيراً ما يتكلم المتكلمون عن محاولات تجري لنقل الأجسام والأشياء من مكان إلى مكان بعيد ، بسرعة كسرعة الضوء ، بعد تفكيكها إلى تكويناتها الذرية الأولى واعادة تركيبها من جديد في المكان الذي استقرت فيه متحدية حواجز المكان والزمان. وهذا الأمر كذلك لا يستبعد أن يتحقق في يوم قريب أو بعيد ... وهل كان بامكان أحد قبل قرنين من الزمان أن يصدق ان بامكان قنبلة لا تتجاوز حجم كتاب ، عوملت فيها الذرات التافهة الحقيرة معاملة خاصة معقدة، أن تدمر مدينة كبيرة بأسرها وتمحقها محقاً من الوجود في دقائق ولحظات ؟!

إن القوانين والسنن الطبيعية التي تسير السماوات والأرض إلى غاياتها المرسومة في علم الله ، والطاقات التي تحتويها هذه الكتلة الكونية هي هي في كل زمان.. والذي يتاح له الاطلاع على بعض جوانبها وفاعلياتها يستطيع أن يأتي بالعجب العجاب ، وأن يتحدى الوقائع المألوفة ويتجاوز تحديات المكان والزمان ... فكيف وان هذا العلم يمنح مباشرة من الله سبحانه معززاً بارادته التي لا تغلب

لذلك الرجل الذي (عنده علم من الكتاب)، أو إلى نبي كسليمان عليه السلام، هل يعجزهما أن يأتيا بعرش بلقيس عبر آلاف الأميال في جزء تافه ضئيل من لحظة زمنية ، أو يتحققا من امكانية حدوث أمر كهذا ؟

أما حادثة الاسراء والمعراج التي نحن بصددها ، فان ما يلفت نظرنا فيها ما ورد في البخاري عن مالك بن صعصعة من أن رسول الله ﷺ حمل على (براق) يضع خطوه عند أقصى طرفه انطلق به بصحبة جبريل إلى السماوات السبع ... ان البراق ، هذا الذي يضع خطوه عند أقصى طرفه والذي يقطع المسافات الشاسعة في لحظات ، يشتق اسمه من عالم الضوء والكهرباء ، وهي تسمية ذات مغزى عميق جاءت في عصر لم يكن أحد فيه يعرف شيئاً عن قوانين الضوء وسرعته وطاقات الكهرباء وامكاناتها ، وهي كما يبدو رمز مدهش للتعبير عن الانسجام الكامل بين رحلة الرسول ﷺ وبين سنن العلوم وقوانينها، تلك الرحلة التي لم يرد لها أن تكون اعجازاً يفحم المشركين بعد إذ لم تقنعهم معجزة القرآن ذاتها ، بقدر ما أريد لها أن تكون رحلة تكريم يطلع فيها الرسول ﷺ على اطراف الكون الذي أبدع الله صنعه واتقن حبكته ، وان كان من بديهات القول ان بامكان الله سبحانه أن يتجاوز السنن والقوانين في أية لحظة يشاء ، لأنه جلت قدرته صانع السنن والقوانين . لكن هذه الحقيقة الكبيرة لا تمنعنا من القول بأن رحلة الرسول ﷺ يمكن أن تجد لها تفسيراً وتحليلاً على نطاق الطبيعة والرياضيات لا يتجاوز – بطبيعة الحال – الظن والتخمين ...

وفي صبيحة اليوم التالي عندما تحدى مشركو مكة الرسول ﷺ أن يصف لهم بيت المقدس إن كان رآه حقاً ، طفق الرسول يصفه وكأنه معروض عليه عرضاً ، ازقته واسواقه وباحاته وكنائسه وطرقاته. عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ (لما كذبتني قريش قمت في الحجر ، فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا انظر اليه) !!

وأنا أنظر اليه !! لحظة من لحظات تجاوز الابعاد والحواجز الزمانية

والمكانية تعتمد السنن نفسها التي نقل فيها عرش بلقيس واسري بالرسول ﷺ إلى القدس ثم عرج به في جزء من ليلة إلى أقصى الكون .. السنن التي جعلت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما بعد يصرخ وهو في مسجد المدينة (يا سارية الجبل .. الجبل) سارية الذي كان يقاتل في العراق ويتعرض وجنده لكمين قاتل .

هذا عن سنن الكون في أبعاده المادية ، فماذا عن الروح وطاقاتها وأساليبها في التعامل مع النواميس ؟ إن الله سبحانه الذي هو صانع السنن والقوانين يهب بعض عباده القدرة الخارقة التي يتمكن بها العبد من طبيعته الخاصة ومما يحيط بها من أشياء وموجودات ، فيصنع المستحيل . وتبدو هذه (المستحيلات) خوارق بالنسبة لأناس ينظرون من الخارج ، لكن القضية بالنسبة للعبد نفسه لا تعدو أن تكون قضية (علمية) تعتمد قوانين الروح وطاقاتها لتسخير الأشياء والموجودات، ولتحطيم الحواجز الخارجية للزمان والمكان ..

لقد كشف العلم الطبيعي ، نفسه ، وفي العقود الأخيرة ، ومن خلال تحليله لخواص المادة وتوغله في تركيبها الباطني ، عن حقيقة خطيرة ، هي أن الطاقة أو الحركة انمـــا هي قاعدة المادة وأساس الأشياء ، وأن تركيب الذرات وما تحتويه من تكوينات أدق كالنيوترونات وما تضمه هذه من تركيبات أشد دقة وضآلة يؤول في نهاية المطاف الى طاقة حركية غـير مادية هي التي تتشكل منها الذرات والجزئيات ، وهــــي التي تصوغ في (سرعتها) و (ابطائها) وطبيعة حركتها أشكال الأشياء الصلبة والسائلة والغازية !

فاذا كانت الوحدة الأساسية للبناء الطبيعي المادي قد تكشفت عن الحركة اللامادية أفلا يمكن القول إذن بأن الطاقة الروحية التي تتميز بالوعي والانفصال والامتثال والاستشراف والإرادة يمكن أن تتعامل مع هذه الطاقة (اللامادية) بشكل من الأشكال ، وتطوعها لأمرها فتذعن وتلبي ؟ إن إشارة ضوئية غير ملموسة توجه مركبة فضائية في غاية التعقيد إلى أهدافها في ظروف تقرب من المستحيل لغير المتوغلين في قوانين العلوم الرياضية والطبيعية ،أفلا يمكن لإشارات

الروح أن تحقق في عالم الطبيعة ما هو أكثر استحالة وإعجازاً لمن لم يعرف، ولن يعرف ، عن الروح الا قليلاً ؟

إن انهيار الأساس المادي للأشياء ، الذي كشف عنه العلم أخيراً ، يقربنا خطوات من فهم وادراك طبيعة التعامل بين الروح والمادة ، ولكنها خطوات نحسب انها ستطلعنا على وحدة البناء الكوني، فوحدة خالقه جل وعلا، ولكنها لن تطلعنا بحال على كل أبعاد وخصائص الروح الانساني ، ولا على كل سننه وقوانينه . هذا الروح الذي هو نفخة الله في الطين ، ومصدر الحياة والفكر والإرادة والتقدم ، سيظل مستغلقاً على الإدراك والتحليل الكاملين، لأن خلافتنا على الأرض لا تقتضي هذا التكشف الكامل ، ولأن المقادير الضئيلة التي يمنحنا الله اياها في عالم الروح ، توازي فاعليتها المقادير الضخمة التي مكننا من معرفتها في عالم الطبيعة . وهذا التوازن الحضاري الفذ بين الروح والمادة في ميدان الكشف والمعرفة، هو ما يقودنا القرآن اليه في حشد كبير من الآيات التي تدعونا الى أن نفتح كل منافذنا على الطبيعة لاستكشاف قوانينها وطاقاتها وتسخيرها لتنمية الحياة البشرية وتطويرها .. يقابل هذا الحشد آية كريمة واحدة تقول : (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلاً [٣٤]) .

---

(٣٤) انظر عن هذا الموضوع بالتفصيل بحث (القرآن والبعد الزمني) للمؤلف : مجلة الوعي الاسلامي عدد ٩١ سنة ٨ و (معاول في جدار العلمانية) للمؤلف ، نفس المجلة عدد ٥٥ ، ٦٠ سنة ٥ .

الفَصْل الرَابع

تحليل للهجرة



١

وضع رسولنا[١] ﷺ خطواته الأولى في الدرب صوب المدينة وقلبه يخفق بهذا الدعاء (وقل ربي أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً) وكان يعلم جيـــداً أن حركة الانسان في التاريخ لا تستقيم وتصل إلى هدفها إلا بأن يرفع الانسان بصره وفؤاده وعقله وسمعه وحسّه إلى السماء يتلقى عنها الصدق والنصر .. صدق الحركة وانتصار قيمها .. لكنه لم ينسَ لحظة ان هذا التوجه إلى السماء يجب أن يقترن بثبات الخطى على الأرض، وبتحمل مسؤولية البصر والسمع والفؤاد بأمانة كاملة .. وبصياغة الحريـــة الانسانية بما ينسجم ، في المدى القريب والبعيد ، مع قدر الله ونواميسه وسننه . وبدون هذا التناغم بين مشيئة الله وحرية الانسان .. بين نور السماء وشفافيتها وبين كثافة الأرض ووعورة الطريق .. بدون هـــذا الحوار الدائم الفعال بين الانسان وخالق الانسان .. بين انطلاق الروح وشد الجسد .. بدون هـــذا التواصل الدائم .. بين الحضور والغياب .. بين عالم المشاهدة المباشرة والغيب البعيد .. بدون هذا وذاك لن تكون هناك حركة جادة ، ولا مصير عظيم .

إن الرسول ﷺ ظل قلبــه يخفق بدعاء الله .. وهو يرسم الخطط ، ويضع الضمانات ، ويهيىء المواد والامكانات والدفوع الكفيلة بإيصاله إلى هدفــه .. لم يجيء هـــذا الدعاء قبل التخطيط فحسب ، ولا جاء بعده فحسب ، فليس في علاقــة الارادة البشرية بالمشيئة الالهية ــ خلال الحدث ــ قبلية ولا بعدية ..

---

(١) انظر : خطوات في الهجرة والحركة للمؤلف ، بيروت ، الدار العلمية ــ ١٩٧١ .

وانما تسير الاثنتان في انسجام رائع ، لأن هذه من تلك ولأن الانسان في أصغر جزئيات الحركة وفي أكبرها انما ينفذ قدر الله وناموسه في الأرض ، في مدى الحرية التي اتيحت له . أما ان يجيء الدعاء والتوجه قبل التخطيط فحسب ، أو بعد التنفيذ فحسب ، فهو من قبيل الثنائيات التي ترفضها مبادىء السماء أشد الرفض لأنها تفصل بين الله والانسان ، وتقسم حظ الاثنين في حركة التاريخ بما لا يتفق أساساً والسنن الكبرى .

إن الرسول ﷺ هيأ الأسباب (الارادية) الكاملةلنجاح الحركة وهو ينظر إلى الله . ووضع خطواته الأولى على الدرب وهو يدعو الله .. ومـــا لبثت الأسباب أن آتت أكلها ، والخطوات ان انتهت إلى هدفها، وظل الرسول ينظر إلى الله ويدعوه .

استغرق (هيكل) الهجرة زمناً طويلا .. حمل الرسول وأصحابه معاولهم وبدأوا يحفرون الأسس من أجل أن يستقيم البناء . إن الاسلام جاء لكي يعبر عن وجوده في عالمنا من خلال دوائر ثلاث ، يتداخل بعضها في بعض ، وتتسع صوب الخارج لكي تشمل مزيـــداً من المساحات : دائرة الانسان ، فالدولة ، فالحضارة ولقد اجتاز الاسلام في مكة دائرة الانسان ، ثم ما لبثت العوائق السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية انصدته عن المضي في الطريق صوب الدائرة الثانية حيث الدولة . لأنه بلا دولة ستظل دائرة الانسان ، التي هي أشبه بنواة لا يحميها جدار ، ستظل مفتوحة على الخارج المضاد بكل أثقاله وضغوطه وامكاناته الماديـــة والروحية . ولن يستطيع الانسان (الفرد) أو (الجماعة) التي لا تحميها (دواة) أن يمارسا مهمتها حتى النهايـة ، سيا إذا كانت قيمها واخلاقياتها تمثلان رفضاً حاسماً لقيم الواقع الخارجي والتجربـــة المعاشة ، ولا بد اذن من ايجاد الأرضية الصالحة التي يتحرك عليها المسلم ، قبل أن تسحقه الظروف الخارجية أو تنحرف به عن الطريق. وليست هذهالأرضية سوى الدائرة الثانية ، وليست هذه الدائرة سوى الدولة التي كان على المسلمين أن يقيموها وإلا ضاعوا !!

وهجرة الرسول ﷺ تبدأ منذ اللحظات التي أدرك فيها أن مكة لا تصلح لقيام الدولة وأن واديها الذي تحاصره الجبال ، وكعبتها التي تعج بالأوثان ، لا يمكن أن تكون الوطن ومن ثم راح الرسول يجاهد من أجل الهجرة التي تمنح المسلمين دولة ووطناً ، وتحيط كيانهم الغضّ بسياج من امكانيات القوة والتنظيم والأرض !!

ولن نستطيع أن نحدد بالضبط تلك البدايات .. لكننا نعلم – كما مرّ بنا – أن الرسول ﷺ بدأ نشاطاً واسعاً ومشهوداً إثر خروج المسلمين من حصارهم القاسي في (شعب أبي طالب) ، ذلك الحصار الذي استغرق سنين طوالاً ، وجاء اشارة حاسمة إلى أن المشركين عامة ، والقيادة الوثنية القرشية على وجه الخصوص ، لا يمكن بحال أن تهادن المبدأ الجديد ، الذي جاء يمثل رفضاً حاسماً لكل قيم الوثنية وأهدافها وتقاليدها ومصالحها .. وأنهم سيظلون يدفعون حتى النهاية الاخطار التي يمثلها الاسلام بوجه اهدافهم وتقاليدهم ومصالحهم .

والرسول ﷺ – الذي علمتنا سيرته مدى الواقعية الايجابية التي كان يتمتع بها ، والحرص على الطاقة الانسانية ألاّ تتبدد في غير مواضعها – سرعان ما نجده يتحرك صوب الخروج إلى مكان جديد يصلح لصياغة الطاقات الاسلامية في اطار دولة تأخذ على عاتقها الاستمرار في المهمة بخطى اوسع ، وامكانات أعظم بكثير من امكانات افراد تتناهبهم شرور الوثنية من الداخل وتضغط عليهم قيم الوثنية من الخارج ويستنزف طاقاتهم البناءة اضطهاد قريش ، بدلا من أن تمضي هذه الطاقات في طريقها المرسوم .

إن هجرة الرسول ﷺ بدأت فعلا يوم خرج إلى الطائف ، فصُدّ صدّاً قاسياً ، لكنه لم ييأس ، لأنه يعلم يقيناً أن الخاتمة ستكون له ، فقط إذا استمر على بذل جهده البشري الكامل في البحث والتخطيط للهجرة التي ستعقب دولة ، وللدولة التي ستعقب انتصاراً ... ووقف عند أسفل جدار لبستان في الطائف ، ريثما يستريح ، ونادى ربه (إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي) !! ثم واصل الطريق وراح يتصل دون كلل بوفود القبائل التي كانت تنهال على مكة في

مواسم الحج ، يعرض عليهم الدين الجديد ، ويعرض مع الدين الجديد طلباً بأن يمنحوه أرضهم ويحموه ، لكي يتمكن من (الاسراع) في أداء مهمته الصعبة قبل أن يجيىء البين ويضطرب المصير .

إن الهجرة كان يمكن أن تكون إلى الطائف ، أو إلى ديار أية قبيلة عربية قوية الجانب عزيزة المنال ، سواء كانت بلادها في الشرق أم في الغرب .. لكن أياً من هذه القبائل (بنو كندة ، بنو عامر بن صعصعة ، بنوحنيفة..... الخ) لم تمد يدها مبايعة الرسول ﷺ ومرحبة بهجرته إلى أرضها وديارها .. فقد أعمت الوثنية الجاهلية قلوبهم وأبصارهم عن الشرف الذي كان يمكن أن يحظوا به لو قالوا للرسول : بايعنا .. ونصرنا !!

ويمضي الرسول ﷺ في بحثه عن الطريق الذي سيهاجر عليه وأصحابه صوب هدفهم المحتوم . وكان أن بعث الله نفراً من يثرب .. ساقتهم ارادته التي لا تغلب ، إلى الرسول في السنة العاشرة للبعثة .. فالتقوا بـه عند العقبة ، المنفذ الذي يجتازه القادمون من يثرب صوب أم القرى . وعرض عليهم الرسول ﷺ مبادىء الاسلام ، غايـة في الوضوح والسماحة والعدل والمساواة والانسجام مع تكوين الانسان ونشاطه وأهدافه .. فما كان منهم إلا أن لبوا الطلب ، وأعلنوا اسلامهم ، ووعدوا الرسول ﷺ بأنهم سيرجعون إلى يثرب ويبشرون بدعوته العادلة هناك ، وقالوا « انا قـد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى الله أن يجمعهم بك .. فان يجمعهم الله عليك فـلا رجل أعز منك » . وقفلوا عائدين إلى بلدهم ، وراحوا يدعون قومهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم « فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ »[٢] . ومما ساعـد هؤلاء الرواد ، والذين أعقبوهم ، على التحرك لنشر الدعوة في يثرب ، وساعد بالتالي على نجاح (الهجرة) ، ان الأوس والخزرج كانوا في هذا الوقت اصحاب الكلمة العليا في يثرب ، وكانوا قد أصبحوا سادة الموقف فيها ، وأصبح اليهود

(٢) ابن هشام ص ١٠٨ الطبري : تاريخ ٣٥٣/٢ ــ ٣٥٥ .

يعتبرون موالي لهم ، فاذا تحالف النبي مع الأوس والخزرج ودخلوا في دينه ، كان له ألا يخشى اليهود ، كما كان في مقدور الأوس والخزرج أن يدخلوا في المدينة من شاؤوا دون أن يخشوا اعتراض اليهود عليهم[٣] .

وما لبثت السنة التالية ان جاءت إلى الرسول ﷺ ، في نفس المكان ، بوفد ثان من أوس يثرب وخزرجها: اثنا عشر رجلاً، من بينهم الستة الذين أسلموا من قبل ... جاءوا لا ليعلنوا اسلامهم هذه المرة بل ليبايعوا الرسول على الاسلام ، تمسكاً بأهدافه والتزاماً بقيمه وأخلاقياته . ولم يشأ الرسول أن يتسرع الخطوة التالية ويعرض عليهم طلبه القديم : أن يمنحوه أرضهم وبلدهم وأن يحموه .. انه بذكائه العجيب وبالهدى الالهي الذي يمده بنوره، كان ينتظر نتيجة مساعي أصحابه الجدد ، ويجسّ النبض ويختبر الامكانات . إنه في المرة الأولى اكتفى بأن يعرض الاسلام وأن يودع الستة الذين أسلموا دون أية بيعة ، وفي المرة الثانية بايعوه على الجانب السلمي – إذا صح التعبير – من برنامج الاسلام « ألا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوه في معروف »[٤] . وأرسل معهم داعيته الشاب مصعب بن عمير – الذي لم يشأ أن يجازف به في المرة الأولى – أرسله هذه المرة بعد أن استبانت له ملامح المستقبل ، لكي يتولى شئون الدعوة والتثقيف العقائدي هناك .

ومرت أشهر وأشهر ومصعب يعمل في المدينة بهمة لا تعرف كللا ولا فتوراً .. يتحرك بالقرآن ، ويحرك أفئدة الناس هناك وعقولهم بالقرآن.. كانت آيات الله تملك في بنيتها المعجزة سحر الإقناع ، وكان مصعب يزيدها سحراً في تلاوته إياها وسط حشود الناس التي كانت تجتمع ، مبهورة الأنفاس من حوالي مصعب ، في أزقة المدينة وطرقاتها، وهو يتلو آيات من القرآن الكريم.. وعندما اقترب موسم الحج من السنة الثانية عشرة للبعثة ، غادر مصعب يثرب ، يطير

---

(٣) ابراهيم الشريف : مكة والمدينة ص ٣٨٢ .

(٤) ابن هشام ص ١٠٩ الطبري : تاريخ ٣٥٦/٢ .

به الشوق للقاء رسوله وقائده . وفي مكة اجتمع به وعرض عليه نتائج مساعيه في يثرب، وأنه عما قريب سيلتقي الرسول بوفد كبير منهم تقرّ له عينه ويطمئن به باله .

وعند العقبة أيضاً .. اجتمع الرسول ﷺ بأعضاء الوفد الموسّع الجديد .. كان يضمّ هذه المرة ثلاثاً وسبعين رجلا وامرأتين .. اتفق معهم سرّاً على أن يوافوه في الثلث الثاني من الليل ، حين ينام الناس وتغفل العيون .. يتسللون إليه واحداً واحداً واثنين اثنين .. وتمت البيعة الثانية .. البيعـة الكبرى .. هذه المرة صريحة واضحة مكتملة ، على كل جوانب الاسلام ، سلماً كـان أم قتالاً – بعد أن أذن الله لرسوله بالقتال – ومدّوا إليه أيديهم مصافحين ، ومقسمين بالله الواحد الذي آمنوا به ، أنهـــم سيحمون الرسول ﷺ وينصرونه ، وأنهم سيرفعون السلاح مدافعين بوجه أية قوة في الأرض ، سوداء كانت أم حمراء ، تسعى إلى الفتك به وبدعوته وأصحابه . وسأله أحدهم : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال – يعني اليهود – حبالاً وإنا قاطعوها ، فهـل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم الرسول ﷺ وقال : بل الدم الدم والهدم الهدم [٥] ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم [٦] .

وقبل أن يرجعوا اختار الرسول ﷺ من بينهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس [٧] ، ليشرفوا بأنفسهم على سير الدعوة في يثرب ، حيث استقام عود الاسلام هناك وكثر مثقفوه ، وحيث أراد الرسول – بفقهه العميق لأساليب الدعوة – أن يشعرهم أنهـم لم يعودوا غرباء لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم ، وأنهـــم غدوا أهل الاسلام وحماته وأنصاره . ثم قال لهم :

---

(٥) أي القبر والمنزل (عن تهذيب سيرة بن هشام) .

(٦) ابن هشام ص ١١٢ – ١١٣ الطبري : تاريخ ٢/٣٦٣ .

(٧) انظر البلاذري : أنساب ١/٢٥٢ – ٢٥٣ وعن لقاءات العقبة انظر بالتفصيل ابن هشام ص ١٠٧ – ١٢٩ وبوهل في Ency. art: Muhammad

ارفضّوا إلى رحالكم ، فقال له أحدهم ، وقد شعروا أن نبأهم بدأ يتسرب إلى قريش : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا ! ! فأجابه رسول الله : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم [٨] .

خطوات محكمة ، واستخدام حصيف للامكانات ، وفقه عميق لخطوات الحركة .. يرافق هذا كله هدى السماء الذي لم يفارق خطى الرسول لحظة ، والذي ساق إليه – بما أوجده من ظروف صعبة في يثرب – هذه الوفود التي جاءت تحمل اليه ما كان يرجوه ويعمل على تحقيقه جاهداً .

« رجعنا إلى مضاجعنا – يقول أحد المبايعين – فنمنا عليها حتى أصبحنا ، فلما اصبحنا غدت علينا جلّة قريش فقالوا : يا معشر الخزرج ، انه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين اظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وانه والله ما من حيّ من العرب أبغض الينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم ، منكم ! فانبعث من هناك ، من مشركي قومنا ، يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه ! – وبعضنا ينظر إلى بعض – وقد صدقوا ، لم يعلموه !

« ونفر الناس من منى .. وتأكدوا صحة الخبر ، فخرجوا في طلب القوم فلم يدركوا ، وكانوا قد رحلوا ، سوى اثنين : سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو – وكلاهما كان نقيبا – فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه وأوثقوه رباطاً ثم اقبلوا به حتى ادخلوه مكة يضربونه ويجذبونه من شعره الكث » ... لكنه سرعان ما تذكر اثنين من تجار المشركين ، كان يجيرهما لدى مرورهما بيثرب ويمنعهما ممن كان يريد ظلمهما هناك ، فاستجار بهما فهرعا اليه وخلصاه من أيدي القرشيين . فانطلق إلى يثرب ليلحق برفاقه الذين سبقوه اليها [٩] . وراحت قريش تشدد قبضتها على المسلمين في مكة وتزيد من اضطهادهم ، بعدما رأت من تجاوب أهل يثرب معهم « فأصاب المسلمين جهد شديد ، وكانت الفتنة الآخرة ،

---

(٨) ابن هشام ص ١١٣ – ١١٤ الطبري : تاريخ ٣٦٤/٢ – ٣٦٥ ابن سعد ١٥٠/١/١ .

(٩) ابن هشام ص ١١٤ – ١١٥ الطبري : تاريخ ٣٦٥/٢ ، ٣٦٧ – ٣٦٨ ابن سعد ١٥٠/١/١ البلاذري : انساب ٢٥٤/١ .

وكانت فتلتين ، فتنة اخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة .. وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة »[10] .

٢

أصدر الرسول ﷺ أوامره إلى اصحابه بأن يبـدأوا هجرتهم ، مختفين ، متفرقين قدر الامكان .. وبدأت طرقات مكة وبيوتها وأزقتهـا ونواديها تشهد يوماً بعد يوم غياباً مستمراً لاصحاب الرسول ﷺ .. أما هو ﷺ فكان ينتظر تأمين هجرة أصحابه .. ثم يبدأ هو ومن سيختارهم للبقاء معه ، خطواته صوب المدينة ريثما يتلقى اشارة الوحي الأمين بالتحرك .

وفتح القرشيون يومـاً أعينهم على مكة وقد اقفرت من المسلمين !! لقد غادروها صوب المهمة التي تنتظرهم مخلفين وراءهم أموالاً وبيوتاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً ومتاعاً كثيراً ... ان الهدف الذي تحركوا من أجله أغلى وأثمن من الأموال والبيوت والمتاع ، وأكثر الحاحاً من تلبية مطالب جسدية أو حياتية أو اجتماعية . . انهم مستعدون لأن يبذلوا أرواحهم ودماءهم في سبيل هذا الهدف الذي ينتظرهم هناك في نهاية الهجرة فكيف لا يتخلون عن الأموال والنساء والمتاع ؟

وها هي رؤوس قريش تجتمع في (دار الندوة) قبل أن تفلت الفرصة من أيديهم ولات حين مندم.. وطرحت آراء باعتقال الرسول ﷺ وتكبيله بالاغلال أو بنفيه بعيداً في منقطع الصحراء ، وفي الحالتين كان صوته سيصل ، مجتازاً الحواجز والعوائق . ومن ثم فان رأيا بقتله وتفريق دمه بين القبائل هو الذي حاز الموافقة والاعجاب. انهم إن استطاعوا قتل الرسول ﷺ ، فقد استطاعوا قتل الدعوة التي لم تستكمل أسبابها بعد .. وإن طالبتهم بنو هاشم بدمه فسيشيرون إلى العشائر جميعاً وإلى سيوف أبنائها حيث تقطر دماء الرسول !!

ويجيء أمر الله يحمله الوحي إلى الرسول : تحرك يا محمـد . كانت تلك هي

---

(١٠) الطبري : تاريخ ٣٦٦/٢ البلاذري : انساب ٢٥٧/١ .

الاشارة التي ينتظرها الرسول ﷺ بفارغ الصبر. لكن شوقه للهجرة، وتحرقه لأن يضع خطواته على الأرض الموعودة حيث أصحابه القدامى والجدد ينتظرونه على أحرّ من الجمر .. ورغم يقينه الكامل بأن الله معه يرعاه، ويسدّد خطاه .. فإنه لم يتعجل الحركة، ولم يرتجل الخطوات. كان عليه أن يخطط للهجرة، مستخدماً كل ما وهب من إمكانات الفكر والبصيرة والإرادة .. لأنه بهذا وحده يستحق نصر الله ووعده .. وإلا فلأي شيء منحنا الله بصائر وعقولاً وحرية وقدرة على التحرك والتخطيط؟ وما أبرع البرنامج الذي رسمه رسولنا ﷺ من أجل أن يصل إلى الهدف بأكبر قدر ممكن من الضمانات !!

انتقى من بين أصحابه أول اثنين أسلما في تاريخ الدعوة : أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما، واستبقاهما لكي يؤديا الأدوار التي رسمت لهما في حركة الهجرة. أما علي فلكي يؤدي مهمة مزدوجة .. الايهام ورد الأمانات إلى أهلها، وقال له الرسول ﷺ «نم على فراشي، وتسجّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فانه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»[11]. ورب قائل يقول : إن وراء الهجرة هدفاً أكبر بكثير من التمسك بجزئيات أخلاقية قد يسمح الظرف الخطير بتجاوزها . لكن منطق رسول الاسلام شيء آخر.. ما الفرق بين الاسلام وبين المبادىء الأخرى إذا كان هو متأسياً بها في تخليه عن أخلاقياته في ساعات المحنة والخطر ؟ وماذا سيقول المشركون لو غادر (الأمين) مكة دون أن يردّ إليهم أماناتهم .؟ ما أسرع ما يمكن أن يتهموه، حيث يأكلهم الغيظ : الأمين تحول إلى سارق، وضاعت الأمانة.. وحاشاه !

أما أبو بكر فقد اختير ليكون رفيق النبي وأخاه في هجرته .. تسلل إليه الرسول في ضحى أحد الأيام، على غير عادته في التردد على داره صباحاً أو مساء .. خطوة من خطوات الإيهام والتدبير بأولئك الذين يريدون أن يمكروا به .. ودهش أهل الدار لمجيء الرسول في وقت لم يعتادوه، لكن الرسول ﷺ

---

(11) ابن هشام ص ١٢١ الطبري : تاريخ ٢/٣٧٢ .

لا يلتفت إلى دهشتهم، بل يتجه إلى رفيقه فوراً ويطلب منه أن يخرج ابلتيه من المكان ، فيطمئن ابو بكر الرسول بأنه ليس ثمة ما يخشى ، ويتكلم الرسول ﷺ « أن الله اذن لي في الخروج والهجرة » فيرد عليـــه الصديق وهو يهتز فرحاً : « الصحبة يا رسول الله ؟ » فيجيبه الرسول : « الصحبة » . وتقول عائشة : « فوالله ما شعرت قط، قبل ذلك اليوم ، أن احداً يبكي من الفرح ، حتى رأيت أبي يبكي يومئذ » !!

ومعاً استكملا الخطة ووضعا الأسباب ، وتركا — من ثم — مصيرهما ومصير الدعوة لله ، صانع المصائر ومقدر الاقدار ... التسلل من شباك خلفي على غفلة من قريش .. التوجّه جنوباً على طريق اليمن واللجوء إلى احدى مغارات جبل ثور هناك .. التوقف عن السير ثلاثة أيام ريثما تخف محاولات القرشيين المستميتة في البحث عن الرسول. ثم الانطلاق — بعد ذلك — صوب يثرب في طريق وعر غير مطروق ، يعينهما في ذلك دليل ماهر من المشركين أنفسهم ، اختير اعتماداً على كفاءته العالية كدليل ، وعلى امانته التي لا بد وأن يكون الرسول ﷺ قد سبر أغوارها . أما انباء تحركات القرشيين ومطارداتهم فسيأتيهما بها عبد الله بن أبي بكر ، وأما توفير الطعام فسيقوم به راعي أبي بكر ، عامر بن فهـيرة ، الذي كلف باراحة الاغنام عند الغار مساء كل يوم كي يحتلبها المهاجران ويشربا من لبنها .. كما كلفت اسماء بتوفير الطعام في المرحلة التالية من الهجرة . وأما آثار الأقدام الذي سيخلفها عبد الله بن ابي بكر لدى ذهابه وإيابه ، والتي تقود إلى الغار مباشرة فان هناك راعي ابي بكر يعود في الأمسيات في أعقاب عبـد الله لكي تطمس حوافر الأغنام على خطوات الرجال !!

خطة محكمة ورائعة.. ولا يبقى إلا ان يتنزل نصر الله على قادة استكملوا كل الأسباب التي منحهم الله إياها .. إنه التوافق المنغم الرائع ، الذي تحدثنا عنه ، بين مشيئة الله وارادة الانسان ، وبين هدى الله وخطوات عباده الأبرار ..

٣

وفي تجربة الهجرة يتنزل نصر الله ، فعلاً مباشراً مرئياً ، ثلاث مرات .. فيما عدا خط الهجرة والتاريخ كله حيث ارادة الله التي لا رادّ لها.. لكننا هنا نريد أن نشير إلى افعال الله المباشرة في هجرة رسوله ﷺ . مرة لدى مغادرته داره في اعقاب ليل مريع ، احاط ابناء القبائل المسلحون طيلة ساعاته بدار الرسول ينتظرون اللحظة التي سيطيحون فيها برأسه ويفرقون دمه بين القبائل .. إلا أن هـــذه اللحظة السوداء لم تجيء ولن تجيء . لقد فتح الرسول ﷺ الباب على مصراعيه وراح يقرأ آيات من سورة يس : (يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوماً مـــا انذر اباؤهم فهم غافلون . لقد حـق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في اعناقهم اغلالاً ، فهي إلى الأذقــاق فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فاغشيناهم فهم لا يبصرون !!) .. وعبر هذا السدّ الذي أغشى به الله ابصار المشركين انطلق الرسول ورفيقه إلى الهدف .. على الصراط المستقيم.

ومرة أخرى عند الغار.. وما اخطر ساعات الغار بايامها ولياليها. لقد رأى ابوبكر بأم عينيه نعال المشركين المطاردين الحانقين تخفق عند أسفل الغار ، فارتعد فرقاً .. ليس على نفسه ، فما اهون النفس على أصحاب رسول الله ، وعلى رفيقه وصدّيقه بالذات ! لكن على الرسول نفسه ، وعلى ما يمثله الرسول. فيهمس في اذنه « لو نظر أحدهم تحت قدمـــه لرآنا !! » . ويجيء رد الرسول منبثقاً عن تلك اللحظات العليا حيث يقف الله مع عبــاده يدفع عنهم : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » .. وتطيش الباب المشركين ، وعبثاً يرهق مقتفو الآثار أنفسهم .. إن الرسول ورفيقه في حمايـــة الله .. وكفى .. ودون الوصول إليه المستحيل .. ولو اجتمعت جنود الأرض كلها عنــد الغار تطالب برأسه .. وما أروع كلمات الله وهو يعلن هذه الحماية التي لا حماية بعدها (إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانِيَ اثنــينِ إذ هما في الغارِ إذ يقول لصاحبه

لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنودٍ لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) .

ومرة ثالثة في الطريق إلى يثرب ، بعد ثلاث ليال من المكوث في الغار .. إن (سراقة بن مالك) الذي خلبت لبّه الجائزة التي رصدتها قريش لمن يأتي بالرسول حياً أو ميتاً ، يلهث الآن ركضاً وراءها، بفرسه المنطلقة ورمحه المصوب إلى هدفه .. إن سراقة كألوف من الأعراب ، بل كألوف من الناس ، نلتقي بهم في كل مكان وزمان.. اولئك الذين ما أن تبرق أمام أعينهم قطع النقود، وتطرق أسماعهم أصوات الذهب والفضة وهي ترن ، حتى يصبحوا على استعداد لأن يبيعوا مبادئهم وضمائرهم وشرفهم وعرضهم ، من أجل أن يصلوا إلى قطع النقود ويضعوا أيديهم على أكوام الذهب والفضة.. إنهم موجودون في كل مكان وزمان. ولذا كانت خير وسيلة للاتيان بالزعماء الهاربين من وجه الظلم والطغيان هو أن يعلن عن جائزة قدرها (...) لمن يأتي بالهارب حياً أو ميتاً ... لكن إرادة الله لن تدع الرغائب السافلة تطغى على الأهداف العليا .. إن هذا الطغيان يحدث – يوم يحدث – عندما يتخلى أصحاب الأهداف الكبيرة عن حشد طاقاتهم والتخطيط العاقل لخطواتهم، والتلقي الكامل عن خالقهم، حينذاك تغدو كل آمالهم وتمنياتهم كالزبد الذي يذهب جفاء ولا ينفع الناس.. أما والرسول قد استكمل الأسباب فان سراقة تعثر به فرسه وتمرغه بالتراب ، كلما اقترب من هدفه، مرة ومرتين.. فيطلب الأمان.. إنه الآن لا يطارد رجلين مرهقين، قد عصرهما الجوع، وأرهقهما السفر الطويل ، والتشرّد .. لكنه يقف بإزاء جند الله التي لا تُرى ، فأنى لهما يريد ؟ إنه بعد دقائق يلوي زمام فرسه ويقفل عائداً .. وكلما رأى أحداً من اللاهثين كالكلاب الجائعة ردّه قائلاً : كفيت هذا الوجه . وذلك ما طلبه منه الرسول !.

ويحدثنا جماعة من الأنصار عن أيام الانتظار القلقة التي سبقت وصول الرسول ﷺ فيقولون « لما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة وتوكفنا قدومه كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرّتنا ، ننتظر رسول الله ﷺ فوالله لا

نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلاً دخلنا، وذلك في أيام حارة حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا . وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى مـــا كنا نصنع ، وانا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة هذا جدكم [١٢] قد جاء!! فخرجنا إلى رسول الله ﷺ في ظل نخلة ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك ، وازدحم عليه الناس وما يعرفونه من أبي بكر ، حتى زال الظل عـــن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظلّه بردائه فعرفناه عند ذلك » [١٣] . وقال البراء « جاء النبي ﷺ إلى المدينة في الهجرة ، فما رأيت أشد فرحـاً منهم بشيء من النبي ﷺ ، حتى سمعت النساء والصبيان والاماء يقولون : هذا رسول الله قد جاء .. قد جاء » [١٤] .

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول (٢٤ أيلول ٦٢٢ م) من السنة الثالثة عشرة للبعثة ، وصل الرسول وصاحبه يثرب حيث جرى لهما استقبال حافل من قبـل أولئك الذين انتظروا رسولهم طويلاً .. وهاهي تكبيراتهم تشق أجواء الفضاء .. انهم سيبدؤون معه ، وبــه ، ومن أجله وأجل دعوته ، عهداً جديداً كتب لهم شرف وضع أسسه التي سيقوم عليها البناء .. الدائرة الثانية من دوائر الدعوة ، دائرة الدولة التي ستحمي المسلمين أفراداً وجماعات ، وستمنح الاسلام خطوات حاسمة وسريعة في طريق النصر .. فــلا عجب أن يخرج الأنصار بأسلحتهم يستقبلون الرسول ، فها هم أولاء الجنود الذين سينضمون إلى اخوانهم المهاجرين ، وسيبنون معاً ، بقوة العقيدة والسلاح ، الدولة التي ستصنع حضارة

---

(١٢) الجـد : الحظ .

(١٣) ابن هشام ص ١٢٨ ــ ١٢٩ الطبري : تاريخ ٣٨١/٢ ــ ٣٨٢ ابن سعد ١٥٧/١/١ ــ ١٥٨ البخاري : تجريد ٢ /٧٤ البلاذري : انساب ٢٦٣/١ خليفة بن خياط : تاريخ ١١/١ ــ ١٢ .

(١٤) ابن سعد ١٥٨/١/١ .

تشرف الانسان ، في كل مكان ، وتباركه ، وتضعه موضعه الحق الذي أراده له الله عندما استخلفه ومنحه السيادة على العالمين .

إن اليوم الثاني عشر من ربيع الأول هو نهاية حركة حاسمة من أجل إقامة (الدولة) لكنه في الوقت نفسه بدء حركة حاسمة أخرى من أجل تعزيز الدولة واقامة (الحضارة) تماماً كما كانت بعثة الرسول – في البدء – حركة صوب تكوين (الانسان) صانع الدول والحضارات !!

٤

ولن نغادر حركة الهجرة قبل أن نستمد منها تعاليم أخرى قد تعيننا على فهم وتفسير تاريخ البشرية عامة وتاريخنا الاسلامي على وجه الخصوص .. إن أي حدث تاريخي – كما يتضح من خطوة الهجرة – إنما يجيء تعبيراً عن إرادة الله التي تصوغه من خلال إرادة الانسان ، أو مباشرة ، عن طريق اتصالها بالزمن والتراب . ولا يمكن دراسة تاريخ الكون والطبيعة ، وتاريخ البشرية والاحياء إلا من هذا المنطلق .

إن الفعل الالهي يتخذ أشكالاً ثلاثة لخلق الحدث وصياغته ، أولها مباشرة الفعل التاريخي (كما حدث في تجربة الهجرة ، في تلك اللحظات التي كان الرسول يجابه فيها موقفاً يتعدى حدود قدراته وارادته وتخطيطه) . والشكل الثاني يتم عن طريق ما يمكن تسميته بالسببية التاريخية ، أي تهيئة الأسباب لتوجيه الأحداث هذه الوجهة أو تلك .. وقد تكون هذه الأسباب مادية طبيعية أو حيوية انسانية ، وقد تجيء على شكل مجموعة من السنن التي تنظم حركة الكون والحياة والانسان ، والتي تفرض حتمية قانونية على بعض أحداث التاريخ (وقد رأينا في تجربة الهجرة كيف هيأ الله سبحانه الأسباب لأن تكون يثرب الأرضية التي تقوم عليها دولة الاسلام ، ولأن يكون أبناؤها الطاقات البشرية التي تنصر هذه الدولة وتحميها ريثما يتم البناء) أما الشكل الثالث للفعل الألهي فيجيء عن

طريق الحرية الانسانية ذاتها ، والتي هي في مداهـا البعيد جزء من ارادة الله في خلق الأفعال والأحداث . لقد منح الله الحريـة للانسان ، ابتداء ، لـكي يصنع تاريخه الفردي والجماعي ، ولكي يشكل مصيره فرداً وجماعة ، اعتماداً على مـا ركب في وجوده من قوى العقل والارادة والانفعال والحسّ والحركة (وهذا يبدو في تجربة الهجرة من خلالْ تلك الخطط الاجتهادية التي وضعها الرسول ﷺ والتي قدمت لحركته صوب اقامـة الدولة ، ضمانات حاسمة في طريق النصر) . والانسان بدوره ، عندما يستخدم حريته لصناعة الحدث وتوجيه المصير انمـا يعتمد على مقدمات لا يمكنه بحال الاستغناء عنها : الزمن ، التراب ، ثم التعاليم والقيم والأعراف والتقاليد ، وضعية كانت أو دينية .. وها هو الرسول في هجرته يلسّق خطواته صوب هدفه ، مستخدماً هذه العناصر الثلاث ، متخذاً منهـــا عجينته في صياغة الحركة وضمان الأهداف .

إن معظم مذاهب التفسير التاريخي ، وضعية كانت أو دينية ، قـــدمت معطياتها متخطية الاجابة عن هذا السؤال المهم : ما هي العلاقة بين الله سبحانه وبين الطبيعة ، بما فيها القوى المادية ، والانسان بما انـــه روح ومادة ، في صنع التاريخ واقامة الحضارات؟ وهل من المحتم أن تتكىء أحداث التاريخ على عامل واحد من هذه العوامل الثلاث ويلغى العاملان الآخران ، أو على الأقل يغدوان ظلالاً باهتة لفاعلية العامل الرئيسي ؟ ولماذا هـــذه الجدران التي اقيمت بين الله والطبيعة والانسان ؟!

إن معظم مذاهب التفسير تخطّت الاجابة عن هذا السؤال تاركة في طريقها ثغرة عميقة ، ومنغلقة ، في بحثهـــا عن الفرضية الخاطئة التي تمنح صفة الفاعلية لعامل واحد وتلغي العوامل الأخرى الغـاء .. ومن ثم برز التفسير السحري (الميتافيزيقي) للتاريخ وتطور ليعبر عـــن نفسه بالتفسير اللاهوتي الذي ساد تفكير مثقفي العصور الوسطى الأوروبية ، كما برز التفسير الفردي (البطولي) للتاريخ ، والتفسيرات الطبيعية التي بلغت أقصى حدتها بالماديـة التاريخية التي يصفونها (بالعلمية) !!

ولقد أدرك بعض فلاسفة التاريخ المعاصرين ، وعلى رأسهم اشبنغلر وتوينبي وكيسرلنج والناقد كولن ولسون ، ابعاد هذا الخطأ ، فمادوا خطوة متممنة إلى الوراء لكي يجيبوا على السؤال الأول ، ويجتازوا – من ثم – طريقاً مرصوفاً لا ثغرات فيه . والحق ان التفسير الحضاري ، تقدم خطوات في هذا المجال ، خطوات تتسم – إلى حد ما – بالاتزان والتعقل والموضوعية والشمول الذي يستند إلى نظرة كلية وادراك عميق لمقومات الحدث التاريخي . ولكن الموقع الذي رصد منه هؤلاء التاريخ وفلسفوا حركته ، تقف أمامه كثير من المرتفعات كسدود وحواجز تمنع الرؤية الكاملة والحكم الشامل الصحيح كما أن التجربة النفسية التي لامسوا بها أحداث التاريخ تحمل الكثير من عناصر الذاتية المزدوجة والتأثيرات العلمانية . لذا فإنهم لم يقدروا على إعادة الالتئام الكامل بين فاعلية العوامل الثلاث ، وأبقوا بعض الجدران المزيفة ، مرئية وغير مرئية ، بين الحضور والغياب ، والله والانسان ، والمادة والروح . والطبيعة وما وراء الطبيعة .

صحيح أنهم أعلنوا أن الحدث التاريخي لا يمكن أن تصنعه قوة واحدة ، لأن أية (حركة) تاريخية إنما هي نتاج لقاء خلاق بين الله والانسان والطبيعة – بما فيها الزمن – وأن إغفال أي عنصر منها إنما هو جهل بالأسس الحقيقية لحركات التاريخ .. لكنهم لم ينجوا من الوقوع في أسر المذهبية المحدودة ، والنظرة الذاتية ، واضطراب التجربة النفسية في عملية الاستشراف والاستقراء التاريخي ، الأمر الذي أدى إلى تأرجح مواقع رؤياهم ، والوقوع بالتالي في كثير من الأخطاء ، ليس هذا بطبيعة الحال مجال سردها وتحليلها .

إن هجرة الرسول ﷺ تعلمنا كيف يرتبط تاريخ الدعوات بالحركة .. حركة الانسان الفرد وحركة الجماعة . كما تعلمنا أنه ليس من المحتم أبداً أن تكون (الحركة) صدوراً عن صراع النقيضين كما أكد هيغل وماركس وغيرهما ، بل إنها في كثير من الأحيان تجيء بمثابة استجابة داخلية ، مقرونة بعمل خارجي ،

لنداء من فوق .. إن هذا الحوار بين القيم العليا والوجود السفلي هو الذي يحرك – في أحيان كثيرة – أحداث التاريخ على خط صاعد .

إن المثل الأعلى كان دائماً بمثابة هدف يتحرك إليه الذين يتخبطون من تحت أو الذين يتقلبون في الظلمات ، أو الذين يتعذبون بشتى صنوف العذاب وتمنعهم القوى المضادة من تحقيق أهدافهم (والهجرة تمثل حركة هذه الجماعة الأخيرة) .. إن بحث الضائعين والحائرين والمعذبين والمأسورين ، عن النجاة ،عن مثل أعلى ، عن هدف يطمحون للوصول إليه .. هذا البحث الجاد كان في معظم الأحيان المحرك الذي يسوق الأفراد والجماعات إلى مصائرهم ، ويصنع تاريخهم .. وإذن فإن من الخطأ والتزييف أن نصدر حكماً عـــلى كل حركات التاريخ بأنها جاءت نتيجة لصراع النقيضين ..

إن (الصراع) نفسه يتخـذ أشكالاً عديدة لا تقتصر عـلى تقابل الضدين وتغلّـب أحدهما على الآخر .. إنه يبدو – أحياناً – إرادة ذاتيـة تسعى إلى التوحد والائتمان الذاتي في وجدان الانسان ومع المحيط الخارجي، ويبدو أحياناً أخرى رغبة فعّالة في تحقيق تفاهم متبادل وسلم عام بين الانسان والوجود..وهو يبدو أحياناً ثالثة عملية استقطاب للقوى والطاقات،وتنظيم لها ، وحماية لمقدراتها من أجـل أن تصبّ جميعاً في مجرى المبادىء الجديدة والدعوات الكبرى (كما حدث في تجربة الهجرة) . وكل هذه الأشكال مـن الصراع لا نجد فيها تقابل نقيضين بقدر ما نجد محاولة للالتئام والتوحد والاستقطاب والتجمع .. وبعـد هذا – وخلاله أيضاً – لا بدّ للحركات أن تجتاز صراعاً بين النقائض ، لكنها نقائض مـــن مستويات شتى : نفسية وفكرية وعقيدية ووجدانية وعرقية واجتماعية وسياسية واقتصادية .. إلى آخره.. بمعـنى آخر انها نقائض بشرية ، فيها كل ما في الانسان من مكونات روحية ونفسية ومادية .. ومـن التزييف لتاريخ الحركات ان نقصر النقائض على جانب فحسب هو الجانب العقلي (كما عند هيغل) أو المادي الاقتصادي (كما عند انغلز وماركس) ، لأن هذين الجانبين لا

يغطيان كل مساحة الفاعلية الانسانية التي تنبثق عن رغبة ارادية شاملة في مصارعة كل ما يتعارض مع إرادتها ووجودها واهدافها ، مادية كانت أو روحية [١٥] .

(١٥) للتوسع في هذه المسألة انظر بالتفصيل كتاب المؤلف : (التفسير الاسلامي للتاريخ) المقدمة والفصل الثالث . (دار العلم للملايين ، بيروت ـ ١٩٧٥) .

الفصل الخامس

دولة الاسلام في المدينة



بدأ الرسول ﷺ منذ دخوله المدينة يسعى إلى انجاز المهام الملقاة على عاتقه في مطلع المرحلة الجديدة من الدعوة والتي تستهدف انشاء (الدولة الاسلامية) على أسس راسخة وتهيئة كافة الشروط والمتطلبات لتحقيق هذا الهدف . ولقد كان بنـــاء المسجد الخطوة الأولى على هذا الطريق ثم أعقبه اصدار (الوثيقة) والمؤاخاة بين المهاجرين والانصار وتشكيل جيش اسلامي مقاتل يمتلك القدرة على حماية الدولة الناشئة والمساعدة على تحقيق اهدافها في الوقت نفسه .

أولا : المسجد : دخل الرسول ﷺ المدينـــة في ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول بعد ثلاث عشرة سنة من مبعثه وكان راكباً ناقته (القصواء) وكلما مر بعشيرة من أنصاره رجوه أن ينزل فيهم وقالوا : يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة فيجيبهم : خلوا سبيلها - أي الناقة — فانها مأمورة ، فجاوزت به بني سالم بن عوف وبني بياضة وبني ساعدة وبني الحارث ابن خزرج وبني عدي بن النجار. حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت في المكان الذي بنى فيه الرسول ﷺ مسجده ، وكان يومئذ مربداً[1] لغلامـين يتيمين من بني النجار يربيهما معاذ بن عفراء ، فنزل عنها الرسول ﷺ وحمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله ووضعه في بيته حيث نزل عليه الرسول ﷺ ضيفـاً لحين اتمام بناء المسجد والحجرات التي أقام فيها الرسول وأهله بعد قليل . وعندما سأل عن المربد لمن هو ؟ أجابه معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل

---

(١) المربد : موضع يجفف فيه التـمر .

ابني عمرو وهما يتيمان وسأرضيهما عنه فاتخذه مسجداً[٢] .

أصدر الرسول ﷺ أمره في البدء ببناء المسجد وأسهم بنفسه في العمل جنباً إلى جنب مع المهاجرين والأنصار ، وعندما رأى هؤلاء رسولهم الكريم يجهد كما يجهدون نشطوا في أداء المهمة وراحوا ينشدون :

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل

لا عيش إلا عيش الآخره .. اللهم ارحم الانصار والمهاجره

فيجيبهم الرسول ﷺ :

لا عيش إلا عيش الآخره .. اللهم ارحم المهاجرين والأنصار[٣]

كان أسعد بن زرارة الانصاري قد بنى - قبيل هجرة الرسول ﷺ - جداراً حول المربد دونما سقف وجعل قبلته إلى بيت المقدس وراح يصلي فيه باصحابه حتى مقدم الرسول ﷺ الذي بدأ بأن أمر أصحابه باقتلاع ما في الباحة من نخيل وأشجار وتصريف ما فيها من ماء آسن وبدأ بنـــاء المسجد باللبن فجعله مربع الشكل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وعرضه كذلك وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع اقيم اللبن فوقها ، وجعل قبلته صوب بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب وجيء بجذوع الأشجار ليقام عليها سقف متواضع من جريد رغبة من الرسول ﷺ في إنجاز العمل بأسرع وقت . وإلى جانب المسجد أقيم عدد من الحجرات سقفت هي الأخرى بجذوع النخل والجريد لسكنى الرسول وأهله[٤] .

---

(٢) ابن هشام : تهذيب ص ١٣٠ — ١٣١ الطبري : تاريخ ٣٩٦/٢ ابن سعد : طبقات ١٦٠/١/١ المسعودي : مروج الذهب ٢٧٩/٢ — ٢٨٠ البلاذري : فتوح البلدان ٤/١٠ — ٥ انســاب الاشراف ٢٦٦/١ البخــاري : تجريد ٢٧٢/٢ ابن الاثير : الكامل ١٠٩/٢ — ١١٠ ابن كثير البداية والنهاية ٢١٤/٣ — ٢٢١ وانظر بالتفصيل السمهودي : وفاء الوفــا ٢٢٩/١ — ٢٥٦

(٣) ابن هشام ١٣١ الطبري ٣٩٦/٢ — ٣٩٧ ابن سعد ٢/٢/١ — ٣ البخاري ٧٣/٢ وانظر بالتفصيل السمهودي ٢٢٩/١ — ٢٥٦ .

(٤) ابن سعد ٢/٢/١ — ٣ البلاذري : فتوح البلـــدان . ٤/١ — ٥ وانظر بالتفصيل السمهودي ٢٢٩ — ٢٥٦ .

وسرعان ما غدا (المسجد) رمزاً لما يتسم به الاسلام من شمولية وتكامل ، فقد أصبح مركزاً روحيـــاً لممارسة الشعائر وأداء العبادات ، ودائرة سياسية عسكرية لتوجيه علاقات الدولة في الداخل والخارج، ومدرسة علمية وتشريعية يجتمع في ساحاتها أصحاب الرسول ﷺ وتدار في باحاتها الندوات وتلقى عـلى منبرها المتواضع التعاليم والكلمات ، ومؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة ويمارسون التوحد والاخاء والانضباط . ومما لا ريب فيه أن (نقص) أموال الدولة الاسلامية في سنيّها الأولى وانشغالها الدائم في الداخل والخارج لم يمكنها من بناء وإنشاء مزيد من المؤسسات المتخصصة لكي تمارس كل منها المهمة التي عهدت إليها ، الأمر الذي جعل المسجد يزدحم بالوظائف والمهـــام ويغدو – على بساطته – (مجمعاً) تلتقي فيه وتصدر منه كافة عمليات الحكومة وجزءاً مهماً من نشاطات الجماعة الاسلامية في علاقاتها الداخلية والخارجية على السواء .

لقد كان بناء المسجد هو الخلية الأولى للبناء الاجتماعي للأسرة والجماعة بوصفه أداة صهر المؤمنين بالاسلام في وحدة فكرية واحدة مـــن خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء وإقامة المناسبات المختلفة .. فلم يكن المسجد معبداً أو مقراً للصلاة وحدها بل كان شأنه شأن الاسلام نفسه متكاملاً في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع [٥] .

ثانياً : الصحيفة : كانت خطوة الرسول ﷺ الثانية في المدينـــة إصدار وثيقة نظم بموجبها العلاقات بـين المجتمع المسلم الجديد نفسه وبينه وبين الكتل البشرية التي تعايشت في المدينة وبخاصة اليهود . وقد جاء فيها (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس ... وأن المؤمنين لا يتركون مفرماً [٦] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل . وألا يحالف

---

(٥) انور الجندي : الاسلام وحركة التاريخ ص ٣٢ .

(٦) المفرم : المثقل بالدين الكثير العيال .

مؤمن مولى مؤمن دونه وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[7] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وان أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن. وان ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم. وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض من دون الناس. وان من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ... وانه لا يجير مشرك مالا لقرشي ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن .. وانه لا يحل لمؤمن أقر مـا في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً[8] ولا يؤويه .. وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد. وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم - مواليهم وأنفسهم - إلا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ[9] إلا نفسه وأهل بيته .. وانه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد، وانه لا ينحجز على ثأر جرح .. وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم. وانه لم يأثم امرؤ بحليفه وان النصر للمظلوم .. وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .. وانه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ... وانه لا تجار قريش ولا من نصرها. وان بينهم النصر على من دهم يثرب. وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه، إلا من حارب في الدين .. وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. وانه من خرج أمن ومن قعد أمن بالمدينة إلا من ظلم واثم.)[10].

---

(٧) الدسيعة : الكبيرة .

(٨) المحدث : المجرم .

(٩) يوتغ : يهلك .

(١٠) ابن هشام ص ١٣٤ - ١٣٨ ابن كثير ٢٢٤/٣ - ٢٢٦ المقدسي : البدء والتاريخ ١٥٣/٤ - ١٥٤ محمد حميد الله : مجموعة الوثائق ص ٤١ - ٤٧ .

ان نصوص الصحيفة توافق القرآن الكريم في المبادىء العامة من حيث اعتبار المسلمين أمة واحدة من دون الناس . ومن حيث التراحم والتعاون بينهم . ومن حيث الاحتفاظ برابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق الموالاة . ثم من حيث مراعاة حقوق القرابة والصحبة والجوار . كذلك تحديد المسؤولية الشخصية والبعد عن ثارات الجاهلية وحميتها وفي وجوب الخضوع للقانون ورد الأمر إلى الدولة بأجهزتها للتصرف بالأمور. وفي شؤون الحرب والسلم. وإن حرب الأفراد وسلمهم انما تدخل في الاختصاص العام فلا تحدث فردياً . كذلك معاونة الدولة في اقرار النظام والأخذ على يد الظالم وعدم نصر المحدث أو ايوائه[11] .

ان الصحيفة أعطت صفة للجماعة الاسلامية فقررت انهم أمة واحدة من دون الناس .. وبهذا التقرير الغى النبي الحدود القبلية أو على الأقل لم يجعل لها وجوداً رسمياً بالنسبة للدولة ، أو بلفظ آخر ارتفع هو عن المستوى القبلي المحدد وبهذا أصبح الاسلام ملكاً لمن دخل فيه . فدخل بناء على هذه القاعدة شعوب كثيرة في الاسلام دون أن يضع الرسول أمامها عقبات تحول بينها وبين الاشتراك في حياة العالم الاسلامي[12] .

لقد أقرت الصحيفة مفهوم الحرية الدينية بأوسع معانيه وضربت عرض الحائط مبدأ التعصب ومصادرة الآراء والمعتقدات ولم تكن المسألة مسألة تكتيك مرحلي ريثما يتسنى للرسول ﷺ تصفية أعدائه في الخارج لكي يبدأ تصفية اخرى ازاء اولئك الذين عاهدهم ... وحاشاه .. انما صدر هذا الموقف السمح المنفتح عن اعتقاد كامل بأن اليهود باعتبارهم أهل كتاب سيتجاوبون مع الدعوة الجديدة وينهدون لاسنادها في لحظات الخطر والصراع ضد العدو الوثني المشترك — كما أكدت بنود الصحيفة نفسها — أو أنهم — على اسوأ الاحتمالات — سيكفون أيديهم عن اثارة المشاكل والعقبات ووضع العراقيل في طريق الدعوة وهي تبني

(11) احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية والاسلام ص ٣٩٣ — ٣٩٤ .
(12) المرجع السابق ص ٣٩٥ وانظر شرح الصحيفة وتحليلها : المصدر نفسه ص ٣٩٤ — ٣٩٩ وفلهوزن : الدولة العربية ص ١١ — ١٥ وفتحي عثمان : دولة الفكرة ص ٥٩ — ٦٣ .

دولتها الجديدة وتصارع قوى الوثنية التي تتربص على الحدود. لكن الذي حدث بعد قليل من اصدار الوثيقة ، وطيلة سني العصر المدني، غيّر مجرى العلاقات بين المسلمين واليهود وجمد البنود المتعلقة بهم ، لا لشيء إلا لأنهم اختاروا (النقض) على الوفاء، والخيانة على الالتزام ، والانغلاق على مصالحهم القومية على الانفتاح على الاهداف العامة الكبيرة للاديان السماوية جمعاء .

ان اصدار الوثيقة يمثل تطوراً كبيراً في مفاهيم الاجتماع السياسية فهذه جماعة تقوم لأول مرة في الجزيرة العربية على غير نظام القبيلة وعلى غير أساس رابطة الدم . حيث انصهرت طائفتا الأوس والخزرج في جماعة الأنصار ثم انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين ، ثم ترابطت هذه الجماعة المسلمة مع اليهود الذين يشاركونهم الحياة في المدينة إلى أمد ولأول مرة بحكم القانون حيث ترد الأمور إلى الدولة. ومن خلال تغيير شامل وتحول سريع طوى الدستور صفحة اجتماعية طابعها القبلية ، وفتح صفحة جديدة أكثر ايجابية وأقرب إلى الترابط والتكافل والوحدة الفكرية[١٣] .

ثالثاً : المؤاخاة : وخطا الرسول ﷺ خطوته الأخرى التي أراد أن يحل بها الأزمة المعاشية التي اجتاحت المهاجرين بعد مغادرتهم مكة ، وينظم علاقاتهم الاجتماعية باخوانهم الانصار . ريثما يستعيد المهاجرون مقدرتهم المالية ويتمكنوا من بلوغ مستوى الكفاية الاجتماعية . فاعتمد أسلوب المؤاخاة والمشاركة بين الطرفين وقال (تآخوا في الله اخوين اخوين) فكان ممن تآخوا – على سبيل المثال – وثبتت لنا المصادر اسماءهم : أبو بكر الصديق مع خارجة بن زهير ، عمر بن الخطاب مع عتبة بن مالك ، أبو عبيدة بن الجراح مع سعد بن معاذ ، عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع ، الزبير بن العوام مع مسلمة بن سلامة ، عثمان بن عفان مع أوس بن ثابت ، طلحة بن عبيدالله مع كعب بن مالك ، سعيد بن زيد مع أُبي بن كعب ، مصعب بن عمير مع أبي أيوب خالد بن زيد ، أبو

---

(١٣) انور الجندي : الاسلام وحركة التاريخ ص ٣٣ – ٣٤ .

حذيفة بن عتبة مع عباد بن بشر ، عمار بن ياسر مع حذيفة بن اليمان ، أبو ذر الغفاري مع المنذر بن عمرو ، حاطب بن أبي بلتعة مع عويم بن ساعدة ، سلمان الفارسي مع أبي الدرداء ، بلال مع أبي رويحة[14] .

بلغ من تأكيد الرسول ﷺ على المؤاخاة ان كان ميراث الانصاري يؤول بعد وفاته إلى أخيه المهاجر بدلا من ذوي رحمه من الأخوة أو الابناء أو النساء .. واستمر ذلك حتى موقعة بدر التي حظي فيها المسلمون بمقادير لا بأس بها من الغنائم والاموال فأنزل الله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله).

فعاد التوارث سيرته الأولى [15] وقد تلقى الأنصار أوامر الرسول ﷺ بفرح عميق وفتحوا قلوبهم ودورهم لرفاقهم في العقيدة حتى أن الواقدي يذكر بأن الرسول ﷺ لما تحول من بني عمرو بن عوف في قباء إلى المدينة تحول أصحابه من المهاجرين فتنافست فيهم الأنصار أن ينزلوا عليهم حتى اقترعوا فيهم بالسهمان فما نزل أحد منهم على أحد إلا بقرعة سهم [16] كما أعلن الأنصار أنهم يهبون الرسول ﷺ كل فضل في خطط بلدهم وقالوا له : إن شئت فخذ منا منازلنا فقال لهم خيراً وخط لأصحابه في كل أرض ليست لأحد أو موهوبة من الأنصار [17] .

ولما غنم المسلمون أموال بني النضير دعا الرسول الأنصار وذكرهم بما صنعوا للمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم واثرتهم على أنفسهم ثم قال (إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله عليّ من بني النضير وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم) فأجابه زعماء الأوس والخزرج : يا رسول الله بل تقسمه للمهاجرين

---

(14) ابن هشام ص ١٣٨ — ١٣٩ البلاذري : انساب ٢٧٠/١ — ٢٧١ ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٦/٣ — ٢٢٩ وانظر السمهودي : وفاء الوفا ١٩٠/١ — ١٩١ .

(15) الانفال : ٧٥ ابن سعد ١/٢/١ البلاذري : انساب ٢٧٠/١ .

(16) الواقدي : مغازي رسول الله ٣٧٨/١ .

(17) البلاذري : انساب ٢٧٠/١ .

ويكونون في دورنا كما كانوا . ونادت الأنصار رضينا وسلمنا يا رسول الله [18] .

وقابل المهاجرون إيثار إخوانهم وسماحتهم بتقدير كامل وسماحة مماثلة رافضين منذ البدء أن يكونوا اتكاليين على إخوانهم وعالة على أولئك الذين آووهم وقاسموهم .. وليست قصة عبد الرحمن بن عوف مع أخيه الأنصاري سعد بن الربيع سوى مثل واحد من عديد من الأمثلة على هذا التقابل الأخوي العادل في الأخذ والعطاء . روى البخاري أن المهاجرين لما قدموا المدينة آخى رسول الله بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالي نصفين ولي امرأتان فانظر أعجبهما اليك فسمها لي أطلقها فاذا انقضت عدتها فتزوجها . فقال عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ثم تابع الغدو . وما لبث أن جاء يوماً وعليه آثار زينة فقال النبي: مهيم ؟ أجاب تزوجت . فقال : كم سقت اليها ؟ قال عبد الرحمن : نواة من ذهب .

لقد كان (الإخاء) تجربة رائدة في تاريخ العدل الاجتماعي، ضرب الرسول ﷺ فيه مثلاً على مرونة الاسلام وانفتاحه في الظرف المناسب على أشد (أشكال) العلاقات الاجتماعية مساواة وعدلاً ، ورد فيه ، وفق المنطق الالهي الذي لا يحابي ولا يداجي ، على كل القائلين بأن الاسلام جاء لكي يمثل (إصلاحاً) جزئياً للمسألة الاجتماعية لأن (العصر) الذي تصوغه (وسائل الانتاج) لم يتح له أن يتحرك لصياغة عالم جديد من العلاقات لم تسمح المرحلة الانتاجية بعد بصياغته ولم تأمر بها. وسنرى فيما بعد عبر سني الدعوة الحافلة المزيد من التجارب الاجتماعية التي تصفع هذا التحليل الخارجي الصارم، تلك التجارب التي لا تقل في خطورتها ودلالتها عن تجربة الإخاء .

روى ابن سعد أن عدداً من أبناء القبائل قدموا على رسول الله ﷺ في

---

(18) الواقدي ٣٧٩/١ .

أعقاب فتح خيبر فكلّم الرسول أصحابه فيهم أن يشركوهم في الغنيمة ففعلوا[19] وروى الواقدي ان المسلمين لما فتحوا حصون خيبر وجدوا هنالك متاعاً وسلاحاً وأثاثاً كثيراً «فأما الطعام والادم والعلف فلم يخمس يأخذ منه الناس حاجتهم»[20] كما يروى أن الرسول ﷺ نادى ، خلال حصار الطائف ، ان أي عبد نزل من الحصن وخرج الينا فهو حر . فخرج اليه بضعة عشر رجلا فأعتقهم وسلم كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ويحمله[21]. ويروى أيضاً أن الرسول ﷺ استقرض في أعقاب فتح مكة مبلغ ثلاثين ومائة الف درهم من عدد من أغنياء قريش وقسمها بين أصحابه من أهل الضعف ، فيصيب الرجل خمسين درهماً أو أقل أو أكثر[22] . ويروي البلاذري أن يهود فدك صالحوا رسول الله ﷺ على نصف الأرض فكان يصرف ما يأتيه منها إلى أبناء السبيل[23] . وفي رواية أخرى له عن أبيض بن جمال انه استقطع رسول الله الملح الذي بمأرب فقال رجل: انه كالماء العد فأبى أن يقطعه اياه[24] . وفي انساب الاشراف أن رجلاً من بلقين قال « أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى فقلت : يا رسول الله لمن المغنم ؟ قال : لله سهم ولهؤلاء أربعة أسهم . قلت : فهل أحد أحق بالمغنم من أحد ؟ قال : لا ، حق السهم يأخذه أحدكم من جنبه فليس بأحق به من أحد »[25]. وعن أبي بكر قال « سمعت رسول الله يقول انما هي – أي فدك – طعمة اطعمنيها الله حياتي فاذا مت فهي بين المسلمين »[26]. وكان عمر بن الخطاب يقول : كان للرسول ﷺ ثلاث صفايا فكانت بنو النضير حبساً لنوائبه وكانت فدك لابن السبيل وكانت خيبر قد جزّأها ثلاثة أجزاء فجزءان للمهاجرين وجزء

---

(19) طبقات ٧٨/١/٢ .
(20) مغازي ٦٨٠/٢ .
(21) المصدر السابق ٩٣٢/٣ .
(22) المصدر السابق ٨٦٣/٣ – ٨٦٤ .
(23) فتوح البلدان ٣٣/١ .
(24) المصدر السابق ٨٨/١ .
(25) البلاذري انساب ٣٥٢/١ – ٣٥٣ .
(26) المصدر السابق ٥١٩/١ .

كان ينفق منه على أهله فان فضل رد على فقراء المهاجرين[٢٧] . وليست مسألة توزيع أموال بني النضير الكثيرة على فقراء المهاجرين وحجبها عن الأنصار ، كي لا تكون الأموال دولة بين الأغنياء فحسب ، عنا ببعيدة .

لقد نجحت التجربة لأن الأرضية التي اقيمت عليها والقيادة التي خططتها ونفذتها استكملتا كل شروط النجاح في مجتمع شاب يحكمه مبدأ العطاء قبل الأخذ، وتشده أواصر العقيدة وحدها ويوجهه الايمان العميق في كل حركاته وأعماله وفاعلياته، ويقوده الرسول (الاسوة) الذي ضرب بتجرده وايثاره وانسلاخه عن الأخذ وعطائه الدائم مثلاً عالياً ومؤثراً يحرك حتى الحجارة الصم لكي تنبجس فيتدفق منها الماء . واني لتجربة كهذه أن تفشل وتتعثر والرسول ﷺ يخوض مع أصحابه تجربة الفقر والجوع في سني الهجرة الأولى ويعاني كما يعانون بل أكثر مما يعانون. دون أن يفكر يوماً بأن يمتطي (منصبه الأعلى) ليسلك طريقاً آخر غير الذي يسلكه اتباعه ، فيثري ويفتقرون ، ويشبع ويجوعون ، ويأخذ ويعطون . أو لم يشك له أصحابه يوماً الجوع ويكشفوا عن بطونهم التي شد كل منهم عليها حجراً لكي يؤكدوا له ما يعانونه .. فاذا به يبتسم وقبل أن يتكلم يكشف عن بطنه فاذا بقطعتين من الحجارة قد شدتا عليها ؟

روى البخاري أن انس بن مالك قال : ما اعلم النبي رأى رغيفاً مرققاً حتى ألحق بالله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط . وعن عائشة قالت : إنّا كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلّة في شهرين وما أوقدت في بيوت رسول الله نار . فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء . وقالت لقد توفي رسول الله وما في رفّي من شيء يأكله ذو كبد الا شطر شعير في رق لي. وعن أبي ذر قال : كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينة فاستقبلنا أحد فقال : يا أبا ذر قلت : لبيك يا رسول الله فقال ما يسرني ان عندي مثل أحد هذا ذهباً أموت وعندي منه دينار إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا

---

(٢٧) المصدر السابق ٥١٩/١ الواقدي ٢٧٧/١ — ٢٧٨ .

وهكذا ، عن يمينه وعن شماله وعن خلفه . ثم مشى فقال : ان الاكثرين هم الاقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وقليل ما هم !!

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : « كان لنا جيران من الأنصار نعم الجيران .. كانوا يهدوننا بعض الطعام » وصلى عليه السلام مرة جالساً من شدة الجوع . قدموا له عصير اللوز فقال : أخروه عني هذا شراب المترفين . وتوفي ودرعه مرهونة عند يهودي اشترى منه ثلاثين قدحاً من الشعير أخذها لطعام أهله . ولم يكن لديه قط قميصان معاً ، ولا رداءان ، ولا ازاران ، ولا نعلان . وأهدي اليه من الشام جبة وخفان فلبسهما حتى تمزقا .. وحج في قطيفة لاتساوي أربعة دراهم. كان يلبس الصوف – ارخص شيء وأكثره ايلاماً للجسد – ويخصف النعل ويرقع القميص ويركب الحمار . وكانت له حصيرة ينام عليها . ويبسطها في النهار فيجلس عليها . ولقد نام عليها حتى أثرت في جنبه . وكانت له مخدة من جلد حشوها ليف . وأحياناً ينام على عباءة تثنى مرتين فطوتها زوجته حفصة أربع مرات ، فلما نام عليها كان من لينها أن استغرق في النوم حتى فاتته صلاة الليل فنهى حفصة عن ذلك وأمرها أن تعيد العباءة إلى وضعها الأول . ورأت امرأة من الأنصار ما ينام عليه فاهدته مرتبة من الجلد حشوها صوف فأمر عائشة بأن تردها ، أمرها ثلاث مرات وعائشة أم المؤمنين وزوجة رسول الله تقول : فلم أردها حتى أمرني ثلاث مرات لانني كنت أحب أن يكون في بيتي مثل هذا . ولم يكن يحب الفقر ولا يرضى به وكان في دعائه يستعيذ منه . وكان يستطيع أن يملك ثروة جزيرة العرب كلها. وكان يعطي كما وصفه اعرابي (عطاء من لا يخشى الفقر) . ولو احتفظ بنصيبه من الغنائم كأي فرد من جيشه لكان من اغنياء العرب .. ولكن ما دامت البشرية قد كتب عليها أن تعيش قروناً عديدة وفيها الفقر والغنى فخير نظام تصل اليه هو ذلك الذي يجعل حكامها في جانب الفقراء ، فما أبشع أن تجتمع السلطة والغنى في جانب واحد .. وعشرات غير هذه الوقائع والأمثلة .. عشرات[٢٨] .

(٢٨) انظر بالتفصيل محمد جلال كشك (الحق المر) ص ٤٤ – ٤٨ ابن كثير : البداية والنهاية ٥/٢٨٢ – ٢٨٤ .

ان تجربة المؤاخاة نجحت وكان لا بد لهـا أن تنجح ما دامت قد استكملت الشروط وتهيأت لها الأسباب في القيادة والقاعدة على السواء . وبغض النظر عن عدد الذين تآخوا عشرات كانوا أم مئات أم الوفاً .

وخلال ذلك أخذت الصلاة شكلها النهائي ، وفرضت زكاة الفطر ، وكتب الصيام ، ورسمت الحدود ، وفرض الحلال والحرام وحدد الآذان كنداء يدعى به المسلمون إلى الصلوات الخمس وكانوا يجتمعون لمواقيتها دونما دعوة . أما القبلة فقد كانت لأول أمرها متجهة صوب بيت المقدس ثم تحولت إلى الكعبة بعد سنة ونصف من الهجرة[٢٩] .

رابعاً – الجيش : هنالك أسباب عديدة ومتشعبة تفسر عـــدم السماح للرسول ﷺ باعلان الجهاد المسلح ضد الوثنيـة حتى أواخر العصر المكي ، وعلى وجه التحديد الأيام التي سبقت بيعة العقبة الثانيـة . وهذه الأسباب ترتبط ولا ريب بالاسلام كحركة ، وبالأرضية أو البيئة التي يتحرك عليهـــا . إذ لم يكن بمقدور الرسول ﷺ أن يسمح لأصحابه بالقتـال قبل أن يكتمل نموهم العقيدي ويصل مرحلة النضج وقبل أن يزداد (عددهم) بمـا يمكنهم من توجيه ضرباتهم وتحمل الضربات المضادة من جهة أخرى دون أن يتعرضوا للتشتت والفنـــاء ، وقبل ان يضع الرسول ﷺ خطـــواته الأولى صوب بناء (الدولة) التي ستحمل العقيدة الجديدة وتحميهـا ، منتقلاً بذلك من مرحلة بناء الانسان المسلم والجماعة المسلمة والتي استغرقت العصر المكي كله إلى هذا الطور الجديد .

وفي الجهة المقابلة كانت (البيئة) التي يتحرك فيهـا الاسلام بيئة قبلية تعير اهتماماً كبيراً لصلات النسب والقربى ، الأمر الذي مكن الرسول ﷺ من أن يجد حماية (طبيعية) في عشيرته بني هاشم التي ذاقت معه – بسبب تقاليد مكة القبلية – أشد تجاربه ألماً ، والمتمثلة بسني الحصار الصعب في شعب أبي طالب .

---

(٢٩) انظر : الطبري : تاريخ ٤٠٠/٢ : ٤١٥ – ٤١٨ وابن سعد ٣/٢/١ – ٥ والبلاذري : انساب ٢٧١/١ – ٢٧٣ وابن الاثير : الكامل ١١٥/٢ وانظر بالتفصيـــل ابن كثير ٢٣١/٣ ٢٣٣ ، ٢٥٢ – ٢٥٦ .

وكان رفـع السلاح بوجه المشركين سيستفز عشيرة الرسول نفسه ، ويبعدها عن نصرته فتتركه وأصحابه وحيدين ليس من يحميهم. فتحصدهم سيوف قبائل قريش جميعاً. أما وهو ينشر دعوته (سلماً) ويتعرض وأصحابه لذلك الاضطهاد الذي لم يصل حد محاولة القتل إلا في اللحظات الأخيرة ، فان ذلك لم يؤدّ إلى ابقـاء بني هاشم وأحلافهم إلى جانب دعوتـــه فحسب بل استفز نخوة الكثيرين من رجالات وأبناء القبائل الأخرى للظلم الذي يلحق بأبنائهم واخوانهم ودفعهم إلى مناصرة الدعوة الجديدة أو الانتماء اليها . وما يقال عن التركيب القبلي للمجتمع المكي ، يقال عن جزيرة العرب كلها حيث كانت قبائلها ستقف مرتاحة لزعيمتها قريش وهي تحصد رؤوس مجموعة من بنيهـــا القتلة الذين حملوا السلاح ضد آبائهم واخوانهم ، ومهتاجة مغضبة ازاء الظلم والقسوة والاضطهـاد الذي ينصب على الدعاة الجدد دون أن يحملوا سلاحاً أو يقتلوا أحداً .. هــــذا فضلاً عن الأمل العميق في هدايـة قريش وانتمائها إلى الدين الجديد واعتمادها – كأعرق قبيلة في الجزيرة – منطلقاً إلى العرب جميعاً .

إلا ان مرحلة بناء الانسان والجماعة المسلمة مــــا كادت تشرف على نهايتها ويضع الرسول ﷺ خطواتـه الأولى صوب بناء الدولة الاسلامية في يثرب ، وتصعد قريش اضطهادها ومقاومتها لاتباع الدين الجديد حتى نزل الاذن بالقتال المسلح ، قبيل بيعة العقبة الثانيـــة التي أنهت العصر المكي وفتحت الطريق إلى العصر المدني الجديد .

يقول ابن هشام « كان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر عـــلى الأذى والصفح عن الجاهل .. وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم ، فهم بين مفتون في دينه ومعذب في أيديهم وبين هارب في البلاد فراراً منهم. منهم من بأرض الحبشة ،ومنهم من بالمدينة أو في كل وجه . فلما عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به مـن الكرامة ، وكذبوا نبيه وعذبوا ونفوا من عبده وصدق نبيه واعتصم بدينه ، أذن الله عز

وجل لرسوله ﷺ بالقتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت في اذنه له بالحرب وإحلاله له الدماء والقتال قول الله تبارك وتعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) ثم أنزل الله تبارك وتعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) ... » (٣٠) .

ورغم أن أتباع الرسول ﷺ كان معظمهم قد مارسوا القتال في جاهليتهم وعرفوا كيف يحملون السلاح ويستخدمونه في ظروف لا (يبقى) فيها من لا يحمل سلاحاً، ورغم أن الأنصار الذين قامت دولة الاسلام في المدينة على أكتافهم قد أعربوا للرسول يوم بيعتهم الأخيرة في العقبة عن قدراتهم في القتال وبأسهم في الحرب وقالوا « نحن أبناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر » إلا أن الظروف الجديدة التي بدأ الاسلام يجتازها،وتصاعد الموقف الحربي بينه وبين القوى الوثنية وبخاصة في أعقاب الهجرة إلى المدينة ، ونزول الآيات القرآنية تؤذن ببدء القتال المسلح ، حتم على الرسول أن ينمّي هذه القدرات وأن يدفع أتباعه إلى مزيد من التدريب والمهارة العسكرية في مواجهة الأعداء الذين يحيطون بالدولة الجديدة إحاطة السوار بالمعصم . وراح الرسول القائد طيلة العصر المدني يعمل دونما وهن على تعليم أتباعه فنون القتال وتدريبهم على استعمال السلاح رافعاً شعاراً واضحاً لا غموض فيه (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) ، معتمداً في سعيه لتكوين (المقاتل المسلم) على أسلوبين متوازيين : التوجيه المعنوي والتدريب العملي . في أولاهما كان

---

(٣٠) ابن هشام ص ١١٦ — ١١٧ البلاذري : انساب ٢٨٦/١ وانظر : محمد عزة دروزة : سيرة الرسول (ص) ٢١٩/٢ .

الرسول ﷺ يسعى إلى رفـــع معنويات المقاتلين ، يمنحهم أملاً يقينياًبالنصر أو الجنة . ومنذ تلك اللحظات وفيما بعد ظل هذا (الأمل) يحدو الجندي المسلم في ساحات القتال ويدفعه إلى بذل كل طاقاته النفسية والجسدية والفنية مـن أجل كسب المعارك أو الموت تحت ظلال السيوف مجتازاً باستشهاده الخاطفالسريع الجسر الذي يصل أرض المعركة بالجنة ، حيث الخـلود الدائم والنعيم المقيم ولذة القرب من الله سبحانه الذي قالمخاطباً المؤمنين (ولا تحسـبن الذين قتلوا فيسبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله .) وهذا (البذل) الذي شهده تاريخالاسلام منذ عهد الرسول ﷺ هو الذي كان يفجر طاقاتالمسلم القتالية ويحيل كلاً منهم إلى عشرة مقاتلين . وسنرى الرسول ﷺ الآن وفيما بعد ينادي أصحابه دوماً في لحظات المصير الحرجة بـين النصر والهزيمة لكي يهرعوا إلى الحسنيين : النصر أو الجنة ..

كان يقول لهم (جاهدوا في سبيل الله فان الجهاد باب من أبواب الجنة ينجي الله به من الهم والغم) ويناديهم (إن الله تعالى يقول : ما من عبد من عبادي خرج مجاهداً في سبيلي إلا ضمنت له أن أرجعه مأجوراً غانماً .. أو شهيداً اغفر له ، وارحمه ، وأدخله الجنة) ويعلمهم (من أرسل نفقة في سبيل الله فله بكل درهم سبعمائة درهم) ويبين لهم (مـن أعان مجاهداً في سبيل الله أظله الله يوم لا ظل إلا ظله) (من اغبرّت قدماه في سبيلالله حرّمها الله على النار) (منجرح في سبيل الله ختم له بخاتم الشهداء له نور يوم القيامة . ويأتي ، جرحه له لون الزعفران وريح المسك يعرفه بها الأولون والآخرون ويقولون : فلان عليه طابع الشهداء) وكان يقول لأصحابه (رباط يوم فيسبيل الله خير من الدنيا وما عليها) و (مقام أحدكم في سبيل الله خير من عبادة أحدكم في سبيل الله ستين سنة) ، ويقول (حرمت النار على عين سهرت في سبيل الله) ويقول (من مات ولم يغز أو يجهز غازياً أو يخلف غازياً في أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة)، ويقول (والذي جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقي العدو قاتله حـتى يقتل فذاك الشهيد الممتحن في خيمـة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة)

ويناديهم مراراً (إن السيف محاء الخطايا) وإنكم (إذا تركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم) [٣١] .

أما الأسلوب الثاني الذي اعتمده الرسول ﷺ ، وهو التدريب العملي ، فقد سعى من خلاله إلى اعتماد كل طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء : رجالاً ونساء وصبياناً وشباباً وشيوخاً ، وإلى التمرس على كل مهارة في القتال طعناً بالرمح وضرباً بالسيف ورمياً بالنبل ومناورة على ظهور الخيل ، كما أكد على ضرورة تعلم القتال في كل ميدان براً وبحراً ، تنفيذاً لشمار الله (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة) على إطلاق القوة .

قال (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي) والرمي يعني إصابة الهدف.. وحتى العصر الحديث والحروب التقنية تجيء الانتصارات بالدرجة الأولى بمدى مقدرة الجندي على إصابة هدفه بالرصاصة أو القنبلة أو الصاروخ.. وقال (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) دفعاً لأصحابه إلى التمرس على الفروسية وتعلّم ركوب الخيل في قتال يلعب فيه الفرسان دوراً كبيراً وقال وكأنه ينظر إلى المدى البعيد حيث ستنساح رقعة دولته إلى أطراف القارات وسواحل البحار والمحيطات ، كيف لا وما هي بالدولة الاقليمية أو العنصرية وإنما هي دولة منفتحة على العالم كله ، على الانسان أياً كان هذا الانسان: (غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر ، والمائد فيه كالمتشحط في دمه ، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية جميعاً) وقال(من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة) والأمر سواء: سهم ينطلق في سبيل الله وحده من أجل تحرير الإنسان من العبودية للعباد و(عبد) يحرر من سيده لكي يغدو انساناً .

وقال ﷺ وهو يمزج خطي التربية العسكرية المتوازيين : التوجيه والتدريب والأمل بالنصر أو الجنة ، وتقديم الجهد في ساحة القتال أو في الخطوط الخلفية

---

(٣١) انظر : محمد جلال كشك (الحق المر) ص ٦٥ ــ ٦٧ .

صنعاً للسلاح أو امداداً به (ان الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر ، الجنة . صانعه يحتسبه في عمل الخير والرامي به ومنبله)وشاهد رجل في أطراف المدينة عقبة بن عامر يحمل السلاح ويمارس التهديف راكضاً من مكان إلى مكان فسأله (تختلف بين هذين الموضعين وأنت شيخ كبير ؟) أجابه الشيخ : لأمر سمعته من رسول الله ﷺ قال: وما ذاك ؟ أجاب الشيخ (سمعته يقول : من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا) بهذه اللهجة الحاسمة (ليس منا) ! ذلك ان الذي لا يعرف السلاح ابتداء والذي يعرفه حيناً من الوقت ثم ينساه سواء . . على العكس أن هؤلاء الذين يذهبون إلى سوح القتال وهم يحملون سلاحاً لا يعرفون كيف يضربون به ، سرعان ما يتعرضون للارتباك والرعب فتحصد رؤوسهم ويكونون كارثة على رفاقهم الذين يشل الموقف قدرتهم على استخدام السلاح .

* * *

بهذه الإجراءات الأربع وضع القرآن والرسول ﷺ القواعد الأولى لدولة الاسلام في المدينة ، وأخذت التشريعات المنبثقة عن هذين المصدرين تنمو وتتسع يوماً بعد يوم ، لا بطرائق نظرية تجريدية منفصلة عن الحياة والواقع وانما وفق نفس الأسلوب الذي كانت الآيات المكية تتنزل فيه لكي تبني العقيدة في اذهان ونفوس الانسان والجماعة المسلمة ، وهو أسلوب يرتبط ارتباطاً عضوياً حيوياً بالواقع الحركي والتجربة الحية المعاشة ، ومن ثم تجيء معطياته أشد التصاقاً بحركة المسلمين و نمو دولتهم ، وأكثر التحاماً بتجربتهم المحسوسة وواقعهم المعاش ، وأعمق فهما وادراكاً لمتطلباتها وابعادها القانونية والسلوكية ، نظراً لمواكبتها لمشاكلهم وتجاربهم اليومية ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم .

لقد بدأت مرحلة بناء الدولة الاسلامية (العقائدية) في أعقاب الهجرة حيث كانت المرحلة السابقة مرحلة بناء الانسان المسلم والجماعة المسلمة قد اكتسبت ملامحها الأساسية في العصر المكي وغدا المسلمون أفراداً وجماعات على استعداد نفسي وذهني كاملين لتقبل ما سيجيء من تشريعات وما سيفرض من تنظيمات

ويوضع من حدود ويرسم من علاقات بعد أن هيأهم النضج العقيدي لتقبل كل ما يصدر عن رسول الله و(الاسلام) لله و(الإيمان) بــــه و(التقوى) خلال ممارسته في السر والعلن و(الاحسان) في انجازه على أحسن ما يكون الانجاز ، دون تردد أو سلبية أو خيانــة أو غش أو تملص أو رفض أو تهرب .. انما هو الخضوع اليقيني المتبصر بأن هذا الذي يتنزل في ميدان التشريـع والتقنين انما هو الحق المطلق والخير الكامل والصواب الذي ليس بعده إلا الضلال المبين .

وقد اتاح هذا التطور المبرمج لسير الدعوة الاسلامية أن يشاد البناء الجديد على اسس متينة متوغلة في أعماق النفس المسلمة على المستوى الفردي و الجماعي على السواء فجاء متماسكاً مترابطاً ثابت الأركان . فضلاً عن أن الاحساس الجديـد (بالزمن) و(بالمسؤولية) و(يقظة الضمير) التي غرستها العقيدة الاسلامية في النفوس دفعت المسلم ليس إلى تقبل التشريعات والحدود و الأوامر الجديدة وتنفيذها بدقة فحسب بل إلى كسب الوقت والمسارعة في تحويلها إلى وقائع معاشة وتجارب وترجمات يومية وصيغ منقوشة على صفحة المكان والزمان كما دفعتهم إلى السعي (للاحسان) في الاداء والابداع في التنفيذ من أجل بلوغ المرحلة القصوى من رضا الله وطاعته . وقد أتاح هذا كله اطراداً عجيباً في نمو الأجهزة التشريعية للدولة الناشئة وسرعة مدهشة في نزول متطلباتها إلى الشارع والبيت والسوق والمسجد والميدان ، الأمر الذي يفسر لنا على المستوى الحضاري الاختزال الزمني المدهش الذي مارسه المسلمون وهم يبنون عالمهم الجديد وحضارتهم المتوازنة .

لقد أسهم القرآن والرسول جنباً إلى جنب في رسم الخطط ووضع التشريعات وبناء المؤسسات وتغطية المتطلبات المتزايدة للدولة الجديدة . ولم يكن الدستور (أو الوثيقة) وحدها — رغم خطورتها في هذه المرحلة — هي كل شيء كما يحاول الكثير من الباحثين أن يصوروا من خلال مبالغتهم[٣٢] . فالوثيقة ليست سوى

---

(٣٢) نذكر هنا من بين عدد كبير من الامثلة حول اعطاء اهمية مبالـــغ فيها للوثيقة (او الدستور) ما ورد في كتاب (مكة والمدينة) للشريف (.. يدل الدستور على مقدرة فائقة =

لبنة واحدة في البناء التشريعي الكبير الذي وقع عبء اقامته على عاتق القرآن الكريم قبل كل شيء ، هذا إلى أن الكثير مما ورد في الوثيقة لا يعدو أن يكون برنامجاً مرحلياً بالنسبة للخارطة الثابتـــة الدائمة لدولة الاسلام واستراتيجيتها التشريعية الشاملة . ومن ثم فان التأكيد على أهميـــة الوثيقة ، فضلاً عن انه يعد بحد ذاته خطأ تاريخياً وموضوعياً ، فانه يحجب في الوقت نفسه الحجم الحقيقي للتشريع القرآني الذي كان يتمخض باستمرار عن مزيد من القوانين والتشريعات ويقود الباحث بالتالي إلى الرؤية الغربية الوضعية التي تجد في (الوثيقة) محاولة بشرية أولية من المحاولات التي قام بها المشرعون على مدار التاريخ لتنظيم شؤون دولتهم الناشئة . وانه يجب ألا يغيب عن بالنـــا أبداً أن الرسول ﷺ لم يكن ينطق عن الهوى وانه كان يصدر في الخطوط العريضة للدعوة عن وحي الله وان هذا الوحي يبدو أكمل ما يبدو في القرآن الكريم نفسه. وكل الانجازات والأعمال الأخرى انما هي امتداد وتوسيع وتفسير فحسب لهذا الأصل (الالهي) الكبير .

وثمة مسألة أخرى تجدر الاشارة اليهـا في هذا المجال تلك هي اطلاق اسم (دولة المدينة) أو الدولة (اليثربية) على دولة الاسلام الأولى بحكم قيامها بالمدينة المنورة.ذلك ان تعبير،(دولة المدينة) قد يسوق ههنا إلى لبس يوهم ان المقصود انها كانت دولة من النوع الذي يقوم فيه الكيان الاقليمي للدولة على (مدينة) من المدن (city - state) مثل اثينا أو اسبرطة في التـــاريخ القديم . والحق ان (دولة الهجرة) ارتبطت بيثرب ارتباطاً عارضاً . ولقد كانت دولة عقيدية عالميـــة من أول يوم وكان من الممكن أن تقوم في أي مكان يتبنى الفكرة ويدين للعقيدة [٣٣] . كذلك فان الدولة الجديـــدة في المدينة هي دولة

= من الناحية التشريعية وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم الظروف .. ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ اول امرها على اساس دستور مكتوب غـــير هذه الدولة الاسلامية فانما تقوم الدول اولا ثم يتطور امرها الى وضع دستور ولكن النبي ما كاد يستقر في المدينة وما كاد العام الاول من هجرته ينتهي حتى كتب هذه الصحيفة المهمة جدا لانها حددت شكل الدولة الاسلامية . وكذلك هي مهمة لفهم الحوادث التي نشأت بعدها) ص٣٨٧ — ٣٨٨ وانظر ظهوزن الدولة العربية ص ١ — ١٥ .

(٣٣) انظر ما سبق وان ذكرناه لدى دراسة وتحليل هجرة الرسول (ص) .

الهجرة لا دولة المهاجرين ، فالمهاجرون هنا لا يعمدون إلى افناء السكان الأصليين أو إجلائهم ولا يقيمون المستعمرات أو يصطنعون الحواجز بينهم وبين سكان المدينة التي انتقلوا إليها . وهكذا لا نجد تجارب توطين الأوربيين في أمريكا أو أستراليا أو جنوب أفريقيا على اختلاف درجات حرارتها . انها دولة فكرية عقيدية سكانها المقيمون فيها من قبل والمهاجرون الوافدون سواء في الاعتبار الانساني والحقوق القانونية .. والعقيدة معروضة على كل إنسان بحكم إنسانيته ، أياً كان موطنه وأياً كانت عشيرته . إنها دولة مفتوحة لا تغلق نفسها على جماعة معينة شأن أية دولة (دينية) أخرى قامت من قبل في التاريخ (للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون) ، (والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) (٣٤) .

إن هذه الدولة فذة في تاريخ البشرية لأنها أقرت مبدأين لا وجود لهما إلا في دولة غير دينية . وأول هذين المبدأين هو حرية الأديان وهي حرية لا تقرها الدولة الاسلامية وتسمح بها فحسب بل إنها تتعهد برعايتها . وثانيهما هو مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة في أوسع معانيها تسامحاً وإنسانية وهو مبدأ يكفل المساواة في الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع أفراد الدولة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم (٣٥) .

لقد استكملت دولة الاسلام كل مستلزمات البناء القانوني للدولة والذي يقوم على أركان ثلاثة : الأمة ، والسيادة الخارجية والداخلية ، ثم الاقليم .. ولكنها

---

(٣٤) فتحي عثمان . دولة الفكرة ص ١٦ — ١٧ .
(٣٥) الشريف : مكة والمدينة ص ٣٨٣ — ٣٨٤ .

ما أخذت مكانها ودورها في التاريخ لواحد من هذه الأركان. فلقد قامت (دولة الهجرة) على (أمة) .. ولكنها أمة تقوم على أساس الفكر والعقيدة فهي (أمة) لا يمكن حصرها أو ضبطها لأنها لا تحدها لغة أو جنس أو وطن ، فقد عرض رسول الله ﷺ عقيدته على كل فرد وقبيلة ومدينة استطاع أن يعرض هذه العقيدة عليها ، وترك المجال أمام (الإمكانيات الأيديولوجية) لا (الحتمية الجغرافية) . وكان (لدولة الهجرة) (سيادة) داخلية وخارجية .. ولكنها (سيادة) تحققت في واقع الأمر من أول يوم في الإطار المثالي الذي تطلعت اليه فلسفة القانون إلى وقتنا ولم تفلح في أن تجد له سبيلاً إلى التنفيذ . فهي سيادة قائمة على الاختيار الحر في اعتناق الفكرة من جانب الأفراد وفي الاجتماع لإقامة الدولة من جانب المجموع . ومن ثم تأسست سياسة الدولة الجديدة فعلاً وواقعاً على تقديس الحرية الانسانية بحيث تكون هذه الحرية هي أساس الدولة الفكري وقانونها الأعلى . وكان لدولة الهجرة (إقليم) اختارته الظروف لها وكان اختياراً موفقاً ... لكنها لم ترتبط به ولم تقتصر عليه وكان من الممكن أن تقوم في أي مكان آخر يقبل الدعوة ، مكة أو الطائف مثلاً ... ذلك أن الدولة الجديدة دولة (فكرة) والفكرة تجد وطنها في كل مكان يوجد فيه عقل انسان[٣٦] .

لقد كان من حسن حظ البشرية ان الاسلام تبرأ من أول يوم من حواجز الجنس والأرض واللسان واستهدف قيام الأخوة العالمية بين المؤمنين ، « ولما كانت دعوة الاسلام لم تأت من البداية إلى بلد بعينه فانها كانت خطوة تقدمية إلى الامام نحو تحقيق ما بذلت المحاولات لتحقيقه من بعد وهو تدويل المجتمع الإنساني ... وبجانب عالمية الدعوة فان الإسلام أقام نظام (الحج) ونظام (الخلافة) من أجل تحقيق هذا الهدف »[٣٧] .

---

(٣٦) فتحي عثمان : دولة الفكرة ص ١٨ — ٢٢ .

(٣٧) حميد الله الحيدر ابادي : دولة الاسلام والعالم ، عن فتحي عثمان المصدر السابق ص ٥٨ — ٥٩ .

ان دولة الاسلام هي دولة (العقيدة) التي قامت منذ البـدء على أن السلطة الحاكمة العليا هي الله .. القوة الحايدة التي تقرر المبادىء والموجهات العامة . إذ هي لا تميل مع فرد أو جماعة ولا تنحاز لحاكم أو محكوم (يا أيهـــا الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا)[٣٨].

لقد أعطى الإسلام بمجتمعه الأول ذلك النموذج الذي عاش مدى العصور في نفوس المسلمين وعقولهم مثلا يحتذى وصورة شامخة من صور المثل الأعلى للمجتمع الإنساني السليم المتكامل الذي يقوم على الإخاء والحب والتسامح والتكامل . وليس هذا المجتمع صورة مثالية غير واقعية ولكنه تطبيق أمين لمفهوم الإسلام ومضمونه (وايديولوجيته) . ومـــا تزال صورة هذا المجتمع الاسلامي الأول باتساقها وصلابتها وسلامتها في فهم مضمون الاسلام ومنهجه ، تعطي علامة القوة في تطبيق الاسلام. فمن هذه الجماعة الإسلامية انطلقت (الدعوة الإسلامية) إلى العالم كله ، وليس صحيحاً ما يدعيه بعض المستشرقين ومن تابعهم من أن سياسة هذه الجماعة لا تلائم طبيعة العمران أو أنها توفقت إلى رجال يندر اجتماعهم في عصر .. ولم يكن مجتمع المدينة كما تحاول أن تصوره مختلف كتب السيرة مجتمع حرب وغزوات وقتال ، فلو اننا أحصينا عدد الغزوات الكبرى فيه وايامها لما تجاوز ذلك في مجموعه بضعة شهور في خلال عشر سنوات . ومن هنا فان المجتمع الإسلامي في المدينة قد قام فعلاً وبنى خلالها دعامتين واضحتين : نظام مجتمع ونظام دولة . كما بنى تشريعاً وقانوناً ،[٣٩] .

---

(٣٨) فتحي عثمان : المرجع السابق ص ٧٣ .
(٣٩) انور الجندي : الاسلام وحركة التاريخ ص ٥٠ – ٥١ .

الفصل السادس

الصراع مع الوثنية

(المرحلة الأولى)



السرايـــــا

بدأ الرسول ﷺ فور تثبيت أسس دولته الجديدة في المدينـــة صراعاً (مرحلياً)ضد الوثنية العربية وزعيمتها قريش تمثل بشن حروب صغيرة متقطعة ضد القوافل والمواقع الوثنية . أطلق عليها المؤرخون اسم (السرايا) استهدفت إرباك قريش وحلفائها واضعافهم وتحطيم معنوياتهم وضرب نشاطهم التجاري الذي يمثل عصب حياتهم وشريان وجودهم ، والحصول على مورد للتموين والتسليح في أعقاب الأزمة المالية التي كان المسلمون يعانونها في مطلع عهـــدهم بالهجرة . كما استهدفت السرايا إنذار اعداء الدولة الناشئة من غير قريش وحلفائها كاليهود في الداخل وجماعات البدو في الخارج بأن المسلمين قادرون على الرد ومستعدون للتصدي لأي عدوان يستهدف منجزاتهم التي حققوها طيلة أربعة عشر عاماً من الجهد والعناء .

ومن جهة أخرى جاءت هذه الهجمات أشبه بمناورات حية كان المقاتل المسلم يجس عن طريقها نبض أعدائه ويختبر امكاناتهم الحربية ، مادياً ومعنوياً ، ويمارس مزيداً من التدريب وتنمية قدراته وطاقته على الصمود .

كانت المجموعة الأولى من السرايا قد انطلقت منـــذ منتصف السنة الأولى للهجرة . انطلق حمزة رضي الله عنه في رمضان من تلك السنة على رأس ثلاثـين

رجلاً من المهاجرين ليعترض قافلة لقريش عند ساحل البحر ولقي أبا جهل في ثلاثمائة رجل فحجز بينهما مجدي بن عمرو الجهني .. ولم يقع اشتباك وكان يحمل لواء حمزة في هذه المحاولة رجل يدعى أبا مرثد .

وفي شوال انطلق عبيدة بن الحارث على رأس ستين رجلاً من المهاجرين يحمل أمر الرسول ﷺ بالمسير إلى بطن « رابغ » فالتقوا بمائتين من المشركين يقودهم أبو سفيان على ماء يدعى « احياء » فوقعت بين الطرفين مناوشات بالسهام دون أن يدخلا في اشتباك مباشر. وفي ذي القعدة خرج سعد بن ابي وقاص في عشرين رجلاً مشياً على الأقدام فكانوا يكمنون نهاراً ويسيرون ليلاً . وفي اليوم الخامس بلغوا الخرّار حيث أمرهم الرسول ﷺ ألا يجاوزوها وكانت القافلة القرشية قد سبقت سرية المسلمين بيوم كامل فلم يدركوها .

وفي صفر من السنة الثانية خرج الرسول ﷺ بنفسه على رأس عدد من أصحابه مستهدفاً قريشاً وبني ضمرة حتى بلغ « ودّان » فوادعه بنو ضمرة ثم قفل عائداً إلى المدينة ولم يلق كيداً . ثم ما لبث ﷺ ان استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد وانطلق لغزو قريش حتى انتهى به المطاف إلى العشيرة قريباً من ينبع ، فأقام بها أياماً ووادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم قفل عائداً إلى المدينة . وبعد أيام معدودات من عودة الرسول ﷺ من غزوة العشيرة قام كرز بن جابر الفهري بغارة على مواشي المدينة وإبلها التي تسرح في أطرافها . فلاحقه الرسول بنفسه حتى بلغ وادي (سفوان) قريباً من بدر ، وفاته كرز ولم يدركه فرجع إلى المدينة وسميت هذه المطاردة باسم بدر الأولى[1] . وما أن قفل عائداً إلى المدينة حتى جرد ثمانية مقاتلين (وقيل اثني عشر) من المهاجرين بقيادة عبد الله بن جحش

---

(1) ابن هشام ص ١٤٢ ــ ١٤٥ الطبري : تاريخ ٤٠٢/٢ ــ ٤١٠ ابن سعد ١/١/٢ ــ ٥ الواقدي ٩/١ ــ ١٣ المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٠٠ ــ ٢٠٣ البلاذري : أنساب ٢٨٧/١ اليعقوبي : تاريخ ٥٧/٢ ــ ٥٨ خليفة بن خياط : تاريخ ١٣/١ ــ ١٥ ابن حزم : جوامع ص ١٠٠ ــ ١٠٤ ابن الاثير : الكامل ١١١/٢ ــ ١١٢ ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٤/٣ ــ ٢٤٨ .

وكتب كتاباً وأمره ألا ينظر فيه قبل مسيرة يومين فيمضي لما أمره الرسول به ولا يستكره من أصحابه أحداً . وبعـــد يومين فتح عبد الله الكتاب السري وقرأ ما فيه :

« إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بوادي نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارها » . وما أن أتم عبد الله قراءة الكتاب حتى قال : سمعاً وطاعة . ثم التفت إلى أصحابه وقال : قد أمرني الرسول ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر . وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله . فأجابه أصحابه جميعاً ومضوا حتى نزلوا بنخلة، فمرت بهم قافلة لقريش تحمل تجارة لمكة فهاجموها وقتلوا أحـــد أفرادها وهو عمرو بن الحضرمي وأسروا اثنين آخرين وقفلوا عائدين بالبضائع والأسيرين إلى المدينة . وعندما ابلغوا الرسول ﷺ تفاصيل الحادث قال : ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم وأوقف التصرف بالأموال والأسيرين وأبى أن يأخذ مـــن ذلك شيئاً . فأسقط في أيدي القوم وعنفهم اخوانهم فيما صنعوا . وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وغنموا الأموال وأسروا الرجال . لكن آيات القرآن الكريم سرعان ما تنزلت لتحدد الموقف الحازم ازاء القيادة الوثنية التي كانت قـــد سبقت إلى انتهاك الأشهر الحرم ، فقاتلت المسلمين الجدد فيها وعذبتهم واضطهدتهم وفتنتهم عن دينهم ، وانه قد آن للمسلمين أن يردوا على هذا الانتهاك الصريح لأن التشبث بحرمة الشكليات هزيمة لا مبرر لها في ساحة الصراع العنيف بين المعسكرين [يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه؟ قل : قتال فيـــه كبير وصدٌ عن سبيل الله وكفر به ، والمسجدالحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عنـــد الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا][2] .

---

(٢) ابن هشام ص ١٤٥ — ١٤٧ الطبري : تاريخ ٤١٠/٢ — ٤١٥ ابن سـعد ٥/١/٢ الواقدي ١٣/١ — ١٩ البلاذري : انساب ٢٧١/١ — ٢٧٢ المسعودي : التنبيه ص ٢٠٣ اليعقوبي : تاريخ ٥٨/٢ .

ويمكن اعتبار سرية عبد الله بن جحش الجسر الذي اجتـــازه صراع المناوشات بين الاسلام والوثنيةصوبالقتال المنظم المكشوف الذي بدأته معركة بدر . ذلك ان هذه السرية كشفت ، بسبب توغل مقاتليها بعيـداً إلى طريق التجارة المكية – اليمنية ، مدى خطورة الدولة الناشئة على تجارة مكة خاصة ووجودها الوثني عامـــة . كما ان الاشتباك الذي وقع بين الطرفين وأدى إلى قتـــل وثنيّ وأسر آخرين أبان عن رغبة المقاتلين المسلمين برفع السلاح بوجه الوثنية دونما تردد أو مساومة ، هذا فضلاً عن المنطلق المبدئي الجديد الذي حددته الآيات السالفة والذي ضربت فيه شكليات التقاليد القديمة ونفخت في المقاتل المسلم روحـــاً جديدة دفعته إلى مزيد من المجابهة والصراع والتحدي للقيادة المكية التي كانت قد سبقت المسلمين – كما بـــين القرآن – إلى تجاوز الحرمات والاستهتار بالأعراف ، وهكذا يمكننا القول بأن معركة بـدر الكبرى لو لم تحدث بسبب غيـــاب شروطها الواقعيـة لحدثت معركة أخرى بديـــلة عنـــها بسبب توافر الشروط الموضوعية للقتال الحاسم بـــين المعسكرين .

★

حقق الرسول ﷺ بسراياه الأولى عدداً من المنجزات العامة يمكن حصرها بما يلي :

(١) الاستطلاع :

استطاع المسلمون التعرف على الطرق المحيطة بالمدينةوالمؤدية إلى مكة ، خاصة الطرق التجارية الحيويـة لقريش بـين مكة والشام . كما استطاعوا التعرف على قبائل المنطقة وموادعة بعضها .

(٢) القتال :

أ – أثبت المسلمون أنهم اقوياء ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم

تجاه المشركين من قريش والقبائل المجاورة وأهل المدينة وتجاه اليهود وقد أراد المسلمون من ذلك أن تترك لهم الحرية الكاملة لنشر دعوتهم دون تدخـــل من أعدائهم .

ب – تحالف المسلمين مع بعض القبائل المجاورة .

(٣) الكتمان :

ابتكر الرسول أسلوب الرسائل المكتومـة للمحافظة على الكتمان وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيده عن حركات المسلمين . والكتمان أكبر عامل من عوامل مبدأ المباغتة التي هي إحداث موقف لا يكون العدو مستعداً له . والكتمان من جملة الوسائل المهمة التي تؤدي إلى المباغتة وهي أهم مبـدأ من مبادىء الحرب . وقد سبق المسلمون غيرهم في ابتكار هذا الأسلوب الدقيق .

(٤) الحصار الاقتصادي :

هدد المسلمون أهم طريق تجارية بين مكة والشام فأصبحت قوافـل قريش غير آمنة حين تسلك هذا الطريق مما أثر اسوأ الأثر على تجارة قريش التي تعيش عليها وهدد مكة بالحصار الاقتصادي لمحاولة حرمانهـا من سلوك طريق مكة الشام بأمان [٣].

وكما حرص النبي ﷺ على أن يوجد في داخل المدينة أداة للحكم وأن ينظم شؤونها الداخلية كذلك حرص عن طريق السرايا على أن يضم إلى المدينة ماحولها من ريف وقبائل وأن يخطط لها مجالها ويقرر حدودها ويعقد لها أحلافاً مع القبائل النازلة حولها ، لأن الحاضرة لا تستطيـع أن تعيش بنفسها ولا تستغني عن ريف يمدها بالمؤن ويكون مجالاً لنشاطها. وكان هذا أحد أسباب قيام النبي بعدة سرايا ابتدأت من المدينة واتجهت إلى جميع الجهات فأمنت هذا الريف ، وعقدت في أثناء هذه السرايا أحلافاً مع القبائل المجاورة . إذ أنه لا بد لسكان المدن التي

(٣) محمود شيت خطاب : الرسول القائد ص ٦٠ – ٦١ .

تقوم في وسط جو بدوي أن تعمل حساباً كبيراً لغزوات البدو ولا يكون ذلك إلا عن طريق محالفة البدو ثم كسر شوكتهم بالضرب على أيديهم عند اللزوم وإشعارهم دائماً بقوة المدينة وقدرتها على الضرب [٤]. وكانت استراتيجية الرسول في توجيه سراياه ، وغزواته كذلك، تعتمد الحذر الدائم والحرص على أن يعرف من أخبار القبائل ما يمكنه من تدبير أمره لإقرار هيبة الدولة في نفوس البدو فكان لا يترك فرصة لهم للتجمع لغزوه ومهاجمته بل كان يقظاً سريع الحركة ما يكاد يسمع بتجمع أعدائه حتى يفاجئهم قبل أن يستكملوا أمرهم فيشتت شملهم ويلقي الرعب في قلوبهم . فالهجوم عنده أقوى وسائل الدفاع ، وتحطيم قوة العدو قبل أن تكتمل أفضل من تركها تتجمع ثم الصمود لها . ولقد أتاحت هذه الظروف للدولة الاسلامية في المدينة فرصة الاستقرار [٥] .

---

(٤) احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة ص ٤٠٠ .

(٥) المرجع السابق ص ٤٥١ .

معركة بدر الكبرى

وقد بدأت الأسباب الواقعية التاريخية التي قادت إلى المعركة الحاسمة تتجمع إلى بعضها منذ اللحظة التي أبلغ فيها الرسول ﷺ أن قافلة كبيرة لقريش تضم ألف بعير قادمة من الشام صوب مكة يقودها أبو سفيان في ثلاثين أو أربعين تاجراً مكياً (٦) ، وبمبادرة لا تردد فيها قال لأصحابه : (هذه عِير قريش ، فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها) (٩) .

ونظراً إلى أن نداء الرسول ﷺ لم يكن أمراً ملزماً بل كان ندباً ، ونظراً إلى أن أحداً لم يكن يتوقع أن لقاءً مسلحاً حاسماً سيتمخض عن التحدي الجديد هذا ، فقد خرج بعض المسلمين بقيادة رسولهم الكريم ﷺ لمهاجمة القافلة ، وتخلّف بعضهم الآخر ، كما أن هؤلاء خرجوا ولم يأخذوا أهبتهم الكاملة من السلاح

---

(٦) وقيل سبعين « من قبائل قريش كلها » : الطبري : تاريخ ٤٢١/٢ وعن حجم القافلة انظر : الواقدي ٢٧/١ — ٢٨ ابن حزم : جوامع ص ١٠٤ — ١٠٦ المقدسي ١٨٢/٤ — ١٨٤ ابن الاثير الكامل ١١٣/٢ — ١١٥ ابن كثير ٢٤٨/٣ — ٢٥٢ .

(٩) ابن هشام ص ١٤٨ وانظر : الطبري : تاريخ ٤٢١/٢ ، ٤٢٧ ، ابن سعد ٦/١/٢ الواقدي ٢٠/١ .

والتأهب [١٠] .. وما أن سمع أبو سفيان بلبأ تحرك المسلمين لمجابهة قافلته حتى أرسل إلى مكة على جناح السرعة ضمضم بن عمرو الغفاري وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد تعرّض لها في الطريق .. وما إن وصل ضمضم إلى مكة حتى جدع بعيره ، وحوّل رحله ، وشق قميصه وراح يصرخ : يا معشر قريش !! اللطيمة اللطيمة !! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث !! وسرعان ما استجاب الناس لندائه وهرعوا إلى الكعبة وهم يقولون : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي (الذي كان قد قتل في سرية ابن جحش) كلا .. والله ليعلمن ذلك . فكانوا بين رجلين اما خارج واما باعث مكانه رجلاً .. وتجمعت قريش كلها تسعمائة وخمسين مقاتلاً تصحبهم مائة فرس ولم يتخلف من أشرافها أحد خلا أبو لهب الذي يبدو أن مرضه وكبره أقعده عن اللحاق بالمستنفرين [١١] ، واستطاع أبو سفيان خلال ذلك أن يفلت من قبضة المسلمين بإسراعه وتجنبه الطريق الداخلي صوب الساحل وما أن اطمأن على قافلته حتى أرسل إلى رفاقه في مكة : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم ورجالكم فقد نجّاها الله فارجعوا . إلا أن أبا جهل بن هشام كان أبعد نظراً منه عندما أصرّ على الخروج والنزول في بدر حيث كان للعرب هناك سوق يجتمعون له كل عام ثلاثة أيام «ننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها » [١٢] . فما دامت سرايا المسلمين قد حققت للدولة الجديدة في المدينة طيلة الأشهر السابقة نصراً عسكرياً وإعلامياً ونفسياً ضد قريش وثبتت كلمة الاسلام ورايته في أعماق الصحراء فانه لا بد لقريش أن تردّ بنفس الأسلوب وتعلم العرب الذين ينتمون اليها أن الكلمة كلمتها

---

(١٠) ابن سعد ٦/١/٢ الواقدي ٢٠/١ — ٢١ البلاذري : انساب ٢٨٨/١ .

(١١) ابن هشام ص ١٤٨ — ١٥١ الطبري : تاريخ ٤٢١/٢ — ٤٢٢ ، ٤٢٧ — ٤٣١ ابن سعد ٧/١/٢ الواقدي ٢٨/١ — ٣٠ البلاذري : انساب ٢٩٠/١ — ٢٩١ .

(١٢) ابن هشام ص ١٥٥ — ١٥٦ الطبري : تاريخ ٤٢٤/٢ ، ٤٣٨ ابن سعد ٧/١/٢ الواقدي ٤٣/١ — ٤٥ البلاذري : انساب ٢٩٠/١ — ٢٩١ .

وأن الصحراء ستظل موطىء أقدامها دون منازع .

***

وفي الجبهة الأخرى كان الرسول ﷺ قـــد انطلق بأصحابه البالغ عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا مستخلفاً على المدينة (ابا لبابة) ومقيماً (عمرو بن أم مكتوم) إمامـــاً على الصلاة بالناس ودفع اللواء الأبيض إلى مصعب بن عمير الداعية الشاب ، وأما الرايتان السوداوان فقد حمل علي احداهما وتدعى العقاب أما الأخرى فقد حملهـا بعض الأنصار . ووزع الرسول ﷺ السبعين بعيراً التي كانت بحوزة المسلمين على أصحابه كل ثلاثة يتناوبون واحداً منها ، ولم يكن معهم من الخيول سوى اثنتين ، وعندما وصلوا قريباً من بدر حيث طريق القوافل بين مكة وبـلاد الشام بعث الرسول إلى هناك اثنين من أتباعه ليتحسسا لــــه الأخبار عن قافلة أبي سفيان التي كانوا يظنون انها لا زالت في المنطقة . وانطلق هو وأصحابه في أعقابهما [١٣] وما لبث الرسول ﷺ أن عسكر بأصحابه قريباً من ماء بدر وعندما حلّ المساء بعث ثلاثة من رجاله المعتمدين هم الزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص على رأس جماعة من المسلمين ليستطلعوا جلية الأخبار ويعرفوا شيئاً عن مصير القافلة ، فاستطاعوا القـاء القبض على اثنين من سقاة قريش جاؤوا بهما إلى الرسول ﷺ معتقدين انهما من اتباع ابي سفيان ، إلا انهما أكدا انتماءهما للجيش القرشي الذي يعسكر الآن قريباً من المسلمين تحجبهم التلال والكثبان عنهم فقال الرسول : أخبراني عن قريش . قالوا : هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى . فقال لهم : كم القوم ؟ قالا : لا ندري . قال : كم تنحرون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . فقال ﷺ : القوم بين التسعمائة والألف ، ثم سألهما : فمن فيها من اشراف قريش ؟ فطفقا يستعرضان عدداً من قادة قريش فيهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابو جهل بن هشام وأمية بن خلف وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبدود وغيرهم وحينذاك أقبل الرسول ﷺ على

---

(١٣) ابن هشام ص ١٥١ — ١٥٢ ابن سعد ٦/١/٢ — ٧ الواقدي ٢٣/١ — ٢٧ .

أصحابه وقال: هذه مكة القت اليكم أفلاذ كبدها[14] وقد أدرك الرسول ﷺ أنه رغم ضياع الهدف القريب المتمثل بقافلة أبي سفيان فان عليه أن يقود أصحابه إلى هدف أبعد: أن تظل كلمتهم تتردد في جنبات الصحراء، وأن لا يتراجع وجودهم العسكري الذي بنته السرايا السابقة صوب المدينة فتكون الهزيمة بعينها في نظر العرب جميعـــا . ورغم قلة السلاح ونقص الاستعداد فان الرسول كان يجد أنه لا مناص من التوغل في الصحراء لتحقيق هـذا الهدف البعيد وكأنه باحساسه الصادق العميق كان يرى الهـدف الذي خرجت قريش من أجله والذي تجاوز منطق الدفاع عـــن مصالحها التجارية المتمثلة بحماية قافلة أبي سفيان إلى تحدي المسلمين. فان لم يتصدَ لها الاسلام في أوّل تحد حاسم فان نكسة خطيرة ستصيب الدعوة والدولة الاسلامية على السواء .

استشار الرسول ﷺ أصحابه وأذاع عليهم تفاصيل ما ورده من أنباء عن قريش فقـام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، وقـــام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله امضِ لمـا اراك الله فنحن معك واللهِ لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيـل لموسى .. (اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون) . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى (برك الغماد) (مدينـــة في الحبشة) لجالدنا معك من دونها حتى تبلغها » . وبهذا عبّر المهاجرون على لسان قادتهم عن رغباتهم العميقة في القتال دون الدعوة واطاعـة الرسول ﷺ الذي رأى وجوب أخـذ رأي الأنصار بعد ذلك سيما وأنهـم في بيعتهم له في العقبة لم يلتزموا بقتال خارج مدينتهم ، فسألهم الرسول ﷺ : اشيروا علي أيها الناس ! فقام سعد بن مُعاذ فقال: « قد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا انما جئت به هو الحق . فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك مـا تخلف عنك رجل واحد ، فسر على بركة

(14) ابن هشام ص 154 — 155 ، 156 — 157 الطبري : تاريخ 2/422 — 424 ، 425 ، 436 — 437 ابن سعد 2/1/8 — 9 الواقدي 1/52 — 53 .

الله » . فسُرّ رسول الله ﷺ وقال لأصحابه : سيروا وابشروا فان الله قد وعدني احدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم[١٥] . وتقدم بأصحابه حتى اذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به ، فسأله الحباب بن المنذر : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلاً انزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال الحباب : يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوّر ما وراءه ثم نبني عليها حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال الرسول ﷺ : لقد اشرت بالرأي ثم أمر بتنفيذ خطته . وعرض عليه سعد ابن معاذ أن يقام له عريش يتولى منه قيادة المعركة ، فنفذ الرسول رأيه . وما لبثت السماء أن أمطرت مطراً خفيفاً فلبدت أرض الصحراء بما يتيح للمسلمين الحركة السريعة فوقها وراح الرسول يدعو الله : اللهم هذي قريش قد اقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني . وعندما حلّ الفجر صلّى بالمسلمين وراح ينظمهم صفوفاً ويحرضهم على القتال[١٦] .

★★★

ما لبث الرسول أن أرسل عمّار بن ياسر وابن مسعود رضي الله عنهما فاطافا بالمشركين ثم رجعا إلى النبي ﷺ فقالا : يا رسول الله القوم مذعورون فزعون . ان الفرس ليريد أن يصهل فيُضرب وجهه مع أن السماء تسحُ عليهم .. وفي معسكر قريش حدث خلاف بين قادتها ، وطرح بعضهم وعلى رأسهم حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة رأياً بالتخلي عن القتال والعودة إلى مكة بعد ماعرفوا من نزول المسلمين قريباً منهم ، إلا أن أبا جهل أصرّ على الحرب واستثار عامر بن الحضرمي بتذكيره بمقتل

---

(١٥) ابن هشام ص ١٥٢ — ١٥٣ الطبري : تاريخ ٤٣٤/٢ — ٤٣٥ ابن سعد ٨/١/٢ الواقدي ٤٨/١ — ٤٩ وانظر البخاري : التجريد ٧٦/٢ .

(١٦) ابن هشام ص ١٥٤ — ١٥٥ ، ١٥٦ — ١٥٧ الطبري : تاريخ ٤٢٥/٢ ، ٤٤٠ — ٤٤١ الواقدي ٥٣/١ — ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ — ٥٩ البلاذري : أنساب ٢٩٣/١ ابن سعد ٩/١/٢ .

أخيه عمرو في سرية عبدالله بن جحش فصرخ واعمراه واعمراه الأمر الذي استفز قريشاً جميعاً ودفعها إلى اتخاذ موقف القتال . وفي صبيحة الجمعة السابع عشر من رمضان تقدم الأسود بن عبدالأسد المخزومي الذي عرف بشراسة الطبع وسوء الخلق وقال: أعاهد الله لأشربنّ مـن حوضهم أو لأهدمنه أو أموتنّ دونه ! فتصدى له حمزة بن عبد المطلب وتمكن من قتله في الحوض نفسه . وبرز عتبة بن ربيعة يحف به أخوه شيبة وابنه الوليد ودعا إلى المبارزة فخرج اليه ثلاثة من فتيان الأنصار فسألهم القرشيون مَن أنتم ؟ قالوا : رهط مـــن الأنصار . قالوا : ما لنا بكم حاجة ، ونادى مناديهم يا محمد اخرج الينا اكفاءَنا من قومنا . فاستجاب الرسول لهذا التحدي وأمر عبيدة بن الحارث وحمزة وعلياً رضي الله عنهـم أن يتصدوا لهم . وسرعان ما تمكن حمزة من قتل شيبة وفعل علي ذلك بغريمه الوليد ، أما عبيدة فقد جرح غريمه وأصابه هو الآخر بجرح مميت فانقضّ علي وحمزة على الفتى القرشي وأجهزا عليه وحملا عبيدة إلى معسكر المسلمين حيث توفي هناك [١٧] .

استفزت هذه البداية كلا المعسكرين فزحفا نحو بعضها وأصدر الرسول أوامره إلى أصحابه ألاّ يهاجموا حتى يأذن لهم وأن يبعدوا مهاجميهم القرشيين بالنبال ، وسوّى صفوفهم ، ورجع إلى العريش يصحبه أبو بكر رضي الله عنـــه وراح يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول : (اللهم إن تهلك هـذه العصابة اليوم لا تُعبد) فيرد عليه أبو بكر : يا نبي الله بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك ما وعدك ! وما لبث الرسول ﷺ أن انتبه فجأة وقال والبشر يكسو وجهه : (أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله !! هذا جبريل آخذٌ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع) [١٨] .. وانطلق الرسول ﷺ يحضهم عـــلى القتال (والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر إلاّ أدخله الله الجنة) فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن : بخٍ بخٍ أفما بيني وبين أن

(١٧) ابن هشام ص ١٥٨ — ١٦٠ الطبري : تاريخ ٤٢٥/٢ — ٤٢٦ ، ٤٤٢ — ٤٤٦ ابـن سعد ١٠/١/٢ — ١١ الواقدي ٥٢/١ ، ٦٢ — ٧٠ .

(١٨) عن دور الملائكة في المعركة انظر : الطبـــري : تاريخ ٤٥٣/٢ — ٤٥٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ والواقدي ٧٠/١ — ٨٠ .

أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل القوم حتى قتل [19] . وراح الرسول ﷺ يجالد المشركين بنفسه ويتقدم الصفوف حتى أن علياً رضي الله عنه قال فيما بعد (لما أن كان يوم بدر وحضر البأس اتقينا برسول الله وكان أشد الناس بأساً وما كان منا أحد أقرب إلى العدو منه)[20] . ثم ما لبث أن أخذ حفنة من الحصباء واستقبل قريشاً بها وصاح: شاهت الوجوه وضربها بوجوهم ونادى أصحابه: شدوا فحمل المسلمون حملة صادقة تسوقهم إلى أعدائهم موجة من الايمان العارم ورغبة عميقة في الاستشهاد ، وراحوا يحصدون صناديد قريش ويأسرون أبطالها.. وحمل معاذ بن عمرو بن الجموح على أبي جهل وقد لجأ إلى مجموعة كثيفة من الأشجار يحيط به عدد من أتباعه فضربه فقطع ساقه . ويتحدث معاذ عما تبع ذلك فيقول « ضربني ابنه عكرمة على عانقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني جعلت عليها رجلي ثم تمطيت بها حتى طرحتها . ثم مرّ بأبي جهل وهو جريح معوّذ فضربه حتى أصابه بجرح لم يستطع معه حراكاً وظل معوّذ يقاتل حتى قتل . ومرّ عبد الله بن مسعود بأبي جهل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فوضع رجله على عنقه وقال: هل أخزاك الله يا عدو الله فأجاب أبو جهل: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً ! فاحتزّ عبد الله رأسه[21] . وما لبثت الهزيمة أن حاقت بالمشركين الذين فرّوا من ساحة القتال لا يلوون على شيء مخلفين وراءهم ما يربو على سبعين قتيلاً ومثلهم أسرى[22] . أما خسائر المسلمين فقد بلغت أربعة عشر شهيداً ستة من المهاجرين

---

(19) ابن هشام ص ١٦٠ — ١٦١ الطبري : تاريخ ٤٤٦/٢ — ٤٤٨ الواقدي ٦٧/١ ، ٧٠ — ٧١ ، ٨١ وانظر البخاري ٧٧/٢ .

(20) الطبري : تاريخ ٤٢٦/٢ .

(21) الطبري : تاريخ ٢٥٤/٢ — ٢٥٦ وانظر الواقدي ٨٦/١ — ٩١ .

(22) الطبري : تاريخ ٤٧٤/٢ ابن سعد ١١/١/٢ الواقدي ١٣٨/١ — ١٤٤ ، ١٤٧ — ١٥٢ وانظر : المسعودي : التنبيه ص ٢٠٥ اليعقوبي : تاريخ٣٧/٢ . اما خسائر المسلمين فقد بلغت اربعة عشر شهيدا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار : الطبري ٤٧٧/٢ ابن سعد ١١/١/٢ الواقدي ١٠٢/١، ١٤٥ — ١٤٧ . وعن قوائم مسلمي بدر انظر ابن كثير : البداية٣١٥/٣ — ٣٢٥ .

وثمانيــة من الأنصار ، والتمس الرسول ﷺ رأس ابي جهل فجاءه بها عبد الله بن مسعود فحمد الله ثم أمر أن يطرح قتلى المشركين في قليب قريب .. وسمعــه أصحابه في جوف الليل وهو يقول : (يا أهل القليب يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة ابن ربيعة ويا أميّة بن خلف ويا أبا جهل هل وجدتم مــا وعدكم ربكم حقاً فاني وجدت ما وعدني ربي حقاً) ؟ فسأله أصحابه : يا رسول الله أتناذي قوماً قــد جيّفوا ؟قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.[٢٣] بعث الرسول ﷺ عبد الله بن رواحة وزيد بن الحارثة إلى المدينة ليبشروا أهلها بانتصار المسلمين وأقبل في أعقابهما بعد تسعة عشر يوماً من غيابه عنها مستصحباً معه أسرى المشركين بعد أن قسّم الغنائم على المسلمين على السواء . وعند الروحاء قريباً من المدينة لقيه المسلمون الذين لم يخرجوا للقتال يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين .. وما أن وصل المدينة حتى فرّق الاسارى بين أصحابه وقال استوصوا بالاسارى خيراً وما لبثت قريش أن بعثت في فــداء أسراهم ففودي كل أسير بــين الألف والأربعة آلاف درهم ومن لم يكن منهم يملك شيئاً منّ عليه الرسول ﷺ [٢٤] .

***

ثمة أسباب عديدة تمخضت عــن انتصار القلة على الكثرة في معركة بدر الحاسمة ولا بأس هنا أن نلخص أهم هذه الأسباب التي عرضهــا (خطّاب) في كتابه (الرسول القائد) لأنها يمكن أن تعد الأسباب النموذجية التي تفسر لنــا الكثير من الانتصارات التي حققهــا المسلمون ضد أعدائهم الذين يفوقونهم عدداً وعدة ، ليس في عصر الرسول فقط بل فيما تلاه من عصور وأول هذه الأسباب:

---

(٢٣) ابن هشام ص ١٦١ – ١٦٣ الطبري ٤٤٩/٢ – ٤٥٠ ، ٤٥٦ – ٤٥٧ الواقــدي ٨١/١ ، ١١١ – ١١٢ .

(٢٤) ابن هشام ص ١٦٣ – ١٦٨ الطبري ٤٥٨/٢ – ٤٥٩ ابن سعد ١٢/١/٢ والواقــدي ١١٤/١ – ١١٦ .

القيادة الموحدة :

كان الرسول ﷺ هو القائد العام للمسلمين في معركة بدر وكان المسلمون يعملون كيَدٍ واحدة تحت قيادته يوجههم في الوقت الحاسم للقيام بعمل حاسم ، وهذا هو واجب القائد الكفء . وكان ضبط المسلمين في تنفيذ أوامر قائدهم مثالاً رائعاً للضبط الحقيقي المتين ، وإذا كان الضبط أساس الجندية وإذا كان الجيش الممتاز هو الذي يتحلى بضبط ممتاز ، فقد كان جيش المسلمين جيشاً ممتازاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ ، وان معنى الضبط هو اطاعة الأوامر وتنفيذها بحرص وامانة وعن طيبة خاطر ، وقد فعل المسلمون ذلك لأن قائدهم يتحلى بصفات القائد المثالي .. ضبطاً للأعصاب في الشدائد ، شجاعة نادرة في المواقف ، مساواة لنفسه مع أصحابه ، استشارة في كل عمل حاسم . أما المشركون فلم يكن لهم قائد عام ، كان أكثر سراة قريش مع قوات المشركين ولكن البارزين من هؤلاء على ما يظهر رجلان هما عتبة بن ربيعة وأبو جهل ولم يكونا على رأي واحد وليس لهم هدف موحد ، لذلك طغت الأنانية الفردية على المصلحة الموحدة أثناء القتال .

التعبئة الجديدة :

طبّق الرسول ﷺ في (مسير الاقتراب) من المدينة إلى بدر تشكيلة لا تختلف بتاتاً عن التعبئة الحديثة في حرب الصحراء ، كان لهم مقدمة وقسم أكبر ومؤخرة . واستفاد من دوريّات الاستطلاع للحصول على المعلومات . وتلك هي الأساليب الصحيحة للتشكيلات مسير الاقتراب في حرب الصحراء حتى في العصر الحاضر . أما في المعركة فقد قاتل المسلمون باسلوب الصفوف بينما قاتل المشركون بأسلوب الكر والفر وهو أسلوب قديم لا يلائم الأوضاع المستجدة .

العقيدة الراسخة :

رأينا كيف كان جواب المهاجرين والأنصار للرسول حين استشارهم في قتال

قريش ، فقد كان للمسلمين أهداف معينة يعرفونها ويؤمنون بهـــا هي أن تترك الحرية الكاملة لهم لبث دعوتهم حتى تكون كلمة الله العليا، فما هي أهداف قريش من حربها إلا أن تنحر الجزور وتطعم الطعام وتشرب الخمر وتعزف القيان فتسمع العرب بمسيرها فيها بونها أبداً بعدها ؟ وهل نستطيع تسمية ذلك أهدافاً أم ان ذلك طيش وغرور وعصبية جاهلية ؟

المعنويات العالية :

شجع الرسول أصحابه قبل القتال وأثناءه وقوّى معنوياتهم حتى لا يكترثوا بتفوق قريش عليهم عدداً ولم تكن معنويات الذين مارسوا الحرب وعرفوها من المسلمين عالية فحسب انما كانت معنويات الأحداث الصغار الذين لم يمارسوا حرباً ولا قتالاً عالية أيضاً ... لقد أثبتت كافة الحروب في كافة ادوار التاريخ أن التسليح والتنظيم الجيدين والقوة العددية غير كافية لنيل النصر ما لم يتحلّ المقاتلون بالمعنويات العالية بالإضافة إلى كل ذلك[٢٥] ولقد تمخضت معركة بدر عن نتائج مهمة فقد هددت طرق تجارة المكيين وهي عصب حياتهم واضعفت هيبة مكة ونفوذها على العرب ، ونمّت قوة الاسلام وعززت دولته الجديدة في المدينة ، وانفسح المجال لنشر دعوته. وازداد التضامن بين المهاجرين والأنصار قوةً وتماسكاً. وكان تشريع خمس الغنائم في أعقاب بدر ذا خطورة عظيمة نظراً لأنــــه أول تشريع قرآني مالي رسمي غير الزكاة توطد به بيت المال في الاسلام وليسر تحقيق ما دعــا اليه القرآن من مساعدة الطبقات المحتاجة والانفاق في سبيل مصالح المسلمين العامة بأسلوب رسمي غير قائم على التبرع[٢٦] .

---

(٢٥) انظر بالتفصيل : شيت خطاب : الرسول القائد ص ٧٨ ــ ٨٤ .

(٢٦) عزة دروزة : سيرة الرسول ٢/٣٢٩ ــ ٣٣٠ . وعن الآيات المتعلقة بمعركة بـــدر انظـــر : الانفــــال ١ ــ ٤ ، ٥ ــ ١٤،١٧ ــ ١٩،٢٠ ــ ٢٨،٣٦ ــ ٤٤،٤٥ ــ ٤٩،٦٧ ــ ٧٢ .

معركة أحد

راحت قريش تعد العدة كي تثأر من المسلمين في أعقاب الهزيمة النكراء التي منيت بها في بدر . وأقسم أبو سفيان ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً . فخرج في ذي الحجة على رأس مائتي راكب من قريش ، تدفعه رغبة انتقامية عاتية ، ليبر بيمينه ، وعندما بلغ مشارف المدينة ، تسلل ليلاً إلى أحياء بني النضير ، وطرق الباب على أحد زعمائهم (حيي بن أخطب) ، فدفعه خوفه إلى أن يغلق الباب ، فانصرف أبو سفيان إلى سلام بن مشكم ، سيد بني النضير ، آنذاك ، فاستضافه وقدم له بعض المعلومات. وفي فجر اليوم التالي قام أبو سفيان بإرسال جماعة من أصحابه إلى ناحية (العريض) في المدينة فحرقوا نخيلها وقتلوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له وهما يعملان في حرث لهما ، ثم انصرفوا راجعين . وعندما انتشر نبأ الهجوم بين الناس خرج الرسول ﷺ بنفسه لطلبهم ، واستعمل على المدينة « بشير بن عبد المنذر » فلما أحس أبو سفيان وأصحابه أنهم مدركون تخففوا من أزوادهم ومعظمها من السويق ، طارحين إياها في عرض الطريق ، وتمكنوا من النجاة [٢٧] .

---

(٢٧) ابن هشام ص ١٦٩ — ١٧٠ الطبري ٢/٤٨٣ — ٤٨٥ ابن سعد ٢/١/٢٠ الواقدي ١/١٨١ — ١٨٢ المسعودي : التنبيه ص ٢٠٧ البلاذري : انساب ١/٣١٠ خليفة بن خياط : تاريخ ١/١٦ — ١٧ ابن حزم :جوامع ص ١٥٢ — ١٥٣ ابن الاثير : الكامل ٢/١٣٩ — ١٤٠ ابن كثير ٣/٣٤٤ .

وإذ شددت النتيجة التي تمخضت عنها معركة بدر من قبضة المسلمين على طريق مكة التجاري إلى الشام ، قررت قريش من أجل أن تتجاوز هذا الحصار أن تسلك في تجارتها طريقاً آخر ، دلها عليه بعض العارفين ، وهو الذي يتجه إلى العراق ، صوب الشمال الشرقي بعيداً عن يثرب. وقد عبّر (صفوان بن أمية) عن مخاوف القرشيين بقوله : إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع وأصحابه لا يبرحون الساحل وأهل الساحل قد وادعوهم ، ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ؟ وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في دارنا هذه . . إنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف ، وفي الشتاء إلى أرض الحبشة (٢٨) .

وقد خرجت إحدى قوافلهم تحمل مقادير كبيرة من الفضة ، يقودها عدد من الرجال فيهم أبو سفيان ، ويدلها على الطريق الجديد (فرات بن حيان) ، إلا أن الرسول ﷺ سرعان ما بلغته أنباء القافلة الغنية فبعث على جناح السرعة ، سرية يقودها زيد بن حارثة ، تمكن من مباغتة القافلة في منطقة في نجد تدعى (ماء القردة) فهرب رجالها تاركين بضائعهم لقمة سائغة للقائد المسلم الذي عاد بها إلى المدينة كي يقتسمها المسلمون(٢٩) .

***

كانت هذه المقدمات تسوق قريشاً إلى الاسراع بتوجيه ضربة قاصمة للمسلمين انتقاماً لما لحقهم بمعركة بدر ، وكسراً للحصار الاقتصادي الذي ازدادت وطأته في أعقاب بدر وذي القردة ، واجتمع عدد من زعمائها ، ممن أصيب أقرباؤهم ببدر ، بأبي سفيان وتم الاتفاق على أن يتنازل أهل مكة عن أموالهم في القافلة التي قدم بها أبو سفيان من الشام قبيل معركة بدر لاستخدامها في التهيؤ للمعركة المرتقبة .

(٢٨) الواقدي ١٩٧/١ .

(٢٩) ابن هشام ص ١٧٣ الطبري ٤٩٢/٢ — ٤٩٣ ابن سعد ٢٤/٢/١ — ٢٥ الواقدي ١/ ١٩٧ — ١٩٨ البلاذري : انساب ٣٧٤/١ اليعقوبي : تاريخ ٥٩/٢ ابن الاثير : الكامل ١٤٥/٢ ابن كثير : ٤/٤ — ٥ .

استنفرت قريش كل قادر على حمل السلاح من أبنائها ، ودعت الأحابيش وحلفاءها من قبائل كنانة ، وأهل تهامة وثقيف للانضمام اليها فبلغوا ثلاثة آلاف رجل يضمنهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وثلاثة آلاف بعير .. واستدعيت النساء للخروج كي يثرن الحمية في نفوس المقاتلين ويمنعنهم من الفرار. وتولى القيادة ابو سفيان ، فسار بهم طاوياً الصحراء حتى نزل قريباً من جبل أحد شمالي المدينة ، وعندما سمع الرسول ﷺ ذلك بعث ثلاثة من أصحابه ليأتوه بأخبارهم وأمر بتشديد الحراسة على المدينة ، وعرض على أصحابه أن يظلوا في المدينة ، ويدعوا قريشاً حيث نزلت [فان أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها] فكأنه ﷺ كان يريد أن يعتمد الخطة التي يسمونها اليوم « حرب الشوارع » أو « الحارات » ، فحيثما كان المهاجمون أكثر عدداً من المدافعين كان الأجدر أن يحتمي هؤلاء داخل مدنهم ، كي يتمكنوا من انزال ضرباتهم بالعدو الذي سيجد نفسه مضطراً إلى التشتت في انحاء المدينة التي لا يعرف الكثير عن منعطفاتها وزواياها ، هذا فضلاً عن أن قتالاً كهذا سيتيح حتى للنساء والأطفال أن يشاركوا في القتال إلا ان المسلمين الذين فاتهم شرف القتال في بدر ، وخاصة الشباب منهم ألحوا بالخروج وقالوا : يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرونا انا جبنّا عنهم وضعفنا !! وأيد عبد الله بن أبي - زعيم المنافقين - غير صادق رأي الرسول ﷺ ، بينما ألح عدد من كبار الصحابة على الخروج قائلين : - انا نخشى يا رسول الله ان يظن عدونا انا كرهنا الخروج جبناً عن لقائهم فيكون هذا جرأةً منهم علينا ، وقد كنت يومْ بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم ونحن اليوم بشر كثير ، قد كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعو الله به ، فقد ساقه الله الينا في ساحتنا ... وقال مالك بن سنان : يا رسول الله نحن والله بين احدى الحسنيين ، اما أن يظفرنا الله بهم ، أو يرزقنا الشهادة . وقال حمزة : والذي انزل عليك الكتاب لا اطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي هذا خارجاً من المدينة . وقال النعمان بن مالك أخو بني سالم : يا رسول الله لم تحرمنا الجنة ؟ فوالذي لا إله إلا هو لادخلنها .

سأل الرسول ﷺ بم ؟ قـال : اني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف . فقال الرسول : صدقت . وقال أياس بن أوس : يا رسول الله : نحن بنو عبـد الأشهل نرجو أن نذبح ويذبح فينا فنصير إلى الجنة ويصيرون إلى النار مع أني يا رسول لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمداً في صياصي يـثرب وآطامها فيكون هذا جرأة لقريش . وقال عبد الله بن جحش : اللهـم اني أسألك ان القى العدو غداً ، فيقتلوني ، ثم يبقروا بطني ويجدعوا أنفي وأذني وتسألني فيم ذلك ، فأقول فيك[٣٠] .

ومما لا ريب فيه أن مواقف كبار الصحابة هؤلاء تبين لنا أن الالحـاح على الخروج للقتال بعيداً عن المدينة ، لم يجيء من الشباب والذين لم يشهدوا بـدراً فحسب ، بل أسهم معهم في ذلك عدد من كبار المسلمين ، الأمر الذي يفسر لنا استجابة الرسول ﷺ لوجهة النظر هذه ، وعدم تردده في قبولها اعتماداً على ثقته الكبيرة بهذا العدد الكبير من اتباعه الراغبين في الخروج .

وخوفاً من أن يطول النقاش ، وتتعرض وحدة الصف المسلم للخطر ، وتلبية لنداء الشباب المتحمسين للقتال والشهادة ، أسوة باخوانهم في بدر أسرع الرسول ﷺ فدخل بيته ولبس درعه وحمل سلاحه ، ومـا أن رآه المسلمون الذين الحوا بالخروج حتى ندموا وقالوا :

استكرهنا الرسول ﷺ ولم يكن لنا ذلك ، وعرضوا عليه أن يعود إلى رأيه الأول ، إلا أنه أجابهم « ما كان لنبي اذا لبس لأمته ان يضعها حتى يقاتل ، فانظروا ما أمرتكم به فافعلوه ، فلكم النصر ما صبرتم » . ومن ثم غادر المدينة على رأس ألف مقاتل ، بعد أن وضع نساءها وصبيانها في الحصون والآطام حتى اذا قطعوا شوطاً من الطريق إلى أحد انسحب ابن أبي بثلث الناس وقـال مبرراً ذلك : اطاعهم وعصاني ، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟ فتبعهم

---

(٣٠) الواقدي ١٩٩/١ ـــ ٢٠٠ و ٢١٠/١ ـــ ٢١٣ ، ٢٣٣ وانظر عن بطولات أحد بالتفصيل : الطبـري ٥٠٣/٢ ، ٥٠٥ ـــ ٥٠٦ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢ ـــ ٥٣٣ ، ٥٣٤ ـــ ٥٣٥ .

عبدالله بن عمرو بن حرام يحثهم على الرجوع لاخوانهم ، فلم يستجيبوا . وكان الانصار قد عرضوا على الرسول ﷺ أن يستعين باليهود فرفض (٣١) .

***

عسكر الرسول ﷺ بأصحابه السبعمائة قريباً من أحد جاعلا ظهورهم إليه وسوى صفوف المسلمين ، وطلب منهم ان لا يقاتلوا حتى يأمرهم بذلك واختار خمسين رجلاً وضعهم على الجبل وأمر عليهم عبدالله بن جبير وقال له انضح الخيل عنا بالنبال لا يأتونا من خلفنا ، ان كانت لنا أو علينا ، فاثبت لا نؤتين من قبلك . ولبس ﷺ درعين زيادة في الحيطة ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير . أما قريش فعبأت رجالها بمواجهة المسلمين وقسمت فرسانها الذين بلغوا مئتي رجل إلى قسمين ، أحدهما في الميمنة بقيادة خالد بن الوليد والآخر في الميسرة بقيادة عكرمة بن ابي جهل ، وسُلم اللواء إلى بني عبد الدار . وراح أبو سفيان يحرضهم على القتال ... فقالوا : ستعلم غداً اذا التقينا كيف نصنع (٣٢) .

وما أن التقى الطرفان (السبت منتصف شوال) ودنا بعضهم من بعض حتى راحت هند بنت عتبة والنسوة يحرضن الرجال ويضربن الدفوف وينشدن الاراجيز الحماسية للتحريض على القتال .

ورفع المسلمون شعارهم : أمت أمت . وراحوا يتنادون به ليعرف بعضهم بعضاً . وجرد رسول الله سيفه ونادى : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فسأله أبو دجانة : وما حقه يا رسول الله ؟ أجابه : أن تضرب به العدو حتى ينحني فقال أبو دجانة : أنا آخذه بحقه يا رسول الله . واستلم السيف ، وعصب رأسه بعصابة حمراء كعادته ، واندفع إلى قلب المعركة لا يعترضه أحد من المشركين

---

(٣١) ابن هشام ص ١٧٣ — ١٧٦ الطبري ٤٩٩/٢ — ٥٠٤ ابن سعد ٢٦/١/٢ — ٢٧ الواقدي ٢٠٠/١ — ٢١٩ المسعودي : التنبيه ص ٢١١ اليعقوبي : تاريخ ٣٨/٢ — ٣٩ البلاذري : انساب ٣١٢/١ — ٣١٥ .

(٣٢) ابن هشام ص ١٧٦ — ١٧٧ الطبري ٥٠٧/٢ ، ٥١٢ ابن سعد ٢٧/١/٢ — ٢٨ الواقدي ٢١٩/١ — ٢٢٣ البلاذري : انساب ٣١٦/١ — ٣١٧ .

إلا قتله . وراح حمزة يقتطف رؤوس القرشيين واحداً واحداً ويحدث في صفوفهم خللاً واضطراباً ، وهو ينهدّ عليهم يميناً وشمالاً ، لولا أن كمن له وحشي « غلام جبير بن مطعم » الذي يجيد الاصابة بحربته الحبشية ، والذي كان قد وُعِدَ من قبل سيده ، أن ينال حريته اذا ما تمكن من قتل حمزة . ويحدثنا وحشي كيف قضى على المملاق « ... وهززت حربتي حتى اذا رضيت عنها ، دفعتها عليه فوقعت في ثلته حتى خرجت من بين رجليه . فأقبل نحوي ، فغلب فوقع ، وأمهلته حتى اذا مات جئت ، وأخذت حربتي ، ثم تنحيت الى العسكر ، ولم تكن لي بشيء حاجة غيره ... »[٣٣] .

استمرت المعركة بين المعسكرين غير المتكافئين ، الا أن حرارة الإيمان والرغبة العميقة في الشهادة مكنت القلة أن تواصل القتال وتقتل من المشركين أضعاف قتلاها ، وتحرز انتصاراً تدريجياً . شد الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود على المشركين فهزماهم . وحمل النبي ﷺ وأصحابه فهزموا أبا سفيان فلما رأى ذلك خالد بن الوليد حمل على المسلمين فرمته الرماة فتراجع واختفى ... وأعاد المحاولة مرة اخرى ونبال الرماة تنهال على أصحابه فتقتل منهم من تقتل وتضطرهم الى الانسحاب[٣٤] .

وقاتل مصعب بن عمير دون الرسول ﷺ حتى قتل على يد ابن قميئة الليثي الذي ظنه الرسول ﷺ فتسلم اللواء علي رضي الله عنه بأمر من الرسول وراح المسلمون يجالدون أعداءهم حتى أنزل الله نصره عليهم وصدقهم وعده ، فراحوا يستأصلونهم بالسيوف حتى كشفوهم عن مواقعهم . وكانت الهزيمة لا شك فيها[٣٥] .

---

(٣٣) ابن هشام ص ١٧٧ — ١٧٩ الطبري ٥١٦/٢ — ٥١٧ الواقدي ٢٢٣/١ — ٢٢٨ وانظر بالتفصيل البخاري : التجريد ٨١/٢ — ٨٢ والواقدي (كذلك) ٢٨٥/١ — ٢٩٠ .

(٣٤) الطبري ٥١٠/٢ الواقدي ٢٢٥/١/٢٢٩ .

(٣٥) ابن هشام ص ١٧٩ — ١٨١ الطبري ٥٠٧/٢ — ٥١٠ ، ٥١٣ ابن سعد ٢٨/١/٢ — ٢٩ الواقدي ٢٢٩/١ —٢٣١ البلاذري : انساب ٣١٧/١ — ٣١٨ خليفة بن خياط ٢٧/١ — ٢٨ .

إلا ان لحظة من لحظات الضعف البشري ساقت الرماة الذين كانوا على جبل أُحد إلى نسيان أوامر النبي ﷺ ومغادرة مواقعهم لمشاركة اخوانهم في مطاردة المشركين وجمع الغنائم. فنادى عبد الله بن جبير : أما علمتم ما عهد الرسول ﷺ اليكم ؟ فلم يلتفتوا اليه ، وقالت طائفة أخرى من الرماة : بل نطيع الرسول ﷺ فنثبت في مكاننا . وبقي ابن جبير في عشرة من أصحابه أمرهم بالانتشار بالجبل لئلا يتيحوا ثغرة للعدو واستقبلوا الشمس فانقض خالد عليهم يتبعه عكرمة ،وقام بحركة التفاف من وراء الجبل[٣٦] فجرح وقتل الرماة الذين ثبتوا في أماكنهم ،وراح عبد الله بن جبير يقاتلهم بما تبقى معه من نبال حتى فنيت ،ثم طاعن بالرمح حتى انكسر فكسر جفن سيفه وراح يقاتلهم حتى قتل[٣٧] ،وخرجت أمعاؤه من ضربات الرماح[٣٨] ، ثم انقض خالد بخيالته على ظهور المسلمين يعمل فيهم قتلاً وجرحاً . وصرخ صارخ أن محمداً قد قتل . فلشلت المسلمون تحت وقع المباغتة المميتة وما أن رأى المشركون المنهزمون ما فعل خالد ، حتى عادوا ثانية إلى ساحة القتال ، واوقعوا المسلمين في شقي الرحى ، وراحوا يحصدونهم حصداً[٣٩] ولم يفقد الرسول ﷺ رباطة جأشه ، وقدرته على القيادة والتخطيط للخروج من المحنة القاسية التي كادت تأتي على أصحابه ، ودعوته ، وتعرض مصير ست عشرة سنة من الجهد والعذاب للضياع . . فرأى أن يتخذ من مكان قيادته مركزاً يتجمع المسلمون فيه ثانية كي لا يتبعثروا وينفرد المشركون بهم ويحيلوا نصرهم إلى عملية إبادة شاملة . فاتجه صوب الشعب يصحبه أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير وجماعة من المسلمين بلغوا ثلاثين رجلاً ، بينما كان الآخرون قد تشتتوا في اطراف الميدان ، وعاد بعضهم إلى المدينة . ورأت طائفة أخرى أن يبعثوا إلى عبد الله بن أُبي كي يطلب الأمان لهم من أبي سفيان وقالوا : يا قوم ، ان

---

(٣٦) الواقدي ٢٨٤/١ البلاذري : انساب ٣١٨/١ — ٣١٩ .
(٣٧) الواقدي ٢٣٢/١ .
(٣٨) الواقدي ٢٨٤/١ .
(٣٩) ابن هشام ص ١٨١ الطبري ٥٠٩/٢ — ٥١٠ ابن سعد ٢٩/١/٢ الواقدي ٢٢٩/١ — ٢٣٣ .

محمداً قد قتـل ، فارجعوا إلى قومكم قبـل أن يأتوكم فيقتلوكم ، فاعترض انس بن النضر : يا قوم إن كان محمد قد قتل، فان رب محمد لم يقتل فقاتلوا ما قاتل عليه محمد ، اللهم اني اعتذر اليك مما يقول هؤلاء ، وابرأ اليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل .

وراح الرسول ﷺ يقاتل ، حتى صارت قوسه شظايا ، ويقاتل معه أصحابه المحيطون به ، قتالاً بطولياً مريراً ، تساقط منهم خلاله الكثير وهم ينافحون عن نبيهم ودعوتهم ، وقف ستة رجال من الأنصار، يدافعون عنه ﷺ ويقتلون دونه وكان آخرهم رجـل يسمى زياد بن السكن ، أصابه جرح مميت فنادى الرسول ﷺ ادنوه مني فأدنوه منه فوسده قدمه وبه أربعة عشر جرحاً ، فمات هناك . ورمى سعد بن أبي وقـاص ، دون الرسول ﷺ والرسول يناوله النبل ويقول: فداك أبي وأمي . وترّس أبو دجانه بنفسه دون الرسول ﷺ يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه حتى كثر فيه النبـــل، وخلص بعض المشركين إلى الرسول ﷺ يعتزمون قتله ، وانهالت الحجارة عليه ... فاصيبت رباعيتـه ، وجرح وجهه وكلمت شفته، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، فجعل الدم يسيل على وجهه وجعل الرسول ﷺ يمسح الدم ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟... وما لبث أن أدركه أبي ابن خلف وهو يقول : أي محمد لا نجوت إن نجوتَ ! فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال : دعوه ، وتناول حربته واستقبل بهـــا غريمه وقذفه بها فاستقرت في عنقه فسقط عن فرسه يتلوى ومات في عودته إلى مكة[٤٠] وأقبل الحباب بن المنذر يصيح يا آل سلمى فأقبلوا كتلة واحدة وهم يهتفون لبيك داعي الله لبيك، وترتفع حناجرهم بشعار المسلمين : أمت أمت [٤١] وقاتل كعب

---

(٤٠) ابن هشام ص ١٨١ — ١٨٤ الطبري : تاريخ ٥١٤/٢ — ٥١٩ ابن سعد ٢٩/١/٢ الواقـدي ٢٣٩/١ — ٢٦٢ البلاذري : انساب ٣١٨/١ — ٣٢١ .

(٤١) الواقـدي ٢٣٤/١ .

ابن مالك قتالاً شديداً حتى جرح سبعة عشر جرحاً (٤٢). ونثر أبو طلحة كنانته بين يدي رسول الله ﷺ، وكان رامياً، وجعل يصيح: يا رسول الله نفسي دون نفسك فلم يزل يرمي بها سهماً سهماً حتى فنيت نبله وهو يقول لنبيه: نحري دون نحرك جعلني الله فداك (٤٣). وانقض سعد بن أبي وقاص باحثاً عن أخيه الذي كسر رباعية الرسول ﷺ ليقتله ولكنه أفلت منه (٤٤). وقاتل طلحة ابن عبيد الله عن النبي قتالاً شديداً، وأصابه سهم شلّ اصبعه حتى أن سعد ابن أبي وقاص قال عنه: يرحمه الله إنه كان أعظمنا غناءً عن رسول الله ﷺ يوم أحد، لزم النبي وكنا نتفرق عنه ونؤوب اليه، لقد رأيته يدور حول النبي ﷺ يترس بنفسه!! وقال عنه الرسول ﷺ: من أحب أن ينظر إلى رجل يمشي في الدنيا وهو من أهل الجنة فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله (٤٥)، وقد تلقى وهو يقاتل المشركين، ضربة قاسية على رأسه، من أحد المشركين، فنزف منه الدم، وأغمي عليه، فقال الرسول لأبي بكر: عليك بابن عمك فجاءه وراح ينضح الماء على وجهه، ولما أفاق سأل: ما فعل الرسول ﷺ؟ أجابه أبو بكر: خيراً، هو أرسلني. فرد طلحة: الحمد لله، كل مصيبة بعده جلل(٤٦).

وأقبل وهب بن قابوس المزني، وابن أخيه الحارث بن عقبة، ومعهما غنم لهما فدخلا المدينة، فلقياها قد خلَتْ من الناس! فقالا أين الناس؟ فقيل بأحد، وخبرا الخبر، فخرجا مقاتلين حتى قتلا (٤٧). ومرّ أحد المقاتلين على خارجة ابن زيد وبه ثلاثة عشر جرحاً كلها قد خلَصَ إلى مقتل فقال: أما علمت أن

---

(٤٢) الواقدي ٢٣٦/١.

(٤٣) الواقدي ٢٤٣/١.

(٤٤) الواقدي ٢٤٥/١.

(٤٥) الواقدي ٢٥٤/١ - ٢٥٥.

(٤٦) الواقدي ٢٥٥/١ وانظر عن البطولات كذلك، المصدر نفسه ٢٥٦/١ - ٢٦٢، ٢٧٤ - ٢٨٤، ٣٩١.

وعن بطولات النساء انظر: المصدر نفسه ٢٦٤/١ - ٢٧٤، ٢٩٢ وانظر هامش (٣٠) وما يليه.

(٤٧) البلاذري: انساب ٣٢٦/١.

محمداً قد قتل ؟ قال خارجة : إن قتل محمد فان الله حي لا يموت ، فقاتل عن دينك ، فقد بَلّغَ محمد رسالة ربه [٤٨] . وقاتلت نسيبة بنت كعب مع زوجها، وولديها ، وأبلت بلاءً حسناً فجرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح وضربة بسيف ، ودافعت عن الرسول ﷺ إزاء محاولات قتله من قبل المشركين دفاعاً مستميتاً . ولما جرح أحد ابنيها ، وراح الدم ينزف منه بغزارة ، من عضده اليسرى،سمت أمه اليه وربطت جرحه بعصابة كانت قد أعدتها لمداواة الجرحى ثم قالت له انهض يا بني فضارب القوم ، والرسول ﷺ يناديها : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟ ويلتفت إلى أصحابه قائلاً : ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني ، فسألته نسيبة : ادع الله أن نرافقك في الجنة قال : اللهم اجعلهم رفاقي في الجنة . فقالت : ما أبالي ما أصابني من الدنيا[٤٩] . وخرجت السميراء بنت قيس ، وقد أصيب إبنـاها . فلما نعيا لها قالت : ما فعل الرسول ﷺ ؟ قالوا خيراً ، هو بحمد الله على مـا تحبين . قالت أرونيه أنظر اليه ، فأشاروا لهـا اليه فقالت : كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل[٥٠] . ولقيت أُم أيمن جماعة من المنهزمين ، فجعلت تنثر التراب في وجوههم وتقول : هاك المغزل فاغزل به[٥١] .

***

تمكن الرسول ﷺ وأصحابه من الصمود لهجمات المشركين وعرف المسلمون الذين تشتتوا في ميدان المعركة ، في أعقاب التفاف خالد ، وانتشار شائعة وفاة الرسول ﷺ ، عرفوا أن رسولهم لم يمت فتجمعوا حوله . وطلب ﷺ منهم أن يتراجعوا صوب جبل أُحد وأن يحصبوا المشركين بالحجارة ، وأن لا يسمحوا لهم بأن يلتفوا عليهم من فوقهم . وسعت فرقة من القرشيين إلى الالتفاف حول

---

(٤٨) المصدر السابـق ٣٢٦/١ .
(٤٩) الواقـدي ٢٦٨/١ — ٢٧٣ .
(٥٠) الواقـدي ٢٩٢/١ .
(٥١) البلاذري : انساب ٣٢٦/١ .

المسلمين كرة أخرى والانقضاض عليهم من جبل أحد فتصدى لهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من المهاجرين حتى اجلوهم عن الجبـــل . ونهض ﷺ إلى صخرة أحد ليعلوها فلم يستطع لشدة اعيائه وثقل دروعه فجلس تحته طلحة ابن عبيد الله فنهض حتى استوى عليها . وأدرك المشركون أن دون ابادة المسلمين وتفتيتهم المستحيل وكانوا قد أصابهم التعب والجراح فآثروا الانسحاب مكتفين بهذا القدر من النصر على المسلمين وهو قدر كما اعتقدوا ليس بالقليل . واشرف أبو سفيان على مرتفع عال ونادى بأعلى صوته : إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر اعل هبل ! فقال الرسول ﷺ لعمر : قم فأجبه وقل : الله أعلى وأجـــل ، لاسواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار . فطلب أبو سفيان من عمر ان يقترب وقال له : انشدك الله يا عمر اقتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وانـه ليسمع كلامك الآن ، فانصرف أبو سفيان ومن معه وهو ينادي ، ان موعدكم بدر للعامل القابل فقال ﷺ لعمر قل : نعم هو بيننا وبينكم موعد [٥٢] !! وتوقف القتال ، وقـد خسر المسلمون بضعة وسبعين قتيلاً ، وقيل خمسة وستين ، أما المشركون فلم يزد عدد قتلاهم على ثلاثة وعشرين رجلاً [٥٣] ولم تغب عن ذهنه ﷺ وهو يعاني التعب والسهر والجراح ، ان المشركين ، ربمـــا فكروا بهجوم حاسم على المدينة فقطعوا الطريق على المسلمين في أحـــد وعرضوهم لمصير أشد هلكة وخطراً من المعركة نفسها ، فطلب من علي رضي الله عنه أن يخرج في أعقاب القـــوم فينظر ماذا يصنعون ، وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الابـل فانهم يريدون مكة ، وان ركبوا الخيل وساقوا الابل فانهم يريدون المدينـة . واقسم الرسول ﷺ (والذي نفسي بيده لئن أرادوها لاسيرن إليهم ثم لاناجزنهم فيها) ، لكن علياً ما لبث أن عاد ، ليخبره بأن المشركين امتطوا الابل ويمموا

---

(٥٢) ابن هشام ص ١٨٦ — ١٨٧ الطبري ٥٢١/٢ — ٥٢٢ ، ٥٢٦ — ٥٢٧ ابن سعد ١/٢ /٣٣ الواقدي ٢٩٤/١ — ٢٩٨ ألبلاذري : انساب ٣٢٧/١ .

(٥٣) ابن سعد ٢٩/١/٢ — ٣٠ ، البلاذري : انساب ٣٢٨/١ — ٣٣٥ خليفة بن خياط : تاريـخ ٣٤/١ .

وجوههم شطر مكة [٥٤] . ومن أجل مزيد من ضمان عـــدم عودة المشركين لمهاجمة المدينة ، انتدب ﷺ سبعين رجلاً من أصحابه لمتابعة المشركين والتأكد من عدم اعتزامهم الرجوع [٥٥] .

لقد أجمع المؤرخون عـلى اعتبار نتيجة أحد نصراً للمشركين على المسلمين ، لكن الحقائق العسكرية لا تتفق مع ما أجمع عليه هؤلاء ، لقـــد كان بامكان المشركين القضاء على قوات المسلمين في معركة أحد، بعد أن استطاعوا احاطتهم من كافة الجوانب ، بقوات متفوقة عليهم تفوقاً ساحقاً ، ومـــع ذلك استطاع الرسول ﷺ أن يشق طريقه بين القوات المحيطة به ويخلص تسعة أعشار قواته من فناء أكيد .

إن فشل المشركين في القضاء على قوات المسلمين بعد أن احاطوهم بقواتهـم المتفوقة يعتبر اندحاراً لهم . وأن نجاح المسلمين في الخروج من تطويق المشركين والتخلص منه بخسائر عشرة بالمائة بقواتهم القليلة يعتبر نصراً لهم. وبالاضافة إلى نجاح المسلمين في التخلص من الفناء التام في أحد فقد نجحوا في معرفة المنافقين في صفوفهم قبل المعركة وبعدها ، مما أتاح لهم القيام بالتطهير التام في صفوفهم بعد أحدعلى هدى وبصيرة. وبذلك تظهرالفائدة العظيمة لغزوة أحد للمسلمين . إن نتيجة أحد نصر تعبوي [٥٦] للمشركين على المسلمين ولكنه فشل سوقي [٥٧] للمشركين . ولا يعد النصر التعبوي شيئاً يذكر إلى جانب الفشل السوقي [٥٨] .

***

---

(٥٤) ابن هشام ص ١٨٧ الطبري ٥٢٧/٢ — ٥٢٨ الواقدي ٢٩٨/١ — ٢٩٩ .

(٥٥) البخاري : التجريد ٨٢/٢ .

(٥٦) التعبية : هي الاعمال العسكرية في المعركـــة : خطاب : الرسول القائد ، هامش ١ ص ١٢٥ .

(٥٧) السوق : هو الاستفادة من المعارك للحصول علـــى الغرض من الحرب . ومن ذلك يتضح ان السوق يعني نتائج الحرب كلها بينما تعني التعبية نتائج معركة محلية واحدة : المرجع السابق ، هامش ١ ص ١٢٥ .

(٥٨) شيت خطاب : الرسول القائد ص ١٢٤ — ١٢٥ .

فزع الناس لقتلاهم فقال الرسول ﷺ : من ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء أم في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لك يارسول الله ما فعل سعد، فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق فقال له : إن الرسول ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأموات انت أم في الأحياء؟ قال : أنا في الأموات فأبلغ الرسول ﷺ عني السلام وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته. وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيكم وفيكم عين تطرف[٥٩].

وخرج ﷺ يبحث عن جسد حمزة فوجده ببطن الوادي ، قد بقرت بطنه فقال ﷺ : لو لا أن تحزن صفية ، ويكون سنّة من بعدي، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم ! !فلما رأى المسلمون حزن الرسول ﷺ وغيظه قالوا : والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب. الا إن الآيات القرآنية تنزلت بالقيم الثابتة التي تتجاوز مواقف الانفعال والآلام (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) فعفا الرسول ﷺ ونهى عن المثلة . ثم أمر بحمزة فسجى ببردة ثم صلى عليه ثم أمر بالقتلى يوضعون إلى جانب حمزة واحداً واحداً ، فصلى عليهم وعليه حتى أنه صلى عليه اثنتين وسبعين صلاة هي عدد القتلى من المسلمين وآثر ﷺ مصعباً بن عمير وهو مقتول ببردة له ، وقال : « رحمك الله ، لقد رأيتك بمكة وما بها أرق خلّة ولا أحسن حلّة منك ، ثم أنت في أشعث بردة »[٦٠] . وجاءت صفية بنت عبد المطلب وقد سمعت بأن أخاها قد مثل به فقالت : ما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبنّ ولأصبرنّ إن شاء الله !. وكان بعض المسلمين قد حملوا قتلاهم ليدفنوهم في المدينة فنهاهم ﷺ قائلاً : « ادفنوهم حيث صرعوا » .

---

(٥٩) ابن هشام ص ١٨٧ — ١٨٨ الطبري ٥٢٨/٢ الواقدي ٢٩٢/١ — ٢٩٣ .
(٦٠) البلاذري : انساب ٣٣٦/١ .

ثم وقف عليهم وقال : «أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا ويبعثه الله يوم القيامة ، يدمى جرحه ، اللون لون دم والريح ريح مسك». ثم قفل ﷺ وأصحابه عائدين إلى المدينة في نفس اليوم السبت الخامس عشر من شوال [61] .

***

لم يلبث الرسول ﷺ في اليوم التالي أن قام بمناورة عسكرية استهدفت تحقيق أهداف عدة منها ، إرهاب العدو ، مشركين وأعراباً ، منافقين ويهوداً ، وإشعارهم أن المسلمين لا زالوا على قوتهم ومقدرتهم القتالية ، وأن هزيمة أحُد لم توهنهم عن أهدافهم ، ومنها رفع معنويات المسلمين وإزالة الآثار النفسية المؤلمة ، التي خلفتها معركة أحُد ، والتي كان بإمكانها أن تحفر في نفوسهم خنادق وحفراً لا تمحوها الأيام . فنادى مناديه في السادس عشر من شوال أن يتهيأ الناس لطلب العدو وأن لا يخرج معهم أحد لم يشترك في معركة أحُد ، يوم أمس ، وانطلق ﷺ وأصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وكان المشركون قد بلغوا الروحاء على بعد ليلتين من المدينة ، وعسكروا هناك ، واجمعوا أمرهم على العودة ثانية لقتال المسلمين بعد أن أدركوا أنهم لم يستأصلوا شأفتهم ، لكن رجلاً من خزاعة ، حلفاء الرسول ﷺ مر بهم وأعلمهم أن محمداً يطلبهم على رأس قوة كبيرة من المسلمين تتحرق شوقاً لقتالهم ، انضم اليها حتى الذين لم يشهدوا أحدا ، فعدل المشركون عن رأيهم ، واستأنفوا طريق عودتهم إلى مكة ، إلا أن أبا سفيان رأى أن يستفز المسلمين ويرهبهم فدس اليهم من يخبرهم ، أن قريشاً عائدة لا ستئصالهم ، فما كان من الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . وأقام هناك ثلاثة أيام ، ثم قفل عائداً

---

(٦١) ابن هشام ص ١٨٨ — ١٩٠. الطبري ٢/٥٢٨ — ٥٢٩ ، ٥٣٢ الواقدي ١/٢٨٩ — ٢٩٠ ، ٣٠٩ — ٣١٧ .

وقد حقق الأهداف التي توخاها من مناورته تلك [٦٢] .

***

لقد جاءت هزيمة أحد تعليماً قيماً للمسلمين ، عبر دروب صراعهم المرير ضد الاعداء . وكأن إرادة الله شاءت ان يكبو المسلمون هذه الكبوة ، بعد سلسلة الانتصارات التي حققوها قبل بدر وبعدها، لأن الانتصار الدائم يعرض الجماعة لنوع من اليقين الأعمى والاتكالية السالبة ويحشر في صفوفهم الكثير الكثير من ضعاف الايمان وطالبي المغانم ، فلا بد من هزة عنيفة تنخـل المنتمين إلى إلى الدعوة وتسقط عنهم أولئك الذين لا يقدرون على الصمود ومجابهة الخطر وجهاً لوجه ، وممارسة الموت بايمان .

ولقد ظل القرآن الكريم ، الذي خصص الكثير من آياتـه في سورة آل عمران لهذه التجربة المرة ، ظل طيلة العصر المدني ، كما كان شأنه في العصر المكي يعلم المسلمين بالتجارب والأحداث ويبني حركتهم بالهزائم والانتصارات وتتنزل آياته مفرّقة وعلى مُكث ، واحدة واحدة ، ومجموعة مجموعة ، اثر كل حدث يمارسه المسلمون ، وعقب كل تجربة يخوضونها ... تتنزل لكي تمتزج مع حيوية التجربة المعاشة ، وواقعيتها وثقلها ، لكي ما تلبث هذه الآيات ان تغدو جزءاً من كيان المسلم، متمثلاً في لحمه ودمه وعصبه ووجدانه، إنه الارتباط الشرطي الذي أشار اليه « علم النفس » ، إن القيم والتعاليم إذا ارتبطت بحدث خطير له في النفوس وقع كبير سرعان ما تستقر في أعماق النفوس والقلوب والعقول ، وتبقى هنالك حتى النهاية ، تؤتي ثمارها نضجاً للتجربة وتقويماً للحركة واستقامة على الطريق .

---

(٦٢) ابن هشام ص ١٩١ — ١٩٣ الطبـري ٥٣٤/٢ — ٥٣٦ ابن سعد ٣٤/١/٢ — ٣٥ الواقدي ٣٣٤/١ — ٣٤٠. خليفة بن خياط : تاريخ ٣٥/١ المسعودي : تنبيه ص ٢١١ البلاذري : انساب٣٣٨/١ — ٣٣٩ ابن حزم : جوامع ص ١٧٥ ابن الاثير : الكامـل ١٦٤/٢ — ١٦٥ ابن كثير : البداية ٤٨/٤ — ٥٢ . وعن الآيات المتعلقة بمعركة احد انظر : آل عمران ١٢١ —١٢٨ ، ١٣٧ — ١٦١ ، ١٦٤ — ١٧٦ .

ولا بأس هنا أن نختار فقرات من (فقه السيرة) يعقب فيها محمد الغزالي على موقف القرآن الكريم اثر معركة (أحد)من الهزيمة التي كان لا بد منها في علم الله وقدرته لكي يتعلم المسلمون من نارها الممحصة وعن طريق ما يرتبط بها من آيات بينات ملامح الطريق و (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ، حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب) فلقد « ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في أحد على عكس ما نزل في بدر من آيات ، ولا غرو فحساب المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر . في المرة الأولى قال (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم) .

أما في أحد فقال (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) .

حَسْبُ المخطئين ما لحقهم من أوضار الهزيمة ، وفي القصاص العاجل درس يذكر المخطىء بسوء ما وقع فيه . وقد اتجهت الآيات إلى مزج العقاب الرقيق بالدرس النافع وتطمين النفوس المؤمنة ، حتى لا يتحول انكسارهم في الميدان إلى قنوط يُغِل قواهم ، وحسرة تشل انتاجهم (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) . ثم مضى الوحي يذكر المسلمين ما جهلوا من سنن الحياة ويذكرهم بما نسَوا من ذلك ، فيبين أن المؤمن مهما عظمت بالله صلته فلا ينبغي أن يغتر به أو يحسب الدنيا دانت له أو يظن أن قوانينها الثابتة طوع يديه ؟ كلا كلا فالحذر البالغ والعمل الدائم هما عدتا المسلم لبلوغ أهدافه المرسومة ، ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له ، وان شيئاً منها لم يكن عليه ، وأن أمجاد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهظة ، فقد سار في طريق الفشل الذريع (ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس) ... (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟) . وأولو الألباب يستحيون

أن يطلبوا السلعة الغالية بالثمن التافه ، وهم يبدون استعدادهم للتضحية بأنفسهم لقاء ما ينشدون ، بيـد أن الاستعداد أيام الأمن يجب أن لا يزول أيام الروع . ان الانسـاب في عافيته قد يتصور الأمور سهلة مبسطة ، وقد يتأدى به ذلك إلى المجازفة والخداع ، فليحذر المؤمن هـذا الموقف وليستمع إلى تأنيب الله لمن تمنوا الموت ثم حادوا عنه لما جاء (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقـد رأيتموه وأنتم تنظرون) ثم عاتب الله عز وجل من اسقط في أيديهم وانكسرت همتهم لما أشيع أن الرسول ﷺ مات . ما كذلك يسلك أصحاب العقائد ، انهم اتباع مبادئ لا اتبـاع أشخاص ، ولو افترض أن الرسول ﷺ قتل وهو ينافح عن دين الله فحق على أصحابه أن يثبتوا في مستنقع الموت ، وأن يردوا المصير نفسه الذي ورده رائدهم ، لا أن ينهاروا ويتخاذلوا ... ان عمل محمد ﷺ ينحصر في اضاءة الجوانب المعتمة في فكر الانسان وضميره ، فاذا أدى رسالته ومضى فهل يسوغ للمستنير أن يعود إلى ظلماته فلا يخرج منهـا ؟ لقد جمع ﷺ الناس حوله على انه عبدالله ورسوله والذين ارتبطوا به عرفوه إماماً لهم في الحق وصلة لهم بالله ، فإذا مات عبد الله ظلت الصلة الكبرى بالحي الذي لا يموت باقية نامية (وما محمد إلا رسول قـد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) .. ولعل ما ترتب على عصيان الأوامر في هـــذه الموقعة درس عميق يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة والجندية ... فاحسان الطاعـة كإحسان القيادة . فكما أن اصدار الأوامر يحتاج إلى حكمة ، فان انفاذهـــا يحتاج إلى كبح وكبت ، ولكن عقبى الطاعة في هذه الشؤون تعود على الجماعـة بالخير الجزيل . لذلك لما دهش المسلمون للكارثة التي قلبت عليهم الأمور ، بين الله انهم هم مصدرها ، فما أخلفهم موعـداً ولا ظلمهم حقاً (أو لما اصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا ؟ قل هو من عنـد أنفسكم ان الله على كل شيء قدير) ... »[٦٣] .

---

(٦٣) انظر بالتفصيل : محمد الغزالي : فقه السيرة ص ٢٨٠ — ٢٨٩ والمؤلف : في النقد الاسلامي المعاصر ص ١٣٦ — ١٣٩ ، ١٣٩ — ١٤١ .

ولذلك أيضاً يحدثنا مجاهد بأن الملائكة حضرت معركة أحد لكنها لم تقاتل لما كان من المسلمين ، كما يحدثنا عبد الحميد بن سهيل بأن رسول الله ﷺ لم يُمدّ يوم أُحد بملك واحــد[٦٤] ، هذا بينما كان مقاتلو بدر قد تلقوا ساعة الصمود والصبر معونة سماوية قدرت بآلاف من الملائكة مردفين! كما تلقى الرجال الذين قاوموا وراء الخندق ، فيما بعد ، عشرين ليلة ، باذلين كل جهدهم وامكاناتهم ، معونة الهية أخرى جاءت على شكل ريح عاتية لم تدع للمعسكر الوثني ، بعد التصدع النفسي الذي أصابــه ، فرصة للتجمع والتفكير والاستقرار ، فكان الانسحاب ... ذلك هو منطق العون الالهي الذي علمنا إياه الاسلام منذ تجربة الهجرة وما قبلها .. ان مدد الله لا يتنزل إلا على اولئك الذين استكملوا الأسباب البشرية جميعاً ... حركة وعقلا وارادة وتصميا . وبدون ذلك لن تتنزل معونة الله حتى لو حبسوا أنفسهم في المساجد ليلاً ونهاراً .

***

وجدت الوثنية العربيــة فرصتها للانتقام من المسلمين في أعقاب هزيمتهم في أُحد وراحت توجه اليهم الضربات الغادرة كلما تمكنت منها ، متجاوزة في ذلك اعرافها وقيمها الجاهلية التي درجت عليها مئات السنين .

فبعد وقت قصير من عودة الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أُحد قدم عليه وفد من قبيلتي عضل والقارة في صفر ، وقالوا : يا رسول الله ان فينا اسلامــاً فابعث معنا نفراً من اصحابك يفقهوننــــا في الدين ويقرئووننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام . فبعث الرسول ﷺ معهم سبعة من أصحابه ... مرثد بن أبي مرثد ، خالد بن أبي البكير ، متعب بن عبيد ، عاصم بن ثابت ، خبيب بن عدي ، زيد ابن الدثنة ، وعبد الله بن طارق ، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد[٦٥] فانطلق الدعاة يجتازون الصحراء حتى اذا بلغوا ماء الرجيع بين عسفان ومكة ، حيث تقطن بنو هذيل ، غدر بهم اعراب عضل والقارة ، فاستصرخوا عليهم هذيلاً ،

---

(٦٤) البلاذري : انساب ٣٢٢/١ .

(٦٥) يجعلهم ابن سعد عشرة (٣٩/١/٢) .

التي كان زعيمها سفيان بن خالد قد قتل على أيدي المسلمين في أعقاب أحد حيث حشد اتباعه للهجوم على المدينة ، فلم يرع الدعاة إلا والرجال بأيديهم السيوف يحيطون بهم ، فشهروا أسيافهم ليقاتلوهم فقال لهم رجال بني هذيل : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكن نريد أن نصيب بكم مالاً من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم . فأما خالد ومرثد وعاصم ومعتب فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً ، وانطلقوا يقاتلون وعاصم ينشد :

....   الموت حق والحياة باطل
وكل ما حمّ الإله نازل   بالمرء والمرء اليه آئل

حتى قتلوا جميعاً . وأما إخوانهم الثلاث ، فقد أسرتهم هذيل وحملتهم إلى مكة لتبيعهم بها ، ومعنى هذا أنها تسلمهم لمصارعهم ، حتى إذا بلغوا الظهران تمكن عبد الله بن طارق من انتزاع يده من الحبل الذي شدت به ، وإشهار سيفه ، فانهال عليه آسروه ضرباً بالحجارة حتى قتل .

واقتيد خبيب وزيد إلى مكة حيث استبدلا هناك بأسيرين كانا في مكة فأما زيد فقد ابتاعه صفوان بن أمية ليقتله ثأراً لأبيه ، أمية بن خلف ، وبعث به إلى مكان خارج مكة ليلاقي مصيره ، واجتمع حوله رهط من قريش وسأله أبو سفيان حين قُدِمَ ليقتل : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وإني جالس في أهلي ! فقال أبو سفيان للملأ من حوله : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ! ثم قتل زيد رحمه الله (٦٦) .

وخرجوا بخبيب إلى نفس المكان ليصلبوه فسألهم أن يمنحوه فرصة يركع فيها ركعتين ، فركع ركعتين أتمها وأحسنها ، ثم أقبل على القوم فقال : أما

---

(٦٦) ابن هشام ص ١٩٤ — ١٩٦ الطبري ٥٣٨/٢ — ٥٤٢ ابن سعد ٣٩/١/٢ — ٤٠. الواقدي ٣٥٤/١ — ٣٦٣ خليفة بن خياط : تاريخ ٣٦/١ — ٣٧ ابن حزم : جوامع ص ١٧٦ — ١٧٨ المقدسي ٢٠٩/٤ — ٢١١ ابن كثير : البداية ٦٢/٤ — ٦٧ .

والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة. فكان خبيب أول من سنّ ركعتي القتل عند المسلمين. وعندما رفعوه على الخشبة وأوثقوه، رفع وجهه إلى السماء فقال: اللهم إنّا قد بلّغنا رسالة رسولك فبلّغه الغداة ما يصنع بنا ... اللهم احصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً! وصلبوه وهو ينشد:

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي ... وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع
وقد خيّروني الكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناي من غير مجزع
فوالله ما أرجو إذا مت مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي[٦٧]

***

وفي صفر من نفس العام، قدم ابو براء، عامر بن مالك، الملقب بملاعب الأسنة، على رسول الله في المدينة، فعرض عليه الرسول الاسلام، ودعاه إليه، فلم يسلم، ولم يبعد من الاسلام، وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك، إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، وعندما أعلمه الرسول ﷺ، انه يخشى عليهم أهل نجد، بعد أن أصيب أصحابه في ماء الرجيع، قال: أنا جار لهم فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك[٦٨]. وكان الرسول ﷺ يعرف يقيناً أن انتصار دعوته وانتشارها لا يتحقق، بغير تضحيات، وأن الانسياق وراء الحيطة والحذر في ميدان التضحية والفداء، لا يقود إلى النصر، وان عليه أن يختار في هذه اللحظات القلقة، الطريق الصعب

---

(٦٧) ابن هشام ص ١٩٧ – ١٩٩ الطبري: تاريخ ٥٤١/٢ الواقدي ٣٥٧/١ – ٣٦١ المسعودي: التنبيه ص ٢١٢ – ٢١٣ خليفة بن خياط ٣٦/١ – ٣٧.

(٦٨) ابن هشام ص ٢٠٠ الطبري ٥٤٥/٢ – ٥٤٦ ابن سعد ٣٦/١/٢. ويذكر الواقدي ٣٤٩/١ بان نبأ مأساة الرجيع وصل المدينة في نفس اليوم الذي وصل فيه نبأ الكارثة الاخرى في بئر معونة، الا ان تريث الرسول (ص) في الاستجابة لطلب ابي براء يوحي بان الرجيع سبقت حادثة بئر معونة رغم عدم امكان الجزم بذلك. وانظر خليفة بن خياط: تاريخ ٣٦/١ – ٣٩.

كي لا تقول العرب ان الرسول قد عجز عن الاستمرار في الطريق حتى النهاية ، أخافته مقاتل أصحابه ، هذا إلى أن الرسول ﷺ ، لم يبعث أصحابه هذه المرة لكي ينتحروا ، فهم الآن أكثر عدداً ، وفي جوار رجل وضمهم في جواره ، ولم يعرف عن العرب حتى تلك اللحظة ، انهم خرقوا قدسية الجوار ، ولا علم للرسول ﷺ بالغيب ، فلينطلق أصحابه على بركة الله .

سار الدعاة الاربعون بقيادة المنذر بن عمرو ، حتى نزلوا بئر معونه قريباً من ديار بني عامر ، وتقدم حرام بن ملحان ، بكتاب رسول الله ﷺ إلى زعيم القوم ، عامر بن الطفيل ، لكن عامراً ، ما أن نظر في الكتاب حتى عدا على حرام فضربه برمح في جنبه خرج من الشق الآخر ، وهو ينادي : فزت ورب الكعبة ! ثم استصرخ عليهم بني عامر فلم يجيبوه ، التزامـــاً بجوار أبي براء ، فاستصرخ بقبائل سليم المجاورة ، فأجابوه وأحاطوا بالدعاة وهم في رحالهم ، فهرعوا إلى سيوفهم ، وقاتلوا القوم قتالاً مريراً ، حتى حصدوا عن آخرهم ، إلا كعب بن زيد فقد انسحب جريحاً من المجزرة ، وتمكن من الوصول إلى المدينة حيث قتل شهيداً في الخندق(٦٩) .

وكان الدعاة قد تركوا في سرحهم اثنين من رفاقهم هما عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد الأنصاري ، فلم ينبههما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم حول المعسكر ، فأقبلا لينظرا فاذا اخوانهما يتضرجون بدمائهم ، ومن حولهم المغيرون عـــلى خيولهم ، فرأى عمرو أن يعود إلى المدينة ، ليخبر الرسول ﷺ بما حدث ، وأمـــا رفيقه فقد قال : ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، أحـــد أصدقائه ، وما كنت لأبقى حتى تخبرني عنه

---

(٦٩) ابن هشام ص ٢٠٠ — ٢٠١ الطبري ٥٤٦/٢ — ٥٤٧ ، ٥٤٩ — ٥٥٠ ابن سعد ٣٦/١/٢ — ٣٩ الواقدي ٣٤٦/١ — ٣٤٨ خليفة بن خياط : تاريخ ٣٨/١ — ٣٩ البلاذري : انساب ٣٧٥/١ اليعقوبي تاريخ ٦١/٢ المقدسي ٢١١/٤ — ٢١٢ ابن حزم : جوامع ص ١٧٨ — ١٨٠ ابن الاثير : الكامل ١٧١/٢ — ١٧٢ ابن كثير : البداية ٤/ ٧١ — ٧٤ .

الرجال ، ثم انقض على القوم ، حتى سقط ، متضرجا بدمائه[٧٠] .

وفي ذي القعدة من السنة الرابعة للهجرة ، حل الموعد الذي ضربه المسلمون مع أبي سفيان للقاء جديد في بدر ، فخرج الرسول ﷺ إلى هناك على رأس الف وخمسمائة من أصحابه ، وأقام ثمانية أيام ، ينتظر أبا سفيان ، الذي كان قد غادر مكة على رأس مقاتليها ، وعندما بلغ الظهران ، بدأت تتناوشه المخاوف من لقاء المسلمين ، وأخذ يفكر بالرجوع قائلا : يا معشر قريش ، انه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون اللبن ، وان عامكم هذا عام جدب ، واني راجع فارجعوا ، فقفلوا عائدين إلى مكة .

وعندما أيقن الرسول ﷺ ان أبا سفيان قد نكل عن الموعد ، عـــاد إلى المدينة ، وقد حقق نصراً معنوياً ضد قريش ، كما عزز مكانة المسلمين في الصحراء بعدما تعرضت له من تأرجح في أعقاب أُحد[٧١] .

وانطلق الرسول ﷺ في أعقاب ذلك صوب قبائل نجد رداً على مـــا لحق بدعاته في مآساتي ، الرجيع ، وبئر معونة ، فيما سمي « بغزوة ذات الرقاع » ، بسبب الحجارة التي أوهنت أقدامهم فشدوا عليها رقاعاً ، وربما لوجود جبـل هناك بهذا الاسم . إلا أن غطفان كبرى قبائل نجد جمعت للرسول جمعاً عظيماً ، وعندما تقارب الطرفان تخوف أحدهما الآخر ، ورأى الرسول ﷺ ان من المجازفة الاشتباك مع قوات تفوق المسلمين أضعافاً مضاعفة فقفل عائداً إلى المدينة[٧٢] .

---

(٧٠) ابن هشام ص ٢٠١ الطبري ٥٤٧/٢ الواقدي ٢٤٨/١ — ٣٥٢ اليعقوبي : تاريخ ٦١/٢ .

(٧١) ابن هشام ص ٢٠٩ — ٢١٠ الطبـري ٥٥٩/٢ — ٥٦١ ابن سعد ٤٢/١/٢ — ٤٣ الواقدي ٣٨٤/١ — ٣٩١ البلاذري : انساب ٣٣٩/١ — ٣٤٠ المسعودي : التنبيه ص ٢١٤ .

(٧٢) ابن هشام ص ٢٠٦ الطبري ٥٥٥/٢ — ٥٥٧ . ويذهب ابن سعد (٤٣/١/٢ — ٤٤) الى ان قبائل غطفان انسحبت من اماكنها ، وهربت الاعراب الى رؤوس الجبـــال وكذلك يؤكد البلاذري : انساب ٣٤٠/١ — ٣٤١ . وانظر الواقدي ٣٩٥/١ — ٤٠٢ والبخاري : التجريد ٨٣/٢ .

معركة الخندق

عندما بدأت الهزائم تحدق باليهود ، سيما بعد اجلاء بني النضير ، رأى هؤلاء أن يتحركوا بوجه السرعة لتوجيه ضربة قاصمة للدولة الاسلامية قبل أن يشتد ساعدها ويحدق خطرها بالوجود اليهودي في جزيرة العرب ... وأدركوا ان استثارة قريش وحدها ضد المسلمين أمر غير مضمون العواقب وان انفراد كل قوة وثنية في مهاجمة مواقع الدين الجديد سوف يمكن الإسلام من تصفيتها واحدة بعد الأخرى ، فلا بد إذاً من أن تتجمع القوى الوثنية كلها بزعامة قريش وتتحرك لاستئصال شأفة الإسلام ومن ورائها مكر اليهود وأموالهم ..

خرج خمسة من زعماء اليهود وهم سلام بن أبي الحقيق ، كنانة بن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب (من بني النضير) وأبو عمار وهوذا بن قيس (من بني وائل) وقدموا إلى مكة واتصلوا بقادة قريش ودعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم حتى نستأصله ! وجاءت هذه الدعوة في فترة كانت قريش تعاني فيها من حصار المسلمين الاقتصادي وتزداد يقيناً بأن معركة أُحد لم تفعل شيئاً فاستجابت للعرض اليهودي بينما انطلق النفر الخمسة إلى غطفان ودعوهم إلى حرب المسلمين لقاء إعطائهم تمر خيبر مدة سنة ، وأخبروهم بأنهم سيكونون معهم وان

قريشاً قد اعدة العدة لهذا الأمر ، وكذلك فعل اليهود مع عدد من القبائل اليهودية الأخرى[٧٣] .

انطلقت الأحزاب الوثنية البالغ عددها عشرة آلاف مقاتل[٧٤] صوب المدينة .. قريش وأحلافها من بني كنانة وأهل تهامة والأحابيش يقودها أبو سفيان بن حرب ، وغطفان يقودها عيينة بن حصن الفزاري ، وبنو مرة يقودها الحارث بن عوف، واشجع يقودها مسعود بن رخيلة .. وما أن سمع الرسول ﷺ أنباء التحرك الخطير حتى بدأ يخطط لصد أكبر هجوم على الإسلام منذ مولد الدعوة الإسلامية، وكان الأمر يحتم اتخاذ خطة دفاعية، فاستشار أصحابه ورسم معهم ما يجب عمله وهو يقضي فيما أشار به سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق لحماية الأجزاء الشمالية المكشوفة من المدينة .. أما الأجزاء الأخرى فكانت لتتمتع بحصانة طبيعية حيث تمتد حرة واقم إلى الشرق ، وحرة الوبره إلى الغرب وتتكاثف أشجار النخيل إلى الجنوب .. وكان سائر المدينة فيما عدا جهة الشمال كما يقول ابن سعد : مشبكاً بالبنيان فهي كالحصن[٧٥] .. الأمر الذي جعل فكرة حفر الخندق أمراً يمكن تنفيذه قبل انقضاض الأحزاب ..

قسم الرسول أصحابه إلى مجموعات كل منها تتكون من عشرة أشخاص كلفوا بحفر أربعين ذراعاً .. وأسهم الرسول ﷺ مع سائر العاملين في حفر الخندق بهمة ودأب ، وراح ينقل التراب مع أصحابه وينشد وإياهم وقد غطى التراب على بطنه وصدره :

لا هم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا	وثبت الاقدام إن لاقينا
إن الأولى لقد بغوا علينا	إذا أرادوا فتنة أبينا

---

(٧٣) ابن هشام ص ٢١١ — ٢١٢ الطبري ٥٦٥/٢ — ٥٦٦ ابن سعد ٤٧/١/٢ الواقدي ٤٤١/٢ — ٤٤٣ البلاذري : انساب ٣٤٣/١ اليعقوبي : تاريخ ٤١/٢ .

(٧٤) يخطىء المسعودي (التنبيه ص ٢١٦) في القول بأن عدد الاحزاب بلغ اربعة وعشرين الفا.

(٧٥) ابن سعد ٤٨/١/٢ الواقدي ٤٥٠/٢ .

وكلما وصلوا المقاطع الأخيرة مدها الرسول رافعاً بها صوته[٧٦] .. ويحدثنا أحد الصحابة الذين كانوا يعملون في الخندق فيقول : كنت ارى رسول الله ﷺ وإنه ليضرب مرةً بالمعول ومرةً يغرف بالمسحاة التراب ومرةً يحمل التراب في المكتل ، وقــد رأيته يوماً بلغ منه فجلس ﷺ ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر ، فذهب به النوم فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه يبعدان الناس أن يمروا به فينبهوه[٧٧] ، وقد أدى هذا كله إلى جعل أصحابه يتفانون في العمل ولا يغادر أحدهم موقعه لقضاء حاجياته إلا بعد استئذان الرسول ﷺ ومـا أن ينتهي حتى يعود على جناح السرعة لاتمام ما كلف به إيماناً واحتساباً . وفي هؤلاء العاملين نزلت كلمات الله (... إنمـــا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فأذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ..)[٧٨] .

كان لتقسيم العمل وإسهام الرسول فيه إلى جانب أصحابه ، والايمان العميق الذي كان يدفع المسلمين إلى بذل كل طاقاتهم لإنجاز الخطة الدفاعيــة ، وشعورهم بعظم الخطر المحدق بهم إن هوجمت المدينة قبل أن ينجز حفر الخندق ، فضلاً عن تأميل الرسول ﷺ جنـده بالنصر القريب في الأرض وبالأجر العريض في السماء . كان لهذه الأمور جميعاً الأثر الحاسم في تمكين المسلمين من حفر الخندق الذي يمتد اثني عشر ألف ذراع في ستة أيام قبل أن يدهمهم الأعداء .. ومن أجل استكمال الخطة الدفاعية عسكر الرسول ﷺ بالمقاتلين الثلاثة آلاف[٧٩] وراء الخندق جاعلاً ظهورهم إلى جبل سلع، موزعاً النساء والأطفال في القلاع الحصينة كي يتمكن المسلمون من التحرك بسهولة ويسر إذا حدث وتسرب المشركون إلى

---

(٧٦) ابن سعد ٢/١/٥١ الواقدي ٢/٤٤٩ .
(٧٧) الواقدي ٢/٤٥٣ .
(٧٨) ابن هشام ص ٢١٢ ــ ٢١٣ الطبري ٢/٥٦٦ ــ ٥٦٨ .
(٧٩) يخطىء ابن حزم (جوامع ص ١٨٧) بقوله في ان عدد المسلمين في الخندق كانوا تسعمائة.

الداخل .. كما شكل كتائب من أصحابه أمرها بأن تعسكر في جهات المدينة الأخرى سيما وان هنالك مناطق في الشرق والغرب والجنوب يمكن اجتيازها دون عناء كبير .. كما شكـّل جماعات أخرى تتجول في المدينة لحراستها من غدرات اليهود .. وتظهر التكبير من أجل رفع معنويات أهليها (٨٠) . وأسهم بنفسه ﷺ في حراسة الخنـدق إسوةً بأصحابه فكان يبيت منفرداً هنالك كما يحدثنا الواقدي ، في ثلمةٍ كان يخاف أن يتسلل منها المشركون حتى يلفحه البرد (٨١) .

***

أقبلت قوات الأحزاب البالغة حوالي عشرة آلاف مقاتل وعسكرت قريباً من المدينة في الجهات الممتدة شمالاً وسرعان ما فوجئت بالخندق وقد سد عليها الطريق إلى المدينة فقال زعماؤها: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، وقرروا أن يضربوا الحصار على المسلمين ويسعون بين الحين والحين إلى أن يجدوا ثغرةً في دفاعهم يتسربون منها للداخل .. وظل المسلمون مفتحي الأعين حذرين إزاء أية محاولة يمكن أن تمنح المشركين جسراً يعبرون عليه إليهم فتكون الطامة الكبرى . وطالت أيام الحصار تخللها رمي بالنبال دون أن يحدث اشتباك حاسم بين المعسكرين ، ورأت مجموعة من فرسان قريش أن تقوم بهجوم سريع علها تنفذ إلى الداخل .. فتقدم عمرو بن عبـد ود العامري وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب ، بعد أن أوعزوا إلى أصحابهم بالتهيؤ للقتال واختاروا مكاناً ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقتحمته وسرعان ما تصدى لهم الزبير وعلي وعمر رضي الله عنهم في نفر من المسلمين، تمكنوا من إجلاء الخيول المغيرة بعد أن قتل علي رضي الله عنه قائدها عمرو بن عبد ود (٨٢) .

---

(٨٠) ابن سعد ٢/١/٤٨ الواقدي ٢/٤٥٠ — ٤٥٤ .

(٨١) الواقدي ٢/٤٦٣ — ٤٦٤ .

(٨٢) ابن هشام ص ٢١٧ — ٢١٨ الطبري ٢/٥٧٣ — ٥٧٤ ابن سعد ٢/١/٤٨ — ٤٩ الواقدي ٢/٤٧٠ — ٤٧٢ البلاذري : أنساب ١/٣٤٥ .

كما جرت محاولات عديدة للتسلل إلى داخل المدينة من أماكن أخرى ولقد تمكنت كتيبة قرشية شديدة المراس من التوغل في معسكر المسلمين إلا أنهم تصدوا لها واشتبكوا معها في قتال استغرق معظم النهار وجزءاً من الليل واضطروها أخيراً إلى الانسحاب .. وحاولت قوة من الفرسان بقيادة خالد بن الوليد أكثر من مرة أن تنتهز غرة من المسلمين لايجاد موضع قدم في الداخل ،إلا أن المسلمين كانوا يردونها بالحجارة والنبال على أعقابها ، هذا بينما ظلت طلائع الاحزاب تتجول ليلاً باحثة عن منفذ تنساب منه إلى قلب المدينة لتطويق المسلمين من الخلف ولكن دون جدوى [٨٣] .. وكل الضحايا الذين سقطوا خلال أيام الحصار لا يجاوزون العشرة من الطرفين [٨٤].

لم يكن حصار المشركين وحده هو الذي يضيق الخناق على المسلمين بل كان هنالك من الداخل ما يزيدهم إرهاقاً وخوفاً وعناء .. الأقوات القليلة المتناقصة يوماً بعد يوم ، وشبح الجوع الذي لا يرحم [٨٥] ، والبرد القارص في ليالي الشتاء الطويلة [٨٦] ، والحرب النفسية العاتية التي شنتها جيوب المنافقين في صفوف المسلمين مخذلة معوقة مخوفة ... والسهر القاسي في الليالي الطويلة حتى ان محمد بن مسلمة قال : كان ليلنا بالخندق نهاراً حتى فرجه الله [٨٧]. ثم جاء انتقاض بني قريظة علامة خطر أكيدة لمعسكر المسلمين الصامد ، فعظم البلاء واشتد الخوف حتى أن الرسول ﷺ لم يكن يسمح لأحد من أصحابه بالتوجه إلى داخل المدينة الا وهو يحمل سلاحه حذراً من غدر بني قريظة [٨٨] ، وعن أيام المحنة تلك تحدث القرآن الكريم فيما بعد (... اذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله

---

(٨٣) ابن سعد ٤٩/١/٢ وانظر : الواقدي ٤٦٤/٢ — ٤٦٩ ، ٤٧٢ — ٤٧٣ ، ٤٧٤ .
(٨٤) الواقدي ٤٩٥/٢ — ٤٩٦ .
(٨٥) انظر الواقدي ٤٦٥/٢ ، ٤٧٥ — ٤٧٦ ، ٤٨٩ .
(٨٦) انظر : الواقدي ٤٦٣/٢ ، ٤٧٥ — ٤٧٦ ، ٤٨٩ .
(٨٧) الواقدي ٤٦٨/٢ .
(٨٨) الواقدي ٤٧٤/٢ .

الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ...).

***

نشط الرسول ﷺ في العمل على كل الجبهات العسكرية والنفسية لبعث روح المقاومة والصمود في صفوف أتباعه المتعبين القلقين ، فراح يرفع معنوياتهم وينفخ فيها الأمل بالنصر في اللحظات التي تتعرض فيها لليأس المرير ، انه وهم يحفرون الخندق يؤملهم بأن خيولهم ستطأ في يوم قريب عواصم العالم القديم وستتهاوى تحت وقع سنابكها عروش كسرى وقيصر ، وستمرغ بأسيافهم انوف كانت تستعلي على الناس زيفاً وخديعة وكذباً .

وعندما تجيء الأخبار مؤكدة نبأ انتقاض بني قريظة، ينادي : الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين[٦] ويعدهم بأن مفاتيح الكعبة ستسلم اليه في يوم من الأيام . وزادهم معنوية وصموداً تلك الأمثلة العالية من التضحية والصبر والبطولة ضربها بعض اخوانهم فالتمعت في قلب المحنـــة شرراً تحرك المقاتلون على ضوئه إلى أهدافهم ، دفاعاً عن المصير الذي صاغوا بدمائهم وأعصابهم جوانب منه وسينطلقون فيما بعد لاتمام صياغته إيماناً وأحتساباً .

وعلى الجبهة العسكرية لم يدع الرسول واصحابه ثغرة ينفـذ منها العدو ولا ترك جانباً يمكن أن يعزز خطة الدفاع والمقاومة إلا اعتمده ونفذه بسرعة وها هو الآن يسعى إلى تفتيت جبهة الأحزاب وبدون ذلك لا يتحقق النصر ولا يزول الخطر . فيبعث إلى قائدي غطفان وبني مرّة ويغريهما بثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما ويتخليا عن الحصار ، وانتهت اتصالاته بهما إلى كتابـــة وثيقة صلح بين الطرفين ، تعمد الرسول أن يؤجـل توقيعها ريثما يستشير قادة الأنصار أصحاب المدينة ، فبعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعرض عليهما الأمر فقالا له : يا رسول الله ، أمراً تحبـه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بـد لنا من

---

(٨٩) ابن هشام ص ٢١٥ الطبري ٥٧٢/٢ .

العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ... والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر، فأجاب سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً افحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال الرسول ﷺ: فأنت وذاك . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحى ما فيها وقال : ليجهدوا علينا ! ومن ثم اطمأن الرسول ﷺ الى رغبة أصحابه عامة والأنصار خاصة في الصمود حتى النهاية بوجه الأحزاب[٩٠] .

لم يألُ الرسول جهداً لتحقيق هدفه في تفتيت جبهة الأحزاب وتقطيع الرباط الذي يشد بعضها إلى بعض لا سيا ذلك الذي يوحد بين الوثنية في الخارج ويهود قريظة في الداخل ، إذ أن أي تنسيق يحدث بين الطرفين سيمنح المشركين طريقاً أميناً يختارونه عبر أحياء بني قريظة إلى قلب المدينة ، وهنالك تقع الكارثة ويجد المسلمون أنفسهم وهم محاطون بآلاف المشركين يجوبون ديارهم ويعملون فيهم قتلاً وأسراً وتشريداً .

وما لبثت العناية الالهية أن ساقت اليه رجلاً قد أسلم حديثاً يدعى نعيم ابن مسعود ، فعرض على الرسول خدماته قائلاً : إن قومي لم يعلموا باسلامي فمرني بما شئت ، فقال الرسول ﷺ : انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فان الحرب خدعة[٩١] .

غادر نعيم بن مسعود معسكر المسلمين صوب بني قريظة وكان نديماً لهم في

---

(٩٠) ابن هشام ص ٢١٦ ـ ٢١٧ الطبري ٥٧٢/٢ ـ ٥٧٣ ابن سعد ٤٩/١/٢ الواقدي ٤٧٧/٢ ـ ٤٨٠ البلاذري : انساب ٣٤٦/١ ـ ٣٤٧ .

(٩١) ابن هشام ص ٢١٨ ـ ٢١٩ الطبري ٥٧٨/٢ الواقدي ٤٨٠/٢ ـ ٤٨١ .

الجاهلية فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم ،قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليهم وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم ، فان رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ،فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه !!.. فقالوا له : لقد أشرت بالرأي. ثم خرج نُعيم حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه من زعماء مكة : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً ، وانه قد بلغني امر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغه لكم ،نصحاً لكم فاكتموا عني ، فقالوا نفعل ، قال : تعلمون ان معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا اليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ اليك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم ؟ فأرسل اليهم أن نعم ، فان بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلاً واحداً .. واتجه نعيم بعد ذلك إلى غطفان وأقنعهم بما أقنع به قريشاً[٩٢] .

وفي ليلة السبت من شوال السنة الخامسة للهجرة أرسلت قريش وغطفان عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين إلى بني قريظة لكي يقولوا لهم إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسل لهم اليهود، إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهائن من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ، فإننا نخشى إذا ضرستكم

---

(٩٢) ابن هشام ص ٢١٩ — ٢٢٠ الطبري ٥٧٨/٢ — ٥٧٩ الواقدي ٤٨١/٢ — ٤٨٢ .

الحرب واشتد عليكم القتال أن تذهبوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه [٩٣] !..

فلما عاد الوفد الوثني وأخبر قريشاً وغطفان بما دار من حديث مع بني قريظة ازداد يقين القبيلتين بما قاله نعيم بن مسعود وأرسلوا إلى بني قريظة : إنّا والله لا ندفع اليكم رجلاً واحداً من رجالنا،فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا. وعندما بلغ بني قريظة ذلك ، قال زعماؤها : إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن سنحت لهم الفرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل في بلدكم . فكان جوابهم لقريش وغطفان : إنّا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهائن ، فأبى المشركون الاستجابة لطلبهم وتحقق بذلك هدف الرسول ﷺ من تفتيت الجبهة الوثنية — اليهودية ، وكان ذلك بداية النصر الذي بدأ يلوح في الأفق في أعقاب حصار جاوز العشرين يوماً .

***

ولما كان المسلمون قد استكملوا جهدهم في العمل والصمود فإن نصر الله المباشر سرعان ما تنزل رياحاً شتائية شديدة البرودة سلطها الله سبحانه على معسكرات المشركين فراحت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم وتنزع خيامهم ، فلم يعد يقرّ لهم معها قرار .. وحينذاك بعث الرسول ﷺ صحابياً موثوقاً من كبار أصحابه هو حذيفة بن اليمان لكي يتسلل إلى معسكرات المشركين ويطّلع على جلية الأخبار .

ويحدثنا حذيفة نفسه عن المهمة التي كلف بها : « دعاني الرسول ﷺ ليلاً وقال : يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون ولا تحدث

---

(٩٣) ابن هشام ص ٢٢٠. الطبري ٥٧٩/٢ ابن سعد ٤٩/١/٢ — ٥٠. الواقدي ٤٨٢/٢ — ٤٨٥ .

شيئاً حتى تأتينا ، فذهبت ودخلت في القـــوم والريح وجنـود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء . وقام أبو سفيان وقال: يا معشر قريش لينظر كل امرىء من جليسه؟ فأخذت بيد الرجل الذي كان يجانبي فقلت له من أنت؟فقال: فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش والله إنكم ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فاني مرتحل ، ثم قـام وأطلق عقال جمله ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي أن لا أحدث شيئاً حتى آتيـه ثم شئت لقتلته بسهم لكني عدت وأخبرت رسول الله ﷺ الخبر .. »

وعندما سمعت غطفان بما فعلت قريش قفلت هي الأخرى عائـــدة إلى بلادها[٩٤] . ومد المسلمون أبصارهم فجر اليوم التالي إلى ما وراء الخندق فلم يروا أحـداً فعرفوا آنذاك ان مقاومتهم التي جـاوزت العشرين يوماً قد آتت ثمارها وأن ايمانهم قد صمد لاخطر محنـــة جابهوها طيلة حياة الكدح والمطاردة والحرب والكفاح .. ليس هـــذا فحسب ، بل ان الرسول ﷺ أعلمهم ان الموقف العسكري ازاء الوثنية قد تبـدل أساساً وانقلب من الدفاع إلى الهجوم فقال مخاطباً جموع المقاتلين عند الخنـدق : لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم[٩٥] .

ومن الحق أن يعتبر ارتداد الأحزاب عن المدينة نصراً عظيماً . ولا نرتاب في أنه كان ذا أثر كبير فيما تم من تعالي الإسلام وانتشار قوته ودعوتـه فيما بعد .. وانه كان لهذا الارتداد أثره السلبي والايجابي في آن واحد ، إذ جعل العرب

---

(٩٤) ابن هشام ص ٢٢٠ – ٢٢٢ الطبري ٥٧٩/٢ – ٥٨١ ابن سعد ٥٠/١/٢ الواقـدي ٤٨٧/٢ – ٤٩١ .

(٩٥) ابن هشام ص ٢٣٣ الطبري ٥٩٣/٢ البخاري : تجريد ٨٢/٢ . وعن الآيات المتعلقة بمعركة الخندق انظر : سورة الاحزاب ٩ – ٢٧ .

المتربصين والأعداء والمنافقين في المدينة يرون في هذه النتيجة دلالة النصر الرباني والقوة المعنوية العظيمة فيقفون عند حدهم . ولم يفكر المكيون بعد بمتابعة عدوانهم[٩٦] ، ولم يعد في الإمكان بعد هذا اليوم أن يتجمع خصوم المدينة على هذه الصورة ، فقد أصبحت قريش تشك في ولاء القبائل العربية ، كما أصبحت القبائل نفسها تشك في قدرة قريش وفي امكانها التغلب على المسلمين[٩٧] .

---

(٩٦) دروزة ٢/٢٤٥ — ٢٤٦ .

(٩٧) الشريف : مكة والمدينة ص ٤٥٨ . وعن سرايا ما بعد الخندق اهيل القارىء الى ابن سعد ٢/١/٥٦ — ٦٨ الواقدي ٢/٥٣١ — ٥٧١ والمسعودي : التنبيه ص ٢١٨ — ٢٢١ .



الفصل السابع

الصراع مع الوثنية

(المرحلة الثانية)



صلح الحديبية

من مركز القوة الذي أحرزه المسلمون بعد الخندق ، قرر الرسول ﷺ أن ينطلق ليعتمر بأصحابه في مكة مستهدفاً تحقيق أهداف ثلاث ، أولها إشعار الناس جميعاً ان علاقات الاسلام بالقوى الأخرى ليس شرطاً لها أن تظل قائمة على الحرب والعنف والقتال ،وان بالامكان أن تسودها فترات من السلم والتهادن والتعايش المشترك على خلاف المذاهب والاتجاهات . وثانيها تجميد الصراع ضد قريش ، ذلك الذي استغرق معظم مساحات الدرب الطويل الذي اجتازته الدعوة الاسلامية ، والالتفات إلى الجهات الأخرى لغرض التركيز عليها ، سيما بعد التصعيد الذي شهده الصراع ضد اليهود من جهة ، وضد البيزنطيين وحلفائهم نصارى العرب من جهة أخرى . وأما ثالث الأهداف فهو إقرار حقيقة أن مكة ومقدّساتها ليست حكراً للوثنية تمارس فيها تقاليدها بحرية ، وتسيطر على مقدراتها ، فتسمح بدخولها لمن تشاء وتمنع من تشاء .. على العكس ، إن المسلمين أحفاد ابراهيم عليه السلام أبي الحنفية ، وباني الكعبة ، أحق وأجدر بدخول الحرم الآمن ، وممارسة شعائرهم القائمة على التوحيد الخالص ، الذي من أجله اقيم البلد الحرام في الوادي غير ذي الزرع .

ثم ان المسلمين المهاجرين ورسولهم ﷺ لا زالوا يحنّون إلى وطنهم القديم

ويطوون جوانحهم – عبر في الصراع الطويل – على الشوق العارم إلى الديار التي ولدوا فيها، وترعرعوا بين أكنافها، وآثروا دعوة الحق بين طرقاتها وأحيائها .. الحنين الذي كان بلال قد باح به في أيام الهجرة الأولى، والحمى تعتصره :

ألا ليت شعري هل ابيتنّ ليلة بفخٍ وحولي أذخرٌ وجليل ؟
وهل اردن يوماً مياه مجنّةٍ وهل تبدون لي شامة وطفيل ؟

وها هو الرسول ﷺ يجيب على السؤال ويعلن – في ذي القعدة – انه سيتجه إلى مكة معتمراً، لا يريد حرباً، ويستنفر العرب وأهل البوادي من حوله ليخرجوا معه، ويخشى أن تعرض له قريش بحرب، أو تصده عن البيت[1] .

***

أبطأ كثير من الأعراب عن الاستجابة لنداء الرسول ﷺ تخوفاً من نشوب قتال مع قريش لا يهمهم من قريب أو بعيد، وانطلق المهاجرون والأنصار، ومن لحق بهم من مسلمي المناطق المجاورة يسوقون الهدي صوب مكة. وأمرهم الرسول ﷺ باستبدال ملابسهم بثياب الاحرام، ليأمن النـاس الحرب، وليعلمهم انه إنما خرج زائراً لبيت الله الحرام ومعظماً له . وعندما بلغ المسلمون عسفان، الواقعة على بعد مرحلتين من مكة، لقيهم من يقول لهم إن قريشاً قد خرجت بمقاتليها وفرسانها لمجابهة المسلمين ومنعهم من دخول مكة مهما كان الثمن !! فكان جـواب الرسول : (يا ويـح قريش !! لقد اكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي ارادوه، وان اظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فوالله لا ازال اجاهد على الذي بعثني به حتى يظهره الله أو تنفرد هـذه السالفة) . وطلب

(1) ابن هشام ص ٢٤٩ الطبري ٦٢٠/٢ ابن سعد ٦٩/١/٢ الواقدي ٥٧٢/٢ – ٥٧٣ .

من أحد الادلاء ان يقودهم ، عبر طرق غير مسلوكة ، الى مكان آخر تجنباً للصدام مع قريش . فقادهم الدليل في أراض وعرة ، ومسالك جبلية ، وانتهى بهم الى أرض سهلة عند منعطف الوادي اسفل مكة تدعى الحديبية . وعندما كان الرسول ﷺ يقول : (لا تدعوني قريش اليوم الى خطة يسألونني فيها صلة الرحم الا اعطيتهم اياها)، كان فرسان قريش يكرون عائدين اعتقاداً منهم ان محمداً صلى الله عليه وسلم اجتاح مكة عنوة [٢].

رأت قريش ، وقد لمست رغبة الرسول صلى الله وسلم واصراره على دخول مكة ، وأداء العمرة ، ان تبعث اليه من يكلمه بالأمر ويقنعه بأن لا جدوى من محاولته تلك ، واعتقدت ان مجرد السماح للمسلمين بدخول بلدهم ، بعد ذلك الصراع الحامي ، يمثل هزيمة منكرة لقريش ، زعيمة الوثنية ، وتنازلاً لخصومها كي يطؤوا حرمها المقدس ... وستقول العرب : لقد نكصت قريش عن حماية البيت الحرام ، ولم تعط الأمر حقه ، ثم ما تلبث ان تنصرف عنها .

كان بديل بن ورقاء الخزاعي أول سفراء قريش الى معسكر المسلمين ، فقدم الى الرسول صلى الله عليه وسلم يصحبه رجال من خزاعة ، فكلموه وسألوه : ما الذي جاء به ؟ فأخبرهم انه لم يأت يريد حرباً ، وانما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته (فمن صدّنا عنه قاتلناه) . فرجع بديل الى قريش وقال : يا معشر قريش انكم تعجلون على محمد ، وان محمداً لم يأت لقتال وانما جاء زائراً هذا البيت . فما كان من زعماء قريش الا أن اتهموه وعنفوه وقالوا له : وان كان جاء لا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة ابداً ، ولا تحدث بذلك عنا العرب . وما لبثوا ان بعثوا الى المسلمين سفيرهم الثاني: مكرز بن حفص، الذي عاد بما كان رفيقه قد عاد به الى زعماء قريش [٣].

وكان الحليس بن علقمة ، سيد الأحابيش ، السفير الثالث ، فلما رآه الرسول

---

(٢) ابن هشام ص ٢٢٩ — ٢٥١ : الطبري ٦٢٣/٢ — ٦٢٤ الواقدي ٥٧٤/٢ — ٥٩٤ .
(٣) ابن هشام ص ٢٥١ — ٢٥٢ ابن سعد ٧٠/١/٢ الواقدي ٥٩٣/٢ — ٥٩٤ .

صلى الله عليه وسلم مقبلاً قال : ان هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدي ينساب صوبه في عرض الوادي ، قفل عائداً قبل أن يقابل الرسول ﷺ إعظاماً لما شهد ، وأخبر القرشيين بالذي رأى ، فقالوا له : اجلس ، إنما أنت أعرابي لا علم لك !! فغضب عند ذاك وقال منددا : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم .. أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له : مه يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به . ثم ما لبثوا أن بعثوا سفيرهم الرابع : عروة بن مسعود الثقفي ، وعندما جلس بين يدي الرسول ﷺ قال : يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضّها بهم ؟ إنها قريش قد خرجت ، وقد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً . وايمُ الله لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً !! فعنّفه أبو بكر الذي كان يجلس وراء الرسول ﷺ وقال : أنحن ننكشف عنه ؟ وراح عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه ، والمغيرة بن شعبة واقف بسلاحه على رأس الرسول ﷺ فجعل يقرع يد المفاوض ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل اليك !! فيجيبه عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك !! ورسول الله ﷺ يبتسم . وعاد عروة إلى قريش ليعلمها بما حدثه به الرسول ﷺ من أنه لم يأت يريد حرباً ، وليقول لها : يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه . ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً . فَرَوْا رأيكم(٤) .

***

رأى الرسول ﷺ أن يبعث من جهته سفيراً إلى قريش ليوضح لهم الهدف

---

(٤) ابن هشام ص ٢٥٢ — ٢٥٤ الطبري ٢/٦٢٨ ابن سعد ٢/١/٧٠ الواقدي ٢/٥٩٤ — ٦٠٠ اليعقوبي : تاريخ ٢/٤٥ .

الذي جاء المسلمون من أجله ، فاختار خراش بن أمية الخزاعي لأداء المهمة ، إلا أن خراشاً ما ان بلغ مكة حتى عقر أشرافها بعيره وأرادوا الفتك به لولا أن منعته الأحابيش ، فخلوا سبيله لكي ما يلبث أن يرجع إلى معسكر المسلمين . ليس هذا فحسب بل إن قريشاً أرسلت خمسين من رجالها المسلّحين ليتسللوا إلى معسكر المسلمين ويصيبوا بعض رجاله في محاولة لاستفزاز الرسول ﷺ ودفعه إلى اتخاذ إجراء انتقامي يعزز موقف قريش لدى العرب . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم فوّت عليهم الفرصة بعدما جاء به أصحابه من أسرى دون عناء كبير ، فعفا عنهم وخلّى سبيلهم [٥].

ويحدثنا رجل من معسكر المسلمين فيقول « أتيت شجرة فكسحت شوكها ثم اضطجعت في ظلها ، فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة ، فتحولت إلى شجرة أخرى ، فعلقوا سلاحهم ثم اضطجعوا ، فبينا هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي : يا للمهاجرين ، قُتل ابن زنيم ، فاستللت سيفي على أولئك الأربعة وهم رقود ، وأخذت سلاحهم ، ثم قلت : لا يرفع أحدكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه !! ثم جئت بهم أقودهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وجاء عمي برجل آخر حتى وقفنا بهم على رسول الله في سبعين من المشركين ... فنظر اليهم رسول الله فقال (دعوهم يكن لهم بدء الفجور) وعفا عنهم » [٦]. وفي رواية أخرى للواقدي ان الرسول صلى الله عليه وسلم احتفظ باسرى قريش رهائن ريثما تطلق من في ايديها من مسلمين كانوا قد دخلوا مكة لزيارة اهليهم وكانوا أحد عشر رجلاً ، فاستجابت قريش لعرضه فاطلق سراحهم [٧] .

لم ييأس الرسول وكأنه كان يرى بثاقب بصره الثمار الحلوة التي ستجنيها الدعوة الإسلامية إذا ما سادت العلاقات السلمية فترة من الوقت مع قريش زعيمة الوثنية

---

(٥) الطبري ٢/٦٣١ الواقدي ٢/٦٠٢ .
(٦) الطبري ٢/٦٢٩ — ٦٣٠ .
(٧) الواقدي ٢/٦٠٣ — ٦٠٤ وانظر : المقريزي : امتاع الاسماع ١/٢٩٠ .

فدعا عمر بن الخطاب ليسفر له لدى قريش فقال عمر : يا رسول الله اني أخاف قريشاً على نفسي وليس في مكة من بني عدي أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي اياها وغلظتي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني: عثمان بن عفان.

انطلق عثمان الى مكة ودخـل في جوار قريب له يدعى أبان بن سعيد بن العاص ريثما يبلغ زعماء قريش ما جـاء به فأجابه هؤلاء : ان شئت أن تطوف في البيت فطف ! فقال : ما كنت لافعل حتى يطوف به رسول الله . وراح عثمان يتصل بمسلمي مكة المستضعفين من الرجـال والنساء ويقول لهم (إن رسول الله يبشركم بالفتح) فكانت الدموع تسيل من أعينهم فرحاً بذلك وهم يقولون : اقرىء رسول الله منا السلام ، ان الذي انزله بالحديبية لقادر أن يدخله بطن مكة[8]. وما لبثت قريش ان اعتقلته فبلغ الرسول وأصحابه ان عثمان قد قتل[9]

★★★

لم يجد الرسول ﷺ بداً من التهيؤ للقتال ... بعد فشل كل محاولاته الودية لدخول مكة .. وبعد الموقف السيء الذي وقفته قريش من سفرائه اليها ، ودعا الناس الى البيعة على عدم الفرار والصمود بوجه قريش . فانهال عليه المسلمون يبايعونه وهو واقف تحت شجرة سميت فيما بعد بشجرة الرضوان نسبة إلى البيعة التي تمت تحتها ، ولم يتخلف عن مبايعته أحد من أصحابه ، إلا ان الأنباء ما لبثت أن جاءت لتنفي ما أشيع عن مقتل عثمان ... وأعقب ذلك قيام قريش بارسال سهيل بن عمرو سفيراً خامساً إلى الرسول ﷺ ربمـــا لتخـــوفها من استعداد المسلمين للقتال ومبايعتهم الرسول على الصمود ، وكلفت رجلها أن يسعى جاهداً لمصالحة محمد صلى الله عليه وسلم شرط أن يرجع عنهم هذا العام (فوالله لا تحدث العرب عنا أن محمداً دخلها علينا عنوة أبداً)[10] .

---

(٨) الواقـدي ٦٠١/٢ .

(٩) ابن هشام ص ٢٥٤ — ٢٥٥ الطبري ٦٣١/٢ — ٦٣٢ ابن سعد ٧٠/١/٢ الواقدي ٢/ ٦٠٠ — ٦٠٢ .

(١٠) ابن هشام ص ٢٥٥ — ٢٥٦ الطبري ٦٣٢/٢ — ٦٣٣ الواقدي ٦٠٣/٢ — ٦٠٥ خليفة ابن خياط : تاريخ ٤٣/١ — ٤٤ .

التقى سهيل بالرسول ﷺ وأدرك الرسول عندما لمحه قادماً من بعد أن قريشاً تسعى للصلح وجرى بين الطرفين كلام طويل انتهى بالموافقة على الصلح ولم يبق إلاّ صياغة الوثيقة .... هناك وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر وقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال بلى ... قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى ...قال : فعلام نعطي الدنيّة في ديلنا؟

أجاب أبو بكر : يا عمر الزم أمره فاني أشهد انه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد انه رسول الله ... ورأى عمر الذي فطر على الصراحة والوضوح أن يلتقي بالرسول ﷺ نفسه ويطرح عليه نفس الأسئلة ... فكان جواب الرسول ﷺ أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني ...

ثم ما لبث أن دعا علياً ليملي عليه صيغة الصلح وقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، قال سهيل : لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم . فكتبها ثم قال لعلي اكتب (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلاً بن عمرو) فقال سهيل : لو شهدت انك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم ابيك . فأجابه الرسول إلى ما أراد (11) .

كان الصلح يقضي بعقد هدنة أمدها عشر سنوات (12) ، وأن يرجع المسلمون هذا العام ولهم أن يدخلوا مكة في العام المقبل والسيوف في أغمادها ، وان لكل قبيلة الحق بالدخول في عهد مع أي من الطرفين تشاء ... وانه لا إسلال ولا إغلال .. وان من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه فعليه أن يرده ومن جاء قريشاً ممن مع محمد ﷺ لا تجد نفسها ملزمة برده ... وسرعان ما أعلنت خزاعة دخولها في عقد محمد وعهده ... بينما دخلت بنو بكر عقد قريش وعهدها ... وقبل أن يتم املاء الشروط وصل معسكر المسلمين ابو جندل ، ابن المفاوض القرشي سهيل بن عمرو وهو يرسف بالحديد فانقض عليه أبوه يضرب وجهه ويأخذ

---

(11) ابن هشام ص ٢٥٦ — ٢٥٧ الطبري ٦٣٣/٢ — ٦٣٤ الواقدي ٦٠٦/٢ — ٦٠٧ .

(12) يخطىء اليعقوبي في قوله بان مدة الهدنة كانت ثلاث سنوات : تاريخ ٤٥/٢ .

بتلابيبه قائلاً للرسول ان شروط الصلح قد أبرمت قبل وصول أبي جندل فأجابه الرسول : صدقت...وراح أبو جندل يصرخ بأعلى صوته... يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فما كان جواب الرسول ﷺ إلا أن قال : يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ... إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله .. وإنا لا نغدر بهم .. ووثب عمر وراح يمشي إلى جوار أبي جندل ويقول : اصبر يا أبا جندل فانهم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب !! وعندما تم إملاء الكتاب شهد على الصلح أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسعد بن أبي وقاص ومحمد ابن مسلمة وعن الجانب المشرك مكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى[١٣].

لم يرتح المسلمون لأحداث الصلح ونتائجه سيما وأنهم جاؤوا يحملون أملاً بدخول مكة والطواف في البيت العتيق في أعقاب رؤيا الرسول ﷺ ، وها هم يعودون من حيث جاؤوا دون أن يتحقق أملهم . هذا فضلاً عما في بنود الصلح نفسها وصيغته من أمور رأوا فيها تنازلاً للمشركين . هذا إلى أن الرسول ﷺ لم يستشر أصحابه على غير ما ألفوا منه في هذا الاتفاق المقترح مع أنه في شؤون الحرب والسلم التي سلفت كان يرجع اليهم .. وربما نزل على رأيهم وهو له كاره.. لكنه اليوم ينفرد بالعمل ويقرّ ما يكرهون على غير ضرورة ملجئة[١٤] . ثم جاءت قضية تسليم أبي جندل لأعدائهم إثارة جديدة لأعصابهم المرهقة وحنقهم الذي عبر عنه (عمر) صراحة .

من أجل ذلك كله [دخل عليهم أمر عظيم حتى كادوا يهلكون] وعندما

---

(١٣) ابن هشام ص ٢٥٧ — ٢٥٨ الطبري ٦٣٤/٢ — ٦٣٦ ابن سعد ٧٠/١/٢ — ٧١ الواقدي ٦٠٧/٢ — ٦٠٩ ، ٦١١ — ٦١٢ البلاذري : فتوح البلدان ٤١/١ ، انساب ٣٥٠/١ — ٣٥٢ وانظر عن نص وثيقة الصلح : محمد حميد الله : الوثائق ص ٥٨ — ٥٩ ، ٥٩ — ٦٣ .

(١٤) محمد الغزالي : فقه السيرة ص ٣٥٩ .

أمرهم الرسول ﷺ بنحر الهـدي وحلق رؤوسهم إيذاناً بالعودة للمدينة .. لم يستجيبوا له لأول مرة في حياتهم .. فما كان من الرسول ﷺ بعد استشارة زوجته أم سلمة إلا أن يخرج عليهم فينحر ويحلق رأسه فلما رأى أصحابه ذلك راحوا ينحرون ويحلقون وهم يتميزون غيظاً وألماً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً (١٥) ، دون أن يدركوا أن الصلح الذي تمخض عن مرونة الرسول وتنازله عن بعض الشكليات في صياغة الوثيقة وبنودها كان أكبر فتح في تاريخ الدعوة الاسلامية منذ انبعاثها قبل تسع عشرة سنة وأن الرسول بموقفه ذاك قد فتح طريقاً جديداً أمام الحركة الاسلامية أوصلها إلى آفاق جديدة ومساحات واسعة لم يكن أحد من المسلمين يطمع في الوصول اليها قبل مرور سنين وسنين .

***

وفي طريق العودة نزلت آيات القرآن الكريم لتؤكد البعد الحقيقي للصلح مع زعيمة الوثنية [إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ...] وتستطرد الآيات الكريمة مؤكدة دخول المسجد الحرام عما قريب وتحقق رؤيا الرسول ﷺ التي تجيء دوماً كفلق الصبح :

[لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام انشاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ...] .

ولم يكن هذا الفتح كما يقول ابن هشام سوى صلح الحديبية :

[فمافتح في الاسلام.. يقول الزهري.. فتح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس... فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا فلم يكلم أحد في الاسلام يعقل شيئاً إلا دخل

---

(١٥) الواقدي ٦١٣/٢ — ٦١٦ .

فيه ... ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الاسلام قبل ذلك أو أكثر] بدليل ان الرسول ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ثم خرج في فتح مكة بعد سنتين على رأس عشرة آلاف رجل [16] .

وما من شك ان مجرد دخول قريش في عهد مع المسلمين يمثل اعترافاً منهـــا بالدولة الفتية والدين الجديد بعد حرب الافناء الطويلة التي شنتها ضدهما ..

ولما كانت قريش هي زعيمة الوثنية وحامية حمى الحرم المقدس فان توابعها من القبائل العربية المنتشرة في الجزيرة رأت نفسها في حل من الانتماء لزعامتها والارتباط بمصيرها وان لها الحرية المطلقة في ان تختار المعسكر الذي تراه مناسباً دخولاً في دينه أو صداقة معه ..

وقد فتح ذلك المجال أمام المسلمين لكي ينشطوا وينتشروا في الآفاق لكسب مزيد من الاصدقاء والحلفاء والمنتمين إلى الدين الجديد، مستغلين من جهة أخرى فترة السلم التي أتاحتها شروط الحديبية .

وكان انضمام خزاعة إلى معسكر المسلمين نصراً كبيراً للرسول ﷺ ذلك ان جزءاً كبيراً من الأحابيش الذين كانت قريش تعتمد عليهم يعدون من بطونهـــا وبذلك ضمّ محمد جزءاً كبيراً من هذه القوة إلى جانبـــه واضعف بذلك مركز قريش الحربي [17].

ويرى (ارنولد) ان الحروب المتصلة التي كان الرسول قد شنها على أهـــل مكة قد جعلت حتى ذلك الحين القبائل التي تقيم جنوبي هذه المدينة حتى تخوم اليمن بعيدين بعداً يكاد يكون تاماً عن سلطان الدين الجديد .. ولكن هدنـة الحديبية جعلت الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمراً ميسوراً في ذلك الحين[18]

---

(16) ابن هشام ص ٢٥٨ — ٢٥٩ الطبري ٦٣٨/٢ وانظر : الواقدي ٦٠٩/٢ — ٦١٠ ، ٦٢٤ . وعن الآيات المتعلقة بالحديبية انظر : سورة الفتح ١ — ٦ ، ١٠ — ١٣ ، ١٨ — ٢٠ ، ٢٤ — ٢٨ .

(17) الشريف : مكة والمدينة ص ٤٦٩ .

(18) الدعوة الى الاسلام ص ٥٧ .

وقد كان لانتشار الاسلام في اليمن في الفترة التي أعقبت الحديبية أهمية خاصة من الناحية العسكرية فقد جعل قريشاً محفوفة بالمسلمين من الشمال والجنوب وبذلك تقرر مصير مكة وقريش نهائياً [١٩] ... هذا في الوقت الذي كانت قريش فيه قد توخت أهدافاً سطحية دفعتها اليها العصبية الجاهليـــة وهي رد المسلمين عن زيارة البيت الحرام هذا العـــام ليعودوا الى زيارته في العام المقبل ورد الذين يسلمون من قريش بدون رضى أوليائهم حتى لا يكثر عدد المسلمين وأن ينالوا بهذه الهدنة الاستقرار للتفرغ لتجارتهم وهو أهم هدف حيوي بالنسبة لقريش [٢٠]

ولم ينس الرسول ﷺ أن ينتزع من هذه الفرصة الثمينـــة كل ما يستطيع انتزاعه ، فضلاً عن كسب الناس إلى الاسلام وصداقتهم لدولته .. صراعاً ضد القوى الأخرى المضادة للاسلام كاليهود الذين تكتلوا في خيبر والمواقع المجاورة له، والبيزنطيين وحلفائهم العرب الذين ازداد تكالبهم في الجهـــات الشمالية بازدياد نشاط الاسلام هناك ، فضلا عن التجمعات القبلية البدوية المنتشرة في الصحراء والتي كانت تنتظر الفرصة السانحة لانزال الضربات بأتباعه. وها هو الرسول وقد فصم عقدها بهدنته مع زعيمتها قريش يوجه اليها السرايا تلو السرايا طيلة السنة السابعة ليصدها عن المضي فيما تبتغيه وليشعرها بمقدرة المسلمين على العقاب !

خرج عمر بن الخطاب على رأس ثلاثين رجلا إلى إحدى قبائل هوازن، وكان يسير برجاله ليلاً ويكمن نهاراً ، وما إن سمع أعداؤه خبر هجومه المباغت حتى فروا فقفل عائداً ولم يلق كيداً . وخرج أبو بكر الصديق إلى نجد، وبشير بن سعد إلى بني مرّة على رأس ثلاثين رجـلاً أصيب بعضهم فاضطر إلى العودة إلى المدينة وانطلق غالب بن عبـــدالله ، يقود مائة وثلاثين رجلاً إلى بني عبد بن ثعلبة فأغاروا عليهم واستاقوا نعمهم وعادوا بها إلى المدينة . وما لبث بشير بن سعد

---

(١٩) شيت خطاب : الرسول القائد ص ٢١٢ .
(٢٠) المصدر السابق ص ١٩٠ .

أن خرج ثانية على رأس سرية أخرى للهجوم على بعض القبائل من غطفان بدأت تتحرك للهجوم على المسلمين ، فباغتها سعد واستاق نعمها (٢١) .

وطيلة الأشهر الأولى من السنة التالية استمرت السرايا الاسلامية تغادر المدينة منطلقة إلى أهدافها التي كان الرسول ﷺ يحددها لها في قلب الصحراء .. خرج غالب بن عبدالله الليثي ليغير على بني الملوح بمنطقة تدعى الكديد . ويحدثنا أحد أبطال السرية فيقول : « .. نزلنا بطن كديد بعد العصر ، فبعثني أصحابي ربيئة ، فعمدت إلى تل يطلعني على الحيّ ، فانبطحت عليه ، قبيل المغرب ، فخرج منهم رجل فنظر فرآني منبطحاً على التل فقال لامرأته : والله إني لأرى على هذا التل سواداً ما كنت رأيته أول النهار فانظري لا تكون الكلاب جرت بعض أوعيتك ! فنظرت فقالت : والله ما فقدت شيئاً . قال : فناوليني قوسي فناولته ، فرماني بسهم فوضعه في جنبي ، فنزعته فوضعته ، ولم أتحرك ، ثم رماني بالآخر فوضعه في رأس منكبي فنزعته فوضعته ولم أتحرك . فقال الرجل : أما والله لقد خالطه سهمايْ ولو كان طليعة لتحرك . وأمهلناهم حتى إذا سكنوا وذهبت عتمة من الليل ، شننا عليهم الغارة ، فقتلنا من قتلنا واستقنا النعم وقفلنا عائدين بعد أن جاءنا منهم ما لا قبل لنا به ... » ولم يكن عدد أفراد هذه السرية يجاوز البضعة عشر رجلا (٢٢) .

وانطلق شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلا إلى بني عامر فشن عليهم الغارة وأصاب نعماً وشاءً (٢٣) . وسار أبو عبيدة عامر بن الجراح في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار مستهدفين قبائل جهينة .. وكان الطريق طويلا ، فنفد ما معهم من قوت ، وراح الجوع يعتصرهم ، وقال رجل منهم : كان أبو عبيدة يقبض لنا قبضة من التمر ، ثم تمرة تمرة ، فنمصها ونشرب عليها الماء إلى الليل حتى نفد

---

(٢١) الطبري ٢٢/٣ — ٢٣ ابن سعد ٨٥/١/٢ — ٨٧ الواقدي ٧٢٢/٢ — ٧٣١ المسعودي التنبيه ص ٢٢٧ .

(٢٢) الطبري ٢٧/٣ — ٢٨ ابن سعد ٨٩/١/٢ — ٩١ الواقدي ٧٥٠/٢ — ٧٥٢ .

(٢٣) الطبري ٢٩/٣ ابن سعد ٩١/١/٢ — ٩٢ الواقدي ٧٥٣/٢ — ٧٥٥ .

ما في الجراب فكنا نجني الخبط ، إذ جعنا جوعاً شديداً . وما لبث البحر أن ألقى الينا حوتاً ميتاً فأكلنا منه حتى شبعنا [٢٤]. وسرايا أخرى قادها مسلمون آخرون ، انطلقت إلى أهدافها بشجاعة ، وعادت وقد لقنت الأعراب ودعاة الفتنة دروساً لن ينسوها [٢٥] .

***

ولم يقف الرسول صلى الله عليه وسلم عند حد اعتماد الهدنة مع قريش لتأديب الأعراب ، بل نشط منذ أواخر السنة السادسة ، وحتى فتح مكة ، في توجيه دعاته وسفرائه إلى كبار أمراء العرب الوثنيين وزعمائهم ومشايخهم يدعوهم إلى الاسلام ، في نفس الفترة التي كان قـــد وجّه فيها سفراءه ومبعوثيه إلى أباطرة العالم وملوكه يعرض عليهم الدعوة التي بعث بها إلى الناس جميعاً ..

أرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بـــن ساوى العبدي ، أمير البحرين والمناطق الشمالية المطلة على الخليج العربي ، وكتب اليه كتاباً جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبي رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك . فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فان كتابك جاءني ورسلك ، وأن من صلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا واستقبل قبلتنا فانه مسلم ، له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين ومن أبى فعليه الجزية » . فأسلم المنذر ومعه الكثيرون من رعاياه ، أما الذين بقوا على مجوسيتهم فصالحهم الرسول صلى الله عليه وسلم على الجزية ، على ألا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم . وبقي العلاء هناك أميراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم في البحرين [٢٦] .

وبعث عمرو بن العاص الى جيفر وعباد ابني الجلنـــدي الأزديين بعُمان ،

---

(٢٤) الطبري ٣/٣٢ — ٣٣ ابن سعد ٢/١/٩٥ الواقدي ٢/٧٧٤ — ٧٧٧ .

(٢٥) انظر : الطبري ٣/٣٤ — ٣٦ وابن‌سعد ٢/١/٩١ — ٩٦ والواقدي ٢/٧٤١ ، ٧٥٢ — ٧٥٣ ، ٧٧٧ — ٧٨٠ .

(٢٦) الطبري ٣/٢٩ ، ١٣٧ ابن هشام ص ٢٧٥ ابن سعد ١/٢/١٩ البلاذري : فتوح ١/٩٥ — ٩٩ وعن نصوص الكتب المتبادلة بين الرسول وامير البحرين انظر حميد الله : الوثائق ص ١١٢ — ١١٩ .

فصدقا النبي واقرا ما جاء به ، ففرض الزكاة على أموال مسلميهم والجزية على من بقي على مجوسيته من اتباعهم [٢٧]. وبعث سليط بن عمرو الى ثمامة بن اثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليامة . ويبدو أن ذهاب وفد بني حنيفة في السنة التالية المسماة بعام الوفود كان استجابة من زعماء هذه القبيلة الكبيرة لنـــداء الرسول ﷺ قبل أن يرتد مسيلمة هناك [٢٨].

وخرج عمرو بن كعب الغفاري يصحبه خمسة عشر رجلاً الى ذات أطلاح على حدود الشام ، فوجدوا جمعاً كثيراً ، فدعوهم الى الاسلام فأبوا ان يجيبـــوا ، وانقضوا على أصحاب عمرو فأبادوهم جميعاً ، وتحامل عمرو حتى بلغ المدينة [٢٩] فيما يذكر بمأساتي الرجيع وبئر معونة ، ويبين لنا كم كانت الدعوة الى الاسلام تعطي من تضحيات قبل ان تتمكن من تثبيت اقدامها في قلب الصحراء .

والى زعماء اليمن ومشايخها وبقايا ملوك حمير بعث الرسول ﷺ معــاذ بن جبل ومالك بن مرارة يحملان اليهم والى أهل اليمن دعـــوة الاسلام ، فاسلم الكثيرون منهم [٣٠]. كما كتب ﷺ الى امراء كندة وحضرموت رسائل مطولة يشرح لهم فيها تعاليم الاسلام وشرائعه . ويسرد ابن سعد اسماء عدد كبير من الزعماء العرب في الجنوب والشمال ممن تلقوا نداء الاسلام من الرسول صلى الله عليه وسلم فاستجاب له كثير منهم ، وبقي الآخرون على شركهم . ومن بين هؤلاء الذين راسلهم الرسول على سبيل المثال : خالد بن ضماد الأزدي ، ونُعيم بن أوس أخي تميم الداري ، والحصين بن أوس الأسلمي ، وبنو قرة بن عبدالله وبنو الضباب ابن الحارث بن كعب ، ويزيد بن الطفيل الحارثي وبنو قنان بن ثعلبـة من بني الحارث ، وعبد يغوث بن وعلة الحارثي ، وبنو زياد بن الحارث ، ويزيـد بن المحجل الحارثي ، وبنو فهد حلفاء بني الحارث ، وعاصم بن الحارث وبنو جرول الطائيين وعامر بن أسود الطائي وقومه طيىء ، وبنو جوين الطائيين وبنو معن

---

(٢٧) الطبري ٢٩/٣ ابن هشام ص ٣٧٥ ابن سعد ١٨/٢/١ البلاذري : فتوح ٩٢/١ .
(٢٨) ابن هشام ص ٣٧٥ الطبري ٦٤٤/٢ — ٦٤٥ ابن سعد ١٨/٢/١ .
(٢٩) الطبـري ٢٩/٣ .
(٣٠) ابن سعد ٢٠/٢/١ — ٢١ .

الطائيين ، وجنادة الأزدي وقومه ، وقبيلتا سعدوهذيم القضاعية وجذام وبنو زرعة ، وبنو الربعة بن جهينة ، وبنو جميل بن بلى ، وأسلمْ بن خزاعـــة ، وعوسجة بن حرملة الجهني ، وبنو شفخ والجرمز بن ربيعة والحرقة وعمرو بن معيد الجهنيين ، وبلال بن الحارث المزني ، وبنو عمرو ، والعـدّاء بن خالد بن عامر ، ومسيلمة الكذاب الذي ردّ على كتاب النبي صلى الله عليه وسلم بأنه نبي مثله ، وسأله ان يقاسمه الأرض ، وان قريشاً قوم لا يعدلون ، فكتب اليه النبي ﷺ « بلغني كتابك الكذب والافتراء على الله ، وان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .. » كما كتب الرسول ﷺ لسلمة بن مالك مـن بني حارثة والعباس بن مرداس وهوذة بن نبيشة والأجبّ وراشد بن عبدالله وحرام ابن عبد عوف السلميين ، وجميل بن رزام العدوي ، وحصين بن فضلة الأسدي ، وبني ضمرة بن بكر بن كنانة والهلال أحد زعماء البحرين ، وأُسيبخت بن عبدالله صاحب هجر الذي جاء في كتاب الرسول ﷺ اليه « ... إنه قد جاءني الأقرع بكتابك وشفاعتك لقومك ، واني قـد شفعتك وصدقت رسولك في قومك ، فابشـــر فيما ســـألتني وطلبتني بالذي تحـــب . . فـــان تجـــئنا أكرمـــك وأن تقعد أكرمك أما بعد فاني لا أستهدي أحداً ، وان تهد إليّ أقبل هديتك وقد حمد عمالي مكانك ، وأوصيك بأحسن الذي أنت عليه من الصلاة والزكاة وقراية المؤمنين ، وإني قد سميت قومك بني عبدالله ، فمرهم بالصلاة وبأحسن العمل ، وابشر والسلام عليك وعلى قومك المؤمنين » . وإلى جماعة من العبيد وقطاع الطريق في جبل تهامة كتب الرسول ﷺ بعد أن استقبل وفداً منهم « هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء ، انهـــم ان آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فعبدهم حرّ ومولاهم محمد . ومن كان منهم من قبيلة لم يردّ اليها . وما كان فيهم من أدم أصابوه أو مال أخذوه فهو لهم ، وما كان لهم من دين في الناس ردّ اليهم ولا ظلم عليهم ولا عـدوان .. » . كما كتب رسول الله ﷺ إلى بني زهير بن اقيش وأبي ظبيان الأزدي وحبيب بن عمر الأجيئي وسمعان بن عمرو الكلابي وبكر ابن وائل والسعير بن عـــداء وبني عبد القيس ، ونفاثة بن فروة الدئلي ملك

السماوة ، وبني عذرة ومطرف بن الكاهن الباهلي ونهشل بن مالك الوائلي وسعيد ابن سفيان الرعليْ ومسلمة بن مالك السلمي ، وبني جناب ، ومهري بن الأبيض أمير مهرة ، وبني خثعم ، وقبائل ثمالة والحدان في صحار ، ووائل بن حجر قيل حضرموت [٣١] .

* * *

وفي ذي القعدة من السنة التالية (٧ هـ) حان موعد دخول المسلمين مكة فيما أسمته الروايات (عمرة القضاء) تنفيذاً لشروط الحديبية. وكان الرسول ﷺ قد أمر كل الذين شهدوا الحديبية بأن يتجهوا للعمرة ، وأمر بحمل السلاح حذراً وحيطة. فلما علمت قريش ذلك أصابها الخوف. وأرسلت اليه رجلاً لقيه بمرّ الظهران وأعرب له عن مخاوف قريش فأجابه الرسول ﷺ « ما عُرفتُ صغيراً ولا كبيراً إلا بالوفاء ، وما أريد إدخال السلاح عليهم ، ولكن يكون قريباً إليّ » . فعاد المبعوث لكي يطمئن قريشاً أن المسلمين لا ينوون دخول مكة مسلّحين ، وأنهم سيبقون السلاح بعيداً عنها [٣٢] .

وما أن اقترب المسلمون من مكة حتى انسحبت قريش صوب المرتفعات المحيطة خوفاً من حدوث احتكاك بين الطرفين ، الا أنها عبرت عن غيظها باشاعة بثتها بين الناس مفادها ان محمداً وأصحابه يعانون شدة وعسرة وجهداً. فاصطف بعضهم عند دار الندوة لينظروا إلى الرسول وإلى أصحابه . فلم يشأ الرسول ﷺ إلا أن يجابه الشائعات بالأفعال ، فشد رداءه واخرج عضده اليمنى وقال : أرملوا بالبيت ليرى المشركون قوتكم . ثم استلم الركن وأخذ يهرول وأصحابه معه ، حتى اذا واراهم البيت عن اعين القرشيين عادوا صوب الكعبة ، ففاعلين ذلك ثلاثاً.

---

(٣١) انظر بالتفصيل ابن سعد ١٨/٢/١ — ٣٨ وعن نصوص الرسائل المتبادلة بين الرسول (ص) وبين امراء العرب وملوكهم وزعمائهم انظر : حميد الله : الوثائق ص ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٧٩ — ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٩ — ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ — ١٩٨ ، ٢٠١ — ٢٨٢ .

(٣٢) الطبـري ٢٦/٣ .

ثم أمر بلالاً ان يصعد إلى ظهر الكعبة فيؤذن هناك . وبعد ثلاثة أيام من إقامة المسلمين في مكة واداء مراسيم العمرة ، بعثت قريش إلى الرسول ﷺ من يقول له : انه قد انقضى اجلك فاخرج عنا . فقفل الرسول ﷺ بأصحابه عائداً الى المدينة ، وصدقت رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم وكلمات الله (لقدصدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ، محلقين رؤوسكم ومقصرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً [٣٣]) !!

كان لعمرة القضاء – واحداث الحديبية من قبلها – أثرها الخطير في مكة نفسها ، فإن اهلها رأوا من تضامن المسلمين وتعاونهم وتعاطفهم ، وحسن نظامهم والتفاهم بينهم ، واقتدائهم بنبيهم ، ما جعلهم يدركون ان مثل هذه الجماعة لا يمكن الوقوف في وجهها وليس من أمل في التغلب عليها . حتى لقد كانت عمرة القضاء قضاء تاماً على روح العناد والمقاومة في قريش ، وحتى لقد أدرك عقلاؤها ان من الخير الانضمام الى محمد ، يتمثل ذلك في اسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ، حارس الكعبة . وبأسلام هؤلاء الثلاثة أسلم عدد كبير من أهل مكة واصبحت مكة في حكم البلد الذي فتح أبوابه للدعوة الاسلامية، ولم يبق إلا ان تفتح أبوابها وتسلم القياد للمسلمين[٣٤]. ومن ثم يمكن اعتبار فتح مكة قد تم للمسلمين من يوم عمرة القضاء لأن هذه العمرة أثرت على معنويات قريش اعظم التأثير . إن عمرة القضاء فتحت قلوب قريش ، وغزوة الفتح فتحت أبوابها [٣٥] !!

---

(٣٣) ابن هشام ص ٢٦٨ – ٢٧٠ الطبري ٢٣/٣ – ٢٥ ابن سعد ٨٧/١/٢ – ٨٩ الواقدي ٧٣١/٢ – ٧٤١ البلاذري : انساب ٣٥٣/١ المسعودي : التنبيه ٢٢٨ ابن حزم : جوامع ص ٢١٩ – ٢٢٠ ابن الاثير : الكامل ٢٢٧/٢ – ٢٢٨ ابن كثير : البداية ٤/ ٢٢٦ – ٢٣٢ .

(٣٤) الشريف : مكة والمدينة ص ٤٦٨ – ٤٦٩ .

(٣٥) شيت خطاب : الرسول القائد ص ٢٣٨ .

فتح مكة

بدأت قريش تزداد يقيناً يوماً بعد يوم بأن شروط صلح الحديبية لم تكن في صالحها وأنها اذا ما ظلت ملتزمة بها فسوف تجد نفسها في يوم قريب أو بعيد وحيدة عزلاء وسط بحر اسلامي تضرب أمواجه حدود امبراطوريتي العالم القديم وتكتسح مواقع الوثنية البائدة . وحتى الشرط الذي ظنته لصالحها وظنه المسلمون اذلالاً لهم ذلك الذي يعطي قريشاً الحق في استرداد من يلحق بالمسلمين ويحجب هذا الحق عن المسلمين، حتى هذا الشرط أخذ يلحق بمشركي مكة متاعب صارت تزداد مع الأيام .

فالمضطهدون الهاربون من قبضة قريش كانوا يجدون أنفسهم ملزمين بعدم الالتحاق باخوانهم ودولتهم الجديدة في المدينة وإلا ردوا إلى مضطهديهم تنفيذاً للعهد ، فكانوا يلجؤون إلى جبال تهامة المطلّة على طريق القوافل المكية إلى الشام ويقومون من هناك بحروب عصابات ضد القوافل القرشية الذاهبة والآتية من الشام، فيقتلون حراسها وأصحابها ويغنمون أموالها، وكان يقودهم في نشاطهم هذا فدائي مسلم يدعى (أبا بصير) كان قد فرّ من مضطهديه في مكة إلى المدينة إلا أن الرسول ﷺ رده بصحبة اثنين من حراس مكة جاءا لكي يعيداه إلى سادته فقتل أحدهما واضطر الآخر إلى الفرار ، ثم انطلق صوب جبال تهامة لكي يبدأ من هناك حربه ضد قريش، وأخذ يلتحق به كل هارب من جحيم

الوثنية [٣٦] . ومـــا لبثت قريش أن وجدت نفسها مسوقة إلى أن تطلب من الرسول ﷺ الغاء هذا الشرط فأجابها إلى مـــا أرادت ، ولكن الأيام مضت وقريش تزداد عزلة وتوتراً وتجارتها بواراً وكساداً . والمسلمون يزدادون نشاطاً ودأباً. ومن ثم راح زعماء مكة ينتظرون الفرصة لضرب المعاهدة وإبطال شروطها جميعاً لأن ثماني سنوات أخرى من الصلح ستؤدي حتماً إلى اختناق قريش . وما لبثت الأحداث أن مكنتها من تحقيق هدفها ، إلا أنها لم تكن تدري آنذاك أنها تسعى إلى حفر قبرها بيدها وأنها تضع بيد الرسول ﷺ المعول الذي سيهدم به آلهتها وأصنامها، وسيهيل التراب على قيمها الخاطئة وتقاليدها الظالمة وعقائدها الوثنية إلى الأبد .

ذلك أن بني بكر حليفة قريش ، اعتدت في شعبان من السنة الثامنة على خزاعة حليفة الرسول ﷺ وداهمتها في ديارها فقتلت أحد رجالها. ففزعت خزاعة تدافع عن نفسها واتسع نطاق القتال وراحت قريش ترفد حليفتها بالسلاح وبالرجال يقاتلون تحت جناح الليل حتى ألجأوا خزاعة إلى الحرم وقتلوا منها ثلاثة وعشرين رجلاً فنادت بنو بكر بزعيمها نوفل بن معاوية: إنّا قد دخلنا الحرم الهك الهك فأجاب نوفل: لا إله اليوم يا بني بكر ، اصيبوا ثاركم فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثاركم فيه ؟ ورأت خزاعة أن قريشا قــد نقضت عهدها مع الرسول ﷺ إذ أسهمت في قتالها وهي حليفة المسلمين فبعثت عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً يعرض على الرسول ﷺ تفاصيل العدوان ويستنجده على الغادرين ، وأعقبه بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة يؤكد ما ذهب إليه عمرو. ولم يزد الرسول ﷺ على أن قال لمن حوله :.(كأنكم بأبي سفيان قــد جاء يشد العقد ويزيد المدة) . وكأنه ﷺ اعـــتزم أمراً لم يشأ أن يكشفه لرسل خزاعة أو لأصحابه حرصاً على السرية والكتمان ، ولقد صدق الرسول ﷺ إذ مـــا لبثت

---

(٣٦) انظر : الطبري ٦٣٨/٢ ــ ٦٣٩ الواقدي ٦٢٤/٢ ــ ٦٢٩ المقريزي : امتاع الاسماع ٣٠٤/٣ ــ ٣٠٥ .

قريش أن أدركت خطأها وأنها ليست بقادرة اليـوم على مجابهة غضبة المسلمين وقد ازدادوا قوة وعدداً فرأت أن تبعث زعيمها أبا سفيان إلى المدينة على جناح السرعة علّه يعيد الأمور إلى مجاريها ويجدّد مع المسلمين بنود معاهدة كان هو ورفاقه قد قتلوها [٣٧] . التقى أبو سفيان بالرسول ﷺ وكلمه في الأمر فلم يردّ عليه ، فذهب إلى أبي بكر فتوسط لديه أن يكلم له الرسول ﷺ فقال : ما أنا بفاعل ، فأتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال عمر : أنا أشفع لكم عند رسول الله ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرّ (الغبار) لجاهدتكم به . فجاء إلى عـلي وقال : يا علي إنك أمسّ القوم بي رحماً وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعنّ كما جئت خائباً فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ فأجابه علي: ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . ولم يكن هذا الأمر سوى الاعداد الحاسم لإستئصال رأس الوثنية واكتساحها . وعاد أبو سفيان خائبـاً لكي يخبر قريشاً بفشل مسعاه [٣٨] .

***

حرص الرسول ﷺ خلال التجهز على كتمان الأمر حتى عن أقرب أصحابه اليه من أجل أن يفاجىء مكة بهجومه الحاسم فـــلا تستطيع مقاومة ودفاعاً فتذعن للأمر وتحقن الدماء . حتى أن زوجته عائشة عندما سألها أبوها أين تريده يريد ؟ أجابت : لا والله ما أدري ! وما أن تمّ الإعـداد والتجهز حتى انطلق الرسول ﷺ بأصحابه صوب مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ . وقد روى الواقدي أن الرسول ﷺ خرج إلى مكة « ولا يعلم أحد وجهته وقائل يقول يريد قريشاً وقائل يقول هوازن وآخر يقول يريد ثقيفاً... ولم يعقد الألوية ولم ينشر الرايات حتى بلغ (كديد) ». وعندما سأله أحد أصحابه في الطريق : يا رسول الله والله

---

(٣٧) ابن هشام ص ٢٧٦ — ٢٧٩ الطبري ٤٣/٣ — ٤٥ ابن سعد ٩٦/١/٢ — ٩٧ الواقدي ٧٨١/٣ — ٧٨٦ ، ٧٨٨ — ٧٨٩ البلاذري : فتوح ٤٢/١ انساب ٣٥٣/١ — ٣٥٤ .

(٣٨) ابن هشام ص ٢٧٩ — ٢٨٠. الطبـري ٤٦/٣ — ٤٧ ابن سعد ٩٧/١/٢ الواقدي ٧٩٢/٢ — ٧٩٥ البلاذري : فتوح ٤٢/١ .

ما أرى آلة الحرب ولا تهيئة الإحرام فأين تتوجه يا رسول الله؟ أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم حيث شاء الله [٣٩] . وفي مكان آخر يقول الواقدي ان الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ بالأنقاب (أي سد طرق المدينة) وعمى عليهم الأخبار فكان عمر بن الخطاب يطوف على الأنقاب قيّماً بهم فيقول : لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه إلا من سلك إلى مكة فانه يتحفظ به ويسأل عنه[٤٠] . وعندما ألح عليه أبو بكر بسؤاله أين تريد يا رسول الله ؟ أجابه الرسول: قريشاً واخفِ ذلك يا أبا بكر [٤١] . ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم ربه (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها). واستجاب الله لدعاء رسوله وأعلمه وحيه الأمين أن محاولة لاخبار قريش بتحرك الرسول صلى الله عليه وسلم قام بها أحـــد المسلمين (حاطب بن أبي بلتعة) حيث كتب إلى قريش بهدف الرسول صلى الله عليه وسلم كتاباً حمّله امرأةً أخفته في طيات شعرها وانطلقت صوب مكة فأدركها علي والزبير في منتصف الطريق وأخذا الكتاب منها وقفلا عائدين ليسلماه إلى الرسول . فدعا الرسول حاطباً وسأله : ما حملك على هذا ؟ فأجاب : أما والله اني لمؤمن بالله ورسوله مـا غيّرت ولا بدّلت ولكني كنتُ امرأً ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة وكان لي بـــين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه . فقال عمر : يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فان الرجل قد نافق . فقال الرسول : وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع إلى أصحاب بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ ان ماضي حاطب في الجهـــاد في سبيل الدعوة واسهامه مع رفاقه في مقاومـــة الوثنية في أوج عنفوانها يحجب عنه الآن الزلة الكبيرة التي ساقته قدماه اليها. والماضي الكبير يحجب الخطأ الكبير ما دام الإيمان لم ينقلب بعد إلى كفر صريح ... ونزلت كلمات الله لكي تحـدد للمسلمين انطلاقاً من هذه المناسبة العابرة موقفاً دائماً، عليهم أن لا ينحرفوا عنه : [يا أيها

---

(٣٩) الطبري ٣/٥١ — ٥٢ الواقدي ٢/٧٩٦ — ٧٩٧ .

(٤٠) مغازي ٢/٧٨٧ ، ٧٩٦ .

(٤١) مغـازي ٢/٧٩٢ .

الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة ...][42] .

انطلق الرسول ﷺ في العاشر من رمضان مستخلفاً على المدينة أبا رهم الغفاري ومستنفراً كل قادر على القتال من المسلمين ، وعندما بلغ مر الظهران عسكر هناك في عشرة آلاف من المسلمين من بني سليم وبني غفار وبني مزينة وتميم وقيس وأسد التي دعاها لموافاته في المدينة ، ولم يتخلف من المهاجرين والأنصار أحد. ولم تكن قريش ، وقد عميت الأخبار عنها ، تعرف حتى ذلك الحين شيئاً عما يفعله الرسول ﷺ هل يريد قريشاً أم هوازن أم ثقيف[43] ؟ ويذكر الواقدي أن المسلمين عسكروا بمر الظهران ولم يبلغ قريشاً حرف واحد من مسير رسول الله اليهم ، فقد اغتموا وهم يخافون أن يغزوهم رسول الله ﷺ[44] وكان العباس عم الرسول قد التحق بمعسكر المسلمين وجعل هدفه أن تقتنع قريش بعدم جدوى المقاومة وأن يجيء زعماؤها فيستأمنوا الرسول قبل وقوع المحذور فخرج يبحث عن رجل يذهب إلى مكة ليخبر أهلها بمكان معسكر المسلمين لكي يجيئوا فيعتذروا ويستأمنوا ، وإذا به يسمع عن قرب أبا سفيان وهو يقول لبديل ابن ورقاء وقد خرجا فيمن خرج من زعماء قريش يتحسسان الأخبار : ما رأيت نيراناً قط ولا عسكراً بهذا الشكل فيجيبه بديل : هذه والله خزاعة قد حمشتها « احرقتها » الحرب فيرد أبو سفيان : خزاعة اذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ! فتقدم العباس اليها وأعلمها حقيقة الخبر وأردف أبا سفيان وراءه في محاولة لاستئمان الرسول ﷺ إياه ، أما صاحبه فقد قفل عائداً ، ولمحهما عمر بن الخطاب وهما يجتازان معسكرات المسلمين فانطلق إلى الرسول قائلاً : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد امكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه ، إلا أن العباس سرعان ما أعلن جواره له . ولما رأى عمر يلح على قتله قال له :

---

(42) ابن هشام ص 281 ــ282 الطبري 47/3 ــ 49 ابن سعد 97/1/2 الواقدي 796/2 ــ 799 البلاذري : أنساب 354/1 اليعقوبي : تاريخ 47/2 ــ 48 .

(43) انظر : الطبري 55/3 .

(44) مغازي 814/2 .

مهلاً يا عمر فوالله ان لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت انه من رجال بني عبد مناف . فأجابه عمر : مهلاً يا عباس فلإسلامك يوم اسلمتَ كان أحب إلي من اسلام الخطاب لو أسلم! واصدر الرسول ﷺ أمره إلى عمه أن يذهب بأبي سفيان إلى رحله فاذا أصبح اتاه به ، وفي الصباح جيء به إلى الرسول ﷺ فقال له : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت ان لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد !!

استمر الرسول : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟قال : بأبي أنت وأمي..أما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شيئاً.فقال له العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. عندذاك أعلن أبو سفيان إسلامه . وأراد الرسول أن يتخذ منه مفتاح أمان يفتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة الدماء ويكبت به روح المقاومة الوثنية المتعطشة للقتل والدماء فأراد أن يشبع فيه عاطفة الفخر ويحقق هدفه عن هذا الطريق . فأعلن أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن وبذلك سعى الرسول إلى تنفيذ أسلوب (منع التجول) لكي يتمكن من دخول مكة بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات وإراقة الدماء.

وجعل لدار أبي سفيان مكانة خاصة كي يكون ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء.ولم يكتفِ الرسول بذلك بل أمر العباس أن يحجز أبا سفيان عند مدخل المضيق الذي ستنساب منه قوات المسلمين في طريقها إلى مكة فيراها رأي العين فيزداد يقيناً بألا قدرة للمكيين على المقاومة [٤٥] . ووقف العباس وأبو سفيان حيثما أمره الرسول ﷺ وراحت قبائل المسلمين تمر حاملة راياتها الخاصة واحدة تلو الأخرى ، وكلما مرت قبيلة كبَّرت ثلاثاً فسأل أبو سفيان :

---

(٤٥) ابن هشام ص ٢٨٢ ــ ٢٨٦ الطبري ٣/٤٩ ــ ٥٤ ابن سعد ٢/١/٩٧ ــ ٩٨ الواقدي ٢/٧٩٩ ــ ٨٠١ ، ٨١٤ ــ ٨١٨ البخاري : تجريد ٢/٩٠ البلاذري : انساب ١/٣٥٥ اليعقوبي : تاريخ ٢/٤٨ .

يا عباس من هذه؟فيقول سُليم، فيقول ما لي ولسُليم! ثم تمر القبيلة الأخرى فيسأل: يا عباس من هؤلاء؟ فيجيبه مزينة فيقول ما لي ولمزينة حتى إذا استعرضت القبائل كلها مرّ رسول الله في كتيبته (الخضراء) التي تضم ألف دارع من المهاجرين والأنصار لا يُرى منهم إلا الحدق خلل الحديد. فسأل أبو سفيان : سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ فأجابه هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار . فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة . فطلب منه العباس أن يسرع إلى قومه يعلمهم بما رأى وسمع [٤٦] .

دخل أبو سفيان مكة وراح يصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فانبرت له امرأته تقبح رأيه. وقام القوم مستنكرين قائلين: قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك؟ فاستأنف أبو سفيان : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، وأدركت الأغلبية العظمى من المكيين أن لا جدوى في مخالفة زعيمها أبي سفيان وهو يدعوها إلى الأمان قبل أن تكتسحها سيوف المسلمين . فتفرقت إلى دورها وإلى المسجد الحرام وأغلقت من دونها الأبواب [٤٧] .

***

وزع الرسول ﷺ قواده لكي يدخلوا كل من الجبهة التي حددت له : سعد بن عبادة وابنه يدخلان بقواتها مكة من الجهة الشرقية ، أبو عبيدة عامر بن الجراح يتقدم بقواته بين يدي الرسول ﷺ ليدخل مكة من جهتها الغربية ، الزبير بن العوام يقود خيل المهاجرين والانصار إلى أعلى مكة حيث الحجون لكي يغرز راية المسلمين هناك وخالد بن الوليد يدخل مكة من الجنوب حيث تجمع مقاتلو قريش وحلفاؤهم واحابيشهم لمنع القوات الإسلامية من اجتياز مكة .

---

(٤٦) ابن هشام ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ الطبري ٥٤/٣ الواقدي ٨١٨/٢ ـ ٨٢٢ البخاري : تجريد ٩٠/٢ .

(٤٧) ابن هشام ص ٢٨٧ الطبري ٥٤/٣ الواقدي ٨٢٢/٢ ـ ٨٢٣ .

وامر الرسول ﷺ قواده الا يقاتلوا إلا اضطراراً وسمى نفراً من مكة أمر بقتلهم حق ولو تعلقوا باستار الكعبة بسبب مواقف كانوا قد اتخذوها : ارتداداً عن الاسلام، أو قتلا لمسلمين ، أو إيذاء لدعاتهم في مكة أو هجاء قبيحاً لرسول الله ﷺ ، بلغ عددهم ثمانية بين رجل وامرأة قتل بعضهم وفر البعض الآخر واستأمنت فئة ثالثة فأمنها الرسول ﷺ وعفا عنها .

وقد دخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع بسهولة بالغة ، بعد ان هزم خالد القوات القرشية التي اعترضت مسيرته في الجنوب وقتل وجرح منهم ثلاثة عشر رجلاً [48] ، ولم يفقد من رجاله سوى اثنين كانا قد شذا عن الطريق التي سلكها [49].

وما ان تمت سيطرة المسلمين على مكة في العشر الأواخر من رمضان واستقر أمرهم فيها حق خرج الرسول ﷺ من خيمته التي ضربت له بالحجون حيث رفض النزول في بيوت مكة طيلة مكوثه هناك [50].

خرج على راحلته فطاف بالبيت سبعاً وتكبيرات المسلمين من ورائه تشق عنان الفضاء ثم دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها وكسر اوثانها بيده وطرحها أرضاً ومحا صور الملائكة والأنبياء ، وعندما رأى ابراهيم عليه السلام مصوراً في يده الازلام يستقسم بها قال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالازلام ما شأن ابراهيم والازلام [ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين] .

ثم أمر بتلك الصور فطمست وخرج إلى الأصنام المصفوفة حول البيت والمشدودة بالرصاص فراح يعمل بها تحطيما ويقول [قل جاء الحق وزهق الباطل

---

(٤٨) وقيل ثمان وعشرين : الواقدي ٢/٨٢٥ ـ ٨٢٦ ، البلاذري : فتوح ١/٤٤ .

(٤٩) ابن هشام ص ٢٨٩ ـ ٢٩١ الطبري ٣/٥٦ ـ ٦٠ ، ٦٣ ـ ٦٤ ابن سعد ٢/١/٩٨ الواقدي ٢/٨٢٣ ـ ٨٢٨ البلاذري : فتوح ١/٤٤ ـ ٤٥ انساب ١/٣٥٥ ـ ٣٦١ البخاري تجريد ٢/٩٠ .

(٥٠) الواقدي ٢/٨٢٩ .

ان الباطل كان زهوقاً][51] . وارسل خالد بن الوليد الى بطن نخلة ليهدم العزى كبير آلهة المنطقة فانطلق خالد إلى هدفه فكسر الصنم وهدم بيته وسادنه يصرخ: أعزى اغضبي بعض غضباتك، دونما جدوى[52] . وانطلق عمرو بن العاص لهدم سواع ، وكان حجراً ، وجرى بينه وبين السادن هذا الحوار :

السادن : ما تريد ؟

عمرو : هدم سواع .

السادن : لا تطيق هدمه .

عمرو : أنت في الباطل بعد .

وهدم الوثن فلم يجد في خزانته شيئاً . وفي الوقت نفسه كان سعد بن زيد الأنصاري يهدم مناة ، الاله الذي كانت الأوس والخزرج تعبده وتطوف به أيام الجاهلية[53]. ومن مكة أيضاً بث الرسول ﷺ سراياه في الجهات المحيطة تدعوا إلى الاسلام وهي تحمل أمراً بعدم القتال ، مستهدفاً بذلك تعزيز انتصاره على الزعامة الوثنية ومدّ الدعوة إلى مناطق كانت قريش قد جعلتها حكراً على الهتها وأصنامها[54] .

وقف الرسول ﷺ على باب الكعبة وقد تجمع الناس في المسجد فخاطبهم قائلاً (لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج . يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم) .

---

(٥١) ابن هشام ص ٢٩١ — ٢٩٤ ابن سعد ٩٨/١/٢ — ٩٩ الواقدي ٨٣١/٢ — ٨٣٢ ، ٨٣٤ ، البلاذري : فتوح ٤٦/١ البخاري : تجريد ٩٠/٢ — ٩١ .

(٥٢) الواقدي ٨٧٠/٢ الطبري ٦٥/٣ ابن سعد ١٠٥/١/٢ خليفة بن خياط ٥١/١ .

(٥٣) الطبري ٦٦/٣ الواقدي ٨٧٠/٢ ابن سعد ١/٢/ ١٠٥ — ١٠٦ .

(٥٤) الطبري ٦٦/٣ ابن سعد ١٠٦/١/٢ — ١٠٨ الواقدي ٨٧٥/٣ — ٨٨٤ خليفة بن خياط : تاريخ ٥١/١ .

يا معشر قريش ما ترون اني فاعل بكم؟ . أجابوه بصوت واحد: خيراً ، أخ كريم وابن أخٍ كريم ! قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

كان الرسول ﷺ يستهدف من حرصه على السلم تأليف القلوب وتوحيد كلمتها لتقبل على الإسلام، فلم يكن من السهل على قريش أن تقبل بمصيرها الذي آلت اليه وهي سيدة العرب دون منازع لأنها أعظمهم حضارة واشدهم بأساً وأكثرهم مالا وفي بلدها البيت الحرام، ليس من السهل أن تقبل قريش بمصيرها هذا وتقبل على الاسلام طائعة وتحمل رايات الجهاد لو لم تعامل هذه المعاملة السلمية التي لم تكن تتوقعها ، وبذلك انقلب موقفها من أشد الناس عداوة للاسلام إلى احرص الناس على رفع راية الاسلام[55].

جلس الرسول ﷺ في المسجد فقام اليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده وقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فقال الرسول ﷺ : أين عثمان بن طلحة؟ فلما جيء به، قال له: هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم برّ ووفاء[56] . وأمر مؤذنه بلالاً أن يصعد فيؤذن في الناس معلناً بشهادته انتهاء عهد الوثنية في مكة ، قلب الوثنية ، وبداية عهد جديد لا يُعبد فيه غير الله ، وفق التعاليم التي جاء بها رسول الله ﷺ: العبادة التي تحرر الانسان وتباركه وتزكيه وتقوده إلى الفلاح الواحد في الدنيا والآخرة وترفع رأسه فلا يعود ينخفض مرة أخرى لقوة في الأرض بشراً كانت أم حجارة صماء[57] .

وفي يوم الفتح هذا يقول الغزالي : « ترجع بنا الذكريات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين ولم يسمعوا صوت بلال يرنّ فوق ظهر الكعبة بشعار التوحيد ولم يروا الأصنام مكبوبة على وجوهها.. إنهم قتلوا أو ماتوا إبان المعركة الطويلة

---

(٥٥) شيت خطاب : الرسول القائد ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٥٦) ابن هشام ص ٢٩٢ — ٢٩٣ الطبري ٦٠/٣ — ٦١ ابن سعد ٩٩/١/٢ الواقدي ٨٣٢/٢ — ٨٣٨ البلاذري : فتوح ٤٧/١ — ٤٨ انساب ٣٥٥/١ — ٣٥٦ . وانظر عن نص خطبة الرسول في اعقاب فتح مكة : حميد الله : الوثائق ص ٦٧— ٦٨ .

(٥٧) عن الآيات المتعلقة بفتح مكة انظر سورة التوبة : ٨ — ١٦ ، ٢٣ — ٢٤ ، الممتحنة ١ — ٣ .

التي نشبت بين الايمان والكفر ، ولكن النصر الذي يجني الأحياء ثماره اليوم لهم فيه نصيب كبير وجزاؤهم عليه مكفول عند من لا يظلم مثقال ذرة . إنه ليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق والباطل ، فقد يخترمه الأجل في المراحل الأولى وقد يصرع في هزيمة عارضة كما وقع لسيد الشهداء حمزة ومن معه . والقرآن الكريم ينبه أصحاب الحق إلى أن المعوّل في الحساب الكامل على الدار الآخرة لا على الدار الدنيا فهناك الجزاء الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعاً [فاصْبرْ إنّ وَعْدَ الله حقٌ ، فإمّا نُرِيَنّكَ بعضَ الذي نعدُهُمْ أو نَتَوَفّيَنّكَ فإلَينا يُرْجعُون] ... »[٥٨] .

***

ولد سقوط مكة قاعدة الوثنية رد فعل عنيف لدى القبائل العربية في الشمال وعلى رأسها هوازن وثقيف ، ورأت أن تتحرك لتوجيه ضربة قاصمة للقوات الاسلامية قبل ان يستفحل الخطر وتجد هذه القبائل نفسها محاطة من كل مكان . إذ أن السكوت ازاء ما يحققه المسلمون من انتصارات ، يعني فتح الطريق امامهم لتغطية الجزيرة كلها بدينهم الجديد ، واكتساح مواقع الوثنية واحدة واحدة ، سيما وان (أم القرى) قد القت السلاح دونما قتال أو مقاومة . هذا إلى أن هذه القبائل كانت — لدى سماعها بمغادرة الرسول المدينة على رأس قواته — قد تجمعت خوفاً من أن يغزوها الرسول ﷺ . وقال زعماؤها بعد فتح مكة « قد فرغ لنا ، فلا ناهية له دوننا ، والرأي أن نغزوه » .

وتولت هوازن كبر المحاولة حيث جمعها زعيمها مالك بن عوف النصري وانضمت اليها ثقيف كلها ، ولحق بها بعد قليل قبائل نصر وجشم وسعد بن بكر وعدد من ابناء بني هلال وبني مالك ، واتفق قادتهم على أن يسلموا بزعامة مالك بن عوف ، فرأى هذا أن يسير مع المقاتلين ، نساؤهم وأطفالهم وأموالهم كي يستميتوا في القتال ... وعندما عسكر في أوطاس ، أحد وديان هوازن ،

(٥٨) فقه السيرة ص ٤١٨ .

اعترض دريد بن الصمة الجشمي على رأي مالك في جلب النساء والأطفال والأموال ، وسأله لِمَ ذاك ؟ فأجاب مالك : أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم ، فقال دريد وهو شيخ كبير مجرب : راعي ضأن والله ! وهل يرد المنهزم شيء ؟ انها ان كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت في أهلك ومالك . فرفض مالك الأخذ برأيه أنفة واستعلاء ونادى قومه : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ثم شدوا شدة رجل واحد[٥٩] .

عندما سمع النبي ﷺ نبأ هذا التحرك الوثني بعث أحد أصحابه مستخبراً ، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم . فتسلل الرجل إلى مواقع العدو وعاد ليخبر الرسول ﷺ بما أجمع عليه هؤلاء من قتال المسلمين . فانطلق الرسول ﷺ في مطلع شوال على رأس اثني عشر الف مقاتل كان من ضمنهم الفان من المكيين أسلموا بعد الفتح . وسرعان ما وجد المسلمون أنفسهم مضطرين إلى اجتياز وادٍ من أودية تهامة ، شديد الانحدار يدعى حنيناً ، في طريقهم لمجابهة التجمع الوثني . ولم يكن الصبح قد اتضح بعد ، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الوادي فكمنوا لهم في شعابه ومضايقه ، وتهيأوا للانقضاض على المسلمين في جو يسوده المطر والضباب . وما أن دخلت قوات المسلمين الوادي حتى انقض عليهم اعداؤهم دفعة واحدة ، من حيث لم يكونوا يتوقعون ، فأصابهم الفزع والاضطراب وكرّوا راجعين لا يلوي أحد على أحد[٦٠] !!

انحاز الرسول ﷺ ذات اليمين ونادى (أيها الناس هلموا إليّ ، أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله) ، ثم تقدم بحربته أمام المقاتلين ، وكان يقف إلى جانبه صامداً عشرات من المهاجرين والأنصار فيهم علي وأبو بكر واسامة و عمر ...

---

(٥٩) ابن هشام ص ٢٩٧ — ٢٩٩ الطبري ٧٠/٣ — ٧٢ الواقدي ٨٨٥/٣ — ٨٨٩ .
(٦٠) ابن هشام ص ٢٩٩ — ٣٠١ الطبري ٧٢/٣ — ٧٤ ابن سعد ١٠٨/١/٢ الواقدي ٨٨٩/٣ — ٨٩٧ .

وقال للعباس ذي الصوت الجهوري« يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار ، يامعشر أصحاب السَمُرة » وسرعان مـا انطلقت النداءات من بعيـد (لبيك لبيك) وكان الرجل منهم إذا ما أراد ثني بعيره والانطلاق ثانية الى قلب المعركة ، لا يقدر على ذلك، لشدة التدافع والزحام وضغط المتراجعين، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويحمل سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره مخلياً سبيلها ، ومنطلقاً صوب النداء . حتى اذا اجتمع إلى الرسول مائة من المقاتلين ، استقبلوا العدو واقتتلوا معه قتالاً مريراً وقال الرسول وقد رأى أصحابه يجتلدون مع المشركين : الآن حمي الوطيس . وتمكن علي ورجل من الأنصار من قتل حامل راية هوازن. وبدأت الكفة ترجح لصالح المسلمين ، وما لبث المشركون أن أخذوا بالتراجع صوب الوراء وانقض عليهم المسلمون يعملون فيهم قتلاً واسراً ... وما أن عـاد إلى الميدان أولئك الذين تراجعوا الى الخلف من المسلمين ، حتى وجدوا أسارى المشركين مكتفين بين يدي رسول الله ﷺ [٦١] .

تراجع المشركون بقيادة مالك بن عوف صوب الطائف ، وعسكر بعضهم في أوطاس ، وتوجهت فئـــة ثالثة نحو نخلة ، ولم يتح لهم الرسول ﷺ فرصة يستردون فيها قواهم ويعيدون تنظيم أنفسهم ، فأرسل قوة من فرسان المسلمين لمطاردة أولئك الذين توجهوا نحو نخلة ، وقوة ثانية بقيـادة أبي عامر الاشعري كلفت بقتال المشركين في أوطاس ، فأصابوه بسهم أودى بحياته ، فأخذ الرايـة ابن عمه أبو موسى الأشعري وقاتلهم حتى فتح عليه وتمكن من هزيمتهم[٦٢].

***

وبعد أن أمر الرسول بحبس سبايا معركة حنين وأموالها الكثيرة في مكان يدعى

---

(٦١) ابن هشام ص ٣٠١ — ٣٠٣ الطبري ٧٤/٣ — ٧٧ ابن سعد ١٠٩/١/٢ الواقدي ٨٩٧/٣ — ٩١٤ البلاذري : انساب ٣٦٥/١ اليعقوبي : تاريخ ٥٢/٢ .

(٦٢) ابن هشام ص ٣٠٥ الطبري ٧٨/٣٣ — ٨٠ ابن سعد ١٠٩/١/٢ الواقدي ٩١٥/٣ — ٩١٦ البلاذري : فتوح ٦٥/١ انساب ٣٦٥/١ البخاري : تجريد ٩١/٢ — ٩٢ .

(الجعرانة) بمجدداً التصرف بها، انطلق صوب الطائف حيث اعتصم المنهزمون بحصونها المنيعة وأعدوا العدة للقتال . ونزل قريباً منها حيث عسكر هناك . وجرت مناوشات بين الطرفين ذهب ضحيتها نفر من المسلمين بنبال العدو ، الأمر الذي دفع الرسول إلى إبعاد معسكره عن مدى النبال التي كانت تنطلق من حصون ثقيف . وظل يحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة، قدمت خلالها وفود المناطق المجاورة معلنة اسلامها . واستمر القتال ، عنيفاً حيناً ومتقطعاً أحياناً ، استعمل فيه المسلمون آلات الحصار لأول مرة كالمنجنيق والدبابة وقد تمكنت قوة من المسلمين من الزحف بدبابتهم الى جدار الطائف وبدأوا بخرقه لو لا أن أرسلت عليهم ثقيف قطعاً من حديد محمية بالنار اضطرتهم إلى الانسحاب بعد أن سقط عدد منهم . ورداً على المقاومة العنيفة التي أبداها المشركون ، أمر الرسول بتقطيع كروم ثقيف المنتشرة في البساتين المجاورة لإرغامهم على التسليم . وتسلل الى معسكر المسلمين من الطائف ، آنذاك ، نفر من عبيدها أعلنوا اسلامهم ، فأعتقهم الرسول صلى الله عليه وسلم [٦٣] .

لم يرَ الرسول صلى الله عليه وسلم ضرورة للاستمرار في الحصار ، وأدرك أن الطائف ستجد نفسها في يوم قريب أشبه بجزيرة منقطعة يحيط بها بحر طام من كل مكان ، وستسعى اليه حينذاك طالبة الانتماء الى الدين الجديد ، رغبة وايماناً لا حقداً وخوفاً. وبدلاً من أن تكون هذه المدينة ذات الطاقات البشرية المعروفة ، على المسلمين في مستقبل الأيام، فانها ستكون لهم. ولقد كانت رحلة تبوك الكبرى بعد ذلك بقليل مما يسوغ القول إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرَ خطراً من ترك الطائف الى فرصة اخرى ورأى العودة والتعجيل برحلة تبوك [٦٤] . لذلك كله لم يشأ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفتتحها عنوة ، ولم يأمر بهجوم حاسم عليها،

---

(٦٣) ابن هشام ص ٣٠٧ — ٣١٠ . الطبري ٨٣/٣ — ٨٥ ابن سعد ١١٤/١/٢ الواقدي ٩٢٣/٣ — ٩٣٧ البلاذري : فتوح ٦٥/١ انساب ٣٦٧/١ خليفة بن خياط : تاريخ ٥٣/١ .

(٦٤) دروزة : سيرة الرسول ٣٦٩/٢ — ٣٧٠ .

كما حدث في العام الماضي مع حصون خيبر على سبيل المثال . واكتفى بأن يدير القتال على أضيق نطاق ، بحيث أن جميع من استشهد من أصحابه خلال الحصار لم يتجاوزوا اثني عشر رجلا (٦٥) . ومن ثم أمر أن يؤذن في الناس بالرحيل ، فقفل المسلمون عائدين ، بمدبضع وعشرين يوماً من الحصار ، الى الجعرانة حيث جمعت السبايا والغنائم الكثيرة في أعقاب حنين : ستة آلاف رأس من السبي ، وأربعة وعشرون ألف بعير . وأربعون ألف شاة،وأربعة آلاف أوقية من الفضة . ولم يتسرع الرسول صلى الله عليه وسلم في توزيعها أملا في أن يعود قادة هوازن مسلمين فيرد عليهم سبيهم وأموالهم.ولكنهم لم يجيئوا الا بعد انتظار طويل وزعت خلاله المغانم . وفي الجعرانـة التقوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا له : يا رسول الله إنّا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا مـن البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا منّ الله عليك . فسألهم الرسول: أأبناؤكم ونساؤكم احب اليكم أم اموالكم ، فـأجابوه : نساؤنا وابناؤنا ، فردهم اليهم عن طيب خاطر من المسلمين وسألهم ان يخبروا زعيمهم مالك بن عوف الذي كان قد احتمى بالطائف انه ان جاء مسلماردّ عليه الرسول اهله وماله، فاستجاب مالك لدعوة الرسول ﷺ وتسلل من الطائف حيث قدم عليه معلناً اسلامه ، فرد عليه الرسول أهله وماله واستعمله على من أسلم من قومـه والقبائل المجاورة . فأخذ مالك يداهم ثقيفاً بمسلمي قومه ، ويهاجم قطعانهم وقوافلهم حتى ضيق عليهم (٦٦) وبذلك حقق الرسول ﷺ هدفين اثنين بسياسته المرنة هذه أولهما كسب قبيلة هوازن ذات الشّوكة وحلفاءها إلى معسكر المسلمين ، وثانيهما اتخاذها رأس حربة يضرب بها بقايا القوى الوثنية في المنطقة .

***

بدأ الرسول ﷺ بعد ذلك مهمة توزيع الغنائم على جنده وأتباعه . وناداه

---

(٦٥) ابن هشام ص ٣١٠ . الطبري ٨٥/٣ ابن سعد ١١٤/١/٢ — ١١٥ خليفة بن خياط : تاريخ ٥٤/١ — ٥٥ .

(٦٦) ابن هشام ص ٣١١ — ٣١٤ الطبـري ٨٦/٣ —٨٩ ابن سعد ١١٠/١/٢ — ١١١ الواقدي ٩٤٩/٣ — ٩٥٦ .

الأعراب : يا رسول الله ، أقسم علينا من الابل والغنم ، وازدحموا عليـــه حتى ألجؤوه إلى جذع شجرة اختطفت عنه رداءه فقال: ردّوا عليّ ردائي أيها الناس فوالله ان لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعم لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً . ثم تقدم إلى بعير قريب منه فاستل منه وبرة جعلها بـين اصبعيه ثم رفعها وقال (أيها الناس ، والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة ، إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم) !! ثم راح يوزع الغنـائم ، مختصاً بقسمها الأكبر زعماء القبائل العربية التي أسلمت أخيراً من أجل أن يتألفهم وقومهم بها ، فأعطى كل واحد منهم عشرات من الجمال . وعندما رأى الأنصار أن الغنائم قد حجبت عنهم ، وانصبت بين أيدي قريش وقبائل المنطقة وجدوا في أنفسهم ، وتناوشتهم الظنون ، فراحوا يتهامسون بها ، وقال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه. ولم يشأ زعيمهم سعد بن عبادة إلا أن يصارح الرسول بما يدور بين أتباعه ، فسأله الرسول : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ أجاب : يارسول الله ما انا إلا من قومي ، فقال له الرسول : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة .

وقف الرسول ﷺ في جموع الأنصار خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليـــه ثم قـال (يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بـــين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، والله ورسوله أمنّ وأفضل . قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل . قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم :

اتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى اسلامـــكم ؟ الا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الانصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء ابناء الانصار) فبكى القوم

اخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً (٦٧). وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فتفرقوا وهم يعلمون يقينا البعد الحقيقي للدرس الذي منحهم إياه نبيهم ومعلمهم .

إن هذه الكتلة النقية في تاريخ الحركة الاسلامية يجب ان تظل على نقائها تعطي ولا تأخذ، تقدم ولا تؤخر ، لأن الذي قادها إلى الايمان ، ورفعها مجاهدة في طريقه اللاحب الطويل، شيء آخر غير اهتمامات الذهب والفضة .. انه النور العميق الذي انقدح في اعماقهم يوم بايعوا الرسول ﷺ .. وأما الكتل الجديدة في تاريخ الدعوة ، فاسلوب التعامل معها ، وكسبها ، وكف أذاها ، غير أسلوب التعامل مع كتلة كالأنصار آثر الرسول ﷺ أن يبقى معها دوماً : حياً وميتاً (معاذ الله .. – قال لهم الرسول – المحيا محياكم والممات مماتكم) !!

***

قفل الرسول ﷺ عائداً إلى مكة فأدى مناسك العمرة هناك في ذي القعدة وولى عتاب بن اسيد إمرة مكة ، ومعاذ بن جبل تفقيه الناس في الدين وتعليمهم القرآن . ومنح عتاباً راتباً يومياً مقداره درهم واحد !! وقد قام الأمير الشاب يوماً خطيباً في الناس فأعرب عن قناعته بما يتقاضى أجراً على اتعابه . وقال : أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله صلى الله عليه وسلم درهماً كل يوم فليست بي حاجة إلى أحد . وقد حج عتاب بالمسلمين ذلك العام الذي شهد حجاً مختلطاً شمل المسلمين والوثنيين على السواء(٦٨) . وفي الأيام الأخيرة من ذي العقدة ومطلع الشهر التالي كان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد سلكوا طريق العودة إلى المدينة في أعقاب أكبر انتصارين حققهما الإسلام في صراعه مع الوثنية .

---

(٦٧) ابن هشام ص ٣١٤– ٣١٨ الطبري ٨٩/٣ – ٩٤ ابن سعد ١١٠/١/٢ – ١١١ الواقدي ٩٤٣/٣ – ٩٤٩ ، ٩٥٦ –٩٥٨ وانظر : البخاري : تجريد ٩٣/٢ .

(٦٨) ابن هشام ص ٣١٨ الطبري ٩٤/٣ – ٩٥ الواقدي ٩٥٩/٣ – ٩٦٠ .

عام الوفود وتصفية الوجود الوثني

كان سقوط مكة زعيمة الشرك بأيدي الفاتحين ، وهزيمة التحالف الوثني الأخير في حنين، آخر ضربتين حاسمتين للوجود الوثني في جزيرة العرب ، انهار بعدها جدار الكفر وانطلقت حركة الاسلام بخفة وسرعة،حيث أزيلت العوائق، إلى كل مكان . وأدركت القبائل العربية التي ظلت على وثنيتها ألاّ مناص لها من تحديد موقفها من الاسلام ودولته المتفردة بالحكم والسلطان في الجزيرة كلها، وان عنادها وتشبثها بمواقفها السابقة فقدَ مبرراته بدخول مكة في الاسلام ، وانتماء هوازن ، أكبر القبائل الوثنية ، للدين الجديد . فراحت هذه القبائل تتسابق في إرسال وفودها الى المدينة ، قاعدة الاسلام ، مبايعة على الاسلام أو مصالحة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكثرة هذه الوفود التي انهالت على المدينة في العام التالي لفتح مكة ومطلع الذي يليه ، سماه المؤرخون (عام الوفود) . وكان في طليعتها وفد ثقيف الذي َقدِمَ إلىالمدينة في شهر رمضانفي أعقاب عودةالرسول من غزوة تبوك . قال ابن اسحق « وإنما كانت العرب تربّص بالاسلام امر هذا الحي من قريش ، كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد اسماعيل ، وقادة العرب ، لا ينكرون ذلك . وكانت قريش هي التي نصبت

لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوّخها الاسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته، فدخلوا في دين الله عز وجل أفواجاً يضربون اليه من كل وجه »[٦٩].

وكان عروة بن مسعود، أحد زعماء ثقيف، قد أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم في طريق عودته، قبل أن يصل المدينة، وأعلن إسلامه، وقفل عائداً إلى الطائف يدعو قومه إلى الاسلام متحصناً بمنزلته فيهم ومحبتهم وطاعتهم له، إلا أن حميتهم الجاهلية أنستهم ذلك كله فرموه بالنبل من كل وجه وأصابه أحدها فخرّ صريعاً، وعندما سئل، وهو يتضرج بدمائه، ما ترى في دمك؟ أجاب: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم. ومرت الشهور على مصرع عروة، وبدأت ثقيف تدرك ألا طاقة لها بحرب من حولها من القبائل العربية التي بايعت وأسلمت، فاتفق زعماؤها على أن يرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يكلمه، ووقع اختيارهم على عبد ياليل بن عمرو بن عمير، أحد أشراف الطائف، إلا أنه تخوّف أن يصنعوا به، بعد عودته، ما صنعوا بعروة، وطلب منهم أن يرسلوا برفقته رجالاً من شتى عشائر ثقيف، فأجابوه واختاروا له خمسة رجال اتجه بهم الى المدينة[٧٠].

لقيهم المغيرة بن شعبة في أطراف المدينة فهرع ليبشر الرسول صلى الله عليه عليه وسلم بقدومهم عليه فلما رآه أبو بكر وعرف النبأ رجاه ألا يسبقه الى الرسول، حتى يكون الصدّيق أول من يحدثه بالنبأ، ففعل المغيرة. وعندما التقوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وبدءوا حديثهم معه سألوه أن يدع لهم اللات

---

(٦٩) ابن هشام ص ٣٤٢.

(٧٠) ابن هشام ص ٣٣٦ — ٣٣٧ الطبري ٩٦/٣ — ٩٨ ابن سعد ٥٢/٢/١ — ٥٣ الواقدي ٩٦٠/٣ — ٩٦٣.

لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله عليهم ذلك فما برحوا يسألونه، سنة سنة، ويأبى عليهم ، حتى تنازلوا إلى التماس إبقائها شهراً واحداً، والرسول يأبى أن يدعها يوماً واحداً . . وكان غرضهم من ذلك أن يسلموا - بعد عودتهم - من سخط سفهائهم ونسائهم وصبيانهم ، وألا يروّعوا قومهم بهدمها ، حتى ينتشر الاسلام بينهم . فسألوه أن يعفيهم من تحطيم أصنامهم بأيديهم فأجابهم إلى ذلك وأرسل معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ليهدماها . وبعد أن أعلنوا إسلامهم ، كتب لهم الرسول ﷺ كتاباً وأمّر عليهم عثمان بن أبي العاص رغم حداثة سنه ، لكونه أحرصهم على التفقه في الاسلام وتعلم القرآن (71) .

عاد الوفد إلى الطائف يصحبه المغيرة وأبو سفيان، وتوجه المغيرة فور وصوله إلى اللات وراح يعمل فيها ضرباً بمعوله، وقومه يحمونه خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة بن مسعود . وخرجت نساء بني ثقيف حاسرات يبكين ويندبن إلههن وهو يتهاوى إلى الأرض قطعاً من الحجارة الصماء . وما لبث المغيرة أن أتمّ مهمته ، ومحا من الطائف ، ذلك المركز المهم الثالث في شمال الجزيرة ، رمزها الوثني الذي حجبها عن الالتحاق بالدعوة الجديدة ردحاً طويلاً (72) . وغدا الطائفيون من أشد الجماعات إخلاصاً للدعوة حتى أن المغيرة قال عنهم « لا أعلم قوماً من العرب ولا قبيلة كانوا أصحّ إسلاماً ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم » (73) .. وهكذا جاء البذار الذي زرعه الرسول صلى الله عليه وسلم قبل عام واحد عند أسوار الطائف ، بثماره الحلوة !!

***

---

(71) ابن هشام ٣٣٧ — ٣٣٩ الطبري ٩٨/٣ — ٩٩ ابن سعد ٥٣/٢/١ — ٥٤ الواقدي ٩٦٣/٣ — ٩٦٩ ابن الاثير : الكامل ٢٨٣/٢ — ٢٨٤ ابن حزم : جوامع ٢٥٥ — ٢٥٧ .

(72) ابن هشام ص٣٣٩ — ٣٤٠ الطبري ٩٩/٣ — ١٠٠ الواقدي ٩٦٩/٣ — ٩٧٣ ابن حزم : جوامع ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(73) ابن سعد ٥٤/٢/١ .

كان الوفد الثاني الذي قدِمَ المدينة ، بني تميم ، وكان يترأسه عطارد بن حاجب في عدد كبير من رجالات تميم وأشرافها. وعندما وصلوا المسجد ظهراً، نادوا رسول الله من وراء حجراته : أن اخرج الينا يا محمد ! فخرج اليهم الرسول وهو غير مرتاح لأسلوبهم البدوي الخشن في ندائه ، وقام زعيمهم فألقى كلمة عدّد فيها مآثر بني تميم وفضلهم في الناس . فأمر الرسول خطيبه ثابت بن قيس الخزرجي أن يرد على الرجل . فقام قيس خطيباً في المجتمعين ، فبدأ كلامه بحمد الله والثناء عليه ثم تطرق الى نبوة الرسول وفضله وختم خطابه قائلا « ...واستجاب لله حين دعاهم رسول الله ، نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ومن كفر جاهدناه في الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ... » . وأعقبه الزبرقان بن بدر شاعر تميم بقصيدة أكبر فيها مكانة تميم بين العرب ، فأمر الرسول شاعره حسان بن ثابت أن يرد على الرجل ، فأجابه بقصيدة أخرى . ولما انتهى الطرفان من القاء خطبهم وقصائدهم أعلن وفد بني تميم الاسلام ، فمنحهم الرسول الجوائز والعطايا(٧٤).

وأرسلت بنو عبد القيس وفدها الى المدينة برئاسة الجارود بن عمرو ، فأسلم وأصحابه . كما قدِمَ وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة بن حبيب الحنفي الكذاب ، فتركه قومه في رحالهم وذهبوا لمقابلة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما أسلموا وقفلوا عائدين الى ديارهم أعلن مسيلمة أنه قد أشرك في الأمر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وراح يتلو عليهم سجعه الذي ظن أنه انما يضاهي به القرآن(٧٥).

وقدِمَ عدي بن حاتم الذي كان قد اعتنق النصرانية ولجأ الى الشام اثر اتساع سلطان المسلمين . وقال له الرسول « لعلك يا عدي انما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا

---

(٧٤) ابن هشام ص ٣٤٢ — ٣٤٦ الطبري ١١٥/٣ — ١٢٠ ابن سعد ٤٠/٢/١ — ٤١ الواقدي ٩٧٥/٣ — ٩٨٠ .

(٧٥) ابن هشام ص ٣٥٠— ٣٥٢ الطبري ١٣٦/٣ — ١٣٨ ابن سعد ٥٥/٢/١ — ٥٦ وانظر البخاري : تجريد ٩٦/٢ — ٩٧ .

يوجد من يأخذه . ولعلك انما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف . ولعلك انما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وأيمّ الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم » . وما لبث عدي أن أعلن إسلامه (٧٦) .

وراحت الوفود وزعماء القبائل تترى على المدينة : قَدِمَ فروة بن مسيك المرادي مفارقاً لملوك كندة ، فأعلن إسلامه ، فاستعمله الرسول على قبائل مراد وزبيد ومذحج وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة . وقدِمَ عمرو ابن معد يكرب في رجال من بني زُبَيْد فأعلنوا إسلامهم . وقَدِمَ وفد كندة ، البالغ ثمانين رجلاً بزعامة الأشعث بن قيس وأعلنوا اسلامهم ، وقدم صرد بن عبدالله الأزدي في وفد من الأزد وأعلنوا اسلامهم ، فأمّره الرسول على قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم منهم مشركي القبائل اليمنية المجاورة . كما قَدِمَ وفد آخر يحمل كتاباً من ملوك حمير يعلنون فيه إسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، فأجابهم الرسول بكتاب يبين لهم فيه بعض فرائض الاسلام ويعلمهم بأنه سيرسل اليهم عدداً من خيرة أصحابه فيهم معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وغيرهم ، وعليهم أن يؤدوا اليهم ما سيجبونه من صدقة وجزية ، وأمّر عليهم معاذ بن جبل (٧٧) .

وقدمت كذلك وفود بلى والداريين (من لخم) وسلامان وغسان وغامد وبنو أسد وقال هؤلاء للرسول: قدمنا يا رسول الله من قبل أن ترسل الينا رسولا فأنزل الله سبحانه فيهم (يمنون عليك أن اسلموا ، قل : لا تمنوا علي اسلامكم ، بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ..)(٧٨) . كما قدمت وفود بهراء وبني البكاء

---

(٧٦) ابن هشام ص ٣٥٢ — ٣٥٦ الطبري ١١٢/٣ — ١١٥ ابن سعد ٥٩/٢/١ — ٦٠ .

(٧٧) انظر : ابن هشام ص ٣٥٦ — ٣٦٤ الطبري ١٢٠/٣ — ١٢٢ ، ١٣٢ — ١٣٩ وانظر بالتفصيل ابن سعد ٣٨/٢/١ — ٨٦ .

(٧٨) الحجرات ١٧ ،وانظر : الطبري ٩٦/٣ ، ١٣٠ .

وبني فزارة[٧٩] . وارسلت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبـة إلى رسول الله ، فقدم عليه ، وأناخ بعـيره عند باب المسجد ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس بين أصحابه ، ووقف قريباً منه وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ أجـاب الرسول : أنا . قال الرجل : يا ابن عبد المطلب اني سائلك ومغلظ لك في المسألة فلا تجدنّ في نفسك . قال : لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك . قال : انشدك بالله الهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله بعثك الينـا رسولا ؟ قال : اللهم نعم . قال : فانشدك بالله .. الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحـده ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الانداد التي كانت آباؤنا تعبد من دونه قال:
ولا نشرك به شيئاً ،وأن نخلع هذه الانداد التي كانت آباؤنا تعبد من دونه؟قال:
الخمس ؟ قال : اللهم نعم . ثم جعل ضمام يذكر فرائض الاسلام واحدة واحدة، حتى إذا فرغ قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شريك له واشهد أن محمداً رسول الله. وانصرف راجعاً حتى إذا قدم على قومه، اجتمعوا اليه فراح يصرخ فيهم : بئست اللات والعزى قـالوا : مَهْ يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون ! قال : ويحكم ، انهما والله لا ينفعان ولا يضرّان ، وان الله قد بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتابـاً استنقذكم به مما كنتم فيه ، واني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه . قال ابن عباس : فوالله ما أمسى ذلك اليوم وفي حيّه رجـل ولا امرأ إلا مسلماً[١٦] .ذلك وفد-يقول الغزالي-« يمثل بساطة الاميين في منطقهم ، وسلامة طريقتهم في جدلهم وخلوّ اذهانهم من العقد التي تعترض الحق في مسيله السمح . ولا نكران في أن جهـاد الدعوة القديم له أثره في الوصول إلى هذه النتائج السريعة، وهذا طبيعي ، فان تغيير دين ليس كتجديد زي ، وضمام كان يستحضر في ذهنه وهو يسأل النبي ، ثم وهو يخطب قومه ، ان هذه الرسالة الجديدة مرّت باطوار شتى من المحن والفتن ثم كشفت عن صدقها وسلامة جوهرها

---

(٧٩) الطبـري ١٢٢/٣ .

(٨٠) الطبري ١٢٤/٣ – ١٢٥ .

فليس ايمانه وايمان قومه وليد ساعة من كلام»(٨١).

***

وبعد قليل استقبلت المدينة عدداً آخر من الوفود انهالوا عليها من كل مكان: وفد محارب ووفد الرهاويين ووفد عبس (٨٢)، ووفد من طيىء برئاسة الشاعر زيد الخيل (٨٣)، ووفد بني عامر بن صعصعة (٨٤)... وكان الرسول ﷺ قد بعث خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب في نجران ليدعوهم إلى الاسلام، فاستجابوا لدعوته وارسلوا إلى المدينة وفداً أعلن أسلامه، فأمّر عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم قيس بن الحصين، والحق بهم - بعد مغادرتهم المدينة - عمراً ابن حزم ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومبادىء الاسلام ويجبي صدقاتهم، وسلمه كتاباً يبين فيه الكثير من تعاليم الاسلام التي كلف بابلاغها القاطنين هناك، وختم الكتاب بقوله «... وانه من اسلم من يهودي أو نصراني اسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الاسلام فانه مَن المؤمنين، له مثل مالهم وعليه مثل ما عليهم. ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يردّ عنها...» (٨٥).

وفي مقابل ذلك قام الرسول بارسال امرائه وعمّاله إلى المناطق التي انتشر فيها الاسلام والقبائل التي أعلنت انتماءها للدين الجديد لكي يجبوا الصدقات ويعلموا الناس أصول دينهم، فبعث المهاجر بن ابي أمية بن المغيرة إلى صنعاء وزياد بن لبيد الأنصاري إلى حضرموت وعدي بن حاتم إلى طيىء وبني أسد، ومالك بن نويرة إلى بني حنظلة، والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم إلى بني سعد، والعلاء

---

(٨١) فقه السيرة ص ٤٥٧.
(٨٢) الطبري ١٣٩/٣.
(٨٣) الطبري ١٤٥/٣.
(٨٤) الطبري ١٤٤/٣. وانظر عن الوفود بالتفصيل: ابن سعد ٣٨/٢/١ - ٨٦ واليعقوبي: تاريخ ٦٨/٢ - ٦٩ وابن كثير: البداية ٤٠/٥ - ٩٦ وارنولد: الدعوة الى الاسلام ص ٥٥ - ٦١.
(٨٥) ابن هشام ص ٣٦٥ - ٣٦٩ الطبري ١٢٦/٣ - ١٢٩ ابن سعد ١٢٢/١/٢.

ابن الحضرمي إلى البحرين ، وعلي بن ابي طالب إلى اليمن[٨٦] . وقد تمكن بعض اولئك الدعاة من نشر الاسلام بين عدد من القبائل اليمنية [٨٧] . ثم ما لبثت الدعوة الاسلامية أن أخـذت تنتشر بسرعة في تلك الاصقاع . وشهدت السنة العاشرة إسلام عدد من الأبناء الفرس هناك وتوج ذلك باسلام باذان حاكم اليمن الفارسي حيث ارسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً يعلمه فيه باسلامه [٨٨].

***

وعندما اشرف العام التاسع للهجرة على نهايته وحان موعد الحج وجـد الرسول ﷺ نفسه مضطراً للبقاء في المدينة كي يتفرغ للوفود القادمة اليها دونما انقطاع ، وأناب عنه لإمامة المسلمين في حجهم ذاك أبا بكر الصديق رضي الله عنه. وما أن غادر أبو بكر المدينة في طريقه إلى البيت الحرام حتى نزلت آيات (براءة) من سورة (التوبة) تلك التي تعلن تصفية الوجود الوثني من شبه جزيرة العرب ومنح اتباعه وقتاً كافياً للتفكير في الخروج من حضيض الجاهلية الذي ظلوا يتمرغون فيه مئـات السنين ، وها قد آن الأوان لـكي يؤوبوا إلى الحق ويلتزموا الطريق المستقيم ، وإلا فان الدين الجديد سوف لن يمنحهم فرصة أخرى بعد ما صبر عليهم وقتـاً طويلاً (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعـة أشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين . واذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر ، أن الله بريء من المشركين ورسوله ..) . وسرعان مـا حمّل الرسول ﷺ علياً بن ابي طالب هذه الآيات والتعليمات المرفقة بهـا وأمره أن ينطلق بها إلى الكعبة لكي يتلوها على جموع الحجاج هناك وفيهم الكثير من الذين لا يزالون عـلى شركهم

---

(٨٦) ابن هشام ص ٣٧٠ — ٣٧١ الطبري ١٤٧/٣ وانظر اليعقوبي : تاريخ ٦٩/٢ — ٧١ .

(٨٧) الطبري ١٣١/٣ — ١٣٢ ابن سعد ١٢٢/١/٢ المسعودي : التنبيه ص ٢٣٨ — ٢٣٩ خليفة بن خياط ٥٨/١ البلاذري : فتوح ٨٢/١ انساب ٣٨٤/١ .

(٨٨) الطبري ١٥٨/٣ .

وجاهليتهم . . . وبينما تولى أبو بكر إمارة الحج راح علي يتلو على الناس تعليمات الرسول ﷺ وآيات براءة في يوم الاضحى لا يقربن المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا ، ولا يطوفن بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فله عهده إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فمدته أربعة أشهر .. وان الله لا يدخل الجنة إلا من كان مسلماً .. »(٨٩) .

يقول محمد الغزالي بهذا الصدد « ليعلم من يشاء أن تشريع قانون بمحو الوثنية كتشريع قانون بمحو الأمية ، عمل انساني نبيل . وان اعتراضاً عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمم ويتمنى لها السمو والكرامة . وبحسب الاسلام انه ظل اثنين وعشرين عاماً يحارب الخرافة بالتعليم والتربية كلما أتيحت له فرصة لنشر المعرفة وغرس الأدب ، وبالقصاص والقتال كلما وقف في طريقه الجهال والضلال يبطلون سعيه أو يصدون عنه . وقد منح الاسلام الوثنية أول الأمر حق الحياة ، وترك من يرتد عنه يرجع اليها إذا شاء . ولم يفعل ذلك اعزازاً لها ، انما هو حسن ظن بعقل الانسان وضميره .. فلما تبين أن الوثنيين يستخفون بكل شيء وانهم يستغلون الحق الممنوح لهم في الفتنة والعدوان والقتل ، لم يبق لتركهم من حكمة .. ومن ثم نزل الوحي يعالن المشركين بالقطيعة ويرفض منهم كل اعتذار ثم يسرد ما أسلفوا من سيئات على انه خليقة فيهم لم ينفكوا عنها يوماً ولا يرجى أن ينفكوا عنها أبداً »(٩٠) .

إن مكة قاعدة الوثنية سقطت ، وأصبحت الدولة الاسلامية هي القوة السياسية المتفردة في زعامة الجزيرة فلا بد من تحديد جميع سكانها موقفهم في الولاء.

---

(٨٩) الطبري ١٢٢/٣ — ١٢٣ ابن سعد ١٢١/١/٢ البلاذري : انساب ٣٨٣/١ المقدسي ٢٤٠/٤ — ٢٤١ ابن حزم : جوامع ص ٢٥٨ ابن الاثير : الكامل ٢٩١/٢ — ٢٩٢ ابن كثير : البداية ٢٦/٤ — ٣٩ المسعودي : مروج ٢٩٠/٢ ، التنبيه ص ٢٣٧ — ٢٣٨ . ويذكر المسعودي – المصدر السابق — انه لم تمض سنة على ذلك حتى دخلت العرب في الاسلام ، وكانوا اكثر من مائة الف ، وتمايروا بالشرك بينهم والمقام عليه . وانظر : دروزة : سيرة الرسول ٢٨/٢ هامش (١) .

(٩٠) فقه السيرة ص ٤٥٣ — ٤٥٤ .

فأما أهل الذمّة فكانت الجزية رمز انتمائهم وولائهم، وأما العرب فقد اعلنت معظم قبائلهم في عام الوفود وقبله عن انتمائها للدولة والدين الجديد. ولم يتبق الا قلة كان لا بد من توجيه نداء اليها لتحديد موقفها. ووجود فئة لا تدين بمبادىء الدولة ولا تخضع لقوانينها امر بالغ الخطورة في كيان الدولة الداخلي، وكان لا بد ان يخضع هؤلاء الناس لنظام الدولة أو يحاربوه، بمعنى ان يوضعوا في حكم الأعداء، ولكنهم اعداء داخليون يترتب على عدوانهم خطر كبير على كيان الدولة. ومن هنا لم يقبل الاسلام منهم الا الدخول فيه. وليس للمشركين ديانة تحترم ولا مثل تفرض هذا الاحترام كأصحاب الديانات السماوية الأخرى التي اعترف بها الاسلام واعتبر الدين وحدة واحدة [٩١].

وواضح انه لا يرد اي معنى من معاني مصادرة الحرية الدينية في هذه المقاطعة والحظر لأن البيت الحرام قد اصبح طاهراً من مظاهر الشرك، واصبحت تقاليد الحج مثل ذلك وصار تحت السلطان الاسلامي، وليس من المعقول أن يسمح للمشركين بممارسة تقاليد الوثنية فيه، عدا ما له من الحق الطبيعي في سدّ بابه على أعدائه السياسيين والدينيين [٩٢]. وقد أتى هذا البيان ثمرته، فان النبي قد حج في العام العاشر حجته الأخيرة على النظام الاسلامي الكامل، وحج معه فيها حوالي مائة ألف من حاج العرب [٩٣]، لم يكن من بينهم مشرك واحد. وفي الفترة التي تقع بين إعلان براءة ووفاة الرسول ﷺ طبّق الرسول قانون براءة بحذر شديد وكياسة سياسية بارعة وتجنب الاصطدام بالقبائل والا جرح كبرياءها وأثار عصبيتها، ولذلك كان يكتفي من وفودها بإعلان اسلامهم وانضمامهم الى حكومته، ويرسل معهم عند عودتهم مسلمين يعلمونهم الاسلام في بلادهم [٩٤].

والواقع أن (إعلان براءة) بوقف الوثنية نهائياً، أمر لا يمكن ادراك أبعاده

---

(٩١) الشريف : مكة والمدينة، الصفحات ٥٣٠ — ٥٣٦ .

(٩٢) دروزة : سيرة الرسول ٣٧١/٢ .

(٩٣) انظر : المقريزي : امتاع ٥١٢/١ .

(٩٤) الشريف : مكة والمدينة ص ٥٣٨ .

إلا اذا نظرنا الى المسألة من جانبيها (الحضاري) و (الاستراتيجي) كضرورتين يرتبط بمضها ببعض وتسوقان الى اتخاذ اجراء حاسم كهذا . فأما اولاهما فهي ان الوثنية ، على خلاف سائر الأديان الأخرى ، تمثل الدرك الأسفل في موقف الانسان الديني من الكون ، موقف يشده الى الحجارة و يصده عن التقدم الى الأمام ويحجب عن بصيرته الرؤية الشاملة لدور الانسان في الأرض وعلاقته بالقوى الأخرى في الوجود . ولو بقي العربي على وثنيته لظل بحكم موقفه المحدود هذا ، أسير جهله وتأخره ، وسجين عالم تضيق آفاقه لكي ما تلبث أن تعزله عن عن العالم وتحصره في قلب الصحراء (٩٥) .

وأما ثانيتهما فتقوم على ان الدولة (العقيدية) التي أنشئت في قلب المنطقة العربية ، وامتد نفوذها السياسي إلى كافة أرجاء الجزيرة ، وبدأت تحشد قواها وطاقاتها الجهادية للانتقال صوب الخطوة التالية في التحرك إلى العالم المحيط كله.. هذه الدولة كان عليها أن تعتمد استراتيجية صارمة ، واضحة المعالم ، من أجل أن تحمي وجودها في شبه الجزيرة ، من جيوب الوثنية العربية ومراكز القوى الجاهلية، وأن تحيط مركز انطلاقها إلى العالم بسياج من الوحدة العقيدية والسياسية على السواء ، لئلا تضرب من الخلف وهي تمارس صراعها مع القوى الخارجية ، حاشدة له جل طاقاتها .

وعلى ضوء هذا الارتباط بين الضرورتين الحضارية والاستراتيجية يمكن أن نتفهم موقف الحركة الاسلامية ، نظرية وتطبيقاً ، ازاء عدد من الأديان . فمهادنتها اليهودية والنصرانية في شبه الجزيرة نفسها كان ينبثق عن كون الديانتين كتابيتين متقدمتين (فكرياً) على سائر الديانات الأخرى السابقة والمعاصرة للاسلام ، فضلاً عن كونهما لا تمثلان — من الناحية الكمية — خطراً استراتيجياً على الدولة الاسلامية في شبه الجزيرة . إلا ان اليهود عندما نشطوا قبل غزوة خيبر الحاسمة

---

(٩٥) انظر كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف ، فصل (مواقع العلم والدين).

وبعدها لضرب الدولة ، واجراء اتصالات عديدة مع القوى الخارجية المتربصة ، صدر أمر بعدم السماح لهم بالبقاء في الجزيرة ، في أقسامها الشمالية على الأقل ، وقد تمثل هذا الأمر بحديث الرسول ﷺ (لا يجتمع دينان في الجزيرة) ، كاتمثل بخطوات عمر بن الخطاب العملية لاجلاء معظم اليهود عن المنطقة .

وموقف الاسلام – كذلك – من المجوسية والبوذية ، وعدم سعيه لتصفيتهما – رغم تأخرهما الحضاري – يعود إلى انهما لا يشكلان خطراً استراتيجياً مباشراً على قاعدة انطلاقه إلى العالم ، شأن الوثنية في شبه الجزيرة . وهكذا يجيء اعلان (براءة) نصراً حضارياً واستراتيجياً لدولة الاسلام ، وهي تتهيأ للخطوة التالية في (تحضير) العالم و (جهاد) قياداته (الكافرة) جميعاً من أجل منح حرية الاعتقاد للانسان حيثما كان .

الفصل الثامن

العلاقات بين الاسلام والجبهة
البيزنطية ـ النصرانية



١

ترجع البدايات الأولى لعلاقة الاسلام بالنصرانية وزعيمتها الدولة البيزنطية الى اللحظة التي وقف فيها ورقة بن نوفل قبالة الرسول ﷺ بعد ساعات بعثه نبياً إلى العالم، لكي يقول له «والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لانصرن الله نصراً يعلمه»، ثم أدنى رأسه منه وقبله[1]. لكن ورقة توفي قبل أن يدرك (اليوم) الذي كذب فيه الرسول وأوذي وأخرج وقوتل من قبل الوثنية العربية.

بل اننا لنراجع بالبدايات إلى ما هو أبعد في الزمن.. الى الارهاصات المتبقية في العهدين القديم والجديد.. والحدث من رهبان النصارى وأحبار اليهود وكهان الوثنية واحنافها كانوا قد تحدثوا، كما يقول ابن هشام «بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب من زمانه. أما الاحبار من يهود والرهبان من النصارى فما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد انبيائهم اليهم فيه..»[2].

---

(١) ابن هشام: تهذيب ص ٤٨.

(٢) نفسه ص ٤٢ وانظر الطبري: تاريخ ٢/٢٩٥ - ٢٩٧ . وعن الاحناف انظر: ملحق ج. من كتاب (محمد في مكة) لمونتكمري وات و Bell في مجلة العالم الاسلامي Islamic Quarterly اعداد ٢٠ سنة ٣٠ ومقالة (حنيف) لبوهل في دائرة المعارف الاسلامية و Tor Andrae : Mahomet, p. 109.

وقبل أن ندلف الى تلك الإرهارصات والأحاديث لا بدّ أن نشير الى الضعف والتهافت اللذين يسودان تلك الرواية التي سبق وأن عرضنا لها بايجاز[٣] والتي تتحدث عن لقاءٍ مبكّر تمّ بين محمد الصبي الذي صحب عمه ابا طالب في رحلته الاولى الى بلاد الشام وبين بحيرى الراهب .. ونستطيع أن نجد في بحث الدكتور محسن عبد الحميد تقييما للرواية يضعها في مكانها الأقرب الى الصواب.

فهو، بعد أن يعرض بالنقد لأسانيد الرواية ومتونها، يخلص الى القول بأن «..هذه الروايات كلها مردودة سنداً ومتناً لما فيها من الضعف والنكارة ولما فيها من فساد المتون وبطلانها من الناحية التاريخية وتعارضها مع قواعد العمران البشري والقوانين مما يثبت اثباتاً قاطعاً أن هذه الرواية موضوعة نقلها المؤرخون وبعض المحدثين الذين لا يتشدّدون في شروط الرواية ، ظناً منهم انهم بذلك يضيفون دليلاً جديداً يسند نبوة رسولنا الأعظم عليه الصلاة والسلام، ولم ينتبهوا الى أن امثال هذه القصص فيها من الشرّ أكثر مما فيها من الخير ، لأن اعداء الاسلام منذ القديم ارادوا أن يروجوا امثال هذه الروايات الواهنة كي يثبتوا وجود بحيرى وغيره من القسس في اطراف الجزيرة العربية الذين كان الرسول الأعظم ﷺ ـ في زعمهم ـ يتصل بهم ويأخذ عنهم .

ولقد اهتم بهذه الروايات الباطلة الكاذبة المؤرخون والمستشرقون الغربيون وبنوا عليها أباطيل ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا يمكن أن تقف لحظة واحدة أيام الحقائق التاريخية. منهم وليام موير ومار غليوث ودرابر وغيرهم كثيرون حيث اعتبروا أن اسوار الاسلام كلها أخذها محمد ﷺ من هذا الراهب . ولم يدعهم تعصّبهم أن يفكروا كيف يمكن لطفل عمره تسع سنوات أن يأخذ كل هذه الأسرار في لقاء عابر من بحيرى أو أمثال بحيرى »[٤] .

والآن .. ما الذي قدمته الأناجيل ورجالاتها من معطيات بصدد النبوة الجديدة ؟

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ مكتوب في الإنجيل « لا فظ

---

(٣) انظر ص ٤٠ .

(٤) تحقيق قصة بحيرى، مجلة الجامعة، العدد الرابع، السنة التاسعة ص ٦٩ ـ ٧٣ .

ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح». وعن سهل مولى عتيبة — وكان نصرانياً من اهل مريس، يتيماً في حجر أهله وعمه — قال: «أخذت مصحفاً لعمي فقرأته حتى مرت بي ورقة فأنكرت كتابتها حين مرت بي، ومسستها بيدي، فنظرت فاذا فصول الورقة ملصق بغراء ففتقتها فوجدت فيها نعت محمد ﷺ انه لا قصير ولا طويل أبيض ذو ضفيرتين، بين كتفيه خاتم، يكثر الاحتباء ولا يقبل الصدقة، ويركب الحمار والبعير، ويحتلب الشاة ويلبس قميصاً مرقوعاً، ومن فعل ذلك فقد بريء من الكبر، وهو يفعل ذلك وهو من ذرية اسماعيل اسمه أحمد. فلما انتهيت الى هذا جاء عمي فلما رأى الورقة ضربني وقال: ما لك وفتح هذه الورقة وقراءته فقلت: فيها نعت النبي أحمد. فقال: انه لم يأت بعد»[٥]. وقال أمية بن أبي الصلت لأبي سفيان — يوماً — اني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا، فكنت أظنه أني هو، وكنت أتحدث بذلك، ثم ظهر لي أنه من بني عبد مناف. ووصف الراهب (بكا) من بلاد الشام الرسول المنتظر لأبان بن سعيد حتى قال أبان «فوصفه فما أخطأ في وصفه شيئاً، ثم قال لي: هو والله نبي هذه الأمة، والله ليظهرن». وتحدث راهب من عمورية إلى سلمان الفارسي وهو يجوب الأرض بحثاً عن الحقيقة: «قد أظل زمان نبي مبعوث بدين ابراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين.. بين كتفيه خاتم النبوة»[٦].

وماذا — بعد — في الانجيل عن محمد، النبي الأخير؟ «من أبغضني — يقول عيسى عليه السلام فقد أبغض الرب. ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي ما كانت لهم خطيئة. ولكن من الآية بطروا وظنوا أنهم يعزونني (يغلبونني) وأيضاً الرب، ولكن لا بد من أن تتم الكلمة التي في الناموس. إنهم أبغضوني مجاناً (باطلاً) فلو قد جاء المنحمنا هذا الذي يرسله الله اليكم من عند الرب. روح القدس. هذا الذي من عند الرب خرج، فهو شهيد علي وأنتم

(٥) ابن سعد: الطبقات ١/٢/٨٩.
(٦) محمد رواس قلعجي: محمد في الكتب المقدسة، مجلة حضارة الاسلام عدد ٢ سنة ٨.

أيضاً ، لأنكم قديماً كنتم معي . في هذا قلت لكم لكيا تشكوا »[٧]. والمنحمنا بالسريانية تعني محمداً[٨] .

كما ورد في الانجيل ما يدل على انتقال النبوة من ولد اسحق إلى ولد اسماعيل في قوله « الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية ، من قبل الرب كان هذا ، وهو عجيب في أعيننا ، كذلك أقول لكم : ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطي لأمة تعمل اثماره »[٩]. والحجر الذي رفضه البناؤون كناية عن اسماعيل جد محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فاحسنه واجمله ، الا موضع لبنة في زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البناء فيقولون : الا وضعت ها هنا لبنة ليتمّ البناء؟ فانا اللبنة ، جئت ، فختمت الانبياء » . وقال المسيح للحواريين « ان لي أموراً كثيرة أيضاً لاقول لكم ، ولكن لا تستطيعون الآن ان تحتملوا ، وأما متى جاء ذاك – روح الحق – فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم عن نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية »[١٠] .

ويؤخذ من المخطوطات التي عثر عليها بجوار البحر الميت ان عيسى (ع) كان (مسيا) المسيحيين (ومسيا كلمة آرامية معناها الرسول) وان هناك مسيا آخر سيأتي بعده وقد قال عنه المسيح « ومتى جاء المعزي – البارقليط – فهو يشهد لي »[١١] . ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي جاء بعده فشهد له وانصفه

---

(٧) انجيل يوحنا ١٥ : ٢٣ – ٢٦ .

(٨) ابن هشام ص ٤٤ – ٤٥ .

(٩) انجيل متى ٢١ : ٤٢ ، ٤٣ .

(١٠) انجيل يوحنا ١٦ : ١٢ ، ١٣ .

(١١) كلمة (المعزى) هذه التي وردت في انجيل يوحنا هي ترجمة (paraclete) ومعناها محمد او احمد او محمود . وهناك كلمة تشابهها وهي (peraclyte) ومعناها المعزي .. فان كانت الاولى فان عيسى (ع) يكون قد بشر بمحمد صراحة فيما ذكره انجيل يوحنا ، وهذا أمر لا لبس فيه ولا غموض ، وان كانت الثانية (المعزي) يكون عيسى قد كني عن رسول الله بالمعزي بدلا من محمد ، لان الاوصاف التي ذكرت في انجيل =

ودافع عنه وعن العقيدة الصحيحة التي جاء بها . وقد جاء في انجيل برنابا ، الذي استبعدته الكنيسة في العهد الأول وحرم البابا جلاسيوس قراءته سنة ٤٩٢م(١٢) ما يؤيد هذه المخطوطات ، ويوضح ما فيها من اجمال ، قال « فلما كان الناس قد دعوني الله ، وابن الله ، على اني كنت بريئاً في العالم . أراد الله أن يهزأ الناس في هذا العالم بموت يهوذا معتقدين انني أنا الذي مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة ، وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله »(١٣) .

ويرد كذلك في نفس الانجيل ، غير المعتمد لدى النصارى « ما أسعد الزمن الذي سيأتي فيه إلى العالم ٢٨ صدقوني اني رأيته وقدمت له الاحترام كما رآه كل نبي ٢٩ لأن الله يعطيهم روحه نبوة ٣٠ ولما رأيتـه امتلأت عزاء قائلاً : يا محمد ليكن الله معك ٣١ »(١٤) . وعن نسب الرسول ﷺ يحدثنا الانجيل المذكور « ٢٥ ومتى جاء رسول الله فمن نسل من يكون؟ ٢٦ أجاب التلاميذ : من داود ٢٧ فأجاب يسوع : لا تغشوا أنفسكم ٢٨ لأن داود يـدعوه في الأزل : الروح قائلا : قال الله ربي اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئـاً لقدميك ...

= يوحنا لا تنطبق الا على محمد : قلعجي : محمد في الكتـب المقدسة ، مجلـة حضارة الاسلام ، عدد ١ – ٢ سنة ٨ .

(١٢) وقد اعلن تشارلس فرنسيس بوتر في كتابه (السنين المفقودة من عيسى تكشف) ص ١٢٧ ما يلي « لدينا الان وثائق كافية تدل على انالمخطوطات – المكتشفة في البحر الميت – هي حقيقة (هبة الله الى البشر) لان في كل ورقة تفتح تاتي اثباتات جديدة على ان عيسى كان كما قال عن نفسه (ابن الانسان) اكثر منه (ابن الله) كما ادعـي عليه وهو منه بريء » وقال في ص ١٢ « من العسير العثور على كتاب في العهد القديم لا يحتاج الى تصحيحات تحت ضوء مخطوطات (البحر الميت) وكذلك ليس هناك كتاب في العهد الجديد لا يحتاج الى تفسير شامل للآيات الاساسية التي تقوم عليها الشريعة » انظر : ابراهيم خليل احمد : محمد في التوراة والانجيل والقرآن ، ص ٩٢ – ٩٣ .

(١٣) انجيل برنابا ، الباب ٢٢. وانظر ابراهيم خليل احمد : المصدر السابق المقدمات ص ٢٢ – ٢٣ .

(١٤) برنابا ٤١ : ٢٧ فما بعد .

٣٠ صدقوني لأني أقول لكم الحق، ان العهد صنع باسماعيل لا باسحق »[١٥]. ونقرأ في انجيل متى «لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل »[١٦] .

هذا وقد عقد السيد رشيد رضا في الجزء التاسع من (تفسير المنار) فصلاً طويلاً عن بشارات الكتب المقدسة بمحمد ﷺ ، أورد فيه ثماني عشرة بشارة مستمدة من أسفار العهد القديم والأناجيل وناقش الشبهات التي يوردها المبشرون وأورد من الحجج ما فيه المقنع بصواب استنتاجاته وقوة حججه . وليس هناك أي دليل على ان الأسفار المتداولة اليوم من العهدين القديم والجديد هي كل ما كان متداولاً في زمن النبي ﷺ وقبله . وليس يمنع أن يكون فيما لم يصل الينا بشارات وأوصاف أكثر صراحة مما هو وارد في الأسفار المتداولة اليوم . وآية الاعراف (١٥٧) (الذين يتبعون النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ...) قد نزلت في الذين تبعوا النبي من أهل الكتاب في مكة بناء على ما وجدوه فيه من صفات مطابقة لما كان بين أيديهم من أسفار . ومن المحال أن يكون ذلك جزافاً . وهنالك انجيل متداول ومنسوب إلى حواري اسمه برنابا فيه نصوص متفقة مع نصوص القرآن عن عيسى وحياته وشخصيته ورسالة النبي محمد ﷺ وصفاته[١٧] . وصدق الله العظيم (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)[١٨] ، (وإذ قال

---

(١٥) برنابا ٤٣ : ٢٥ فما بعد .

(١٦) الاصحاح الخامس فقره ١٧ . وانظر عن آثار محمد واصحابه : انجيل متى ١٧/٤ ، ٤٢/١١ ــ ٤٤ ، ٢٤/١٣ ــ ٣٢ ، ١٦/٢٠ .

(١٧) دروزة : عصر الرسول (ص) : هامش (١) جزء ١ ص ١١١ . وعن نبوءات الاناجيل بالرسول وتحليلها انظر بالتفصيل : ابراهيم خليل احمد : محمد بين التوراة والانجيل والقرآن ص ٤٣ ــ ٤٨ ، ومحمد رواس قلعجي : محمد في الكتب المقدسة : مجلة حضارة الاسلام عدد ١ ــ ٢ سنة ٨ ، وجواد علي : تاريخ العرب في الاسلام ص ٨٣ ــ ٨٦ وانظر كذلك : علي عبد الجليل راضي : المسيح قادم ومحمد فتحي عثمان : المسيح في الاناجيل الاربعة .

(١٨) البقرة : ٨٩ .

عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين)[19] .

ورغم هذه البينات كلها فان الغالبية العظمى من حملة الانجيل (شكّوا).. ليس هذا فحسب بل تحول شكهم إلى استنكار وسخرية ومعارضة ومقاومة ومجابهة ، ثم إلى قتال مسلح حيناً وتآمر خفيّ أحياناً .. وكانت تلتمع بين الحين والحين أضواء تنير الطريق لرجالات النصرانية : رهباناً وقادة وحكاماً إلى قلب الاسلام الرحيب المنفتح على كل دين جاء من عند الله ، وقرآنه المصدق لما بين يديه من الكتاب ، ونبيّه الممجّد لاخوانه الانبياء الذين سبقوه كدحاً على الدرب الطويل المنبثق عن المصدر الواحد والذاهب إلى المصير الواحد .

٢

ويحدثنا (درمنغم) كيف أن مكة كانت تضم عدداً كبيراً من نصارى من مختلف الأصول حيث كانت لهم مقبرة فيها .. وكان اناس من نصارى الحبشة قد جاؤوا إلى مكة ليحيوا النبي الجديد الذي أعرب عن عطفه على دينهم فدمغ باطل المشركين بالحجج البالغة التي يقره عليها أهل الكتاب . وكان يصادف في عكاظ وفي الأسواق الأخرى اناساً من عرب نجران والحيرة .. وكان — كما أشار القرآن — يرى في الأسواق التي يقصدها نصارى آخرون من بلاد أخرى ولا سيما من الشام لبيع ما معهم من البر .. وكان عملاء بني أسد من الغساسنة يقيمون بوسط مكة ، أي بالقرب من الكعبة ، ولكن أكثر أولئك النصارى كانوا يقيمون بالضواحي[20] . ولا ريب ان ايراد قصة ولادة يحيى وعيسى وانكار

---

(١٩) الصف : ٦ .

(٢٠) درمنغم : حياة محمد ص ١٢٥ — ١٢٦ .

الوهية عيسى مما يوحي بأن أكثر المخاطبين من أهل الكتاب كانوا نصارى ، ثم أن خبر انهزام الروم والبشرى بفوزهم مما يدل على ذلك أيضاً .. وتلهم الآيات القرآنية أن النبي قد اتصل بهؤلاء النصارى ودعاهم إلى التصديق برسالته ، وان منهم من كان ذا سعة في المال يمكنه من الانفاق في سبيل الخير ، وان منهم من كان قوي الشخصية والنفس بحيث لا يبالي بلوم المشركين، وان منهم من كان متميزاً بثقافته الدينية بحيث كان أهلاً للرجوع اليه والاستشهاد به في أمر الرسالة[٢١] .

وكان القرآن الكريم منذ الوقت المبكر من العهد المكي يؤكد — وظل على ذلك في مختلف ادوار التنزيل — على وحدة المصدر الذي صدر عنه القرآن والكتب السماوية ووحدة الأهداف والمبادىء التي تضمنها القرآن وتلك الكتب، وتأييد القرآن والنبي ﷺ للأنبياء السابقين والكتب السابقة ، والتنويه بهم ، واستشهد ، وظل يستشهد بأهل الكتاب على صحة رسالته النبوية والتنزيل القرآني بأسلوب يلهم استعدادهم للشهادة الايجابية ، والثقة بهم والاعتماد عليهم فيها ، كما يلهم طبيعة ، وتوقع استجابتهم للدعوة الاسلامية واندماجهم فيها ونصرها وتأييدها[٢٢] .

ولم يُخْفِ محمد عطفه على النصارى ، والقرآن مملوء بالشواهد على ذلك .. فكان محمد يرى المثال في شهداء نصارى القرون القديمة وفي شهداء نصارى القرون الأخيرة في اليمن (شهداء الأخدود) وكان يثني على القسيسين والرهبان الذين

---

(٢١) الشريف : مكة والمدينة ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٢٢) انظر : المدثر ٣١ ، الاعلى ١٨ — ١٩ ، الاعراف ١٥٦ — ١٥٧ ، فاطر ٣١ — ٣٢ ، يونس ٣٧ ، ٩٤ ، يوسف ١١١ ، الاحقاف ١٢ ، طه ١٣٣ ، الشعراء ١٩٧ ، الانعام ٢٠ ، ٨٤ — ٩٠ ، ٩٢ ، ١١٤ ، غافر ٥٣ — ٥٤ ، الشورى ١٣ ، الانبياء ٧ ، ٩٣ وانظر سور : الفجر ، القمر ، ص ، الاعراف ، يس ، مريم ، طه ، الشعراء ، النحل ، القصص ، يونس ، هود ، يوسف ، الحجر ، الانعام ، الصافات ، سبأ ، غافر ، الزخرف ، الدخان ، الذاريات ، نوح ، ابراهيم ، الانبياء ، المؤمنون ، حيث ترد قصص انبياء اهل الكتاب واحوالهم الخاصة وسيرة اقوامهم معهم ، مما يتطابق قليلا او كثيرا مع ما ورد في كتب اهل الكتاب وما فيها من ثناء على هؤلاء الانبياء ودعوة للتأسي بهم واحترامهم ، مما يتضمن معنى التساوق والاتحاد والتطابق بين القرآن والكتب السماوية وبالتالي بين الاسلام واهل الكتاب : دروزة : عصر الرسول ١/ ٣٣٥ — ٣٤٤ .

قدر فضائلهم في تخوم الشام . وسرّ محمداً ما أسفر عنـه انتصار الروم من عدم هدم كنائس النصارى وبيعهم التي (يذكر فيها اسم الله كثيراً) . وكان محمد ﷺ يرى في أهل الكتاب الحلفاء الذين يؤيدون مـا يقول ، ويؤمنون بالحق الذي يدعو اليه والذين (إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ..) وكان محمد ﷺ يتخذ مـن انضمام حملة العلم من أهل الكتاب اليـه دليلاً على صدق الاسلام وبطلان دعوى المشركين ، وكان يصرح بأن رسالته مما بشر به الكتاب المقدس[٢٣] .

وللمسيح في القرآن مقام عال ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس ، وهو رسول الله الذي خاطبه الله جهراً .. وهو كلمة الله الناطقة من غير اقتصار على الوحي وحده .. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول ان عيسى كلمة الله أو روح الله القاها إلى مريم وانه من البشر .. وهو يذم مذهب القائلين بألوهية المسيح ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عادة ثم أكله ، وما إلى ذلك من مذاهب الأسماء النصرانية لا النصرانيـة الصحيحة . ولا يسع النصراني الا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من اللهوعيسى ومريم (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأُمي إلهين من دون الله)[٢٤] .

وبدلاً من أن تكون النصرانية موحدة في فرقـة واحدة في جزيرة العرب قائلة بالنظام والمحبة ، كانت مجزأة إلى شيع متعادية منهمكة في الجادلات العقيمة ، فلا عجب إذا بقي الاسلام بعيداً عن هذه المناقشات البيزنطية حول العقائد .. وما كان يقع في سبيل النصرانية المشرقية من المنازعات المذهبية موجب للخزي ، فقد صار النصارى يضطهد بعضهم بعضاً في سبيل معنى إحـدى الكلمات .. والعلماء يصرون عـلى مجادلاتهم الكلامية ، والخرافات تفسد الجمهور بفضل العدوى[٢٥] .

---

(٢٣) درمنغم : المرجع السابق ص ١٢٨ — ١٣٠ .
(٢٤) المرجع السابق ص ١٣١ — ١٣٢ .
(٢٥) المرجع السابق ص ١٣٨ — ١٣٩ .

ومن الطبيعي – يقول دروزة – أن يكون النبي ﷺ الذي أوحي اليه منذ الوقت المبكر بما أوحي وظل يوحى اليه بمثله بأساليب متنوعة ، قد وقف منذ البدء موقف المسالم المتحبب من الكتابيين في مكة ، المتحد معهم في الأهداف والمبادىء ، المحترم لأنبيائهم وكتبهم والمعترف بهـــا والمؤيد لها .. ومضامين المفردات القرآنية التي أشرنا اليها آنفاً ، والأسلوب الهادىء الذي ظل متّسقاً في أدوار التنزيل واحتوى استشهاد أهل الكتاب .. ثانياً إلى ما احتواه القرآن المدني من حملات عنيفة على اليهود بسبب مواقفهم الجاحدة الماكرة في المدينة ، ثالثاً ، كل ذلك يسوغ القول بجزم ان الكتابيين في الاجمال قـد وقفوا منذ البدء من الدعوة القرآنية موقف العطف والتأييد وظـلوا كذلك إلى آخر العهد المكي وأنه لم يقع بينهم وبين النبي احتكاك وعداء كما وقع مع اليهود في المدينة [٢٦] .

إلا أن الكتابيين لم يبقوا عند هذا الحد ، بل حقّقوا ما كان متوقعاً مـــن استجابتهم للدعوة واندماجهم فيها . ففي سورة الأعراف (آية ١٥٧) نجد أن فريقاً من النصارى واليهود في مكة وجدوا صفات النبي ﷺ مطابقة لما في أيديهم من أسفار التوراة والانجيل فآمنوا به واتبعوه ونصروه فاستحقوا التنويه الذي احتوته الآية [٢٧] . ولقد ذكرت روايات السيرة وكتب التراجم أسماء كثير من الكتابيين الذين اندمجوا في الدعوة في مكة تحمل طابع الأسماء النصرانية . كما أن بعض الروايات ذكرت قدوم وفد نصراني إلى مكة بعد البعثة مستطلعاً نبأ النبي العربي وأعلن إيمانه به [٢٨] .

وفي نفس الوقت تنزلت آيات أخرى تعرض واقع الكتابيين من الاختلاف والنزاع والانشقاق مذاهب وشيعاً فيما بينهم ، ودعوتهم إلى الانضواء إلى رايـة القرآن الذي يمتّ إلى المصدر الذي تمتّ اليه كتبهم ، والذي يعود بدين الله إلى

---

(٢٦) دروزة : عصر الرسول ٣٤٤/١ – ٣٤٥ .

(٢٧) المرجع السابق ٣٤٥/١ – ٣٤٨ . وانظر كذلك سورة القصص ٥٢ – ٥٥ ، والاسراء : ١٠٧ – ١٠٩ والاحقاف ١٠ والرعد ٣٦ .

(٢٨) دروزة : عصر الرسول ٣٤٨/١ – ٣٤٩ .

صفائه ومبادئه السامية التي لا تحتمل في أصلها خلافاً ، وأتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل.. والتسليم بما جاء به القرآن من حلول لمشاكلهم وخلافاتهم المذهبية والنفسية .. ولعل من الحق أن يقال انه كان لهذه الدعوة القرآنية أثر فيما كان من تنبه الكتابيين في مكة في مبدأ الأمر إلى ماوصل اليه أمرهم من خلاف ، فكان ذلك عاملا في إقبالهم على الاسلام (٢٩) .

وبعد قليل احتضن نجاشي الحبشة المهاجرين من اضطهاد مكة ، اولئك الذين قال لهم رسولهم وهو يبحث لهم عن موطن يأوون اليه ريثما تنكسر حدة العدوان الوثني (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فان بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ..) وردّ المبعوثين اللذين أرسلتهما قريش لاسترداد المسلمين بعد أن أبى إلا أن يستمع لصوت الاسلام بمواجهة صوت الوثنية متمثلا بآيات من القرآن الكريم اختارها جعفر بن أبي طالب من سورة مريم دفعت النجاشي إلى أن يرفع عوداً صغيراً من الأرض ويقول : والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود ! فاعترض بطارقته فاسكتهم وقال للمهاجرين : اذهبوا فانتم آمنون بأرضي من سبكم غرم ، من سبكم غرم .. ثم التفت الى المبعوثين المشركين قائلا : انطلقا فلا والله لا اسلمهم اليكما (٣٠) .

وفيما بعد ، عندما خطب الرسول صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان وهي بأرض الحبشة تقديراً لموقفها الفذ في سبيل الدعوة ، بمواجهة اغراءات أبيها زعيم الوثنية ، اصدقها النجاشي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار وهو الذي ناب عن الرسول في خطبتها وكانت قبله عند عبيد الله بن جحش الذي كان قد ارتد إلى النصرانية (٣١) !!

وفي المقابل لمجد المسلمين ، وهم قلة مضطهدة في مكة ، يهزهم نبأ الهزيمة

---

(٢٩) المرجع السابق ١/٣٥٠ — ٣٥٣ وانظر سورة هود ١١٠ وفصلت ٤٥ والشورى ٣ ، ١٤ ، والزخرف ٦٣ — ٦٥ والجاثية ١٦ — ١٧ ومريم ٣٤ — ٣٦ .

(٣٠) ابن هشام ص ٧٢ — ٧٧ .

(٣١) المصدر السابق ص ٣٨١ ، الطبري ٢/٦٥٣ — ٦٥٤ .

الساحقة التي مني بها الروم المسيحيون على ايدي الفرس الوثنيين، ويصيبهم بحزن عميق إزاء الفرح الذي غمر قلوب مشركي قريش ، وتنزل آيات القرآن الكريم تتحدث عن الواقعة الحاسمة وتتنبأ بالانتصار الحاسم الذي سيحققه المعسكر النصراني ضد اعدائه المجوس ، حيث يفرح المؤمنون (غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين ...).

وقد تحققت النبوءة القرآنية التي لا تخطىء ، وفي بضع سنين الحقت القوات البيزنطية بقيادة هرقل ، هزيمة ساحقة بالقوات الفارسية ، استردت في أثرها بلاد الشام وفلسطين واجزاء واسعة من العراق ، وذهب هرقل إلى بيت المقدس لكي يسجد شكراً لله ، وغمرت الفرحة قلوب القلة المضطهدة في ظلمات الوثنية .

لكن هذا كله لم يمنع الكثرة من النصارى العرب ان تلعب دورها في العصر المدني – بمواجهة الاسلام وتتخذ المواقف العدائية ضده على شتى المستويات بدفع من الدولة والكنيسة البيزنطية في معظم الاحيان ، وبمعزل عنها في بعض الأحيان .

٣

والعصر المدني ، عـــلى خلاف العصر المكي ، غني بالروايات والأحداث التي تلقي ضوءاً شاملاً على العلاقات بين الطرفين ، سيما وان الاسلام كان قد تمكن آنذاك من بناء دولته التي تتجاوز في سياساتها وعلاقاتها الحــدود الاقليمية والقومية صوب العالم المحيط حيث تقبع الدولة البيزنطية وحلفاؤها العرب وهم جميعاً محسوبون على المعسكر النصراني ، منتمون اليه جداً واخلاصاً ، أو هزلاً واكتساباً .. والأمر سواء .

في السنين الأولى من العصر المدني كان الرسول صلى الله منهمكاً في تثبيت أسس الدولة الجديدة وفي مجابهة القوى الوثنية واليهودية ، ولم يكن الامتــداد الجغرافي للدولة الاسلامية آنذاك قد بلغ الحدّ الذي يستفز الدولة البيزنطيـــة

وحلفاءها العرب ، ويدفعهم إلى إثارة المشاكل في طريـق الاسلام وحكومته .

ورغم ذلك فاننا نجد في السور المدنية آيات كثيرة في النصارى وعقائدهم وما كان بينهم من خلاف ونزاع وهي أكثر وأحـــدّ منها في القرآن المكي ، وهي تحمل تنديداً أكثر..وهذا الفرق يلهم أن دائرة الاتصال بين النبي ﷺ والنصارى في العهد المدني كانت أوسع منها في ذلك العهد ، وأن المؤثرات التي كان يخضع لها النصارى الذين لقيهم النبي واحتك بهم أكثر تنوعاً ، وأن الذين لقيهم في العهد المكي كانوا أكثر تجرداً عن الهوى والرغبات المادية وأكثر استعداداً للاستجابة للدعوة والاندماج فيها. وهناك رواية تذكر أنه كان في المدينة جالية من النصارى تسكن في مكان يقال له سوق النبط [٣٢] .

إلا أنه تجدر الاشارة إلى أن الجالية النصرانية في المدينة لم تكن ذات شأن وكيان يؤدي إلى أن يقع بينها وبـــين النبي والمسلمين صدام ، وأن يصدر عنها مواقف عملية مؤذية وخطرَة كما كان شأن اليهود ، ومن ثم فان الآيات التي وردت في حالة النصارى والتنديد بهم – مع ما في بعضها من عنف – إلا أنه لا يمكن أن تنعقد أية نسبة بينها وبين ما جاء في حق اليهود . هـذا الى أن هناك آيات تحتوي ثناء محبباً عليهم وعلى أخلاقهم ومواقفهم مما يلهم أن الذين لقيهم النبي منهم في المدينة كانوا دمثي الأخلاق ليني الجانب غير جانحين الى عنف وكيد [٣٣] .

وبمرور الوقت واتساع نفـوذ الاسلام شمالاً ، ووصول أنباء انتصاراته على الوثنية واليهودية الى قبائل الشمال .. بدأ المعسكر البيزنطي يفتح عينيه عـلى

---

(٣٢) دروزة : عصر الرسول ٢/٢١٦ – ٢٢٢ .

(٣٣) المرجع السابق ٢/٢١٥ ، ٢٥٣ ، وانظر عن وصف القرآن الكريم لحالة النصارى في العصر المدني ونقد اخطائهم : المصدر السابق ٢/٢١٦ – ٢٢٢ وعن دعوتهم للاسلام ومواقفهم ازاءها ٢/٢٢٣ – ٢٣٠ وانظر بشكل خاص عن مسألة قدوم وفد من نصارى الشمال في اواسط العهد المدني ومناقشته للرسول بحكمة واعتناقه الدين الجديد : المصدر نفسه ٢/٢٢٥ – ٢٢٧ وتفاسير آيـات المائـدة ٨٢ – ٨٦ (وبخاصة تفسير الطبري) وعن المناظرات والمناقشات بين النصارى والمسلمين انظر : المصدر السابق ٢/٢٣٦ – ٢٥٢ ، وعن وفد نجران ٢/٢٣٧ – ٢٤٨ ، والمؤلف يميل الى ان قدوم الوفد كان بعد صلح الحديبية اي في اواخر السنة السادسة للهجرة .

الخطر المحدق بوجوده من جهة الجنوب . وأغلب الظن ان الامبراطور البيزنطي وكبار قادته تصوروا الأمر – في بدايته – بجرد اندفاع قبلي كبير صوب الشمال، أو محاولة إمارة عربيـــة ناشئة توسيع رقعتها الجغرافية كما كانت تفعل إمارة (كندة) أو (تدمر) عـلى سبيل المثال ، ورأوا أن بامكان حلفائهم العرب أنفسهم أن يكفوا الدولة البيزنطية عناءوقف هذا الامتداد ، وصد هذه الامارة الطموحة عن الامتداد إلى الشمال .

أكثر من هذا انهم اعتقدوا أن بإمكان قبيلة من أتباعهم أن تتحرك صوب الجنوب – بإشارة من سادتها – لتضرب القوة الجديدة في قاعدتها نفسها وتقصم ظهرها .. وأغلب الظن أيضاً أن هذا الاعتقاد هو الذي دفع القبائل القاطنة في دومة الجندل ، في أقصى الشمال ، والتي يتزعمها أكيدر بن عبـد الملك الكندي الذي يدين بالنصرانية ويخضع لهرقـل ، الى ان تتجمع وتتهيأ في زحف سريع لضرب المسلمين في المدينة (في ربيـع الأول مـن السنة الخامسة للهجرة) . إلا أن الرسول ﷺ أخذ زمام المبادرة ، وتحرك بسرعة صوب الشمال ، على رأس ألف من أتباعه ، معتمداً أسلوب (إضرِب قبل أن تُضرَب) . ومن أجل أن يباغت القوم في ديارهم أخذ يسير بأصحابه ليلاً ويكمن نهاراً ، حـتى اقترب من هدفه فجعلت القبائل العربية القاطنة هناك تهرب من بين يديه لا تلوي على شيء. وبعد أن بث سراياه في المنطقة قفل الرسول ﷺ عائداً دون أن يلقى من العدو كيداً [٣٤] .

وهكذا يمكن اعتبار غزوة (دومة الجندل) هـــذه اول حلقة في سلسلة الصراع الحربي بين عالمي الاسلام والنصرانية ، يؤكد هذا ما ذكره الواقدي من أنه قيل للرسول (ﷺ) وهو بصدد مهاجمة دومة الجندل : انها طرف من افواه الشام فلو دنوت لها لكان ذلك مما يفزع قيصر [٣٥] .

---

(٣٤) ابن هشام ص ٢١١ ، الطبري : تاريخ ٥٦٤/٢ ، ابن سعد ٤٤/١/٢ – ٤٥ ، الواقدي ٤٠٢/١ – ٤٠٤ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢١٤ – ٢١٥ ، ابن حزم : جوامع ص ١٨٤ – ١٨٥ ابن كثير : البداية والنهاية ٩٢/٤ .

(٣٥) مغازي رسول الله ٤٠٣/١ .

ولم يمض سوى عام وبعض عام حتى قام الرسول (ﷺ) بإرسال عبد الرحمن ابن عوف (في شعبان من السنة السادسة) لقتال قبيلة كلب النصرانية في نفس المنطقة وقال له : (اغز باسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله ، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً) وطلب منه ان يتزوج ابنة ملكهم ان استجابوا له ، تعزيزاً للعلاقات بين الطرفين وكسباً لودّ هذه القبيلة الموالية للعدو البيزنطي . فتقدم عبد الرحمن الى دومة الجندل، ومكث هناك ثلاثة ايام يدعوهم الى الاسلام، فأسلم الاصبغ بن عمرو الكلبي ، اميرهم النصراني ، وأسلم معه ناس كثير من قومه ، بينما وافق الآخرون على الاستمرار في دفع الجزية مع البقاء على دينهم . ونفذ عبد الرحمن أمر الرسول (ﷺ) وتزوج تماضر ابنة الاصبغ وقدم بها إلى المدينة [٣٦] .

وقد كان من نتائج هذين الانتصارين ان ادركت القبائل الضاربة هناك ان حجم القوة الاسلامية وقدرتها على التحرك اكبر مما كانت تظن ، وربما بلغ ذلك القيادة البيزنطية نفسها فكفت عن تكرار المحاولة ، ردحاً طويلاً من الزمن ، أتاح للمسلمين تحقيق انتصارهم على الوثنية في صلح الحديبية ، وتصفية المواقع اليهودية في الشمال : خيبر والقرى المحيطة بها ، وقيام رسولهم (ﷺ) بمكاتبة ملوك وأمراء العالم ، بما فيهم الامبراطور البيزنطي وأتباعه الغساسنة وحكام مصر والحبشة .

٤

والحق ان المعسكر البيزنطي - النصراني هو الذي حظي بالقسط الأعظم من حركة الرسول العالمية المعروفة في التاريخ باسم (مكاتبة الملوك والامراء) ، ربما لأن الرسول (ﷺ) أدرك ان الوشائج التي تربط الاسلام بهذه الجبهة ، باعتبارها

---

(٣٦) ابن سعد ٢/١/٦٤ - ٦٥ .

تنتمي الى دين سماوي تنص مصادره الدينية على نبوة الرسول (ﷺ)، ستقودهم الى تفهم دعوته التي انطلق بها سفراؤه الى ملوك وحكام هذا المعسكر، فضلاً عن قربه الجغرافي من شبه الجزيرة، إلا أن ردود الفعل النصرانية لم تكن سواء، وتدرجت بين الانتماء الى الدعوة الجديدة او الموقف الودي منها، وبين الرفض الغاضب الوقح !!

ولم يحدد مؤرخونا القدامى تواريخ هذه السفارات، فيجعلونها حيناً في اواخر السنة السادسة، ويجعلونها حيناً آخر السنة السابعة أو ما بعدها. إلا ان هذا الالتباس يزول فيما ذكره ابن اسحق من ان الرسول (ﷺ) فرق رجالاً من اصحابه الى ملوك العرب والعجم دعاة الى الله عز وجل فيما بين الحديبية ووفاته [٣٧]. وقد خرج الرسول (ﷺ) على أصحابه ذات غداة فقال لهم (اني بعثت رحمة وكافة، فادوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا علي كاختلاف الحواريين على عيسى ابن مريم) قالوا: يا رسول الله وكيف كان اختلافهم؟ قال: (دعا الى مثل ما دعوتكم اليه، فامامن قرب به فأحب وسلم، وأما من بعد به فكره وأبى..)[٣٨].

في اعقاب صلح الحديبية بعث الرسول (ﷺ) اربعة من رجاله الى العالم النصراني: دحية بن خليفة الكلبي الى الامبراطور البيزنطي هرقل، حاطب بن ابي بلتعة الى المقوقس حاكم مصر، عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي حاكم الحبشة، شجاع بن وهب الاسدي الى المنذر بن الحارث بن ابي شمر الغساني حاكم دمشق [٣٩].

انطلق دحية الى هرقل يحمل كتاباً جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، اسلم تسلم، واسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وان تتول فان إثم الأكارين

---

(٣٧) الطبري: تاريخ ٦٤٤/٢ — ٦٤٥.

(٣٨) المصدر السابق ٦٤٥/٢، ابن هشام ص ٣٧٥ — ٣٧٦.

(٣٩) الطبري: تاريخ ٦٤٤/٢، خليفة بن خياط: تاريخ ٤١/١.

عليك » [٤٠] . ويورد محمد حميد الله صورة أخرى للكتاب جاء فيها « .. إني أدعوك الى الاسلام فإن أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم . فان لم تدخل في الاسلام فاعط الجزية فان الله تبارك وتعالى يقول : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) . وإلا فلا تحل بين الفلاحين وبين الاسلام ان يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية » [٤١] . وهذه الصيغة أكثر انسجاماً مع طبيعة الدعوة الاسلامية من الصيغة السابقة التي تكتفي بعرض الاسلام فقط دون تمييز بينه وبين الخضوع لسلطان الدولة الاسلامية بدفع الجزية والسماح للمواطنين بدفعها .

وصادف وان وصل مبعوث رسول الله ﷺ بلاد الشام وهرقل يحج إلى بيت المقدس في احتفال مهيب ، شكراً لله على ما منحه إياه من نصر حاسم على اعدائه الفرس . وهناك تسلم الامبراطور كتاب الرسول ﷺ وقرأه . ويسرد لنا كل من ابن اسحق والطبري نقلاً عن رواتهما وبضمنهم بعض نصارى الشام وأبو سفيان الذي كان حينذاك في رحلة تجارية لقريش إلى الشام ، عدداً من الروايات تشير إلى ان هرقل وكبير أساقفته المدعو (صغاطر) لما اطلعا على الكتاب قالا : انه للنبي الذي كنا ننتظره ، لا شك فيه ، نعرفه بصفته ونجده في كتبنا باسمه . وان صغاطر خرج على الروم وهم في الكنيسة فقال : يا معشر الروم ، انه قد جاءنا كتاب من أحمد ، يدعونا فيه إلى الله عز وجل ، واني اشهد ان لا اله إلا الله وان احمد عبده ورسوله ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد وضربوه حتى قتلوه . فلما عرف هرقل الخبر تنازل عن أقواله وقال : إنا نخافهم على أنفسنا ! صغاطر والله كان أعظم عندهم واجوز قولاً مني [٤٢] . ويورد اليعقوبي صيغة الرسالة الجوابية التي بعث بها هرقل الى النبي (ﷺ) وجاء فيها

---

(٤٠) الطبري : تاريخ ٦٤٩/٢ .

(٤١) مجموعة الوثائق ص ٨٢ ، وانظر المصدر نفسه ص ٨٠ — ٨٦ .

(٤٢) انظر : الطبري ، تاريخ ٦٤٦/٢ — ٦٥١ ، وابن سعد ١٦/٢/١ .

« الى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى . من قيصر ملك الروم . انه جاءني كتابك مع رسولك واني أشهد أنك رسول الله ، نجدك عندنا في الانجيل . بشرنا بك عيسى بن مريم ، وإني دعوت الروم الى أن يؤمنوا بك فأبوا ، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم .. » [٤٣] !!

غير انا نشك في صحة هذه الروايات لما يغلب عليها من مبالغة وسرد قصصي سيما وأنها تتحدث عن فترة كان امبراطور الروم قد غدا فيها سيد العالم في أعقاب انتصاره على غريمه الفارسي ، وان نشوة النصر لا يمكن أن تقوده الى الحذر والتحسب لما ستجيء به الأيام ، ولما يمكن أن يتمخض على أيدي قوم من العرب ، لم يكن لهم حتى ذلك الحين وزن في الميدان الدولي [٤٤] .

ورغم ذلك فان الاهتمام الذي أبداه هرقل تجـــاه السفارة النبوية وترحيبه بمبعوث النبي (ﷺ) دفع حاشيته الى الهياج ، وزادهم هياجاً ما عرضه عليهم — لا ندري جاداً أم هازلاً — من اعتناق الدين الجديد . وهرقل في نظرنا رجل سياسي ، وأمر الدين لا يعنيه إلا بقدر ما يدعم ملكه ، وقد تولى شؤون الدولة في وقت كانت الخلافات الكنسية حول طبيعة المسيح تغلي غليان المرجل وتثير في الأمة انقسامات مخيفة ، وقد حاول التقريب بين وجهات النظر المتباينة وجمع الكنائس المتخاصمة على مذهب واحد ، فعجز وتمرد عليه اليعاقبة وغيرهم في مصر والشام . فالكلام في الإلهيات ليس غريباً عليه ، والتقريب بين وجهات النظر لمصلحة الدولة ديدنه ، ولعله في أعماق قلبه يحس سخف أولئك المختلفين جميعاً .. وشاءت لباقة قيصر السياسي أن يستدعي دحية وأن يحاول إيهامه بأنه أسلم ، ثم أعطـاه قدراً من الدنانير وصرفه . وعاد دحية الى رسول الله بالنبأ فقال النبي : كذب عدو الله ليس بمسلم ، وأمر بالدنانير فقسمت على المحتاجين [٤٥] .

وانطلق شجاع بن وهب الى المنذر بن الحارث بن ابي شمر الغساني أمـــير

---

(٤٣) تاريخ اليعقوبي : ٦٧/٢ .

(٤٤) انظر الطبري : تاريخ ٦٥١/٢ .

(٤٥) الغزالي : فقه السيرة ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

دمشق ، يحمل كتاباً جاء فيه « سلام على من اتبع الهدى وآمن به. إني أدعوك إلى ان تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك » . فماذا كان جواب الامير الذي يتعاطى العمالة والتبعية لسيده البيزنطي ؟ « من ينزع مني ملكي ؟ أنا سائر اليه ولو كان باليمن»وأمر بإعداد الخيول ،ثم قال للرسول : اخبر صاحبك ما ترى ، كما كتب الى قيصر يطلعه على ما جرى وما اعتزم عمله ، فكتب اليه قيصر ألا تسير اليه ،واله عنه ،ووافني بإيلياء[٤٦] .

ولم يستطع الحارث – بالطبع – أن يتحرك ضد المسلمين لأن أمره ليس بيده ولأن سيده البيزنطي كان أكثر ذكاء منه فلم يتحرك إلا بعد حوالي السنتين ، وبعد أن تأكد من طبيعة الدولة الجديدة في الجنوب وأدرك أبعادها الحقيقية .. لكن (الصغار) كثيراً ما يندفعون أمام (الكبار) ويجاوزونهم خطوات وخطوات ، ملتفتين اليهم بين الحين والحين بإعجاب ، لكي يحظوا بتشجيعهم وهداياهم !

وإلى النجاشي ، حاكم الحبشة ، بعث الرسول ﷺ عمرو بن أمية الضمري ليتكلم معه بشأن المهاجرين ، وليدعوه في الوقت نفسه إلى الاسلام ، حاملاً معه كتابيه بهذا الشأن وقد جاء في كتاب دعوته إلى الاسلام « .. من محمد رسول الله الى النجاشي الأصحم ملك الحبشة . سلم أنت ، فاني أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه . واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والولاء على طاعته ، وان تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فاني رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين ، فاذا جاؤوك فأكرمهم ، ودع التجبر ، فاني أدعوك وجنودك الى الله ، فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع الهدى »[٤٧] .

---

(٤٦) الطبري : تاريخ ٦٥٢/٢ ، وابن سعد ١٧/٢/١ .

(٤٧) الطبري : تاريخ ٦٥٢/٢ ، ابن سعد ١٥/٢/١ ، وانظر النص الكامل في محمد حميد الله : الوثائق ص ٧٤ — ٨٠ .

ويحدثنا ابن اسحق وابن سعد كيف أن النجاشي تقبّل الرسالة بقبول حسن وأجاب الرسول ﷺ برسالة رقيقة يعلن فيها إسلامه وأن ما قاله في عيسى عليه السلام هو الصدق والحق . وانه قد استضاف ابن عمه وأصحابه على الرحب والسعة .. ويختم رسالته قائلاً : « وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، واسلمت على يديه لله رب العالمين . وقد بعثت اليك بابني ارها بن الأصحم .. وان شئت أن اتيك فعلت يا رسول الله ، فاني أشهد أن ما تقول حق ، والسلام عليك يا رسول الله » ويختتم ابن اسحق حديثه قائلاً : « وقد ذكر لي أن النجاشي بعث ابنــه في ستين من الحبشة في سفينة ، فاذا كانوا في وسط البحر غرقت بهم سفينتهم فهلكوا »(٤٨). ولا يوجد من الوقائع والأدلة والروايات الأخرى ما يؤيد هذا الذي ذهب اليـه ابن اسحق .. وربما يكون موقف النجاشي الودي ، سواء من مهاجري المسلمين أو خطبة الرسول لام حبيبة بنت أبي سفيان ، أو الرسالة التي دعاه فيها إلى الاسلام ، هو الذي دفع إلى المبالغة في تقدير موقفه الطيب وايصاله حد اعلانه الاسلام .

وإلى المقوقس حاكم مصر القبطي انطلق حاطب بن أبي بلتعـة ، فاستقبله استقبالاً حسناً لا يقل كرماً وطيبة عن استقبال زميـله الحبشي لمبعوث الرسول ﷺ وجرى حوار بين حاطب والمقوقس قال فيه حاطب : ان هذا النبي دعـا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش واعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى . وما بشارة موسى بعيسى (ع) الا كبشارة عيسى بمحمـد ﷺ ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الانجيل . وكل نبي أدرك قوماً فهم أمتـه ، فحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن ادرك هذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به .

وقد أعرب المقوقس عن موقفه الودي من الرسول بأن بعث اليه رسالة جاء فيها : « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليكم ، أما بعد : فقد

---

(٤٨) الطبري : تاريخ ٦٥٢/٢ ــ ٦٥٣ ، ابـــن سعد ١٥/٢/١ ــ ١٦ ، وانظر البلاذري : انساب ٢٢٩/١ .

قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وتدعو اليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقي وكنت أظن انه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط ،وبثياب. واهديت لك بغلة تركبها » . وقد دعا حاطب – في طريق عودته – الجاريتين مارية واختها سيرين إلى الاسلام فاسلمتا . ورداً على هذا الموقف الطيب تقبل الرسول الهدية وتزوج مارية التي ولدت له – فيما بعد – ابراهيم ، وبعث الأخرى إلى شاعره حسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن[49] . وكان من حصيلة هذه الزيجات المباركة والمواقف الطيبة ، تعاطف أكثر لاصهار الرسول ﷺ الأقباط مع المسلمين ، وتعاون صادق مع فاتحيهم وهم يتحركون على أرض مصر لاسقاط الحكم البيزنطي وتحرير المصريين من تعسفه وتعصبه وجوره[50] .

ويلاحظ ان كتاب الرسول ﷺ إلى مصر يستهل بهذه العبارة « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ... »[51]وهنا يجب أن نقف قليلاً عند شخصية المقوقس هذا الذي تعرفه الرواية الاسلامية دائماً بأنه عظيم القبط ، فقد كانت مصر يومئذ ولاية رومانية تخضع لقيصر قسطنطينية ، ولم يكن لأهلها القبط أي نوع من الاستقلال . ولم تكن هذه الحقيقة مجهولة في المدينة حيث تدل كتب النبي ورسائله على ان الأحداث والأوضاع السياسية التي كانت تسود الجزيرة العربية وما يجاورها من الممالك كانت معروفة من النبي وصحبه . وقد كان حاكم مصر الروماني في الوقت الذي نتحدث عنه هو الحبر كيروس ، وهو في نفس الوقت حاكم مصر وبطريقها الأكبر ، وقد استطاع البحث الحديث أن يلقي كثيراً من الضياء على شخصية المقوقس وأن يتعرف فيها

---

(٤٩) ابن سعد ١٦/٢/١ – ١٧ ، الطبري : تاريخ ٢١/٣ – ٢٢ ، الغزالي : فقه السيرة ص ٣٨٧ ، وانظر محمد حميد الله : الوثائق ص ١٠٦ – ١٠٨ .

(٥٠) يمكن الرجوع في هذا المجال الى كتابي بتلر (فتح العرب لمصر) وتوماس ارنولد (الدعوة الى الاسلام) .

(٥١) راجع نص الكتاب في اخبار مصر لابن عبد الحكم ص ٤٦ وصبح الاعشى للقلقشندي ٣٧٧/٦ .

شخصية كيروس نفسه . واذن فالمرجح ان المقوقس الذي تردد الرواية العربية اسمه انما هو كيروس حاكم مصر الروماني[٥٢] . ومما يؤيد هذه الحقيقة ان السفير النبوي قصد إلى الاسكندرية ليؤدي مهمته ، وقد كانت الاسكندرية يومئذ مقر الحاكم العام الروماني[٥٣] .

ونحن نجد في رسائل الرسول ﷺ إلى حكام العالم تأكيده الدائم على شهادة (لا إله إلا الله) في عصر طغت فيه الربوبيات الزائفة واتخاذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله . ولم يتهادن الرسول ﷺ في طرح هـذا الشعار ازاء حكام العالم ، كما لم يتهادن به في صراعه مع الوثنية العربية منذ أول لحظة ، فهو المنطلق الأساسي للدعوة الجديدة ، والقاعدة التي يقوم عليها صرح الاسلام وبدونها يتميع ويتفكك ويضيع . ونلمح - في الوقت نفسه - وفيما وراء هـذا الشعار مرونة وتكييفاً دبلوماسياً كان الرسول يصوغ بموجبه رسائله إلى الحكام فيعرض عليهم بعض جوانب اللقاء الديني بين الاسلام والنصرانية ، ويمنيهم بالخير العميم في الدنيا والآخرة في حال انتمائهم للدين الجديد ، الذي هو ليس سوى اتمام للشوط الذي كان موسى وعيسى عليهما السلام قد سارا عليه من قبل . ولكنه ﷺ كان يدفع خلال السطور كلمات وعبارات ينذرهم فيها انهم ان لم يستجيبوا فانهم سيعرضون مراكزهم للخطر وزعاماتهم للبوار !! وكان ﷺ فضلاً عن هـذا وذاك يقدر طبيعة الموقف الذي يصدر عنه (الحاكم) فيرد عليه بما يشبهه ويوازيه : تهديداً

---

(٥٢) انظر بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٢٦ ، ٤٤٤ وما بعدها .

(٥٣) محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ص ٢٠٤ - ٢٠٥ وهوامشهما . ويشكك عبد الحميد بخيت (عصر الخلفاء الراشدين ص ٥٤٣ - ٥٤٤) دون دليل مقنع بصحة النتيجة التي توصل اليها بتلر ونقلها عنه عنان ، فيقول « حاول الفريد بتلر ان يحل بعض المشكلات المتعلقة بشخصية المقوقس فلم يخرج الا بنتيجة واحدة قبلها الناس زمانا ولكنها الان موضع شك كبير ، ونعني بذلك قوله ان المقوقس هو قيرس (كيروس) ولم يستند في ذلك القول الا على عبارات تحتمل اكثر من تفسير وجدها عند ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين .. ولو ان المقوقس هذا كان قيرس بالذات لذكرت ذلك المراجع العربية او واحد منها على الاقل » وانظر : تاريخ الحضارة المصرية عدده من المجلد الثاني ص ٣٢٥ .

للحاكمين الذين يتمادون في الضلال ويشيحون عن مصدر النداء ، ويعربون عن مواقفهم بكلمات والفاظ عدائية ، وقبولاً وانفتاحاً على الساسة الذين يصدرون عن نيات طيبة وإخلاص صادق .

إلا أن المكسب الأكبر الذي حققه ﷺ من وراء مكاتباته تلك ، انها جاءت حملة (إعلامية) على النطاق الدولي من أن هذا الدين ليس دين عرب أو جزيرة عربية ، وإنما هو دين الانسان حيثما كان هـذا الانسان .. ونداء الى السلطات الحاكمة أن تستجيب للدعوة أو تسمح – عـلى الأقل – لدعاتها بممارسة نشاطهم بحرية ولشعوبها في مقابـلة هؤلاء الدعاة والاستماع اليهم لكي يختاروا عقيدتهم على بيّنة ، بعيداً عن الضغط والقسر والاكراه .. وانذاراً لهذه السلطات بأنها إن لم تلبّ وتستجب فان جيوش الدعوة الجديدة ستنساح عما قريب في مشارق الأرض ومغاربها ، لكي تسقط التيجان وتثـل العروش وتنزل السلطات من مناصبها العليا ، وتخرج الناس – بذلك وحده – من ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده .

إن توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل المعمور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل . لقد كان العرب يستكثرون النبوة على واحد منهم ويوسعونه جحوداً ، فما يكون شأن الروم والعجم وهم يرون العرب دونهـم منزلة وحضارة وثقافة وسياسة ؟ بيد أن أصحاب الرسالات لا ينظرون الى الأمور على ضوء الحاضر الضيق ، فان ثقتهم العميقة في سيادة فكرتهم وامتـداد نطاقها تعترض العقبات المفروضة في الطريق وتجعلها هباء منثورا .. ثم إن الخرافة الـتي أفسدت عقل بدوي تترب ثيابه رياح نجد هي بعينها الخرافة الـتي تفسد فكر كسرى عاهل الفرس العظيم . ما الفارق بين الحمى تصيب ملكاً أو تصيب صعلوكاً ؟ ان الطبيب يصف لهما على الحالين دواء واحداً ويتخذ ضد عدواهما حصانات واحدة. وقد أراد النبي أن يشفي الكبار والصغار مـن أمراض نفوسهم ، وأن يناولهم جميعاً الدواء الذي يصحون به .. قد يكون اولئك الملوك محجبين وراء أسوار

مشيدة وحولهم من الأتباع والجند والأبهة والرياش ما يبهر العين ، لكن أي عين تنبهر لهذه المظاهر؟ إن الأنبياء لا يرون في القوم إلا أنهم جهال يجب أن يتعلموا ، سفهاء يجب أن يسترشدوا ، وأن ما حولهم من الدنيا يحمل تبعتهم أخطر[٥٤] .

لقد كانت سفارات الرسول وكتبه عملاً بديعاً من أعمال الدبلوماسية ، بل كانت أول عمل قام به الاسلام في هــذا الميدان .. لم يذهب عبثاً كما رأينا .. ولا ريب أن النبي لم يكن يتوقع أن يلبي اولئك الملوك الأقوياء دعوته وهو ما يزال يكافح في بثها بين قومه وعشيرته بيد أن ايفاد هذه البعوث يعد عملاً متمماً للرسالة النبوية . وكان العالم القديم الذي يتجه اليه النبي العربي بدعوته يقوم يومئذ على أسس واهية تنذر بالانهيار من وقت إلى آخر . وكانت الأديان القديمة قــد أدركها الانحلال والوهن ، فكانت الدعوة الاسلامية تبدو في جدتها وبساطتها وقوتهــا ظــاهرة تستحق البحث والدرس . ولم يكن عسيراً أن يستشف أولو النظر البعيد ما وراء هذه الدعوة الجديدة من قوى تنذر بالانفجار ، وقد كان الانفجار في الواقع سريعاً جداً[٥٥] .

٥

في السنة الثامنة كان على الرسول ﷺ أن يتخذ موقفاً حاسماً ازاء القبــائل العربية النصرانية الموالية للبيزنطيين ،بعد المواقف الغادرة التي اتخذها بعض امرائها من دعاة الاسلام ورسلهم إلى الشام . وكانت حادثة مقتل الحارث بن عمير الأزدي مبعوث الرسول ﷺ إلى ملك بصرى على يد شرحبيل بن عمرو الغساني في مؤتة هي التي استفزت الرسول ﷺ لتأديب عرب الشمال الموالــين للبيزنطيين[٥٦] ،

---

(٥٤) الغزالــي : فقه السيرة ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

(٥٥) عنان : مواقف حاسمة ص ٢٠٨ .

(٥٦) ابــن سعد ٢/١/٩٢ ، الواقدي ٢/٧٥٥ — ٧٥٦ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٣٠ .

فجهز جيشاً كبيراً – نسبياً – يبلغ ثلاثة آلاف مقاتل ولى قيادته زيد بن حارثة[٥٧] وأمره بالانطلاق صوب الشمال لتأديب القبائل العربية علـى فعلتها – ان لم تستجب لدعوة الاسلام – واشعارها بقوة الدولة الاسلامية وقدرتهـا على ردع الغادرين والمعتدين الذين يرون في الحماية البيزنطية سبباً يدفعهم إلى الجرأة والعدوان، ولاستطلاع قوة وكفاية وطبيعة الأرض هناك .

ونظراً لبعد الطرق واحتمال مجابهة قوى كثيرة العـدد ، ألحق الرسول ﷺ بقائد الجيش قائدين احتياطيين همـا جعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة ، يتوليان الأمر ، أحدهما بعد الآخر ، في حالة اصابة القائد الأول ، مما يدل على مدى بعد النظر الذي كان الرسول ﷺ يتمتع به . ومن السذاجة أن يتبادر إلى الأذهان انه ﷺ كان يعلم مسبقاً المصير الذي كان ينتظر أعزّ أصحابه، فلم يعرف عنه أبداً انه ساق اتباعه إلى حتوفهم أو رمى بهم في عمليات ينتحرون فيهـا . كل ما هنالك أن كثرة مشاغله منعته من قيادة الجيش بنفسه ، ومن أجل ضمان وحدة قواته ومنعاً للفوضى والاضطراب في أرض متطرفة شمـالاً ، عين هؤلاء القادة الاحتياطيين[٥٨] .

خرج المسلمون في جمادى الأولى ، رجالاً ونساء وأطفالاً ، لتوديع المقاتلين الذاهبين إلى أقصى الشمال ، وتعالت أصواتهم (صحبكم الله ودفـع عنكم ، وردكم الينا صالحين) . وراح عبد الله بن رواحة الشاعر ينشد :

لكنني أسأل الرحمـن مغفرة   وضربة ذات فرع[٥٩] تقذف الزبدا[٦٠]
أو طعنة بيدي حرّان مجهزة   بحربـة تنفذ الأحشاء والكبدا

(٥٧) يورد اليعقوبي كعادته (تاريخ ٢/٥٤) رواية خاطئة مفادها ان جعفر بن ابي طالب ربما كان الامير الاول على الجيش الذاهب الى مؤتة .

(٥٨) ابن هشام ص ٢٧٠ ، الطبري : تاريخ ٣/٣٦ ، ابـن سعد ٢/١/٩٢ – ٩٣ ، الواقدي ٢/٦ ٧٥ ، البخاري : التجريد ٢/٨٩ .

(٥٩) الفـرع : السعة .

(٦٠) الزبد : رغوة الـدم .

حتى يقال، إذا مروا على جدثي، يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

وعندما ودعهم الرسول ﷺ وانصرف راجعا أنشد ابن رواحة :

خلف السلام على امرىء ودعته في النخل خير مشيع وخليل[61]

مضت قوات المسلمين حتى بلغت معان جنوبي الأردن، فعسكرت فيها، وبلغ قادتها هناك ان الامبراطور البيزنطي قد سمع نبأ التحرك الاسلامي فتقدم على رأس مائة الف من الروم – فيما تذكر الروايات – وعسكر في مآب من أرض البلقاء. ويذكر المسعودي أن هرقل كان مقيما آنذاك في انطاكية وأنه ولّى قيادة جيشه تيادوتس البطريق[62]، ويؤكد بروكلمان ما ذهب اليه المسعودي مصححاً اسم القائد البيزنطي (ثيودورس)[63]. وفي مآب التحقت بالقوات البيزنطية القبائل العربية الموالية من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلى، قادهم شرحبيل بن عمرو الغساني وبلغوا – فيما تذكره الروايات – مائة الف. ولا ريب أن المبالغات التي أعقبت هذه المعركة التي انسحب فيها المسلمون كثرت من عدد العدو وجعلته يبلغ هذا الرقم الخيالي، وان كان بمستطاع القبائل العربية الضاربة في المنطقة أن تهرع لنجدة سيدها بعشرات الآلاف من المقاتلين[64].

ظل المسلمون معسكرين في معان طيلة ليلتين، يتدبرون أمرهم، وقال بعضهم : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فاما أن يمدنا بالرجال وأما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. إلا أن عبد الله بن رواحة اندفع بفورة حماس يعرفها جيداً من يعيش فورات التجربة الشعرية وانفعاليتها مقترنة بزخم ايماني لا ترده روية أو تمهل، راح ينادي أصحابه : يا قوم، والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة !! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فانما هي احدى الحسنيين:

---

(61) ابن هشام ص ٢٧٠ – ٢٧١، الطبري : تاريخ ٣٧/٣، الواقدي ٧٥٦/٢ – ٧٥٩.

(62) التنبيه والاشراف ص ٢٣٠.

(63) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٥٩.

(64) ابن هشام ص٢٧١، الطبري ٣٧/٣، ابن سعد ٩٣/١/٢، الواقدي ٧٦٠/٢.

اما ظهور واما شهادة !! فأجابه الناس الذين لم يعرفوا خوفاً يوما أو تراجعاً ، والذين يدركون جيداً كم هو عظيم الهدف الذي خرجوا من أجله ، وكم هي غالية (الشهادة) على قلوب أصحاب رسول الله ﷺ : قد والله صدق ابن رواحة[٦٥].

غادر المسلمون معسكرهم في معان وانطلقوا شمالاً حتى إذا بلغوا تخوم البلقاء لقيتهم جموع الروم والعرب في قرية من قرى البلقاء تدعى مشارف ، فانحازوا صوب قرية مؤتة ، وهناك عبؤوا أنفسهم فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عذرة يقال له قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يسمى عباية بن مالك وبدأ القتال المرير . وانطلق زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ يقاتل حتى شاط في رماح القوم وغرق بدمائه ، فتسلّم الراية جعفر بن أبي طالب ذو الثلاث والثلاثين سنة من العمر وانطلق يقاتل حتى إذا أحاط به العدو من كل مكان وسددوا اليه ضرباتهم ، اقتحم عن فرسه الشقراء وضرب قوائمها بالسيف وراح يجالد القوم وهو ينشد .

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها
علي إذ لاقيتها ضرابها

كان جعفر يحمل الراية بيمينه فلما قطعوها أخذها بشماله ، فلما قطعوها احتضنها بعضديه حتى قتل في أعقاب ضربة من جندي رومي قطعته نصفين ، فانقض عبدالله بن رواحة وحمل الراية وتقدم بها على فرسه . وفي موجة من الرعب الذي لا يرحم ، منبثقاً هذه المرة أيضاً عن انفعالية الشعراء وتأرجحهم النفسي ، وحساسيتهم ، تردد عبدالله بعض التردد إلا أنه ما لبث أن تفوق على خوفه وتردده ، ونزل عن فرسه لكي يشتبك بأعداء الله وهو ينشد :

أقسمت يا نفس لتنزلنه   لتنزلنه أو لتكرهنه

---

(٦٥) ابن هشام ص ٢٧١ — ٢٧٢ ، الطبري : تاريخ ٣/٣٧ — ٣٨ ، الواقدي ٢/٧٦٠ .

ان اجلب الناس وشدوا الرنة[٦٦] ما لي أراك تكرهين الجنة؟
يا نفس الا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت أن تفعلي فعلها هديت

وأتاه ابن عم له بقطعة لحم وقال : شد بها صلبك ، فانك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت !! فأخذها منه واقتطع منها مضغة لكنه ما لبث أن سمع احتدام القتال قريباً منه ، فخاطب نفسه : وأنت في الدنيا ؟ ألقى قطعة اللحم من يده ثم أخذ سيفه وتقدم ، فقاتل حتى قتل [٦٧] .

أخذ الراية رجل من المسلمين يدعى ثابت بن أقرم ونادى : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم . قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل . فتشاور الناس واتفقوا على تسليم القيادة لخالد بن الوليد . وفي قلب الفجيعة واحتدام القتال كان المسلمون ينفذون (قيماً) ويصنعون أخرى .. ثابت بن أقرم وهو يرفض القيادة ، لا خوفاً أو جبناً ولكن إدراكاً لقدراته وطلباً للأكفأ والأحسن ، والمقاتلون وهم (يتشاورون) لإختيار قائدهم الجديد بعد فجيعتهم برؤسائهم الثلاث [٦٨] ..

ولقد كان خالد عند ظن أصحابه، التمعت عبقريته القتالية في لحظة الامتحان الخطير هذه، فجعل هدفه أن ينسحب بالمسلمين وأن يجنبهم عملية إبادة شاملة هي الآن قاب قوسين أو أدنى منهم .. وماذا بعد ضياع زهرة قوات المسلمين وتبعثر جثث ثلاثة آلاف مقاتل في الصحراء بعيداً عن رسولهم وأهليهم ؟ سيقول الامبراطور إن اندفاعاً حماسياً من جزيرة العرب قد سحق ، وعلى أعراب الجنوب ألا يفكروا مرة أخرى بمصارعة سيدة العالم ، المنتصرة على الساسانيين،

---

(٦٦) الرنة : ترجيع شبيه بالبكاء .
(٦٧) ابن هشام : ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣ ، الطبري : تاريخ ٣٩/٣ ــ ٤٠ ، ابن سعد : ٩٣/١/٢ ، الواقدي ٧٦١/٢ .
(٦٨) ابن هشام ص ٢٧٣ ، ابن سعد ٦٤/١/٢ ، الطبري : تاريخ ٤٠/٣ ، الواقدي ٧٦٣/٢ ــ ٧٦٤ .

وسيقول أتباعه من نصارى العرب أن كلمـــة سيدنا هي الكلمة ، وأن تبعيلنا وطاعتنا في مكانها ، لن يحرفها نداء رجل جاء يدعونا الى عبادة الله وحده وترك عبادة العباد ! وسترفع الوثنية واليهودية وحركة النفاق رؤوسها ثانية في قلب الجزيرة في محاولة لاسترداد مواقعها القديمة التي أزاحها عنها الاسلام .

ولقد بدأ خالد تحقيق هدفه هــذا بأن رسم خطة سعى فيها الى ايهام العدو أن المسلمين لا زالوا في اماكنهم يقاتلون ، فدفع مقدمتهم الى مناوشة العــدو ، وأجرى تغييرات في مواقع جنده ، بــين ميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة ، وأرسل خلف الجيش عدداً من الرجال والخيول يحدثون جلبة شديدة ويثيرون النقع ، ليوهم العدو أن مدداً قــد جاءه . وما أن حلّ الظلام حتى انسحب من الميدان ، وأخذ طريقه جنوباً ، منقذاً معظم المسلمين من فنـــاء محقق[٦٩] ، ولم يخسر المسلمون ، في روايــة للواقدي ، سوى ثمانية قتلى[٧٠] أو اثني عشر على الأغلب ، بينما كانت خسائر العدو أضعافاً مضاعفة مما أثر في معنوياتهم وصدهم عن مطاردة المسلمين . ومعروف ان عمليــة الانسحاب تعد من أصعب العمليات العسكرية ، لاحتمال انقلاب الانسحاب الى هزيــة ، والهزيمة كارثة تؤدي إلى خسائر فادحة بالمنهزمين .. ولا تعد خسائر المسلمين الضئيلة في مؤتة شيئاً يذكر بجانب الفائدة العسكرية التي أفادها الاطلاع على خواص قوات الروم وتنظيمها وتسليحها وأساليب قتالهـــا مما تضح أثره في المعارك التي خاضها المسلمون فيما بعد[٧١] .

ابتعد المقاتلون عن ميدان القتال قبل أن تصلهم النجدة التي كان الرسول ﷺ قد استنفرها لدى سماعه أنباء القتال[٧٢] ، ووصلوا المدينة بعد مسيرة مجهدة في جحيم الصحراء ، وتلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون ، والصبيان يعدون من

(٦٩) انظر الواقدي ٢/٧٦٤ .

(٧٠) المصدر السابــق ٢/٧٦٩ .

(٧١) شيت خطاب : الرسول القائد ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ، وعن مؤتة انظر كذلك :
Encyclopeadia of Islam , art, Mu'ta.

(٧٢) الطبري : تاريــخ ٣/٤١ .

وراءهم ويهتفون : يا فرّار فررتم في سبيل الله ؟ فيجيبهم الرسول ﷺ : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ان شاء الله تعالى[٧٣] . ولقد كرّوا فعلاً على أعدائهم بعد قليل ، فأمة يستنكر فيها الهزيمة حتى أطفالها الصغار الذين لم (يعتادوا) عودة (كبارهم) مقهورين ، لا بد أن يجول كبارها جولات وجولات حتى تتحقق الكلمة التي حملوها إلى العالم !!

ولم يمض شهر واحد على معركة مؤتة حتى بلغ الرسول ﷺ ان جمعاً من قضاعة ، القاطنين في الشمال والموالين للروم ، قد تجمعوا يريدون القيام بهجوم على أطراف الدولة الاسلامية . فدعا عمرو بن العاص ووجهه على رأس ثلاثمائة من ابطال المهاجرين والانصار ، وأمره ان يستعين بمن يمر بهم من قبائل بـلي وعذرة وبلقين ، الموالية للمسلمين . فانطلق عمرو يسير ليلاً ويكمن نهاراً ، فلما اقترب من القوم بلغه ان لهم جمعاً كثيراً ، فبعث إلى الرسول ﷺ يطلب منه مدداً فاسرع الرسول ﷺ بإرسال أبي عبيدة بن الجراح على رأس مائتي مقاتل من كبار المهاجرين والانصار فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم وأمره ان يلحق بابن العاص وان يعملا سوية لانجاز المهمة التي كلفا بها. وانطلق عمرو - بعد ان وصله مدد أبي عبيدة - حتى « وطيء بلاد بلي ودوخها ، حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين » . ولقي في نهاية زحفه جمعاً فحمل عليهم فهربوا بين يديه وتفرقوا في البلاد ، بعد ان قتل منهم عدد كبير[٧٤] ثم قفل جيش الرسول ﷺ عائداً بعد ان غطى بانتصاراته الأخيرة هذه في أقصى الشمال ، على مأساة مؤتة ، ومكن للنفوذ الاسلامي في أقصى الشمال ، وأشعر العرب الموالين للبيزنطيين بأن هزيمة المسلمين في معركة لا تعني أبداً انحسار دولتهم في أراضي الشمال .

---

(٧٣) ابن هشام ص ٢٧٤ ، الطبري : تاريخ ٤٢/٣ ، ابن سعد ٩٣/١/٢ ، الواقدي ٧٦٥/٢ .

(٧٤) ابن سعد ٩٤/١/٢ - ٩٥ ، الواقدي ٧٧٠/٢ - ٧٧١ ، الطبري : تاريخ ٢٩/٣ ، ٣١ ٣٢ البلاذري : انساب ٣٨٠/١ - ٣٨١ ، اليعقوبي : تاريخ ٦٤/٢ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٣١ ، ابن الاثير : الكامل ٢٣٢/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٧٣/٤ - ٢٧٥ .

٦

بعد عودة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة في أواخر السنة الثامنة ، في أعقاب دخوله مكة وانتصاره في حنين ، بلغته انباء خطيرة عن تحركات يعتزم الروم وحلفاؤهم العرب من لخم وجذام وغسان وعاملة ، القيام بها ضد الدولة الاسلامية قبل ان يشتد ساعدها وتتفرد في قيادة الجزيرة العربية ، وتشكل خطراً حاسماً على الوجود البيزنطي في بلاد الشام ، وقد قامت هذه القبائل فعلا بارسال طلائعها إلى البلقاء .

كان الوقت صيفاً، والصحراء تحترق ناراً، والبلاد تعاني جدباً ومحلاً، والطريق طويل ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص لقطع آلاف الأميال عبر الصحراء ، وقتال قوم هم سادة الدنيا ، ومحنة مؤتة ، فوق هذا كله ، ليست بعيدة عن الأذهان ، لكن منطق الرسول صلى الله عليه وسلم يفوق التحديات ويتجاوز المصاعب ، لأن السكوت على التحرك البيزنطي معناه الاندحار ، وانتظارهم لكي يوجهوا (هم) ضربتهم معناه الانتحار ، فلا بد إذن من التجهز بسرعة، وتولي زمام المبادرة، والانطلاق عبر المتاعب والمصاعب للرد على تحدي سيدة العالم ، وإشعار العرب الخاضعين لها ان هناك دولة ثانية وكلمة أخرى .

وفي معظم الغزوات كان الرسول ﷺ لا يحدد هدفه العسكري زيادة في الكتمان على العكس ، انه كان يعلن عن أهداف غير تلك التي يريد قصدها. أما في غزوة تبوك فقد بينه للناس « لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو ، ليتأهب الناس لذلك أهبته » . وأمر ﷺ بالتجهز وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم وحضّ الذين يملكون على النفقة في سبيل الله وتهيئة الدواب التي ستنقل المقاتلين إلى الشمال . ثم ما لبث أن انطلق في رجب بأكبر جيش عرفه تاريخ الدعوة حتى ذلك الحين ، قيل انه بلغ ثلاثين ألفاً ، تصحبها عشرة آلاف فرس ، مستخلفاً في

المدينة علياً بن أبي طالب رضي الله عنه[٧٥] ودافعاً لواءه الأعظم إلى أبي بكر ورايته إلى الزبير رضي الله عنهما[٧٦]

بدأ المسلمون مسيرتهم التي قطعوا فيها آلاف الأميال ، وعانوا آلام العطش والجوع والحر وقلة وسائل الركوب وبعد الطريق .. ويحدثنا عبد الله بن عباس انه قيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً واصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى أن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه ثم يجعل ما بقي على كبده[٧٧]. لقد كان جوب البادية ، - يقول درمنغم - صعباً، وجعل محمد ﷺ وجنوده يعسكرون بعد غروب الشمس المحرقة تحت عاصفة من الرمال جياعاً عطاشا، وتوارى هؤلاء الجنود خلف جمالهم، مولين الرياح ظهورهم مدثرين بارديتهم، متشبثين بالأرض، وخرج اثنان من العسكر فاختنق أحدهما واحتملت الريح الآخر. فلما أصبح الناس بدؤوا يزحفون منهوكين محمري العيون ، مفطري الأرجل ، مجمّدي الريق ، مدويي الآذان ، مفريي الجلود ، زالقين على ألواح حجرية سود ، متخرقين لصخور بادية على شكل سوق الشجر .. وبلغ بعضهم من الهذيان ما صب معه في حلوقهم ووضع على صدورهم سوائل ، أخذت من كروش الابل[٧٨] .

انتهى المطاف بالمسلمين إلى تبوك في أقصى الشمال، ويبدو أن الروم وحلفاءهم

---

(٧٥) ابن هشام ص ٣٢٥ ، الطبري : تاريخ ١/٣ ١٠ ، ١٠٣ — ١٠٤ ، ابن سعد ١١٨/١/٢ — ١١٩ ويذكر الاخير ان (محمد بن مسلمة) هو الذي استخلف على المدينة ، الواقدي ٩٨٩/٣ — ٩٩١ .

(٧٦) الواقدي ٩٩٦/٣ . ويخطىء اليعقوبي (تاريخ ٥٦/٢) كشأنه مرارا في قوله متحدثا عن غزوة تبوك ان الرسول (ص) خرج الى ارض الشام « يطلب بدم جعفر بن أبي طالب » بينما يشير سياق الاحداث ، وحجم التحرك العسكري ، وطبيعة الظروف السياسة، الى ان الامر اكبر بكثير من مجرد هجمة ثارية لمقتل رجل من المسلمين .

(٧٧) ابن كثير : البداية والنهاية ٩/٤ .

(٧٨) حياة محمد ص ٣٦٥ .

سمعوا انباء هذا الجيش الكبير ، وقدرته على اجتياز المصاعب ، واصراره على لقاء الأعداء فآثروا الانسحاب إلى الداخل ، عبر أراضي الأردن وفلسطين ، صوب حمص حيث استقر هرقل ، مستهدفين – في الوقت نفسه – جر القوات الاسلامية إلى الداخل والانقضاض عليها هناك [٧٩] إلا ان الرسول ﷺ لم يتح لهم تحقيق هدفهم هذا وعسكر في تبوك جاعلاً اياها آخر نقطة في توغله شمالاً . ويذكر الواقدي ان النبي ﷺ شاور أصحابه في التقدم، فاجابه عمر بن الخطاب: يا رسول الله ان للروم جموعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الاسلام ، وقد دنوت منهم حيث ترى وقد افزعهم دنوك ، فلو انك رجعت هذه السنة حتى ترى ، أو يحدث الله عز وجل لك في ذلك أمراً [٨٠].

وفي تبوك راح الرسول ﷺ يراقب الروم ويتحداهم ان يبرزوا له ويقاتلوه ويذكر المسعودي انه جرت خلال ذلك مراسلات بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين هرقل الذي كان يقيم آنذاك في حمص وربما في دمشق [٨١] ويشير درمنغم إلى ان اتفاقاً سرياً تم بين محمد وهرقل يقضي بسماح الأخير لعرب الشمال باعتناق الاسلام [٨٢] ويبدو ان درمنغم بنى استنتاجه هذا على رواية المسعودي آنفة الذكر وان لم يكن من المستبعد أن يقرّ هرقل اتفاقاً كهذا يخلصه من كثير من المشاكل التي بدأت دولة الاسلام تسببها لحدوده الجنوبية .

---

(٧٩) في رواية للواقدي (٣/١٠١٩-) ان هرقل ظل في موقعه في حمص لم يتحرك ولم يزحف ، وكان الذي خبر النبي من بعثته اصحابه ودنوه الى ادنى الشام باطلا ، ولم يرد ذلك ولم يزحف، ولم يهم به. وليس من السهل الاخذ بهذه الرواية، سيما وان الواقدي نفسه يذكر في بدء حديثه عن غزوة تبوك ان الذي نقل انباء احتشاد الروم وحلفائهم شهود عيان من الاقباط الذين كانوا يردون على المدينة حينا بعد حين لبيع الدقيق ، والزيت (٣/٩٨٩ .٩٩) كما ان سير الاحداث وما قدمته الروايات الاخرى من تفاصيل ، لا ينسجم وما يذهب اليه الواقدي في روايته تلك . ويذكر البلاذري (انساب ١/٣٦٨) ان الرسول (ص) لما سار الى هرقل وحلفائه « هابوا محاربته فلم يلق كيدا » .

(٨٠) مغازي رسول الله ٣/١٠١٩ .

(٨١) التنبيه والاشراف ص ٢٣٦ .

(٨٢) حياة محمد ص ٣٦٦ .

أخذ الرسول ﷺ يتصل في الوقت نفسه بزعماء القبائل النصرانية المنتشرة في المنطقة ويتلقى سفاراتهم ، فيعقد معهم معاهدات الصلح والتعاون ، ويقطع - بذلك - ولاءهم للدولة البيزنطية ويحولهم إلى مواطنين أو حلفاء للدولة الإسلامية ، وهو الهدف الذي كان يطمح الى تحقيقه منذ بدء صراعه مع الروم وكان ممن جاء الى تبوك يوحنة بن رؤبة صاحب ايلة حيث صالح الرسول ﷺ ووافق على منحه الجزية . كما جاءه أهل جرباء واذرح واعطوه الجزية التي تعني اشعاراً مادياً بانتمائهم الى الدولة الاسلامية وقطع علاقاتهم وارتباطاتهم بمن سواهـا . وقد كتب الرسول ﷺ ليوحنة عهداً يمثل (نموذجاً) للعهود التي كان يكتبها للجماعات النصرانية مانحاً إياهم فيها حرية الدين والمواطنة على السواء . ومؤكداً على كونهم قد غدوا مرتبطين بالدولة الاسلامية وحمايتهـا وسلطتها « بسم الله الرحمن الرحيم . هـذه امنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن أخذه من الناس وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر » . كما وجه ﷺ خالداً بن الوليد على رأس كتيبة إلى أمير دومة النصراني المدعو أكيدر بن عبد الملك ،فتمكن خالد من أسره وقتل أخيه والعودة بالأمير إلى رسول الله ﷺ فحقن الرسول دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم أطلق سبيله فرجع الى بلده[٨٣] .

وبعد عشرين ليلة قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم وقواتـه في تبوك ، قفل عائداً إلى المدينة بعد أن حقق بحركته الصعبة تلك انتصاراً على الجبهـة النصرانية - البيزنطية ، لا يقل خطراً عن انتصاراته الحاسمة على جبهات الوثنية

---

(٨٣) ابن هشام ص ٣٣٢ - ٣٣٤ ، الطبري : تاريخ ١٠٨/٣ - ١٠٩ ، ابن سعد ٢٨/٢/١ - ٢٩ ، ٣٧ و١٢٠/١/٢ ، الواقدي ١٠٢٥/٣ - ١٠٣٢ ، البلاذري : فتوح ١/ ٧١ - ٧٣ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٣٦ ، وانظر حميد الله : الوثائق ص ٨٧ - ٨٩ ، ٩٠ - ٩١ ، ٩١ - ٩٥ .

واليهودية . فقد كسب عدداً من القبائل العربيـة القاطنة في جنوب الشام إلى جانب الدولة الإسلامية، وقطع علاقاتها بالروم، وأشعر القبائل الأخرى بمدى قوة الدولة الجديدة وامتداد نفوذها إلى قلب الديار التي كان أهلها يعملون لصالح سادتهم الروم ، ويلعبون دوراً خطيراً في مقاومة امتداد الاسلام صوب الشمال. ولم تكن محنة مؤتة سوى محاولة واحدة من عدد من محاولات هؤلاء العرب بوجه الاسلام .
وها هم الآن – بعد تبوك – قد اقتنعوا بأن الاحتماء بالسلطة البيزنطية سوف لن ينقذهم من العقاب ، فبدؤوا يتهافتون على الرسول ﷺ طالبين الصلح معه ودفع الجزية له !!

إلا أن الانتصار الأهم ، هو أن استجابة الرسول ﷺ لتحدي الروم ، وتقدمه لقتالهم وانسحابهم من طريقه ، وانتظاره إياهم قرابة عشرين يوماً دون أن يحركوا ساكناً ، جاء ضربـة قاصمة للسيادة البيزنطية في بلاد الشام ، واضعافاً لمركزها الأدبي وسطوتها على القبائل العربية ، وكسراً لجدار الخوف العربي من القوة البيزنطية ، وهو انتصار نفسي حاسم مكن العرب ، بعد سنين معدودات، من تجاوز ولائهم القديم والانطلاق لضرب البيزنطيين والحاق الهزائم بهم وطردهم إلى بلادهم التي جاؤوا منها .

ان غزوة تبوك تمثل خطوة من خطوات الحركة الإسلامية المسلحـة صوب الخارج ، وتخطياً لنطاق العرب وجزيرتهم الى العـالم ، وبادرة متقدمة لحركة الفتوحات التي شهدها عصر الراشدين .

ولقد جاءت تجربة تبوك التي سماها المسلمون (غزوة العسرة) وقالوا انها جاءت عسرة من الماء وعسرة من الظهر وعسرة من النفقة ، شبيهة بمحنة (أحد) ، ناراً ممحصة على حريقها ووهجها تميز المنتمون إلى معسكر الإسلام ، درجات بعضها فوق بعض وهذا شأن كل معسكر في تاريخ البشرية . فليس بنو آدم ملائكة يقفون صفاً واحداً ولكنهم يتميزون في ايمانهم واخلاصهم وانتمائهم ، تمـيزهم الانتصارات الحاسمة

والانكسارات الخطيرة وتفرّق بينهم تجارب الراحة والسعادة وآلام المحن والنكبات. فها نحن اولاء نجد ، والرسول ﷺ يدعو المسلمين أن يتجهزوا للرد على التحدي البيزنطي عبر المجاعة والعطش وجحيم الصحراء وطريقها الطويل ، أناساً يقفون في القمة ، وآخرين يتحركون صعداً في منتصف الطريق لا يقدرون على الصعود خطوات أخرى إلى أعلى ، وهم مع ذلك يحاولون ويحاولون وفئة ثالثة حرنت في مواقعها لا تريد أن تسعى ولا أن تتحرك .. وهنالك في الأسفل، عند جدار المرتفع وفي منخفضاته ، طوائف كثيرة من المنافقين والمنهزمين ، يتخبطون كالحشرات والديدان دواراً على أنفسهم وبقاء في الحفر الضيقة !!

أنفق عثمان بن عفان – يومها – نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، بلغت – فيما ذكره البلاذري – سبعين ألف درهم [٨٤] . وتصدى بماله لمشكلة النقص الخطير في وسائل الركوب. فردّد الرسول ﷺ « ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم » وجاء أبو بكر بماله كله: أربعة آلاف درهم فقال له ﷺ: هل أبقيت شيئاً؟ فأجابه: الله ورسوله أعلم . وجاء عمر بنصف ماله . يقول الواقدي : « ورغب أهل الغنى في الخير والمعروف ، وقووا اناس دون هؤلاء من هو أضعف منهم ، حتى أن الرجل ليأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بينكما تتعاقبانه ، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج، حتى إن كنّ النساء ليُعِنّ بكل ما قدرن عليه !! قالت ام سنان الأسلمية . لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها فيه اسورة ومعاضد وخلاخل وأقرطة وخواتيم .. مما يبعث به النساء يعن به المسلمين في جهازهم .. » [٨٥] .

وجاء سبعة من الأنصار من فقراء بني عمرو بن عوف، وتوسلوا إلى الرسول ﷺ أن يحملهم على الدواب ، فأجابهم (لا أجد ما أحملكم عليه) فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون . ولقي رجل من أهل المدينة اثنين منهما يبكيان فسألهما (ما يبكيكما ؟) أجابا : جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا

---

(٨٤) انساب الاشراف ٣٦٨/١ .

(٨٥) مغازي رسول الله ٩٩١/٣ – ٩٩٢ .

فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى بــه على الخروج معه . فأعطاهما جملاً له يستقي عليه الماء ، وزودهمــا بشيء من التمر ، فارتحلا الجمل وخرجا مع رسول الله ﷺ (٨٦).

ورجع أبو خيثمة ، بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً ، إلى أهــله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهــما في بستانه قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيأت له فيه طعاماً . فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال: رسول الله ﷺ في الشمس والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ؟ مــا هذا بالنصف . والله لا ادخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا لي زاداً(٨٧) .

وأبو ذر !! لما ابطأ عليه بعيره ، تعباً وارهاقاً ، أخذ متاعه فحمله على ظهره وخرج يتبع أثر المسلمين ماشياً !! وفي مكان ما من الصحراء الممتدة نظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله ان هذا رجل يمشي على الطريق وحده، فقال الرسول ﷺ بحدسه العميق : كن أبا ذر ، فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله هو والله أبو ذر . فقال الرسول ﷺ (رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحــده ، ويبعث وحده)(٨٨) .

وهنالك من ابطأت بهم نياتهم عن الاستجابة للنداء، ولكن من وراء نياتهم وأفعالهم الظاهرة هذه قلوب يعمرها الايمان والرغبة في العطاء والندم العميق على أي تهاون أو تفريط . ومن منا لم يسمع قصة الثلاثة المخلفين : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ؟!

قال كعب بن مالك فيما رواه البخــاري « لم اتخلف عن رسول الله ﷺ في

---

(٨٦) ابن هشام ص ٣٢٦ ــ ٣٢٧ ، الطبري : تاريخ ١٠٢/٣ ، الواقدي ٩٩٣/٣ ــ ٩٩٤ ، البخاري ٩٩/٢ .

(٨٧) ابن هشام ص ٣٢٨ ــ ٣٢٩ ، الطبري ٣/ ١٠٤ ــ ١٠٥ ، الواقدي ٣/ ٩٩٨ ــ ٩٩٩ .

(٨٨) ابن هشام ص ٣٣١ ، الطبري ١٠٧/٣ ، الواقدي ١٠٠٠/٣ .

غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك ... حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت اغدو لكي اتجهز معهم فارجع ولم اقض شيئاً، فأقول في نفسي أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجدّ .. ثم غدوت ثم رجعت ولم اقض شيئاً، فلم يزل بي حتى اسرعوا ... وهممت ان أرتحل فادركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك. فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت بهم احزنني اني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء ..

« فلما بلغني انه توجه قافلاً حضرني همي فطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عني الباطل وعرفت اني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه فاجمعت صدقه. وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى. فجئته فلما سلمت عليه تبسّم تبسم المغضب ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت بلى والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه اني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك.

« فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي والله ما كنا علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ

بما اعتذر به المتخلفون .. فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى كدت أن أرجع فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما ما قيل لك فقلت من هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع وهلال بن امية ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي .

« ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا ؟ ثم اصلي قريباً منه ... حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه فوالله ما ردّ عليّ السلام .. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار . فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام – ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة – يقول : من يدلني على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان فاذا فيه : أما بعد ، فانه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأتها ، وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها ..

« حتى إذا كملت خمسين ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، وصليت الفجر ، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، قد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ ينادي بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ! فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج وآذن رسول الله بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قبل صاحبي مبشرون .. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما

ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ . واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنوني بالتوبة .. حتى دخلت المسجد، فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك امك.قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال : لا بل من عند الله ، وكان رسول الله ﷺ اذا سرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله ان من توبتي أن انخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله فقال : امسك عليك بعض مالك فهو خير لك .. فقلت : يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً واني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت .. » [٨٩] .

وهنالك من ظلوا يتخبطون في بدايات الطريق ولا يقدرون على الخروج من حفره الضيقة : المعذرون من الأعراب الذين جاؤوا يلتمسون الأعذار من الرسول كيلا يذهبوا إلى القتال فلم يعذرهم الله، والمنافقون الذين راحوا يروجون شائعات الخوف والجبن والتردد، ويهمس بعضهم في أذن البعض الآخر : لا تنفروا في الحر !! ولقد تحدث عنهم القرآن فيما بعد ، بضربات كاوية كجمرات جهنم (وقالوا : لا تنفروا في الحر،قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون،فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون) ، وعندما انطلقوا مع زعيمهم عبدالله بن أبيّ ، ما لبثوا أن انقلبوا عائدين في أول الطريق [٩٠] وزعيمهم يردد « يغزو محمد بني الأصفر، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا قبل له به، يحسب محمداً أن قتال بني الأصفر اللعب؟! والله لكأني أنظر الى أصحابه غداً

---

(٨٩) البخاري : التجريد : ٢/ ١٠٠ — ١٠٤ ، الواقدي ٣/ ١٠٤٩ — ١٠٥٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٥/٢٣ — ٢٦ .

(٩٠) ابن سعد ١٩/١/٢ .

مقرنين في الحبال ... »[٩١] !! ضربة في الصميم من ضربات النفاق وهو يزحف في الظلمات بطيئاً بطيئاً ، ليلدغ على حين غفلة ، كما تلدغ العقارب والحيات[٩٢].

انكسر تحدي الروم المعلن للدولة الاسلامية ، في أعقاب تبوك ، ولم يستطيعوا ولا حلفاؤهم من نصارى العرب أن يتحركوا أو يقوموا بعمل عسكري ، سيما وأن الرسول ﷺ قد أقام - بمحالفاته ومصالحاته مع القبائل النصرانية في الشمال - جداراً يصد العدوان ويكبته .. لكن بعض أمراء العرب في الأردن وفلسطين من أجل إرضاء سادتهم ، راحوا يتحرشون بدعاة الاسلام ورجاله في المنطقة ويصدونهم عن اداء مهمتهم . وقد ذكر ابن سعد - على سبيل المثال - أن فروة بن عمرو الجذامي ، عامل قيصر على عمان من أرض البلقاء ، أعلن اسلامه ، رغم انه لم يتلق كتاباً من الرسول ﷺ . وكتب إلى النبي ﷺ باسلامه كتاباً حمله رسولاً من قومه يدعى مسعود بن سعد . فقرأ النبي الكتاب ورد عليه بكتاب من عنده ، وأجاز المبعوث بمبلغ من الدراهم رداً على الهدية التي تلقاها من الأمير العربي[٣٦] . ولما بلغ امبراطور الروم اسلام عامله دعاه وقال له: ارجع عن دينك بملكك. فأجاب فروة : لا افارق دين محمد ، وانك تعلم أن عيسى قد بشر به ، ولكنك تضن بملكك . فحبسه الامبراطور ثم أخرجه وصلبه[٩٤] .

---

(٩١) الواقدي ٣/٩٩٥ - ٩٩٦ وانظر فصل (حركة النفاق) .

(٩٢) عن الايات المتعلقة بغزوة تبوك وما رافقها من مواقف (بشرية) انظر سورة التوبة ٤٢ - ٤٩ ، ٥٢ - ٥٤ ، ٨١ - ٨٧ ، ٩٠ - ٩٤ ، ١١٧ - ١١٨ ، ١٢٠ .

(٩٣) الطبقات الكبرى ١/٢/١٨ .

(٩٤) المصدر السابق ١/٢/٣١ .

٧

في الفترة التالية انهمك الرسول ﷺ باستقبال الوفود القادمة إلى المدينة من كل مكان ، وكان من بينها وفد نجران النصرانية[٩٥] الذي توجه إلى المدينة في أعقاب كتاب بعثه اليهم الرسول ﷺ ، جاء فيـــه : « . . إني أحمد اليكم اله ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ، أما بعد : فاني أدعوكم إلى عبـادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فان أبيتم فالجزية وإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام »[٩٦] . وكانت النصرانية تسود جنوبي الجزيرة كما تسود شماليها فرأى المسلمون وهم في حرب مع دولة الروم أن يحددوا موقفهم مع نصارى الجنوب خصوصاً وان الروم كانوا يغدقون العطايا على مبشريهم هناك ، ويبنون لهم الكنائس ، ويشجعونهم على المضي في تنصير القبائل المتوطنة في هذه الأرجاء[٩٧] .

كان الوفد يضم أربعـة عشر رجلاً من أشراف النصارى ، دخلوا المسجد بأرديتهم الملونـة الثمينة ، فسلموا على الرسول ﷺ فردّ عليهم السلام ، ودعاهم إلى الاسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن ، فأبوا ودخلوا معه في مناقشات عقيمة تضيع في لجتها ملامح الحق البين الذي جاء به القرآن . من ذلك قولهم له وقد عرض عليهم الاسلام : انا قد أسلمنا قبلك !. فقال مخاطباً السيد والعاقب راهبي نجران : كذبتما !! يمنعكما من الاسلام ثلاث : اكلكما الخنزير وعبادتكما الصليب وقولكما لله ولد . قالا : فمن ابو عيسى ؟ فلم يجـد الرسول ﷺ ازاء ذلك إلا أن يوقف جدلاً كهذا لا يوصل إلى نتيجة ، ويعرض عليهم - بدلاً مـــن ذلك - المباهلة التي حددتهـــا آيات القرآن الكريم التي تنزلت لكي تحسم أمراً لا يحتمـل مناقشة ولجاجاً (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم

---

(٩٥) انظر هامش رقم (٣٣) من هذا الفصل .

(٩٦) اليعقوبي : تاريخ ٢/٧٠ — ٧١ .

(٩٧) الغزالي : فقه السيرة ص ٤٥٨ .

قال له : كن فيكـون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيـه من بعد ما جاءك من العـلم فقل : تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) .

وكانت المباهلة تقضي بأن يجتمع الطرفان على صعيد واحد ويستنزلا لعنة الله وغضبه على الفئة الكاذبة . إلا أن رجال الوفد النصراني تخوفوا عاقبة الأمر وقال زعيمهم: « اني أخاف أن يكون صادقاً. » ومما لا ريب فيه أن النبي ﷺ قد تلا عليهم آيات آل عمران القوية النافذة ، وخاطبهم بما في نطاقها ، ودعاهم إلى ما أمر أن يدعوهم اليه من استنزال سخط الله على الكاذبين ، ومن أن يجتمع الطرفان ويعلنا معاً انهما لا يعبدون إلا الله ولا يتخذ بعضهم بعضاً ارباباً من دونه فان لم يعلنوها معه فليعلنها هو ، باسمه وباسم اتباعـه . ومضمون الآيات[٩٨] وروحها يلهمان أن النبي كان في موقف القوي المطمئن بقوة موقفه وصحة دعواه والمستعلي على مناظره بالحجة الدامغة والتحدي المفحم والدعوة التي لا يردها إلا الممتري . وهنالك الكثير من الاضافات المناقضة للمعقول والمنقول ترد حـول مسألة المباهلة (أو الملاعنة) رغم أن ابن هشام الذي انفرد بتفصيل خبر المناظرة لم يذكر أن النبي ﷺ استعد للمباهلة لأن أسلوب الآيـة لا يقتضي ذلك ، وهو أسلوب تحد وافحام[٩٩] .

وقد ارتأى الوفد النصراني أن يعرض على الرسول صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم بما يراه ، فصالحهم ﷺ وكتب لهم عهداً يمثل قمة من قمم العدل والسماحـة والحرية ، لم يفرض عليهم فيه سوى جزية عينية قدرها الفا حلـّة في السنة وقد جاء فيه « ... ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم .وملتهـم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم ، لا يغيروا أسقفاً عن أسقفيته ولا راهباً عن رهبانيته ولا واقفاً عن وقفانيته ، وكل

---

(٩٨) آل عمران ٣٤ — ٥٧ ، ٥٨ — ٦٤ .

(٩٩) دروزة : سيرة الرسول ٢/٢٤٦ — ٢٤٨ .

ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ... ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ... ولا يؤاخذ أحد منهم بظلم آخر . وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبي أبداً حتى يأتي الله بأمره ان نصحوا وأصلحوا فيما عليهم ..»(١٠٠). وقد دخل يهود نجران في هذا الصلح إذ كانوا كالاتباع لهم(١٠١).

وبتلك المعاهدة السمحة(١٠٢) قطع الاسلام الصلة بين أولئك العرب المتنصرين وبين دولة الروم التي يشتبك معها في الحرب ، بعد ما ضمن الحرية الدينية لمن سالموه وكفوا عنه . ترى - يقول الغزالي - هل احترم أهل الكتاب ما عليهم من واجب ، وهل انصفوا الدين الذي رعى ذمامهم؟ كلا !! فانهم سرعان ما راحوا يساعدون على اشعال الثورات في جنوب الجزيرة ، كما كاتبوا الأسود العنسي (المتنبىء) فسار اليهم في طريقه إلى اليمن ... تماماً كما فعل نصارى تغلب في تأييدهم مسيلمة الكذاب حين ادعى - هو الآخر - انه نبي !!

.. ولم يكن الأمر ايماناً منهم بهذه النبوات الزائفة ولكنه الاعانة على حرب الاسلام بأي سلاح ومع أي حليف(١٠٣) .

---

(١٠٠) ابن سعد ١/٢/٣٦ ، ٨٤ — ٨٥ البخاري : تجريد ٢/ ٩٧ — ٩٨ البلاذري : فتوح ١/ ٧٦ — ٧٨ ، اليعقوبي : تاريخ ٢/ ٧١ — ٧٢ وانظر دروزة ٢/ ٢٣٧ — ٢٣٨ (بالتفصيل) .

(١٠١) البلاذري : فتوح ٧٨/١ وقد ظلوا على ذلك طيلة عهد الرسول (ص) وخلافة ابي بكر (رض) فلما استخلف عمر (رض) « اصابوا الربا — الذي منعوا من التعامل به — وكثروا فخافهم على الاسلام » فاجلاهم الى العراق والشام (المصدر السابق ٧٨/١) ويبدو ان دورهم في اسناد حركات الردة لم يكن خافيا عليه . ويتضح هذا من عبارة البلاذري الآنفة (فخافهم على الاسلام) وعندما التمسوا من علي (رض) في خلافته اعادتهم اجابهم « ان عمر (رض) كان رشيد الامر وانا اكره خلافه » : المصد السابق ٨٠/١ .

(١٠٢) انظر عن نصوص المعاهدات المتعلقة بنصارى نجران : محمد حميد الله : الوثائق ١٤١ — ١٦٦ .

(١٠٣) فقه السيرة ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

- ٨ -

وما أن أتم الرسول ﷺ لقاءاته بالوفود العربية القادمة اليه من كل مكان ، وحج باتباعه حجة (الوداع)، حتىقام بتجهيز جيش كبير في مطلع السنة الحادية عشر للهجرة في أعقاب عودته من مكة ، وأمر عليه القائد الشاب اسامة بن زيد ابن حارثة تقديراً من الرسول ﷺ للكفاءات الشابـــة ، ورفضا لسلم الطبقات الاجتماعية الذي لا يسمح لمن كان آباؤهم عبيـداً يباعون ويشترون ، أن يتولوا قيادة السادة !! ورداً عملياً على محنة المسلمين في مؤتة حيث كان زيد بن حارثة ، والد القائد الشاب ، قد شاط في رماح القوم !! وأمر الرسول ﷺ مولاه اسامة أن (يوطىء) الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين .

. وانطلق اسامة ومن ورائه زهرةقوات المسلمين ، لم يتخلف منهم أحد ، وعلىرأسهم المهاجرون الأولون[١٠٤] .

تقدم اسامة باتجاه الشمال وعسكر في (الجرف) على بعد فرسخ من المدينة ريثما يتم تجميع المقاتلينوهناك بلغته أنباء مرض رسول الله ﷺ فتوقف عنالمسير وظل معسكراً بجنده لينظر ما الله قاض برسوله ﷺ. ولم يطق المسلمون وقائدهم صبراً على البقاء والانتظار ، ورسولهم يعاني الالام ، فهبطوا عائدين إلى المدينة ودخل اسامة على رسول الله ﷺ ، وقد عجز عن الكلام ، فجعل يرفع يديــه الى السماء ويضعها على اسامة .. وعرف اسامة انه يدعو له[١٠٥] .

وعما قليل ، حينما لحق الرسول ﷺ برفيقه الأعلى ، وتولى أبو بكر الصديق رضي الله عنهقيادة الأمة التي صنعها محمد بن عبد الله ﷺ وتحركت بوادر الارتداد عن الطريق « واشرأبت – كما تقول عائشة رضي الله عنها– اليهودية والنصرانية

---

(١٠٤) ابن هشام ص ٣٧٤ ، الطبري : تاريخ ١٨٤/٣ ، البلاذري : انساب ٣٨٤/١ .
(١٠٥) ابن هشام ص ٣٨٦ – ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية،[١٠٦] أعلن أبوبكر انه سيقف بوجه الردة وسيقاتلها ولو تخطفته الذئاب !! وأصر في الوقت نفسه على أن يمضي جيش اسامة إلى هدفه، كما أراد رسول الله ﷺ. وعندما اعترض عليه الصحابة بأن قاعدة الاسلام مهددة من كل جانب، ولا جيش فيها، قال خليفة رسول الله ﷺ «ما كنت لارد جيشاً جرده رسول الله ﷺ» .. ومضى اسامة وأوطأ، كما أمره رسوله ﷺ، خيول المسلمين تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ووضع خطواته الأولى على الطريق التي سيجتازها الفاتحون عما قريب صوب بلاد الشام، يحملون معهم تعاليم الاسلام ونداء رسوله الكريم ..

---

(١٠٦) ابن هشام ص ٤٠٤ .

الفصل التاسع

الصراع ضد اليهود

١

كما هو الحال بشأن النصارى . فان العلاقات بين المسلمين واليهود ترجع في بداياتها الأولى إلى السنين التي شهدت طفولة محمد ﷺ ، بما تضمنته كتب اليهود ومصادرهم الدينية من تأكيد على النبوة الجديدة والأخيرة في تاريخ النبوات ، وان لم تصرّح جميعاً ماذا سيكون هذا النبي : يهودياً أم غير يهودي ؟.

عن زيد بن أسلم قال : بلغنا ان عبد الله بن سلاّم كان يقول ان صفة رسول الله ﷺ في التوراة : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ، ولن اقبضه حتى أقيم به الملّة المتعوّجة بأن يقولوا لا اله إلا الله فيفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفا . فبلغ ذلك كعب الأحبار فقال : صدق عبد الله بن سلام الا انها بلسانهم (أعيناً عموميين وآذاناً صموميين وقلوباً غلوفيين »[1] . وفي البلاذري عن عبد الله بن سلاّم ان أباه كان يردد: ان كان النبي القادم الذي يجدون

(1) ابن سعد : طبقات ١/٢/٨٧ وانظر المصدر نفسه ص ٨٨ — ٨٩ للاطلاع على مزيد من الروايات بهذا الصدد .

صفاته في كتبهم من ولد هارون اتبعته وإلا فلا .. [٢] .

ونقرأ في التوراة ، سفرحجّي ، الاصحاح الثاني « ٦ لأنه هكذا قال رب الجنود هي مرة بعد قليل فازلزل السماوات والأرض والبحر واليابسة ٧ وازلزل كل الأمم ، ويأتي مشتهى كل الأمم فاملأ هذا البيت عدلاً قال رب الجنود » . وقد جاء في حاشية الأصل العبري « مشتهى كل الأمم حمدوت ، أي الذي تحمده كل الأمم » فالتوراة إذن صرحت باسم محمد (حمدوت) ولكن الترجمة أبعدت لفظة محمد لتضع مكانه مرادفاً يصرف الذهن عن الاسم الحقيقي هو (مشتهى كل الأمم) . وفي سفر التثنية الاصحاح ١٨ ، فقرة ١٥ نقرأ « يقيم لك — لموسى — الرب الهك نبياً من وسطك من اخوتك مثلك له تسمعون » ويقول في الفقرة ١٨ « اقيم لهم نبياً من وسط اخوتهم مثلك ، واجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به » ، وهي عبارة مجملة فسرها اليهود بمجيء رسول منهم لا من ولد اسماعيل . وكأن الله تعالى جعل هذه العبارة مجملة والهمهم هذا التفسير ، حفظاً لهذه البشارة ، لأنهم لو عرفوا أن الرسول المبشر به سيكون من ولد اسماعيل لأخفوها أو محوها . وقد أثبتت الأيام ان الرسول المبشر به هو محمد ﷺ [٣] .

وورد في سفر التثنية — أيضاً — ٣/٣٣ « جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ في جبل فاران » وتلك هي الرسالات الثلاث لموسى والمسيح ولمحمد ﷺ وهذا مصداق قوله تعالى (والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين) لأن منبت التين والزيتون مهجر ابراهيم ومولد عيسى عليه السلام ، وطور سينا مكان مناجاة الله تعالى لموسى ، وفاران في مكة مولد الرسول ﷺ [٤] .

---

(٢) انساب الاشراف ٢٦٦/١ ، وانظر المصدر نفسه ص ٢٨٦ .

(٣) ابراهيم خليل احمد : محمد بين التوراة والانجيل والقرآن ، المقدمات ص ٢٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٦ — ٢٧ ، وانظر عن بشارات التوراة الاخرى بالتفصيل : نفس المرجع ص ٣٣ — ٤٣ وسفر اشعيا ، الاصحاح ٤٢ ، فقرة ١ وما بعدها وسفر التثنية ١٥/١٨ و١٨/١٨ . وعن اثار محمد واصحابه انظر : سفر المزامير ٢٢/١١/١ — ٢٣ وسفر دانيال ٣١/١ — ٤٥ .

هذا فضلاً عن الروايات التاريخية العديدة التي تحمل ارهاصات مجيء الرسول الجديد وصفاته . فعن عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: « انما دعانا إلى الإسلام ما كنا نسمع من يهود انه قد تقارب زمان نبي يبعث فيقتلكم قتل عاد وارم » . وعن سلمة بن سلامة الذي شهد بدراً قال : كان لنا جار من يهود بني عبد الأشهل ، أشار بيده إلى مكة واليمن وقال : نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، قالوا : من يراه؟ فنظر الي وانا من أحدثهم سنا فقال : ان يستكمل هذا الغلام عمره يدركه . قال سلامة : والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً . وهذا ابن الهيبان من يهود الشام خرج من الشام إلى الحجاز ، وحل في بني قريظة ثم توفي قبل البعثة بسنتين ، ولما شعر أنه ميت لا محالة قال : يا معشر يهود ما ترون أخرجني من (الشام) إلى أهل البؤس والجوع (الحجاز) ؟قالوا: أنت أعلم ، قال : إنما قدمت هذه الأرض اتوكف – اتوقع – خروج نبي قد اظل زمانه ، وهذه أرض مهاجره ، وكنت أرجو ان يبعث فاتبعه [٥] .

من أجل ذلك راح اليهود يعلنون بين الحين والحين ، عن قرب ظهور النبي الأخير ، ويتباهون بذلك ، ويهددون بالانتماء اليه ، ويتوعدون مخالفيهم ، من أجل مزيد من السيطرة والاذلال واحتكار المقدرات المادية والمعنوية لمئات الآلاف من العرب المحيطين بهم كجزيرة منقطعة [٦]. ولم يكن الكثيرون من أحبار اليهود يتوقعون ان النبي الجديد سيجيء هذه المرة من سلالة أخرى غير السلالة اليهودية المعروفة وانه بانتمائه العربي سيشكل خطراً ماحقاً على وجودهم المستغل ، وبدعوته العالمية المفتوحة سيكتسح تجمعاتهم القومية المغلقة ، وبمبادئه العادلة الواضحة سيفضح طقوسهم وأسرارهم التي يرتزقون منها ويضمنون بقاءهم في المراكز العليا لبني قومهم .

---

(٥) انظر : محمد رواس قلعجي : محمد في الكتب المقدسة (مجلة حضارة الاسلام عدد ١ – ٢ سنة ٨) وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ٢/ ٣٠٨ – ٣١٠ وابن هشام ص ٤٢ والطبري تاريخ ٢٩٥/٢ وانظر كذلك رواية حسان بن ثابت في ابن هشام ص ٢٨ .

(٦) انظر الطبري : تاريخ ٣٥٤/٢ .

وما ان حان الموعد ، وحلّ الأجل المضروب في التوراة والانجيـــل ، ولم يظهر في اليهود النبي الذي ظنوه منهم ، وولد محمد ﷺ يحمل علامات نبوتـه المادية والأدبية ، حتى بـدأ اليهود يتخوفون من ان تخطىء ظنونهم ، وان لا تكون النبوة فيهم فيصابون بخسارتين .. وأصبح الطفل الذي سيبعث إلى العالم في خطر دائم من مكراليهود وعرقيتهم التي تتيح لهم اتخاذ أي أسلوب مهما كان دنيئاً ، لوقف كل ما يتهدد مصالحهم ووجودهم، حتى لو كان هذا الأسلوب القتل والغيلة . وهذا هو الذي يفسر لنـــا تحذير الراهب النصراني بحيرا لأبي طالب « أرجع بابن أخيك إلى بلده وأحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منـه ما عرفت ، ليبغننّهُ شراً ، فانـــه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم » [٧] .

إن قصة بحيرا ، اذا ما اسقطها النقد من الحساب ، فان دلالة واحدة فيها تظل باقية ، تلك هي (التحذير) مما قد يمكن أن يفعله اليهود ازاء اي مخلوق ليس منهم قد يظنّون به النبّوة .

٢

وبعث الرسول ﷺ بعـــد أربعين سنة من ميلاده ، وخاض بدعوته ، في مرحلتيها السرية والعلنية ، جهاداً قاسياً ضد الوثنيةِ التي استخدمت كل أسلوب لوقف نشاطه ووأد حركته . ورغم قـــلة الروايات وانعدامها أحياناً ، فاننا نستطيع أن نجزم بأن اليهود وقفوا طيلة الصراع المكي الذي دام ثلاثة عشرعاماً وراء قريش يتبادلون معها الوفود ويتصلون بها سراً من أجل أن يشددوا قبضتهم على النبي العربي ، وأن يشلّوا حركته قبل أن يشتد ساعدها وتغدو قادرة على اكتساح كل ما يقف في طريقها ، ليصدّها عن هدفها المحتوم ، وثنياً كان أم يهودياً .

يذكر اسرائيل ولفنسون [٨] أن المراجع العربية لم تشر إلى حركات يهـود يثرب ونيّاتهم إزاء بيعة العقبة الكبرى ، كأن الدعـوة الاسلامية لم تصل اليهم

---

(٧) ابن هشام ص ٣٦ .

(٨) تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ص ١٠٦ — ١٠٨ .

وكأنهم لم يقفوا على شيء من اعمال البطون اليثربية العربية . ونحن نرجح أن اليهود لم يغفلوا عن تلك الحركة لأنها متصلة بمصالحهم السياسية والتجارية والاجتماعية ، خصوصاً إذا لاحظنا اتجاه الدعوة الاسلامية صوب المدينة وميل زعماء الخزرج إلى الاتصال بالرسول. ونحن نعلم ما كان بينهم وبين اليهود من الحقد مما جعل زعماء بني النضير وقريظة يراقبون حركاتهم جميعاً . ثم نعلم أن الاسلام لم ينتشر خفية في يثرب ، وكيف أن مصعب بن عمير كان يدعو الناس إلى الله ورسوله على مرأى من جميع البطون .. ثم اننا نعلم أن عدداً من تجار اليهود كان يشترك في مواسم الحج . فمن البعيد إذن أن يجهل اليهود تلك الشؤون كما صورتهم كتب الأخبار .. وكانت العلاقات بين اليهود وبين قريش في غاية الصفاء لذلك نفرض أنه إذا لم يفلح زعماء قريش في استمالة زعماء الخزرج فانهم لا بد ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على إحباط أعمال المسلمين في المدينة ، وكذلك كان ، فان الذي يتأمل ما جرى بين كعب بن الأشرف زعيم بني النضير وبين الرسول يرى أن ذلك الرجل كان يقاوم الحركة الاسلامية منذ وصلت ارض يثرب ، والعداء الذي استفحل أمره بين الجبهتين يؤيد ما نقول .

إلا أن محاولات الوثنية وحليفتها اليهودية أخفقت وأعقب كفاح الرسول ﷺ الدائب وثبات أصحابه وصمودهم انتصاراً عظيماً تمخض عن الهجرة إلى يثرب وإنشاء دولة الاسلام فيها . ولم يكن يهود يثرب بقادرين – أول الأمر – على إعلان مجابهتهم المكشوفة للدولة الناشئة ، واتباعها من عرب المدينة يزدادون كثرة يوماً بعد يوم . ولم يكن من مصلحتهم أيضاً أن يتولوا بأنفسهم كبر مقاومة الاسلام ، وقريش لا تزال على قوتها وقدرتها على الضرب . فلتلق تبعة الصراع إذن على قريش ، وليظل اليهود في المواقع الخلفية يشاهدون الصراع ويخططون على ضوء نتائجه المتوقعة، حتى إذا ما وجدوا ثغرة لضرب الاسلام تسللوا منها لتسديد طعنة اليه ، أو لمسوا ضعفاً وانهاكاً انقضّوا يضربون ويطعنون .. وهكذا وافقت معظم القبائل اليهودية على الدستور الذي طرحه الرسول ﷺ لتنظيم الأمور السياسية والمدنية في يثرب ودخلوا أطرافاً فيه كي

يلتقطوا لأنفسهم فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم إزاء السرعة التي كانت الأحداث تتحرك بها . ورغم أن هذا الميثاق كان ينص – فيما ينص عليه – على إسهام اليهود مع المسلمين في صدّ أي عدوان قرشي يقع عـلى المدينة ، وتغطية النفقات المالية للقتال ، فان اليهود لم ينفذوا هذا البند مالياً ولا عسكرياً .. ولم يشأ الرسول ﷺ أن يلح عليهم لتنفيذه ما دامت ستراتيجيته في الصراع تقوم على عدم ضرورة فتح أكثر من جبهة والدولة الاسلامية لم يشتد ساعدها بعد . المهم أن يجمد اليهود نشاطهم ضد الاسلام كي يتفرغ الرسول ﷺ للمجابهة الحاسمة مع قريش . وهذا ما يفسر لنا جواب الرسول ﷺ للأنصار يوم أحـد عندما سألوه : يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا اليهود ؟ فكان جوابه : لا حاجة لنا فيهم [٩] .

كان الغرض الذي يرمي اليه الرسول ﷺ من وراء الصحيفة وما اليها من العهود التي عقدها مع بطون يثرب هو هدم النظام القديم وإيجـاد نظام جديد يمكن أن تتوحد به العناصر اليثربية وأن تعود يثرب بعد فرقة أحيائها مدينـة واحدة . فقد كانت يثرب منقسمة إلى عدة دوائر وكانت كل دائرة تابعة إلى بطن من البطون وكانت الدائرة تنقسم إلى قسمين يشتمل القسم الأول منها عـلى الأراضي الزراعية بمنازلها وسكانها .. ويشتمل ثانيها على (الآطام) أي الحصون التي كانت ملكاً خاصاً بالأسر العريقة . وكان رئيس الأسرة صاحب السلطان في الأطم ، كما كان يعتبر زعيماً من زعماء البطون [١٠] .

ويلاحظ أن الصحيفة قد ذكرت اليهود الموالين للبطون العربية وأهملت ذكر القبائل الأخرى من اليهود وذلك يتفق تماماً مع ما كانت عليه الحالة السياسية في يثرب ، فان البطون اليهودية الصغرى كانت قد دخلت في أحلاف مع الأوس أو

---

(٩) ابن هشام ص ١٧٥ – ١٧٦ .

(١٠) ولفنسون ص ١١٦ – ١١٧ وعن الآطام انظر بالتفصيل المصدر نفسه ص ١١٦ – ١١٨ .

مع الخزرج وذلك بعد سيادة هؤلاء في يثرب. أما قبائل اليهود الكبرى الثلاث[(١١)] فقد اعتزت بقوتها وبقيت محتفظة بشخصيتها ثم انهـا ناوأت الاسلام وأظهرت عداءها . ومع ذلك فقد وضعت الصحيفة بنداً هاماً لدخول اليهـود في الدولة احتمالاً لما قد يحدث من دخول هذه القبائل في النظام الجديد . وفعلاً ألحقت هذه القبائل بالدولة في محالفات ملحقة[(١٢)] .

وقد أشار المؤرخون إلى هذه المحالفات وان لم يذكروا نصها ، ويبدو ان نصوصها لم تكن تختلف عن الجوهر العام لنصّ الصحيفة ،والأرجح ان هـذه القبائل اليهودية لم تعاهد النبي في وقت واحـد ؛ فقد ذكرت المصادر ان بني قينقاع حين اجلام النبي ﷺ بعد بدر كانوا هم أول من نقض العهد . ولعـل المعاهدات التي وقعها النبي ﷺ مع هذه القبائل لم تكن تشترط عليها ان تشارك معه في القتال ، وهذا أمر طبيعي بعد ان فسدت الأمور بين المسلمين واليهود ، فلم يكن النبي يثق باليهود حتى يشترط عليهم ان يشاركوا معه في الحرب ، والدليل على ذلك ان اليهود لم يشاركوا فعلاً في حروب النبي ، وان النبي رفض الاستعانة بهم يوم أحد كما رأينا . ونحن لا نوافق على ما ذهب اليه ولفنسون[(١٣)] وغيره من ان النبي قد غضب على بني النضير لعدم اشتراكهم معه في موقعة أحـد ، لأن بني النضير كانت قد بدأت منهم الخيانة وممالأة العدو قبل أحد ، كما حدث في غزوة السويق ، فلم يكن النبي يقبل والحالة هذه ان يشاركوا في جيشه حتى لا يتعرض لخيانتهم في ميدان القتال[(١٤)].

وفي أعقاب الهجرة ، ولفترة من الوقت ، سارت العلاقات بين الرسول ﷺ واليهود سيراً حسناً ، وكان الرسول ﷺ يطمح من جهته ان يتفهم اليهود دوافع

---

(١١) عن اصل بني النضير وبني قريظة انظر : المحاضرة الثالثة من كتاب :
Margoliuth: The Relations between Arabs and Israelites, Lec 3.

(١٢) احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول (ص) ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(١٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٢١ ، ١٣٥ .

(١٤) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ ـ ٤٨٥ .

حركته الدينية وأهدافها والعوامل المشتركة التي تربط الأديان السابقة ، بما فيها اليهودية ، بالإسلام ،لا سيما وأنهـــم يرون بام أعينهم في صفحات كتبهم تلك التأكيدات المستمرة على نبوة محمد ﷺ . وقد أدى المصدر الواحد لكلاالدينين إلى ان تمارس بعض الطقوس والشعائر الإسلامية وفـق بعض (الأشكال) التي يمارسها اليهود...وهذا أمر منطقي بطبيعة الحال بالنسبة للدعوة الجديدة التي جاءت لتعلن أكثر من مرة أنها ليست سوى امتداد على نفس الطريق للدعوة الدينية الكبرى التي بدأها ابراهيم عليه السلام ونادى بها فيما بعد موسى وعيسى عليهما السلام. ومن هنا يبدو الخطأالساذج الذي وقع فيه عدد كبير من الكتاب والمستشرقين . نذكر منهم على سبيل المثال بروكلمان الذي يقـــول : « تأثرت اتجاهات النبي الدينية في الأيام الأولى من مقامه في المدينة ، بالصلة التي كانت بينه وبين اليهود. وأغلب الظن أنه كان يرجو عقب وصوله إلى المدينة ان يدخل اليهود في دينه ، وهكذا حاول ان يكسبهم عن طريق تكييف شعائر الإسلام بحيث تنفق وشعائرهم في بعض المناحي »[١٥] .

وقد أمّل اليهود، في مطلع العهد المدني ، وقد رأوا هذا التعاطف الإسلامي إزاءهم ، دون ان يفهموا أسبابه العميقة ، ان الرسول ﷺ ربما يقر بارجحية العقيدة التي يؤمنون بها ، وانه سيتركهم وشأنهم مكتفياً بتشكيل وحدة يثربية تضم الطرفين وتحمي مصالحها المشتركة بوجهالعرب المشركين في الداخل والخارج بل أنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك وظنوا أنهم ربما تمكنوا يوماً من استمالة الرسول ﷺ اليهم وادخاله وصحبه في دينهم !! إلا ان ظنهم سرعان ما خاب عندما أدركوا أن محمداً ﷺ ليس مجرد زعيم يحترف السياسة ويعتمد كل اسلوب لتحقيق أهدافه ، وإنما هو صاحب رسالة عظمى إزاء العالم كله .. رسالة تتجاوز تعاليمها ومتطلباتها الحدود الاقليمية ليثرب ، أو حتى الجزيرة العربية كلها، باتجاه الانسان في كل مكان. وازداد الأمر وضوحاً عندما توالت دعوات الرسول ﷺ وتأكيداته على ضرورة دخولهم الدين الجديد ، إن أرادوا الحفاظ على جوهر يهوديتهم التي

---

(١٥) تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤٧ .

حملها موسى إلى بني إسرائيل ، وعندما راحت آيات القرآن الكريم تنزل سخطها وغضبها على ما يمارسه اليهود بحق دينهم و كتبهم من تزييف وتحريف من أجل أن يحموا مصالحهم ويضيفوا إلى أموالهم أموالاً . أضف إلى ذلك ما كان يلقاه الاسلام من انتشار متزايد في يثرب وأطرافها ، الأمر الذي كان يعني عزل اليهود والحد من نشاطهم الديني والاقتصادي على السواء ، فضلاً عن الوحدة العميقة التي أنشأها الاسلام بين الأوس والخزرج وسدّ بها الطريق على اليهود واستغلالهم الفاجر للصراع الدامي بين الحيين .

وبدأ يتضح لليهود ، يوماً بعد يوم ، المصدر الأساسي للخطر الذي تشكله الدعوة الجديدة بمواجهة اليهودية .. ان النبي يدعو إلى (توحيد) غير الذي يؤمن به اليهود ، على أساس قومي استعلائي مغلق ،من أن الله الواحد هو إله إسرائيل الذي اختارهم لنفسه من دون الناس ، وبذلك كانوا يرون لأنفسهم ميزة على الناس وكانت أمنيتهم دوماً أن يجدوا من يأتي بما يهوون من سيطرة ونفوذ لا بما تتطلبه الدعوة من إصلاح وخير يعم الناس جميعاً . ومن أجل ذلك كذبوا أنبياءهم وحاربوا المسيح عليه السلام وسعوا الى قتله . فاذا ما جاء محمد فدعا إلى هذا الاله الواحد للناس جميعاً ، بغضّ النظر عن أجناسهم ، فانه بذلك يزيل عن بني اسرائيل هذه الميزة التي يستفتحون بها على الآخرين ، وإذن فلا تهادن بينهم وبين محمد الذي يسعى الى تحطيم تلك القواعد المقررة التي سار عليها اليهود . فقامت بينهم وبين النبي ﷺ محاجات ومجادلات ما لبثت ان اتخذت من جانبهم موقف التحدي والمعاندة ، بل انهم اندفعوا في عدائهم فتورطوا في تفضيل الأصنام على التوحيد [16] .

ورغم أن ولفنسون أكد على خطورة مبدأ (التوحيد) الاسلامي وعالميته إزاء « العقلية اليهودية التي لا تلين أمام شيء يزحزحها عن دينها ، وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بني اسرائيل » . الا انه يقع في خطأ القول بأن

---

(16) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٤١٢ — ٤١٥ .

الرسول ﷺ لو لم يكلف اليهود الاعتراف برسالته ، ولو وقفت تعاليمه عند حد محاربة الوثنية فحسب، لما وقع نزاع بينهم وبين المسلمين، ولكانوا قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ﷺ ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم حتى يحطم الأصنام ويقضي على العقائد الوثنية .. ويمضي ولفنسون إلى القول

بأن هذه (المسألة) يجب الا تغرب عن الأذهان لأنها أساس كل ما حدث بين اليهود وبين الرسول من خلاف ونزاع . ولولا وجودها لما حدث شيء من الخلاف ، أو لكان في الامكان ان يتلافى ما قد ينشأ من ذلك . ونلاحظ هنا على معظم المستشرقين أنهم اهملوا هذه النقطة الجوهرية في بحثهم عن أسباب الخلاف بين الرسول ﷺ واليهود ، مع أنه مما لا شك فيه انه اذا اهملت هذه النقطة فلا سبيل مطلقاً للبحث في هذا الموضوع [١٧]

وفاتت ولفنسون حقيقة على درجة كبيرة من الأهمية تلك هي ان طبيعة الدعوة الإسلامية المنفتحة على العالم ، وانتماء نبيها إلى العرب ، وقيام دولتها في قلب المنطقة التي تتحرك فيها مصالح اليهود ونشاطاتهم المختلفة ، يشكل بحد ذاته خطراً كبيراً على اليهود في دينهم ودنياهم على السواء ، حتى لو لم يدعوا إلى الإسلام ، لأن نجاح الاسلام كفيل بحد ذاته بحصر اليهود وعزلتهم وكشفهم أمام العالم ، ومن ثم ضرب وجودهم ومصالحهم في الصميم ، الأمر الذي دفعهم بعد وقت قصير من إدراكهم أبعاد هذا الخطر إلى ان يقفوا إلى جانب الوثنية ويمتدحوا أصنامها بمواجهة التوحيد الذي جاء به الاسلام .. ومن ثم فان ولفنسون يناقض نفسه عندما يشير إلى انغلاق العقلية اليهودية من جهة وسكوتها ، بل تعاونها – لو لم تدع إلى الاسلام – مع هذا الدين الذي جاء لكي (يفضح) المزاعم الدينية التحريفية التي مارسها اليهود طويلاً ، ولكي ينفتح على الإنسان والعالم ويقضي في

---

(١٧) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٢٢ – ١٢٣ .

طريقه على أسطورة (شعب الله المختار) وما يتمخض عنها لصالح اليهود من مكاسب لا يحصيها عد[١٨] !!

هذه هي في الحقيقة (النقطة الجوهرية) في البحث عن أسباب الخلاف بين الرسول ﷺ واليهود والتي اذا ما أهملت – دون غيرها – فلا سبيل مطلقاً للبحث في هذا الموضوع !! وسيؤكد سياق الأحداث هذا الذي نذهب اليه .

ومن هذا الخطأ يجد ولفنسون وعدد من المستشرقين أنفسهم مسوقين إلى خطأ آخر ، وهو انه ما دام للقتال قد نشب بين المسلمين واليهود في أعقاب بدر فان معنى هذا ان اليهود كان عليهم ان يندمجوا في الدين الجديد أو ان يجابهوا (بحرب دموية) حتى يفنوا أو يجلوا إلى مكان بعيد.. وانه ما دام قد وقع قتال بين الطرفين فان معنى هذا « ان المهاجرين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة مقاومة اليهود في يثرب لأن حالتهم كانت سيئة جداً ، إذ لم يكن لهم مال ولا مزارع ولا منازل بل كانوا يسكنون مع الأنصار من الأوس والخزرج »[١٩] .

وفات هؤلاء المؤرخين أن طبيعة التعارض العقائدي بين الدينين اللذين يقوم أحدهما على (الانفتاح الكامل) والآخر على (الانغلاق الكامل) كان لا بد وأن يؤول إلى صراع حاسم من أجل انفراد أحدهما بالكلمة العليا ، حتى لو كان المهاجرون يسكنون القصور الفخمة ويأكلون أحسن الطعام !! وهل بالامكان – فوق هذا كله – أن يتناسى المؤرخ الجاد أن الرسول ﷺ لم يكن يشن حرباً إلا ضد الفئة اليهودية التي تبدأ بالعدوان ، أو أن يتجاهل مغزى إصدار الدستور الذي منح اليهود حريتهم الدينية والمدنية الكاملتين دون قيد زمني مشروط ؟

---

(١٨) ان المكانة الدينية – العلمية التي كان اليهود يتمتعون بها جعلتهم – كما يقول دروزة – في مركز المعلم والمرشد والمرجع ، بل القاضي ، لسكان يثرب ، على ما تلهمه آيات قرآنية عدة (انظر كتاب عصر النبي وبيئته للمؤلف المذكور) فكان لليهود من ذلك الحرمة والحصانة والقوة النافذة والاثر في حل المشكلات وتعليل الحوادث والقضاء في الخصومات والاستمتاع بالكيان والمركز الممتاز وقد ارتبطوا بمواثيق الحلف مع جيرانهم العرب فكان هذا مما زاد مركزهم ورسوخ قدمهم قوة وشدة (سيرة الرسول ٢/ ١٢٢ – ١٢٣) .

(١٩) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود ص ١٢٦ – ١٢٧ .

٣

بدأ النزاع بين النبي ﷺ واليهود بالمناقشة الدينية المتبادلة بين الطرفين فكان أحبار اليهود يوجهون الأسئلة إلى رسول الله ﷺ ويصلون فيها إلى حد التعنت ، وكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه ، وكانوا يطالبون النبي ﷺ بأن يأتي اليهم بالمعجزات . ثم انتقلت المناقشة إلى مخاصمة كلامية فجعل التنزيل يلوم اليهود ويعنفهم (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب ، كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) [٢٠] . ثم ظهرت العداوة فأخذ النبي ﷺ يطعن في يهود يثرب ، وأخذ اليهود يرمون الأنصار بقوارص الكلم .. وهكذا اشتد النفور حتى كانت المخاصمات تقع بين اليهود والأنصار في الشوارع . ولم يمض ثمانية عشر شهراً على قدوم النبي ﷺ إلى يثرب حتى تلبد الجو بالغيوم الكثيفة وجعل كل فريق يتواصى بالحذر والنفور من الفريق الآخر [٢١] .

وزاد الأمر توتراً انضمام المنافقين إلى اليهود في حربهم النفسية مع المسلمين . ولقد جاء في الآيات الأولى من سورة البقرة، التي هي أول السور المدنية في ترتيب النزول وبصدد الحديث عن المنافقين (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون)، فقد قال جمهور المفسرين ان شياطينهم هم اليهود، ويدل هذا على أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق أو شجعوهم في مواقف الخداع ، وعلى أن النبي ﷺ والمسلمين لم يغب عنهم ذلك [٢٢] .

وبلغ الجدل بين محمد ﷺ واليهود مبلغاً من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن فيه ، فقد نزل إحدى وثمانون آية من سورة البقرة ، وقسم كبير من سورة النساء

---

(٢٠) البقرة : ١٠١ .

(٢١) تاريخ اليهود ، ص ١٢٣ — ١٢٥ .

(٢٢) دروزة : سيرة الرسول ١٢١/٢ .

وكله يذكر هؤلاء اليهود وانكارهم لما في كتابهم ويلعنهم ، لكفرهم وانكارهم ، أشد اللعنة (٢٣) .

ولم يكتف اليهود بالوقيعة بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج ، ولم يكفهم فتنة الناس عن دينهم ، ومحاولة ردهم إلى الشرك ، دون تهويدهم ، وصدهم من يريد الاسلام من المشركين ، بل حاولوا فتنة محمد ﷺ - كما رأينا - بالقاء أسئلة محرجة عليه - مستعينين بما عندهم من علم الكتاب - كان القرآن يتصدى لدحضها أو الاجابة عليها ، أو فضح نواياها (٢٤) .

وحين ضاق اليهود ذرعاً بمحمد فكروا في أن يقنعوه بالجلاء عن المدينة كما أجلته قريش عن مكة ، فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا إلى بيت المقدس وكان مقامهم به .. لكن محمداً ادرك ما يرمون اليه ، وأوحى الله اليه على رأس سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة أن يجعل قبلته المسجد الحرام ، بيت ابراهيم واسماعيل (٢٥) فانكر اليهود ذلك وادركوا مدى خطورته ، إذ أنه بادرة لتوحيد العرب وتجميعهم حول الدين الجديد ، وفرض مزيد من العزلة على اليهود لذلك انكروا هذا وحاولوا فتنة النبي مرة أخرى بقولهم : انهم يتبعونه ان هو رجع إلى قبلته الأولى (٢٦) . ويوماً بعد يوم اشتد النفور بين الطرفين ، وكثرت بينهم المخاصمات ، وبدت الكراهية والبغضاء ، حتى نزل القرآن ينهى عن الاختلاط باليهود واتخاذ بطانة للمسلمين منهم (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ، ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون . ها أنتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل

---

(٢٣) انظر : سورة البقرة ٨٧ - ٨٩ ، تفسير الطبري ٢/٣٣٣ .
(٢٤) الشريف : مكة والمدينة ص ٤٧٤ - ٤٧٩ .
(٢٥) البقرة : ١٤٤ .
(٢٦) البقرة : ١٤٢ - ١٤٣ .

من الغيظ ، قل : موتوا بغيظكم)[٢٧] .

ورغم هذه المواقف العدائية العامـة التي صدرت عن الاكثرية الساحقة من اليهود فاننا نجد ثمـة آيات تضمنت استثناء لبعضهم وتنويها بسلامة مواقفهم واعتدالهم ومنها ما تضمن اشارة إلى ايمانهم واخلاصهم ، مما يدل — من جهة — على أن فئة من اليهود — وفيها فريق من العلمـاء — قد استطاعوا أن يفلتوا من المؤثرات العنصرية والاقتصادية والنفسية والأنانيـة التي خضع لها اليهود ، فلم يسعهم الا أن يصدقوا بالنبي ويؤمنوا بالتنزيل ... ومن جهة أخرى على أن الدعوة النبويةقد قوبلت باستجابة حرة لا اكراه فيها من بعض اليهود في العهد المدني ، بل عن اقبال قد يؤدي إلى أذى المقبلين كما كان في العهد المكي .. وعلى أن مواقف الكيد والتآمر انما كانت لأسباب لا تمت الى الحـق والانصاف ، بل الى هوى الأحبار والزعماء وأغراضهم . وهذا وذاك يدعم ما قلناه مـن أنه لم تكن هناك أية فكرة مضادة لليهود منذ البدء كعنصر ولليهودية كدين[٢٨] . ولقد قامت علاقة طيبة بين المهاجرين وبعض اليهـود حتى ليغشون مجالسهم ويذهبون إلى بيوت مدارسهم ،يتحدثون اليهم ويسألونهم ويسمعون منهم ،ويرون التوراة تصدق القرآن والقرآن يصدق التوراة[٢٩] . ولن ننسى هنا إسلام الحبر اليهودي المعروف عبدالله بن سلاّم القينقاعي وأهل بيته[٣٠] ، ومجابهته اليهود باسلامه ودعوته اياهم الى الدين الجديد[٣١] .

---

(٢٧) آل عمران : ١١٨ — ١١٩ ، الشريف : مكة والمدينة ٤٧٩ — ٤٨٢ . وانظر بالتفصيل عن مواقف اليهود ازاء الدعوة ، ومجادلاتهم وحربهـم النفسية والفكرية : دروزة : سيرة الرسول ٢/١٣٠ — ١٦٥ . وعـن دسائسهم وتآمرهـم مـع المنافقين والمشركين ضد المسلمين انظر : المصدر نفسه ٢/١٦٦ — ١٨٦ .

(٢٨) دروزة : سيرة الرسول ٢/ ٢٠٧ — ٢٠٨ وانظر آيات : البقرة ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٠ ، ٨٣ وآل عمران ١١٣ — ١١٥ ، ١٩٩ والنساء ١٦٢ .

(٢٩) الشريف : مكة والمدينة ص ٤٧٤ عن تفسير الطبري ٢/٣٨١ — ٣٨٤ .

(٣٠) ابن الاثير : أسد الغابة ٣/١٧٦ .

(٣١) الشريف : مكة والمدينة ص ٤٧٤ فما بعد وانظر السمهودي : وفاء الوفا ١/ ١٩٤ — ١٩٥ .

وبدأ الصراع المرير بين الاسلام وبين الوثنية العربية بقيادة قريش : حروب عصابات وحصاراً اقتصادياً أول الأمر ، ومجابهات عسكرية نظامية حاسمة بعد ذلك .. وبدأ يتضح لليهود – بعد الانتصار الذي حققه المسلمون في بدر – أن بقاءهم ساكتين ازاء ما يجري من صراع سيمكن الرسول ﷺ من تصفية أعدائه وتعزيز مركز الدولة الاسلامية في الجزيرة ، وسيجد اليهـــود أنفسهم آنذاك منفردين بمواجهة الاسلام ، مرغمين عــلى قبول سلطته السياسية بشكل نهائي ، وهذا ما لا يمكن أن يتصوروه لأنه يمثل خطراً على مصالحهم وانغلاقهم وتفرّدهم التاريخي الطويل بالسلطان . ومـــن ثم بدؤوا يتحركون باتجاهات شتى لعرقلة الحركة الاسلامية، ووضع المصاعب في طريقها وسحقها في نهاية المطاف،ضاربين عرض الحائط بكل التزاماتهم تجاه الاسلام في الدستور الذي وقعوه مع الرسول ﷺ ولم يدع اليهود ، في تحركاتهم المضادة تلك ، اسلوباً الا اتبعوه : تصعيداً للحرب النفسية والمطاردات الجدلية [٣٢]، فتنة اجتماعية، اغتيالاً فردياً، تحركاً عسكرياً، خيانة في الأوقات الحرجة ، وتأليباً للقوى المعادية للاسلام وتجميعها كي تضرب عن قوس واحدة . الا أن من سوء حظ اليهود انهم لم يتحركوا مجتمعين و يقفوا صفاً واحداً بمواجهة الاسلام ، الأمر الذي مكّن الرسول ﷺ مـــن التصدي لكل منهم على انفراد ، وتصفيته واحداً بعد آخر . وربما فكر اليهود في هذا التحرك الجماعي المشترك لولا خوفهم العاقبة حيث سيؤدي ذلك الى كشفهم نهائياً وهم لم يعتادوا العمل المكشوف ومن ثم آثروا الاسلوب الآخر ، وهو أن يختار كل قبيل منهم الفرصة المناسبة لضرب الاسلام واضعاف دولته .

---

(٣٢) انظر : الطبري ٢/ ٤٠١ ، ٤١٢ ، الواقدي ١/ ١٨٤ – ١٨٥ ، ٢٠٤ ، ٤١٣ ، البلاذري : انساب ١/ ٢٨٤ – ٢٨٥ .

٤

كان أول صدام مبكر بين الإسلام واليهود هو ذلك الذي حدث في أعقاب معركة بدر .. بدأ اليهود الذين صدمتهم نتيجة المعركة التي لم يكونوا يتوقعوها يروجون الشائعات ضد المسلمين ويشنون حرباً نفسية ضد رسوله ودعـــاته ، ويمارسون التجسس على المسلمين لصالح المشركين حيث نقلوا كافة المعلومات عن نوايا المسلمين وحركاتهم إلى قريش[٣٣] . كما انهم كانوا قد تلقوا رسالة من قريش تحرضهم فيها على قتال الرسول ﷺ[٣٤] ، وأظهروا للرسول ، كما يقول الطبري ، الحسد والبغي ، وقالوا : لم يلق محمد من يحسن القتال ولو لقينا ، لاقى عندنا قتالا لا يشبهه قتال أحد ، وأظهروا نقض العهد[٣٥] فجمعهم الرسول ﷺ في سوق بني قينقاع وقال لهم : يا معشر اليهود ، احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة ، واسلموا ، فانكم قد عرفتم اني نبيّ مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم ، وفي عهد الله اليكم . قالوا يا محمد ، انك ترى إنا مثل قومك لا يغرنّك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فاصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن انا نحن الناس[٣٦] .

وازداد الموقف توترا في أعقاب الحادثة التي شهدها سوق بني قينقاع ، حيث كانت امرأة عربية قد قدمت السوق ببضاعة تريد بيعها فيه ، وجلست إلى صائغ هناك ، فتقدم اليها عدد من اليهود وطلبوا منها أن تكشف عن وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى التحرش بها ، ممـــا أضحك اليهود المتجمعين حولها ، فصاحت المرأة فما وسع رجلاً من المسلمين إلا أن وثب على الصائغ اليهودي فقتله ، فشدّ اليهود على المسلم فقتلوه ، واستصرخ أهل المسلم اتباعهم ، فوقع الشر بينهم وبين

---

(٣٣) شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ٩٢ .

(٣٤) محمد حميد الله : الوثائق ، ص ٤٨ .

(٣٥) الطبري : تاريخ ٤٧٩/٢ ، البلاذري : انساب ٣٠٨/١ الواقدي ١٧٦/١ .

(٣٦) المصادر السابقة ، نفس الصفحات .

بني قينقاع[٣٧] .

وفي رواية للزهري ، يوردها الطبري ، أن جبريل نزل على الرسول ﷺ بهذه الاية (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء)[٣٨]. فلما فرغ جبريل من تلاوة الآية قال الرسول ﷺ : اني أخاف بني قينقاع ، وسار لقتالهم[٣٩] . ومهما كان الأمر فان يهود بني قينقاع قد تحدوه صراحة سواء في أقوالهم وحربهم النفسية ، أم في مواقفهم وأعمالهم ، حتى أن الواقـــدي يذكر أن بني قينقاع اجتمعوا على الرجل فقتلوه « ونبذوا العهد إلى النبي ﷺ نبذه وحاربوا وتحصنوا في حصنهم »[٤٠]ومن ثم يبدو تهافت ما ذكره ولفنسون من أن الأسباب التي حملت النبي على البدء بمحاربة بني قينقاع – من بـين جميع اليهود – ترجع إلى أن بني قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينـة ، في حي واحد من أحياء الأقوام العربية فأراد النبي ﷺ أن يطهر المدينـــة وأحياء الأنصار من المشركين ومن جميع من يخالفون دينه وغني عن البيان أن بني قينقاع كانوا أغنى طوائف اليهود في يثرب .. ثم كان عددهم غير كثير . فكان من السهل مقاتلتهم واستئصال شأفتهم[٤١] .

لم يقف الرسول ﷺ ساكتـاً ازاء تحدي بني قينقاع ، وهم ينقضون صراحة بنود الدستور ويثيرون فتنة كان الدستور قـــد أكد على معاقبة مرتكبيها واعتبارهم ناقضين للعهد ، ومن ثم فرض الحصار على حصونهم الواقعـة داخل المدينة ، في شوال من السنة الثانية للهجرة ، وقد استمر الحصار خمس عشرة ليلة وانتهى بنزول اليهود عـلى حكم الرسول الذي قضى باجلائهم عن يثرب إلى أي

---

(٣٧) ابن هشام ، ص ١٧١ ، الواقدي ١٧٦/١ ، البلاذري انسب ٣٠٩/١ ، جوامع السيرة ص ١٥٤ ، السمهودي : وفاء الوفا ١٩٧/١ – ١٩٨ ، ابن الاثير : الكامل ١٣٧/٢ – ١٣٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٤ – ٤ .

(٣٨) الانفـــال /٥٨ .

(٣٩) الطبري : تاريخ ٤٨٠/٢ ، ابن سعد : طبقات ١٩/١/٢ .

(٤٠) المغـــازي : ١٧٧/١ .

(٤١) تاريخ اليهود ، ص ١٢٨ .

مكان يشاؤون[٤٢] ، دون أن ينزل أية عقوبة – اخرى – بهم ، كي يجيء حكمه بمستوى الجرم الذي اقترفوه . وبخروجهم إلى أذرعات مـــن بلاد الشام تخلص المسلمون من واحدة من القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث المنتشرة – منذ زمان بعيد – داخل المدينة وخارجهـا ، فازدادت وحدة المدينة تماسكاً ، وازداد اليهود ضعفاً . ويظهر ان اجـلاء بني قينقاع كان له وقع عظيم في نفوس اليهود ، فقد امتنعوا في أعقاب ذلك عن المجادلة الدينية ، وكفوا عن رمي المسلمين بقوارص الكلم ، ودخلت هيبة المسلمين في قلوب البطون العربية التي لم تكن قد دخلت في الاسلام ، وانفسح المجال أمام النبي ﷺ لنشر دعوته[٤٣] .

ولم يمض على ذلك كبير وقت حتى سدد الرسول ﷺ لليهود ضربـة أخرى بقتل كعب بن الأشرف ، أحـــد كبار زعمائهم ، في ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة . وكان كعب قد صعد نشاطه ضد الاسلام في اللحظة التي قدم فيها إلى المدينة مبعوثا الرسول ﷺ من معركة بدر ، زيـــد بن حارثة وعبد الله ابن رواحة ، لاعلان بشرى انتصار المسلمين في لقائهم الحاسم مع المشركين. فقال كعب: ويلكم أحق هذا ؟ أترون ان محمداً قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير لنا من ظهرها .. هؤلاء سراة الناس قد قتلوا واسروا ، فما عندكم؟ قالوا : عداوته ما حيينا . قال : وما أنتم وقد وطىء قومه وأصابهم ، ولكني أخرج إلى قريش فأحضهم وأبكي قتلاهم فلعلهم ينتدبون فأخرج معهم . وبعـد أن تيقن من صحة الخبر غادر كعب المدينة متوجهاً إلى مكة ونزل هنــاك على أحد زعمائها ، وراح يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار في هجائه ويبكي أصحاب القليب من قادة قريش الذين صرعوا في بدر . وقفل عائداً إلى المدينة لكي ينشد قصيدة يشبب فيها بامرأة مسلمة تدعى أُم الفضل بنت الحارث :

---

(٤٢) ابن هشام ص ١٧١ – ١٧٢ ، ابن سعد ٢/١/١٩ – ٢٠ ، الواقدي ١/ ١٧٧ – ١٨٠ ، البلاذري : انساب ١/٣٠٩ ، ابن الاثير : الكامل ٢/١٣٨ – ١٣٩ .

(٤٣) ولفنسون : تاريخ اليهود ص ١٣١ .

احدى بني عامر جنّ الفؤاد بها ولو تشاء شفت كعباً من السقم
لم أرَ شمساً بليل قبلها طلعت حتى تجلت لنا في ليلة الظلم !!

وتحول من أم الفضل إلى نساء مسلمات أخريات مشبباً بهن حتى آذاهن . وعند ذلك قال الرسول ﷺ لأصحابه : من لي من ابن الأشرف ؟ فقال رجل من الأنصار يدعى محمد بن مسلمة : أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : فافعل ان قدرت على ذلك !!

توجه محمد بن مسلمة إلى دار ابن الأشرف ، في بني النضير ، يصحبه أربعة من رفاقه . وعندما اقتربوا من داره بعثوا اليه أحدهم : أبا نائلة ،فجاءه فتحدث معه ساعة ، وتناشدا شعراً ، ثم قال أبو نائلة : ويحك يا ابن الأشرف ! اني قد جئتك بحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني . أجاب كعب : افعل قال أبو نائلة : كان قدوم هذا الرجل (يعني محمداً ﷺ) بلاء علينا ، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ،وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهدت عيالنا فقال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرتك أن الأمر سيصير إلى ما كنت أقول . فقال أبو نائلة : اني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك . وطلب كعب أن يرهنوه أبناءهم فأقنعه أبو نائلة أن ذلك مما لا ترضاه العرب وأن من الأفضل لو يجعل الرهن سلاحاً ـ وكان هدفه ألا ينكر كعب وجماعته السلام إذا جاءهم به ـ فوافق كعب على ذلك وفي بقيع الغرقد اجتمعوا بالرسول ﷺ وتلقوا منه التعليمات وقال لهم : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم . فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصن كعب وناداه أبو نائلة ، فنزل اليهم وتحدث معهم ساعة ، حتى اذا توغلوا بعيداً عن مساكن اليهود اخذ ابو نائلة برأسه وصاح : اضربوا عدو الله ، فصرخ كعب صرخة لم يبق من جرائها حصن يهودي إلا أوقدت عليه النار ، وما لبثت سيوف المسلمين أن تناوشته وأجهزت عليه . وقفلوا عائدين بعد أن أصيب أحدهم بجرح وسرعان ما تبدت ردود فعل اليهود إزاء مقتل فارسهم وشاعرهم خوفاً

وجبناً « فليس في المدينة يهودي إلا وهو يخاف على نفسه » [٤٤] ، ودفعهم الفزع إلى مقابلة الرسول ﷺ حيث قالوا له قد طرق صاحبنا الليلة ، وهو سيد من ساداتنا ، قتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه . فأجابهم الرسول ﷺ : إنه لو قرّ كما قرّ غيره ممن هو على مثل رأيه مـــا اغتيل ، ولكنه نـال منا الأذى وهجانا بالشعر ، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان له السيف .

ثم ما لبث ان عرض عليهم ان يكتب بينهم كتاباً ينتهـون إلى ما فيه ، فاجابوه إلى ذلك حيث أصابهم الخوف والذل [٤٥]

٥

وما لبثت هزيمة أُحد ان افسحت لليهود مجالاً ينفسون فيـــه عن احقادهم ويظهرون ضغائنهم على الاسلام ونبيه ، وراحوا يطلقون الأقوال السيئة ويقولون: ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هكذا نبي قط ، أصيب في بدنه واصيب في أصحابه . حتى ان ذلك استفز عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستأذنه في قتل الرؤوس اليهودية التي نفثت سمومها في قلب المحنة فاجابه الرسول صلى الله عليه وسلم : يا عمر ان الله مظهر دينه ومعزّ نبيه ، ولليهود ذمة فلا اقتلهم [٤٦] . ولم يقف اليهود عند حدود الحرب النفسية بل انهم مضوا إلى أبعد من ذلك مستغلين فرصة ضعف المسلمين ومأساتي الرجيع وبئر معونة وتألب الأعراب الوثنيين ضدهم

---

(٤٤) الطبري : تاريخ ٤٨٧/٢ — ٤٩١ ، ابن سعد ١/٢/ ٢١ — ٢٣ ، البخاري : التجريد ٧٩/٢ — ٨٠ ، الواقدي ١/ ١٢١ — ١٢٢ ، ١٨٤ — ١٩٣ ، ابن حزم : جوامع السيرة ص ١٥٤ — ١٥٦ ، ابن الاثير : الكامل ١٤٣/٢ — ١٤٤ ، المقدسي ١٩٧/٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٥/٤ — ٩ .

(٤٥) الواقدي : ١٩٢/١ .

(٤٦) الواقدي ، ٣١٧/١ — ٣١٨ ، المقريزي : امتاع الاسماع ١٦٥/١ .

فقرر زعماء بني النضير (٤٧) التآمر على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة الرابعة للهجرة .

ذلك انه ذهب إلى حصونهم ، بصحبة عدد من كبار أصحابه ، يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر ، كان أحد أصحابه قد قتلهما خطأ في أعقاب نجاته من مجزرة بئر معونة ، وفق ما تقضي به المواثيق التي كان اليهود قد أمضوها مع الرسول صلى الله عليه وسلم. وعندما عرض عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء من أجله ، قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه —وكان صلى الله عليه وسلم قد جلس يستريح أسفل جدار بيت من بيوتهم— فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب. أنا لذلك ، وصعد لتنفيذ المهمة ، فنزل الوحي الأمين لكي يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بما أراد القوم ، فما لبث ان غادر المكان عائداً إلى المدينة ، ولما انتظره أصحابه طويلا ولم يعد ، قاموا في طلبه ، وفي الطريق لقوا رجلا مقبلا من المدينة أعلمهم انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم داخلا ، ولما التقوا به أخبرهم بما اعتزمه اليهود من الغدر به . وأرسل إلى بني النضير ينذرهم بضرورة مغادرة المدينة خلال عشرة أيام وان من شوهد منهم بعد انتهاء المدة ضربت عنقه . لكن اليهود لم يستجيبوا للانذار وراحوا يهيئون أنفسهم لحصار طويل ، وحينذاك اصدر الرسول صلى الله عليه وسلم اوامره بالتهيؤ للمسير إلى حصون بني النضير وقتالهم .

ما ان علم بنو النضير بتحرك المسلمين حتى لجؤوا إلى حصونهم يحتمون بها ، ففرض المسلمون الحصار عليهم ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقطع نخيلهم وتحريقها لارغامهم على التسليم وهم الحريصون على المال والمتاع ، فنادوه أن يامحمد

---

(٤٧) عن اصل بني النضير وبني قريظة انظر : Margoliuth: *The Relations between Arabs & Israelites, Lec, 3.*

قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ فلم يلتفت الرسول صلى الله عليه وسلم لمثالياتهم التي يعرف جيداً أنهم أول الناس بتخطيها إذا ما تعارضت ومصالحهم ، فشدد الحصار عليهم ، وراح بنو النضير يقاومون بانتظار النجدة التي وعدهم بها عبد الله بن أبيّ زعيم المنافقين ، دون جدوى وبدأ الرعب يدب في نفوسهم. ثم ما لبثوا أن أعلنوا عن استسلامهم، بعد خمسة عشر يوماً من الحصار ، وموافقتهم على الجلاء أسوة برفاقهم من بني قينقاع ، على أن يحقن الرسول صلى الله عليه وسلم دماءهم ويسمح لهم بحمل ما ما تقدر إبلهم على حمله فيما عدا السلاح، فأجابهم إلى ذلك ، فحملوا إبلهم الكثير من الأموال والمتاع وانطلقوا شمالاً حيث استقر بعضهم في خيبر وعلى رأسهم زعماء بني النضير : سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي ابن أخطب حيث دان لهم أهلها بالطاعة، واستمرت طائفة أخرى في مسيرها صوب الشام . ووضع الرسول صلى الله عليه وسلم يديه على ما تركوه من أموال، فقسمها على المهاجرين الأولين الذين كانوا يعانون الفقر والجوع ولم يمنح للأنصار شيئاً سوى رجلين فقيرين منهم ، رغبة منه صلى الله عليه وسلم في إعادة التوازن الاجتماعي بين أصحابه ، وهي سابقة عملية أخرى ، لا تقل خطورة عن تجربة (المؤاخاة) في دلالتها الاجتماعية على رغبة الاسلام العميقة في تنفيذ التوازن الاجتماعي وتذويب الفروق الطبقية بين فئات المجتمع الواحد ، واحلال التعاون والوفاق محل التقاتل والتحاقد والصراع [٤٨] .

ولم يفلت عمرو بن جحاش من طائلة العقاب إذ سرعان ما أمر الرسول ابن يامين بن عمير – الذي أعلن إسلامه خلال فترة الحصار – أن يدبر أمر اغتياله فأجابه أنا أكفيكه يا رسول الله وما لبث أن اتصل برجل من قيس وأعطاه

---

(٤٨) ابن هشام ص ٢٠٢ – ٢٠٥ : الطبري : تاريخ ٢/٥٥٠ – ٥٥٥ ، ابن سعد ٢/١/ ٤٠ – ٤٢ ، الواقدي ١/ ٣٦٣ – ٣٨٠ ، اليعقوبي ٢/ ٤٠ ، ابن الاثير : الكامل ٢/١٧٣ ، البلاذري : فتوح البلدان ١/ ١٨ – ١٩ ، انساب ١/٣٣٩ ، ابن حزم : جوامع السيرة ص ١٨١ – ١٨٢ ، ابن كثير: البداية والنهاية ٤/٧٤ – ٨٠ ، المقدسي ٤/٢١٢ – ٢١٣

عشرة دنانير لقاء تعهده بقتل ابن جحاش ، فأدى الأعرابي المهمة ، وعاد ابن يامين لكي يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقضاء على الخائن [٤٩] .

وهكذا تم إجلاء طائفة أخرى من اليهود بسبب خرقها الميثاق وخفرها الذمة وخيانتها الرسول صلى الله عليه وسلم . ولقد جاء انتصار المسلمين هذا في أعقاب محنتهم في أحد وفجيعتهم في حادثتي الرجيع وبئر معونة ، ومن ثم تولوا زمام المبادرة ثانية ، وتغيّر بانتصارهم هذا مجرى الأحداث . ونزلت – بعد قليل – سورة بأكملها هي سورة (الحشر) تعرض لظروف هذا الحدث الخطير ، وتعلق على مجرياته ونتائجه التي ما كانت لتحدث هكذا لولا إرادة الله (الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار) [٥٠] وإن كان ثمة شيء يزاد على روايات التاريخ فهو المدى الواسع الذي ينطوي في الآية الرابعة من السورة الآنفة (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقّ الله فان الله شديد العقاب) إذ يصحّ أن يقال ان محاولة بني النضير اغتيال النبي إنما كانت سبباً مباشراً ، وانه كان منهم قبل ذلك مواقف مشاقة مؤذية ومزعجة كثيرة طفح بها الكيل وحق عليهم من أجلها التنكيل [٥١] .

---

(٤٩) الواقدي : ١/ ٣٧٣ – ٣٧٤ .

(٥٠) ابن هشام ص ٢٠٥ الواقدي ١/٣٨٠ – ٣٨٢ وعن الايات المتعلقة باجلاء بني النضير انظر سورة الحشر ٢ – ٧ ، ١١ – ١٧ .

(٥١) دروزة : عصر الرسول (ص) ١٩٨/٢ .

٦

لم يشأ زعماء بني النضير الذين استقروا في خيبر أن يظـلوا ساكتين إزاء هزيمتهم وامتداد الاسلام إلى كل مكان . وتدارسوا الأمر فرأوا أن أحد أكبر الأسباب في الهزائم التي مني بها أعداء الاسلام من الوثنيين واليهود هي قتالهم المسلمين كل على انفراد ، الأمر الذي مكّن هؤلاء من تصفية خصومهم وتحقيق الانتصارات المتتالية عليهم . واذن فان خير أسلوب لتفادي الهزيمة كرة أخرى هي أن يسعوا لتشكيل حلف قوي يضم كافة القوى الوثنية واليهودية وتوجيه ضربة مشتركة للاسلام لا تقوم له بعدها قائمة . وسرعان ما انطلق نفر منهم على رأسهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن أبي الحقيق ، وغيرهم للاتصال بقريش وغطفان وبقية القبائل الوثنية الكبرى وإقناعهم جميعاً بالفكرة التي توصلوا اليها . وعندما قدموا على قريش ودعوها إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم حتى نستأصله ، أرادت قريش أن تستوثق من خطة اليهود فسألت حيياً عن قومه من بني النضير فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه . فسألوه عن بني قريظة فقال : أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم وتساءل بعض رجالات قريش : يا معشر اليهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ أجاب اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . كان اليهود مستعدين لأن يزيفوا كل شيء ، ويتجاوزوا منطقهم الديني نفسه في سبيل التودد إلى الوثنية وتحريكها لضرب الاسلام . ولقد نجحوا في هذا السبيل، بعد أن اتصلوا بالقبائل العربية الأخرى، وانطلق الاحزاب في هجوم شامل على المدينة لاستئصال الاسلام [٥٢] .

---

(٥٢) ابن هشام ص ٢١١ — ٢١٢ ، الواقدي : ٤٤١/٢ — ٤٤٢ ، وانظر : الشريف : مكة والمدينة ص ٤٥٥ .

ولقد أدرك زعماء بني النضير أن هدفهم لن يكسب ضمانه النهائي إلا بإقناع يهود بني قريظة في يثرب ، أولئك الذين كانوا لا يزالون ملتزمين بميثاقهم مع الرسول ﷺ ، بالتمرد على التزامهم والانضواء إلى صفوف الأحزاب ، والعمل سوية على توجيه الضربة القاصمة للعدو المشترك . فانطلق حيي بن أخطب[53] ، وقد حوصرت المدينة ، إلى حصون بني قريظة القابعة إلى الجنوب منها ، وقصد زعيمها كعب بن أسد . فلما سمع هذا بقدوم حيي اغلق دونه باب حصنه تجنباً للمشاكل والتزاماً بعهدرسول الله ﷺ ، فاستأذنه حيي بالدخول عليه فأبى أن يفتح له ، فناداه حيي محاولاً اقناعه بما جاء من أجله : ويحك يا كعب ... افتح لي . أجابه كعب : ويحك يا حيي ، انك امرؤ مشئوم واني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً . قال حيي : ويحك افتح لي أكلمك . أجاب كعب : ما أنا بفاعل . قال حيي مستفزاً رفيقه « والله ان اغلقت الحصن دوني الا على جشيشتك[54] انا كل منها معك » فاضطر كعب إلى أن يفتح له .

وما أن دخل زعيم بني النضير حتى بادر رفيقه قائلا : ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى انزلتهم بمجتمع الاسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى انزلتهم بجانب أحد ، وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبارحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه . أجابه كعب وهو يخمن المصير الذي ينتظره وقومه إذا ما تمردوا على العهد : جئتني والله بذل الدهر وبجهام قدأهراق ماءه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فاني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء . فلم يزل حيي بكعب يخاتله ويراوغه ويمنيه حتى أجابه كعب بعد أن شرط عليه انه إذا

---

(53) يذكر ابن سعد ٤٨/١/٢ بأن ابا سفيان هو الذي دس حييا الى بني قريظة كي ينقضوا عهدهم ويذهب الواقدي الى ما ذهب اليه ابن سعد : المغازي ٢/ ٤٥٤ — ٤٥٥ .

(54) الجشيشة : طعام من البر يطحن غليظا .

ما هادت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً دخل معه حصنه حتى يصيبه ما أصابه . وعند ذلك قام كعب بنقض العهد وأعلن براءته مما كان بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم[٥٥] .

عندما بلغت رسول الله ﷺ انباء نقض بني قريظة عهدها معه بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج وآخرين وقال لهم : انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فتوجه هؤلاء إلى حصون قريظة وسألوهم عما بلغهم عنهم ، فما كان جوابهم إلا أن قالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، وعندما عنفهم سعد بن معاذ شتموه!وعاد الرجال لكي يخبروا الرسول ﷺ عن صحة ما ورده من انباء زادت المسلمين بلاء على بلاء[٥٦] .

وسرعان ما همت بنو قريظة في القيام بهجوم ليلي على قلب المدينة وأرسل زعماؤها حيي بن أخطب إلى معسكر قريش لكي يأتي بألفي رجل منها ومن غطفان يستعينون بهم على هذا الهجوم ، الامر الذي دفع الرسول ﷺ إلى تجريد كتيبتين من خمسمائة فارس لحراسة المدينة والطواف في أحيائها ورفع معنويات أهاليها . ويحدثنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه فيقول « لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان .. فكان مما رد الله به بني قريظة عما أرادوا ان المدينة كانت تحرس »[٥٧] وكان الرسول ﷺ يبعث العيون من جهته إلى بني قريظة لكي يجيئوه بأماكن خللهم ونقاط ضعفهم[٥٨] وقد تمكن عشرة من أشداء اليهود من التسلل يوماً إلى أطراف المدينة فتصدى لهم نفر من المسلمين واشتبكوا معهم في قتال بالنبال أسفر عن تراجع اليهود واحتمائهم بحصونهم ، وسيطر الرعب عليهم « فلم يقدروا أن يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفاً

---

(٥٥) ابن هشام ص ٢١٤ — ٢١٥ ، الطبري : تاريخ ٢/ ٥٧١ — ٥٧٢ ، الواقدي ٢/ ٤٥٤ — ٤٥٧ .

(٥٦) ابن هشام ص ٢١٥ ، الطبري : تاريخ ٥٧٢/٢ ، الواقدي ٢/ ٤٥٧ — ٤٥٩ .

(٥٧) الواقدي ، ٤٦٠/٢ .

(٥٨) المصدر السابق ٢/ ٤٦١ — ٤٦٢ .

شديداً »[٥٩] .

وصمد المسلمون لمحنة (الاحزاب) وتمكنوا من دحر أخطر هجوم في تاريخ دعوتهم ، فتفككت عـرى الاحزاب وقفلت عائدة إلى ديارها ، وحان الوقت لانزال العقاب العادل بالجماعة اليهودية التي نقضت العهـد في أخطر ساعة عاشها المسلمون . جاء جبريل (ع) إلى الرسول ﷺ وسأله : أوقـد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ أجاب الرسول : نعم . فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم . إن الله عز وجل يأمرك يا محمـد بالمسير إلى بني قريظة ، فاني عامد اليهم فمزلزل بهم . فأمر الرسول ﷺ مؤذناً يؤذن في الناس (من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة)[٦٠]، إسراعاً بالمسلمين إلى هدفهم واستنهاضاً لهم بعد الجهـد والعناء الذي أصابهم خلال أيام الحصار الشاقة .

لقد أدرك الرسول ﷺ بثاقب فكره أهمية الوقت في الحصول عـلى نتائج باهرة في القتال ،فلو أنه أبطأ في حركته هذه لاستفاد اليهود من الوقت في الاستعانة بحلفائهم ، أو إقناع اليهود الآخرين بمعاونتهم ، أو التشبث بالحصول على قوات من القبائل لتدعيم قوتهم ، ولكان بامكانهم إكمال قضاياهم الادارية التي يحتاجونها في القتال حتى يستطيعوا الصمود في حصارهم أطول مـدة ممكنة.ولكن إسراع الرسول لتطويقهم حال بـين اليهود وبين كل ذلك ، إذ لم يكن اليهود يعلمون بالموعد الأكيد لانسحاب الأحزاب ليسبقوا النظر في إعداد كافة متطلبات القتال المتوقع ضد المسلمين ، بل ان حركة المسلمين السريعة لم تترك لهـم الوقت الكافي لتنظيم خطة دفاعية عن حصونهم ، كما لم تترك لهم الوقت الكافي لتنظيم أي خطة على الاطلاق .. كما ان حركة المسلمين مبكراً شلّت معنويات اليهود وقضت على

---

(٥٩) المصدر السابق ٦٦٢/٢ .

(٦٠) ابن هشام ص ٢٢٣ ، الطبري : تاريخ ٥٨١/٢ ، ابن سعد ٥٣/١/٢ — ٥٥ ، الواقدي : ٤٩٦/٢ — ٤٩٩ ، البلاذري : انساب ٣٤٧/١ — ٣٤٨ .

روح المقاومة فيهم [٦١] .

ومما يزيد في قيمــــة حرص المسلمين على المحافظة على الوقت أن ظروفهم لم تكن حسنة بعد انسحاب الأحزاب ، لقد كانوا منهوكي القوى لسهرهم على حراسة مواضعهم مدة حوالي شهر في موقف عصيب يحطم أعصاب الشجعان وكان الطقس بارداً وقد تحملوا البرد في العراء وقتــاً طويلاً اثناء حصارهم فلما انسحبت الأحزاب آن لهم أن ينالوا بعض الدفء في بيوتهم القريبة . وكانت قضاياهم الادارية بشكل لا يحسدون عليه ، إذ ما هي امكانيات اعاشتهم مثــلاً وهي أهم مــــا يدعم قوة المقاتلين ؟ ان عدم اكتراث المسلمين بكل هذه المشاكل لغرض الاسراع بتطويق حصون بني قريظة يدعو إلى الاعجاب والتقدير [٦٢] .

استمر الحصار خمساً وعشرين ليــلة وبدأ الرعب يتسرب الى قلوب اليهود ، وأدركوا ألا قدرة لهم على الصمود حتى النهاية . ولما أيقن زعيمهم كعب بن أسد أن الرسول ﷺ غير منصرف عنهم حتى ينزل بهم عقابه ، عرض على قومه حلولاً عدة عليها تخلصهم من المأزق الذي أوقعوا أنفسهم فيه فقال يامعشر يهود: قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، واني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم قالوا: وما هي؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم انه نبي مرسل ، وانه للذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وابنائكم ونسائكم قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غــيره . قال : فاذا ابيتم علي هذه فهــــلم فلنقتل ابناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف ، لم نترك وراءنا ثقلاً ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه ، وان نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء . قالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟ قال : فان ابيتم علي هذه فان الليلة ليلة السبت ، وانه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد امنونا فيها فانزلوا

---

(٦١) شيت خطاب : الرسول القائد ص ١٦٧ .

(٦٢) المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة . قالوا : نفسد علينا سبتنا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت ، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ؟ وقال نباش بن قيس ، أحد زعمائهم : وكيف نصيب منهم غرة وأنت ترى أمرهم كل يوم يشتد ، كانوا أول ما يحاصروننا انما يقاتلون بالنهار ويرجعون بالليل ... فهم الآن يبيتون الليل ويظلون النهار ، فأي غرة نصيب منهم ؟ قال كعب : ما بات رجل منكم ، منذ ولدته أمه ، ليلة من الدهر حازماً . ومن ثم أعلن اليهود نزولهم على حكم الرسول ﷺ(٦٣) .

عهد الرسول ﷺ إلى سعد بن معاذ ، زعيم الأوس ، وقد كان بنو قريظة مواليهم ، باصدار الحكم . وكان سعد آنذاك يمرض من جراحه التي أصابته في معركة الخندق تشرف على تمريضه في المسجد امرأة تدعى رفيدة كانت تداوي الجرحى ، وتتولى رعاية من لا أهل له من المقاتلين . فجاء به قومه يحملونه وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسن في مواليك ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم انما ولاك ذلك لتحسن فيهم . فلما الحوا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم ، ثم أصدر حكمه بقتل الرجال المحاربين ، وتقسيم الأموال ، وسبي الذراري والنساء . فما كان من الرسول ﷺ إلا أن قال له (لقد حكمت فيهم بحكم الله — من فوق سبع سماوات — وحكم رسوله)(٦٤) !!

لم يكن رجال بني قريظة سوى مجرمي حرب ، وفق قوانين القتال المعاصرة ، نقضوا العهد ، وانضموا إلى الأعداء والحرب قائمة بين المسلمين والأحزاب . فكان نقضهم خيانة عظمى ، ولم يكن عقابهم العادل المكافيء لفعلتهم سوى القتل .

---

(٦٣) ابن هشام : ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ، الطبري : تاريخ ٢/ ٥٨٣ — ٥٨٤ ، الواقدي ٢/ ٥٠١ — ٥٠٣ ، ابن الاثير : الكامل ١٨٥/٢ — ١٨٧ ، السمهودي : وفاء الوفا ٢١٨/١ — ٢٢٠ .

(٦٤) ابن هشام ٢٢٦ — ٢٢٨ : الطبري : تاريخ ٥٨٦/٢ — ٥٨٨ : ابن سعد ٥٤/١/٢ : الواقدي : ٥١٠/٢ — ٥١٢ ، اليعقوبي ٤٣/٢ ، البلاذري : فتوح ٢٣/١ — ٢٤ ، انساب ٣٤٧/١ ، البخاري : تجريد ٨٢/٢ — ٨٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١١٦/٤ — ١٢٦ .

وقد انزلوا من حصونهم مقرنين في الأصفاد ، وحفرت لهم الخنادق ، ثم جيء بهم فوجاً فوجاً حيث لاقوا مصيرهم ودفنوا هناك ، وبلغ عددهم بين الستمائة والسبعمائة رجل فيهم سيدهم كعب بن اسد وحيي بن اخطب زعيم بني النضير الذي كان قد لجأ إلى حصون بني قريظة بعد انسحاب الأحزاب ، وامرأة كانت قد القت - خلال الحصار - رحى على مسلم يدعى خلاد بن سويد فقتلته . وما أن تم تنفيذ الحكم برجال بني قريظة حتى انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات شهيداً[٦٥] بعد أن استجاب ربه لدعائه يوم جرح في معارك الخندق « اللهم ان كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فابقني لهـا فانه لا قوم أحب إليّ أن اجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه . اللهم وان كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة »[٦٦] .

وبفتح حصون بني قريظة يكون المسلمون قد تخلصوا من آخر كتلة يهودية في المدينة اختارت بنفسها - كسابقاتها - أن تقف من الاسلام موقف الحقد والعداء ، وأن تنقض ميثاقهـا مع الرسول ﷺ . ولم يكن الرسول ﷺ ليستخدم أسلوب العقاب الجماعي ازاء اليهود الذين لم يروا منه - كما قال سيدهم كعب بن أسد - إلا وفاء وصدقاً . فكان لا يعـاقب إلا القبائل التي نقضت عهدها معه تاركاً القبائل الأخرى تمارس حريتها الدينية والمدنية كاملة ما دامت على عهدها . وهكذا لم تؤد حادثة سوق الصاغة إلا إلى اجلاء مسببيها من بني قينقاع ، كما لم تؤد محاولة اغتيـاله إلا إلى طرد القائمين بهـا من بني النضير ، ولو ظلت بنو قريظة على عهدها ، ولم تمارس خيانتها الخطيرة في معركة الخندق لكان لها شأن آخر غير المصير الذي انتهت اليـه . هذا فضلاً عن ان العقاب الذي كان الرسول ﷺ ينزله بخصومه اليهود كان يجيء دومـاً مكافئاً لحجم

---

(٦٥) ابن هشام ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، الطبري : تاريخ ٥٨٨/٢ - ٥٨٩ ، ٥٩٢ ، الواقدي : ٥١٣/٢ - ٥١٨ ، السمهودي : وفاء الوفا ٢٢٠/١ - ٢٢١ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ١٢٦/٤ - ١٣٠ .

(٦٦) الطبري : تاريخ ٥٧٥/٢ ، ابن سعد ٥٦/١/٢ : الواقدي ٥١٢/٢ ، ٥٢٥ .

الجرم الذي مارسته الكتل اليهودية إذ سمح لكل من بني قينقاع وبني النضير بالخروج إلى أي مكان يشاؤن داخل الجزيرة أم خارجها ، بعد أن حقن دماءهم ولم يستخدم اسلوب القتل إلا إزاء اولئك الذين خانوا العهد في ساحة الحرب وتعاونوا مع الأعداء ، وهو العقاب الذي تمارسه جميع القوانين . اما اليهود ، كأفراد لا ينتمون إلى هذه الكتلة وتلك من الكتل اليهودية ذات الوجود السياسي والعسكري ، فقد ظلوا حتى النهاية يمارسون حقوقهم وحريتهم في مدينة الرسول بدليل أنه توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند واحد من هؤلاء !!

٧

راح الرسول ﷺ ينتظر الفرصة المؤاتية لضرب التجمع اليهودي السياسي الاخير في خيبر والمواقع المجاورة بسبب ما كانت تمارسه ضد الاسلام ، فمنها انطلق زعماء اليهود لدعوة القبائل العربية وتحزيبها ضد المسلمين ، ومنها خرج حيي بن اخطب ودفع بني قريظة الى الانتقاض في اللحظات العصيبة . وقد غدت خيبر بمرور الايام ملجأ يأوي اليه اليهود المبعدون عن المدينة ، ينتظرون الفرصة للانتقام من الاسلام ، واسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردهم الرسول ﷺ منها . وقد اتضح هذا في الايام القلائل التي أعقبت هزيمة بني قريظة ، إذ بلغت خيبر أنباء هزيمة قريظة فاتصل بعض اليهود بزعيمهم سلام بن مشكم وسألوه الرأي فأجابهم : نسير إلى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد ، ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى ، ولا نستعين بأحد من العرب ، فقد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب .. ثم نسير اليه في عقر داره . فقالت اليهود: هذا الرأي [٦٧] . ولكن بعض الزعماء عارضه في الإقدام على مجازفة كهذه غير

---

(٦٧) الواقدي : ٢/٥٣٠ — ٥٣١ .

مأمونة النتيجة. وفضلاً عن هذا كله فان يهود خيبر كانوا السبب في خروج سرية يقودها علي بن ابي طالب رضي الله عنه في اواخر العام السادس الهجري ، كانت وجهتها فدك حيث يقطن حي من بني سعد بن بكر كانوا قد سعوا الى مدّ ايديهم لأولئك اليهود لقاء ان يمنحوهم جزء من ثمار خيبر (٦٨) .

وها هم الآن يتحالفون مع غطفان في محاولة جديدة ضد المدينة . وقد علم الرسول ﷺ بما يدور في خلدهم فأخذ يتهيأ لقتالهم ويمهد لذلك بإرسال مجموعات من فدائيي الانصار لاغتيال بعض قادة اليهود هناك كسلاّم بن ابي الحقيق وأسير بن رزام الذي كان يجتمع ببني غطفان ليعقد معهم العقود والاتفاقات ليكونوا مع اليهود في حالة دخول اهل خيبر في حرب مع المسلمين (٦٩). ويحدثنا عبدالله بن عتيك امير السرية الانصارية ذي الرجال الخمسة والتي كلفها الرسول صلى الله عليه وسلم مهمة قتل الزعيم اليهودي فيقول: « لما دنونا من الحصن وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ، قلت لأصحابي اجلسوا مكانكم فاني سانطلق واتلطف إلى البواب لعلي أدخل » ..

ثم أقبل حتى اذا دنا من الباب تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة . وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : ان كنت تريد ان تدخل فادخل فاني أريد ان أغلق الباب . فتناول المفاتيح التي كان البواب قد علقها على وتد هناك ثم اتجه إلى حيث يقيم سلام بن مشكم الملقب بأبي رافع.. « كان أبو رافع يسمر في علالي ، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت اليه ، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقته عليّ من من داخل..حتى انتهيت اليه، فاذا هو في بيت مظلم وسط عياله ،لا أدري أين هو من البيت ؟ قلت : أبا رافع . قال : من هذا ؟ فاهويت نحو الصوت أضربه بالسيف ، فما أغنى شيئاً وصاح ، فخرجت من البيت ومكثت غير بعيد ، ثم دخلت اليه وقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ قال : لأمك الويل ، ان رجلا

---

(٦٨) الطبري : تاريخ ٢/٦٤٢ ، ابن سعد ٢/١/٦٥ .
(٦٩) ولفنسون : تاريخ اليهود ص ١٥٧ ــ ١٥٨ .

بالبيت ضربني بالسيف ، فانقضضت عليه ووضعت حد السيف في بطنه حتى أخرجته من ظهره ، فعرفت أني قد قتلته وجعلت أفتح الأبواب باباً فباباً ، حتى انتهيت إلى الأرض ، فوقعت فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامتي ثم انطلقت حتى جلست عند الباب فقلت : والله لا أرجع الليلة حتى أعلم اقتلته أم لا؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور ينعي أبا رافع ، فانطلقت إلى أصحابي وقلت النجاء .. قد قتل الله أبا رافع » .. وقفل عبد الله بن عتيك ورفاقه عائدين إلى المدينة ليخبروا الرسول بالمهمة التي انجزوها [٧٠]. وبعد أبي رافع جاء دور أسير ابن رزام حيث ندب له الرسول ﷺ ثلاثين رجلاً بقيادة عبدالله بن رواحة ، فاستدرجوه وعدداً من أصحابه واحتالوا عليهم وقتلوا أميرهم أسير ومعظم أصحابه ثم قفلوا عائدين إلى المدينة دون ان يفقدوا أحداً [٧١] !!

كان الرسول ﷺ قد عقد صلح الحديبية مع قريش في أواخر السنة السادسة للهجرة وأمن – بموجبه – جانبها ، ووجد الفرصة سانحة لتوجيه نشاطه صوب الشمال حيث يقبع الخطر اليهودي الذي لا يكف عن التآمر والعدوان متمثلاً بخيبر والمواقع المجاورة ، وما لبث صلى الله عليه وسلم بعد أسابيع من عودته إلى المدينة ان انطلق (مطلع السنة السابعة) ، صوب خيبر على رأس حملة استنفر لها الراغبين في الجهاد فحسب دون الغنائم . ذلك ان يهود خيبر كانوا أقوى الطوائف اليهودية بأساً واعظمها دربة على القتال ، ولذلك وقفت شبه الجزيرة كلها متطلعة إلى هذه الغزوة . وكان كثيرون يتوقعون أن تدور الدائرة على المسلمين [٧٢] وكان النبي ﷺ يدرك انه لو فشل أمام خيبر فسيتغير ميزان القوى

---

(٧٠) انظر بالتفصيل الطبري : تاريخ ٢/٤٩٣ – ٤٩٠ الواقدي ١/٣٩١ ، ابن سعد ٢/١/٦٦ ، البلاذري : انساب ١/٣٧٦ ، البخاري : تجريد ٢/٨٠ ، ابن الاثير : الكامل ٢/ ١٤٦ – ١٤٨ ، ابن حزم : جوامع السيرة ص ١٩٨ – ٢٠٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٤/ ١٣٧ – ١٤٠ ، ويلاحظ ان هذه المصادر لا تتفق في تحديد تاريخ هذه الحادثة فبعضهم يجعلها قبل الخندق وبعضهم الاخر يجعلها بعدها الا ان المرجح – كما يبدو من سياق الاحداث – ان ذلك حدث بعد معركة الخندق .

(٧١) ابن سعد ٢/١/٦٧ .

(٧٢) انظر ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص١٦٢ .

من جديد وربما حدثت نكسة أعادت لأعدائه قوتهم وحماستهم لقتاله ، وحالت دون اتمـــام الوحدة التي يعمل لهـا النبي ويسعى اليها . لذلك كان يريد جيشاً مؤمناً بأهدافه مقدراً للظروف .. يريـد سيوفاً تحركها قوة النفس لا جشعها ، وكان جيش محمـــد كما أراده ، قليلاً بعدده كثيراً بايمان رجاله وثبات نفوسهم وتصميمهم على الوصول لأهدافهم[٧٣] . ويذكر المقريزي ان عدد المسلمين الذين توجهوا إلى خيبر كانوا الفاً وأربعمائة مقاتل يصحبهم مائتا فرس[٧٤] ، ربما اعتماداً على عددهم يوم الحديبية القريب . كما أسهم في الخروج عدد مـن النسوة خرجن ليداوين الجرحى وينسجن الملابس ويهيئن الطعام .

جعل الرسول ﷺ هدفه أول الأمر السيطرة على الطريق الواصل بين خيبر وغطفان ليحول بين هؤلاء وبين أن يمدوا حلفاءهم في خيبر . وكان بنو غطفان، لدى سماعهم بتوجه الرسول إلى خيبر ، قد خرجوا ليساندوا اليهود ضده لقاء نصف ثمار خيبر لذلك العام ، فاضطرهم الرسول ﷺ للعودة إلى ديارهم بعد أن أوهمهم أن هجومه متجه اليهم . ومن ثم انفرد بخيبر وباغتها فجراً حيث كان أهلوها ورجالها قد خرجوا إلى مزارعهم بمساحيهم ومكاتلهم . فلما رأوا الرسول صلى الله عليه وسلم يقود جيش المسلمين تمالكهم الخوف ونادوا « محمد والخميس » وهربوا لائذين بحصونهم ، وهيؤوا أنفسهم لحصار طويل ، فنادى الرسول صلى الله عليه وسلم ملقياً مزيداً من الرعب في قلوبهم : « الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »[٧٥] .

كانت خطة الرسول صلى الله عليه وسلم في الاستيلاء على حصون اليهود المنيعة في خيبر تتلخص بمشاغلة بعضها بقوات صغيرة ، وتركيز الهجوم على حصن واحد بقواتـه الرئيسية حتى يتم له الاستيلاء على الحصن ثم ينتقل بهجومه المركز إلى

---

(٧٣) الشريف : مكة والمدينة ص ٤٩٥ — ٤٩٨ .

(٧٤) امتاع الاسماع ٣٢٧/١ .

(٧٥) ابن هشام ص ٢٥٩ — ٢٦١ ، الطبري تاريخ ٩/٣ ، ابن سعد ٧٧/١/٢ الواقـــدي ٢/ ٦٣٤ — ٦٤٣ .

حصن آخر . كما انه قسم قواته إلى أقسام بالنسبة إلى قبائلها وبطونها ، وجعل لكل قسم قائداً حتى يشتد التنافس بين القوات ولكي يقوم بعضها بالمشاغلة بينما يأخذ الباقي قسطاً من الراحة ليستأنف القتال مرتاحاً عند الحاجة . ان هذه الخطة تتفق مع احدث الخطط العسكرية الحديثة في قتال المدن والأحراش ، ولو انه قام بالقتال بأسلوب الكر والفر أو بأسلوب الصفوف في مثل هذا الموقف لما كتب للمسلمين النصر[٧٦] .

وبدأ الهجوم ، وراحت حصون خيبر الممتدة في المنطقة على شكل سلاسل والمنقسمة إلى ثلاث مناطق هي: النطاة والشق والكتيبة[٧٧] يدافع عنها زهاء عشرة آلاف مقاتل[٧٨] تسقط بأيدي المسلمين حصناً بعد حصن، وكان أولها سلاسل حصون ناعم والقموص ، وراح عدد من المدافعين يتسللون هاربين من حصونهم، واتصل بعضهم بالرسول ﷺ ودلّه على نقاط الضعف في مواقع اليهود . ومن أجل أن يعجل الرسول ﷺ بكسب المعركة حضّ أصحابه على الجهاد وأخبرهم أن اليهود قد اسلمها حلفاؤها وهربوا ، وانها قد تجادلت واختلفت فيما بينها فزاد من ثقة المسلمين بالنصر . وكان آخر الحصون مقاومة للمسلمين سلاسل الوطيح والسلالم وقلعة الزبير حيث عصى اليهود وظلوا يقاومون بضعاً وعشرين ليلة جرت خلالها مبارزات فردية بين فرسان الفريقين وهجمات عديدة قادها كبار الصحابة وسقط فيها ما يقرب من مائة قتيل يهودي وخمسة عشر مسلما، حتى إذا أيقن المدافعون بالهلكة سألوا الرسول ﷺ أن يجليهم عن المنطقة وأن يحقن دماءهم فأجابهم إلى طلبهم ، فلما نزلوا اليه عرضوا عليه أن يبقيهم في أرضهم لقاء أن يدفعوا للمسلمين نصف حاصلاتهم فوافق الرسول ﷺ على العرض تقديراً منه لامكاناتهم الزراعية ورغبة منه في الافادة من أية طاقة في اعمار الأراضي واستثمارها.إلا أنه بيّن لهم

---

(٧٦) شيت خطاب ، الرسول القائد ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٧٧) انظر ولفنسون : تاريخ اليهود ص ١٩٦ .

(٧٨) يخطىء اليعقوبي ٤٦/٢ في جعلهم عشرين الفا وهو يمارس المبالغة وعدم الدقة في اكثر من موضع .

أن موافقته هذه غير ملزمة إلى الأبد « فانا ان شئنا أن نخرجكم أخرجناكم » لما يعرفه عن طبع اليهود من عدم الوفاء بالعهد ومن انتهاز أية فرصة تسنح للغدر والخيانة(٧٩) .

ويزيد ولفنسون مسألة معاملة يهود خيبر وضوحاً فيبين ان خيبر كانت واسعة الأطراف وفيها من الحدائق والمزارع ما يحتاج للأيدي الكثيرة التي مارست اشغال الزراعة والفلاحة ، ولم يكن من العرب من مارس ذلك إلا النزر اليسير . وفوق ذلك لم يرض الرسول أن يترك من أنصاره من يستوطن هذه الأرض ويعمل بها لاحتياجه اليهم في الأعمال الحربية . ولم يكن في الامكان ترك هذه الأرض الخصبة بوراً لا تنتج زرعاً ولا ثمراً والدولة الاسلامية الناشئة كانت في اشد الحاجة إلى الأموال الكثيرة ، فلم يكن بد من الابقاء على اليهود ليعملوا في هذه الأرض وينتجوا منها الزرع والثمر ، ولذا كانت شروط الصلح التي عقدت بين الطرفين في مصلحة المسلمين أكثر منها في جانب المغلوبين، وما دامت شوكة اليهود في الحجاز قد انكسرت فليس ما يخشى من وجود يهود خيبر في أراضيهم(٨٠) .

وهناك أمر يستوقف النظر وهو أنه كان بين الغنائم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة ، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي بتسليمها لهم . ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول ﷺ من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة . ويذكرون بازاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على اورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب.م إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا أيضاً صحف

---

(٧٩) ابن هشام ص ٢٦١ ـ ٢٦٤ ، الطبري : تاريخ ٣/ ١٠ ـ ١٥ ، ٢٠ ـ ٢١ ، ابن سعد ٢/١/٨٠ الواقدي ٦٤٣/٢ ـ ٦٧٧ ، ٦٩٠ ـ ٦٩١ ، البلاذري : فتوح ٢٥/١ ـ ٢٦ ، انساب ٣٥٢/١ ، وانظر المقريزي : امتاع الاسماع ١/ ٣١٠ ـ ٣٢٢ .

(٨٠) تاريخ اليهود ص ١٦٩ .

التوراة.هذا هو البون الشاسع بينالفاتحين ممن ذكرناهموبين رسول الاسلام[٨١].

لكن اليهود تناسوا ، بعد قليل ، هـذه المواقف السمحة ، العادلة ، أزاءهم وسعوا إلى الثأر لأنفسهم كلما سنحت الفرصة لهم بذلك.كانت أولىالمحاولات ما تمعلى يد زينب ابنة الحارث ، زوجة سلام بن مشكم ، إذ أهدت للرسول شاة مشوية نثرت فيها السم ، فلما مضغ من ذراعها مضغة لم يسغها ولفظها قائلاً : إن هـذا العظم ليخبرني انه مسموم. وكان بشر بن البراء قدأكل هو الآخر فماتبعد قليل وجيء بالجانية،فاعترفت وقالت للرسول صلى الله عليـه وسلم : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت : ان كان ملكاً استرحت منه، وان كان نبياً فسيخبر فتجاوز عنها الرسول[٨٢] وقيل انه قتلها[٨٣] . ويذكر الواقدي[٨٤] وعدد آخر من المؤرخين أن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم التي جاءت بعد ثلاث سنوات كانت بسبب السم الذي دس له يوم خيبر[٨٥] ، وهو احتمال ضعيف بعد مرور هذه المدة الطويلة .

بعد فترة قصيرة قام يهود خيبر باغتيال عبد الله بن سهل الأنصاري ، إلا ان الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه من بعده ابقياهم على ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد اشترط عليهم سيما وانهما – كما يقول ابن سعد – لم يكن لهما من العمال ما يكفون عمل الأرض[٨٦] . وعندما تولى عمر رضي الله عنه الخلافة وبلغته أنبـاء اغتيال المسلم من قبل يهود خيبر واعتدائهم على عبد الله بن عمر ، وكثر عمال المسلمين وتقووا على استثمار الأرض ، وتنفيذاً لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم يوم وفـاته الا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، أصدر انذاره

---

(٨١) المرجع السابق ص ١٧٠ .

(٨٢) ابن هشام ، ص ٢٦٤ – ٢٦٥ ، الطبري : تاريخ ٣/ ١٥ – ١٦ ، الواقدي ٢/ ٦٧٧ – ٦٧٩ .

(٨٣) ابن سعد ٧٨/١/٢ .

(٨٤) المغازي ، ٢/ ٦٧٨ – ٦٧٩ .

(٨٥) انظر المسعودي : الاشراف والتنبيه ص ٢٢٣ – ٢٢٤ .

(٨٦) الطبقات الكبرى : ٢/١/ ٨٢ – ٨٣ .

إلى يهود خيبر « ان من كان عنده عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فليأتني به انفذه له » ومن لم يكن عنده عهد فليتجهز للجلاء » ومن ثم قام باجلاء عدد من يهود خيبر وقسم أموالهم على المسلمين (٨٧).

ونحن لا نستطيع ان ندرك مغزى حديث الرسول ﷺ إلا اذا عدنا باذهاننا إلى الوراء ، إلى السنة التاسعة للهجرة ، حيث نزلت آيات براءة تعلن انهاء الوجود الوثني في جزيرة العرب ، وقلنا هناك ان الضرورتين الاستراتيجية والحضارية هما اللتان دفعتا إلى اتخاذ هذا الموقف . ومن ثم يجيء تأكيد الرسول ﷺ في أخريات حياته الا يجتمع دينان في الجزيرة ، ضمانة أخرى بصدد تعزيز الاستراتيجية الاسلامية التي رسمها صلى الله عليه وسلم واستهدف منها جعل جزيرة العرب قاعدة اسلامية خالصة مهيّأة لانطلاق اتباعه برسالته إلى العالم كله ، وهم قد أمنوا على ظهورهم من طعنات اتباع الديانات الأخرى في قلب بلادهم ، ومن السموم التي يمكن أن تنفثها جيوبهم المنبثة هناك ، والتي لم تكن حركات الردة والتنبؤ بأقلها خطراً . وهذا الموقف لا يتعارض مع بقاء بعض التجمعات اليهودية المسالمة التي لا تملك تأثيراً كبيراً في بعض مناطق الجزيرة والتي كانت تربطها مع الرسول صلى الله عليه وسلم عهود خاصة .

لما سمع يهود فدك ، القرية اليهودية المجاورة ، بما حل برفاقهم في خيبر من معاملة طيبة بعثوا إلى الرسول ﷺ يعلنون رغبتهم في المصالحة على مناصفة

---

(٨٧) الواقدي ٢/ ٧١٣ — ٧٢١ ، ابن سعد ٢/١/٨٣ ، الطبري : تاريخ ٣/ ٢٠ — ٢١ ، البلاذري : فتوح ١/٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٤٠ . ويذكر ولفنسون (تاريخ اليهود ص ١٨٣) ان عمر (رض) لم يتعرض ليهود وادي القرى وتيماء بسوء وانه يؤخذ من هذا ان اهاليها كان لهم عقد خاص لم يسمح للخليفة باخراجهم من بلادهم . كما يذكر انه بقيت الاغلبية لليهود في وادي القرى الى القرن الحادي عشر ، وكذلك وجدت طوائف منهم في جهات تيماء في الثاني عشر .. اما في بلاد اليمن فقد بقي اليهود طوال العصور القديمة ولم يزل لهم وجود في جهات مختلفة من اطراف الجزيرة الى ايامنا هذه (المصدر السابق ص ١٨٦) وعن فتح خيبر ومسألة اخراج اليهود من الجزيرة انظر كذلك كتاب الخراج لابي يوسف ص ٢٩ وكتاب الاموال لابي عبيد ص ٩٩ وابن كثير : البداية والنهاية ٤/ ١٨١ — ٢٢٠ .

أراضيهم[88] . أما وادي القرى فقد ظلت عاصية ، فتوجه اليها الرسول ﷺ وفرض الحصار عليها ، ودعا أهاليها إلى الاسلام ، وأخبرهم أنهم ان اسلموا احرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم ، وحسابهم على الله ، ولكنهم أبوا وأصروا على القتال،وجرت بين الطرفين مناوشات محدودة ، والرسول يعرض عليهم الإسلام وهم يأبون مما دفعه الى تشديد الحصار عليهم حيث تمكن بعد قليل من فتح بلدهم عنوة ، وبقي هناك أربعة أيام قسم خلالها الغنائم على أصحابه وترك المزارع بيد اليهود مناصفة عليها . ولما بلغت يهود تيماء انباء الانتصارات الاسلامية صالحوا الرسول ﷺ على الجزية واقاموا في بلدهم[89] .

٨

وبسقوط خيبر والمواقع المجاورة تم تصفية آخر تجمع يهودي لعب دوره في مواجهة الاسلام وخصومته، ووضع العوائق في طريقه ، وحبك المؤامرات ضده وقضى قضاء تاماً على القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية ليهود الحجاز ، وغدت كلمة الاسلام وحدها هي العليا في معظم مساحات الجزيرة العربية ، لعلها و كبتت كل الجيوب التي كانت تشكل نقاط ضعف في جسدهذه الدولة التي يحيط بها الأعداء من كل مكان .

ويذكر ابن سعد ان الرسول ﷺ نشط في نفس العام (٧ هـ) في الكتابة إلى زعماء بقايا التجمعات اليهودية في أقصى الشمال لتحديد موقفها من الاسلام . فبعث إلى بني جنبة بمقنا القريبة من أيلة على خليج العقبة « أما بعد فقد نزل

---

(٨٨) الواقدي ٢/٧٠٦ — ٧٠٧ ، البلاذري : فتوح ١/٣٣ خليفة بن خياط : تاريخ ١/٤٧ — ٤٨ .

(٨٩) الواقدي ٢/ ٧٠٩ — ٧١١ ، البلاذري : فتوح ١/ ٣٩ — ٤٠ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ٢٢٤ — ٢٢٥ .

علي رسلكم ، راجعين إلى قريتكم ، فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وان رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم لا ظلم عليكم ولا عدى ، وان رسول الله جاركم مما منع منه نفسه .. وإن عليكم .. ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروككم (مراكبكم) وربع ما اغتزل نساؤكم وانكم برئتم - بعد - من كل جزية أو سخرة. فان سمعتم واطعتم فان على رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم .. وان ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله .. » وكتب لجماعة أخرى من اليهود تدعى بني غاديا (.. ان لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء ..) كما كتب لبني عريض كتاباً آخر يحدد فيه ما عليهم ان يدفعوه للمسلمين لقاء حمايتهم لهم وعدم ظلمهم إياهم [٩٠].

وكتب لاهل جرباء واذرح من اليهود « أنهم آمنون بامان الله وامان محمد ، وان عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم بالنصح والاحسان للمسلمين ومن لجأ اليهم من المسلمين . » [٩١] وبذلك تمكن الرسول ﷺ من تحويل هذه التجمعات اليهودية في أقصى الشمال إلى جماعات من المواطنين في الدولة الاسلامية ، يدفعون لها ما تفرضه عليهم من ضرائب نقدية أو عينية ، ويحتمون بقوتها وسلطانها ، ويتمتعون بعدلها وسماحتها.

ولقد ظل اليهود بعدئذ ، كمواطنين وليسوا كتلا سياسية أو عسكرية ، يمارسون حقوقهم في اطار الدولة الاسلامية ، لا يمسهم أحد بسوء ، وعاد بعضهم إلى المدينة بدليل ما ورد عن عدد منهم في سيرة ابن هشام وفي مغازي الواقدي . وهناك الكثير من الروايات والنصوص التاريخية التي تدل على ان الرسول ﷺ كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح ، حتى انه أوصى عامله معاذ بن جبل (بالا يفتن اليهود عن يهوديتهم) . وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين إذ لم يكلفوا إلا بدفع الجزية وبقوا متمسكين بدين ابائهم .. وأهم من كل ذلك

---

(٩٠) الطبقات الكبرى ١/٢/ ٢٨ — ٣٠ .

(٩١) المصدر السابق ١/٢/ ٣٧ — ٣٨ .

تلك الحقوق والامتيازات التي منحها الرسول لآل بني حنينة الخيبرية وأهل مقنا كما منح الرسول أسراً غير قليلة من أهل خيبر حقوقاً لم يمنحها لبقية اليهود، ما عدا الاقرار على الأراضي وانقاءهم نصف الثمار – فان هذا كان من حق كل يهود خيبر – وقد نص على ذلك ابن هشام والبخاري [٩٢].

ومضت السنون الأخيرة من حياة الرسول ﷺ والاسلام يزداد قوة ومنعة وانتشاراً، لكنه ما ان توفي ﷺ حتى وجد اليهود المبعثرون في الجزيرة وبلاد العراق والشام بغيتهم المنشودة والتقوا بيومهم الموعود، فراحوا يتكالبون، كما تكالب غيرهم من اعداء الاسلام، ضد الدولة التي مات قائدها ومؤسسها، فليس من طبع المنهزمين عامة، واليهود على وجه الخصوص، ان يسكتوا على هزائمهم وهم لا بد ان يسعوا معتمدين أي أسلوب، لاسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردوا منها. وليس أدلّ في هذا المجال من حديث عائشة رضي الله عنها حيث تقول: «لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيهم ﷺ حتى جمعهم الله على أبي بكر» [٩٣].

ومن ثم فان لنا ان نتصور – رغم قلة الروايات وانعدامها أحياناً – حجم الدور اليهودي في حركات الردة والتنبؤ في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه .. وفيما بعد في «الفتنة» التي زعزعت أركان الخلافة الراشدة، والتي لعب ابن سبأ فيها – وآخرون غيره لم تنكشف أسماؤهم بعد – دوراً خطيراً.

---

(٩٢) ولفنسون: تاريخ اليهود ص ١٧٥ – ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨١، وانظر البلاذري: فتوح ٦٦/١، ٨٥، ٩١ وانظر كذلك هامش رقم (٨٧).

(٩٣) ابن هشام ص ٤٠٤.

الفصل العاشر

حركة النفاق في العصر المدني



١

لا يمكن أن نتفهم حركة النفاق جيــداً إلا إذا أدركنا بعديها النفسي والاجتماعي. فأما بعدها الأول فيتمثل في أن عدداً من الناس ، على مدار التاريخ يسوقهم تكوينهم النفسي –الذي هو حصيلة المؤثرات البيئية والوراثية– إلى اتخاذ (موقفين) إزاء القضية الواحدة أحدهما ظاهر والآخر باطن ، فيعلنون غير ما يكتمون ، ويقولون غـير ما يفعلون ، ويدفعهم الخوف الذي يتصورونه جاثماً عليهم في كل لحظـــة ، إلى تغطية بواطنهم بأستار ظاهرية يختبئون خلفها علّها تحميهم من الانكشاف، وهم إذا ما خلوا إلى نفوسهم، وشعروا أنهم غدوا بمنأى عما يخيفهم ، دفعوا الأستار جانباً وظهروا على حقيقتهم .

ويبدأ هذا الازدواج والقلق والثنائية في اتخـاذ المواقف بسيطاً غير معقد هدفه تحقيق مصلحة فردية أو جماعيـة ، أو دفع أذى ، إلا أن ممارسته طويلاً تقود إلى استمرائه واعتياده، وسرعان ما يغدو جزءاً أصيلاً من التكوين النفسي للانسان. ويتطرف الازدواج لدى البعض أحياناً حتى يغدو ظاهرة مرضية يسميها علماء النفس (انفصام الشخصية) حيث تنقطع الخيوط كلية بين الظاهر والباطن،

وتزول عوامل الارتباط في كيـــان الانسان ، وتتفكك الذات المتوحدة إلى شخصيتين أو أكثر ، ويفقد الفرد كليّـــة القدرة على تحديد موقفه إزاء مجريات الأحداث التي لا تكف عن التمخض والحركة ، ويغدو – بتعبير الرسول ﷺ – (امّعة . يقول : أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن اساءوا أسأت) .

ويقودنا البعد الاجتماعي لظاهرة النفاق إلى طبيعة تكوين المجتمع العربي في العصر الذي بعث فيه الرسول ﷺ : مجتمع قبـــلي لا يعرف الوحدة والتماسك والنظام ،ولم يعتد الانقياد لسلطة موحدةأو الالتزام بشعائر وأخلاقيات وعلاقات ثابتة دائمة . وقد علمته تقاليد وممارسات قرون طويلة مـن التسيّب والانفلات التمرد على أية محاولة للضبط والتنظيم . والعربي ، فضلاً عن هذا ، لا يعرف انتماء لغير قبيلته وخضوعاً لغير مشايخها وانقياداً لغير مواقفها الـــتي تحددها مصالحها القبلية وحرصها على السيادة والاستعلاء بين القبائل .

ولقد جاء الاسلام دعوة الى الانضباط والالتزام والنظام بوجه الفوضى والتسيب والانفلات ، التي الفها العربي ، كما أنه جاء لكي يصهر الوحدات القبلية في إطار مجتمع موحد متماسك ، تذوب فيه الاحساسات القبلية والرغبات الجزئية الموقوتة في السيادة والاستعلاء . ووجد العربي في هاتين الدعوتين خروجاً عـلى تقاليده وممارساته وأعرافه . ولم يكن من السهل عليه تجاوزها جميعاً الى آفاق الاسلام ونظامه الشامل لكل فاعليات الحياة اليومية والذي يحتم عليه الانضباط والالتزام في كل خطوة يخطوها وعمل يمارسه وتجربة يعانيها ، فضلاً عـن أنه يدعوه الى التخلي عن احساسه القبلي و كسر الإطار الذي اعتاد التحرك داخله الى المجتمع الشامل الموحد الذي تتلاشى فيه الحساسيات والأعراف القبلية ويخضع فيه الجميع لسلطة واحدة ودستور واحد يصدر عن مشرّع واحد هو الله سبحانه .

إن سبباً من أهم الأسباب التي جعلت الاسلام يعاني هذا العناء الصعب إزاء الجاهلية ويكافح هذا الكفاح الطويل لتطويعها وإلغائها ، يعود الى هـذا البعد

الاجتماعي الذي قاد الى حركة المقاومة الوثنية الصريحة لدعوة الاسلام ، كما قاد الى حركة النفاق داخل الصفوف المسلمة وسنراه يقود – فيما بعد – الى حركتي (الردة) و (الفتنة) في عصر الراشدين .

وهكذا كان هذا العائق الاجتماعي يقف أمام امتداد الاسلام في يثرب نفسها التي اتخذت نواة لدولته الناشئة ، حيث ظل عدد كبير من العرب الوثنيين يقاومون الدين الجديد ويعلنون عن رفضهم الانتماء اليه والخضوع لسلطته التي حددها ميثاق المدينة الذي أصدره الرسول ﷺ اثر دخوله يثرب . ولما لم يكن وجود المسلمين في المدينة قد تمركز بعد ، سيما وأنها ملأى بالجيوب اليهودية والوثنية ، ولما كان الصراع مع قريش لم تتحدد خطوطه بعد ، حيث بدا أنها سوف لن تدع المسلمين يقر لهم قرار ، وأنها ستظل تقاتلهم حتى تقضي على دعوتهم الجديدة . فان عرب المدينة الوثنيين وجدوا أنفسهم في مأمن في حالة اعلان رفضهم للاسلام وعدم قبول سلطته أسوة بقريش زعيمة الوثنية . وأغلب الظن انهم كانوا على اتصال بقريش لتنسيق العمل بين الطرفين ووضع الاسلام في شقي الرحى ، الأمر الذي دفع الرسول ﷺ الى أن يؤكد في ميثاقه على منع أي اتصال من قبل أحد من المدنيين بقريش أو التعاون معها في السلم والحرب . ويذكر محمد حميد الله في (مجموعة الوثائق) أن كفار قريش كتبوا الى عبدالله بن أبيّ بن أبي سلول ، ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج ، قبل وقعة بدر « انكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه أو لنسيرنّ اليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم » . ولكن لم يؤثر تهديد الكفار ولا ترغيب المنافقين في مسلمي الأنصار [1] .

وجاءت معركة بدر ايذاناً بانتصار الدولة الناشئة على القيادة الوثنية المتمثلة بقريش . يقول الواقدي « لما قدم الرسول ﷺ بالأسرى أذل الله بذلك رقاب المشركين والمنافقين واليهود ، ولم يبق بالمدينة يهودي ولا منافق إلا خضد عنقه

---

(١) محمد حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ٤٨ .

لوقعة بدر »[٢] . وكان مشركو يثرب قد منّوا أنفسهم بهزيمة المسلمين ، فقال رجل منهم لبعض المسلمين ، وهو يرى اسامة بن زيد قادماً من ساحة القتال : « قتل صاحبكم ومن معه » ، وقال آخر : « قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون بعده ، وقتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب »[٣].

ولكن الحقيقة سرعان ما فرضت نفسها على الجميع ووجد العرب الوثنيون في المدينة أنفسهم في وضع حرج ، فهم إما أن يبقوا على كفرهم فيعرضوا أنفسهم للعقاب وإما أن ينتموا للدين الجديد ، وهم لم يألفوا الانضباط والانقياد ، ولا وجدوا في أنفسهم انفتاحاً على تعاليم الاسلام وإلزاماته ومبادئه بدافع من تكوينه الاجتماعي القبلي . وسرعان ما وجد زعيمهم عبدالله بن أبيّ بن سلول – الذي كان قد رشح لتتويجه ملكاً على عرب المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ ، وبدأ الصناع بنسج تاجه –[٤] ان خير وسيلة للخروج من هذا المأزق هو أن يعلن هو وأتباعه إسلامهم ظاهراً ، ويبقوا على اعتقاداتهم وعلاقاتهم وممارساتهم الجاهلية باطناً ، وبهذا ينجون من شبح العقاب ، ويحتفظون في الوقت نفسه بمعطياتهم الجاهلية ، فضلاً عن أن تلبّسهم بالاسلام وتسربهم في صفوف الجماعة المسلمة سيتيح لهم فرصة أوسع لتخريب المجتمع الجديد من الداخل ، والتنفيس عن حقدهم وهزيمتهم . فاستجابوا لنداء زعيمهم وملكهم المنتظر الذي قال لهم في أعقاب سماع نبأ الانتصار الحاسم لجيش الاسلام في بدر « هذا أمر توجّه فلا مطمع في إزالته » فانضووا إلى الدين الجديد .

ومنذ ذلك الحين برزت إلى الوجود قوة جديدة في مواجهة الحركة الاسلامية ، سببت لها الكثير من المتاعب والمحن ، ووضعت في دربها الكثير من الحواجز والعقبات ، ومارست إزاءها من الداخل عمليات تخريبية لا حصر لها . وكان

---

(٢) مغازي رسول الله : ١٢١/١ .

(٣) البلاذري : انساب الاشراف ، ٢٩٤/١ .

(٤) انظر صحيح البخاري : ١٨٥/٧ – ١٨٦ (بشرح فتح الباري) ومسلم ١٨٢/٥ – ١٨٣ ، واحمد ٢٠٣/٥ .

على الرسول ﷺ أن يصارع هذه القوة فضلاً عن صراعه مع القوى الخارجية : الوثنية واليهودية والنصرانية . إلا أن مشكلة هذا الصراع تكمن في أن هذه القوة المعادية غير واضحة الأبعاد ، منسربة في صفوف الجماعة الاسلامية ، قديرة على الاستخفاء في أعقاب أي تخريب تمارسه .. ثم ، وهـــذا هو الأنكى ، لم يكن بإمكان الرسول ﷺ أن يعاقب على التهمة ويأخذ بالظنة وينفذ أسلوباً (روبسبييرياً) في حصد مئات الرؤوس التي يشك أنها تتآمر على سلامة الدولة وزعيمها، وحاشا للانبياء أن يفعلوا ذلك .

لذا نجده يرفض مراراً وتكراراً عروضاً من صحابته الكرام بقتل رؤوس المنافقين وقطع رقابهم بمجرد أن يوافق الرسول ﷺ لكنه لم يوافق حتى النهاية على قتل رجل يشهد في ظاهره بشهادة الاسلام . وهنالك حادثة ذات دلالة في هذا المجال : عندما دخـــل الرسول ﷺ مكة فاتحاً أمر قادته ألا يقاتلوا .. لكنه طلب منهم في الوقت نفسه أن يقتلوا عدداً من المكيين سماهم لهم، حتى ولو تعلقوا بأستار الكعبة ، وجيء بأحدهم، وكان قد أسلم ثم ارتد إلى الوثنية، وبعد فتح مكة توسّط لدى عثمان بن عفان رضي الله عنــه في طلب الأمان .. فصمت الرسول طويلاً ثم قال (نعم) ، فلما انصرف عنه عثمان قال لمن حوله من أصحابه : لقد صمت ليقوم اليه بعضكم فيضرب عنقه. فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إليّ يا رسول الله ؟ قال : ان النبي لا يقتل بالاشارة [٥] .

(ان النبي لا يقتل بالاشارة).. هذا إزاء رجل كان قد ارتد وجاء يطلب الأمان. فكيف برجال يشهدون خمس مرات في اليوم بشهادة الاسلام ؟ انه كان بامكانـه ﷺ أن يحصدهم في غداة واحدة ، إلا أن مقياساً دقيقاً لمعرفة إيمان كل منهم لم يكن بيديه ، وإنما توكل السرائر لله ، ويحاسب الناس بأعمـــالهم الظاهرة .. وهؤلاء منافقون وظاهرهم المكشوف ظاهر اسلامي ، على خلاف مع باطنهم ، فكيف يعاقبهم ؟ وكان الرسول ﷺ يدرك فضلاً عن هذا البعد الأخلاقي ، ان

---

(٥) ابن هشام : ص ٢٨٩ .

ممارسة القتل الجماعي أو الفردي تجاه أناس من اتباعه ، محسوبين على معسكره ، سوف يعطي لأعدائه في الخارج سلاحاً دعائياً ممتازاً لمهاجمة الاسلام ، وقد أدرك الرسول ﷺ ذلك ، وقال لأصحابه معترضاً على الحاحهم عليه بممارسة هـذا الأسلوب تجاه المنافقين « فكيف بالعرب إذا قالت ان محمداً يقتل أصحابه ؟ » ، وهذا حق ،فهم على المستوى السياسي والقانوني من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم وما دام أي منهم لم يمارس عملاً (جرمياً) محدداً فان من الصعوبة بمكان عزله أو قتله . .

وخلال العودة من تبوك ، حين أراد بضعة عشر منافقاً أن يمكروا بالرسول صلى الله عليه وسلم ويطرحوه من عقبة في الطريق ، وعرض عليه بعض اصحابه أن يقطعوا رؤوسهم ، أجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم : اني أكره أن يقول الناس أن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه. وعندما قال له أسيد بن حضير : يا رسول الله فهؤلاء ليسوا بأصحاب ، أجابه الرسول صلى الله عليه وسلم : أليسوا يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله ، أليسوا يظهرون اني رسول الله ؟ قال : بلى ، ولا شهادة لهم ، قال : فاني نهيت عن قتل أولئك[٦] .

وكان بديل هذا الأسلوب ، شيئاً نادراً في تاريخ الدعوات . تلبع الرسول صلى الله عليه وسلم خطط المنافقين وتخريبهم بيقظة كاملة ، ولم يحدد أسلوباً (ثابتاً) في مجابهة مواقفهم (المتلونة) (المتغيّرة) ، وانما راح يضع لكل حالة خطة تتناسب تماماً وحجم المحاولة التخريبية ، وتكبتها قبل أن تجيء بثمارها المرة ،وقبل أن تزرع شوكها في طريق الدعاة .. ومن وراء الرسول ﷺ آيات القرآن الكريم تتنزل من الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، محللة التكوين النفسي للمنافقين، مشخصة نماذج (منهم) نكاد نلمسها بايدينا وهي تتلى علينا، فاضحة خططهم اللئيمة قبل أن تقع ، منددة بأساليبهم المرذولة وهم

(٦) الواقدي ٣/١٠٤٢ — ١٠٤٤ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٣٦ .

يعملون في الظلام دساً وقيمة ، صابة عليهم غضبها المخيف في أعقاب أية محاولة يستهدفون من ورائها فتنة ،او خديعة أو مكراً[7] .

وهكذا نجد ظاهرة النفاق ، رغم كونها ظاهرة مرضية في حدودها النفسية والاجتماعية ، إلا انها في اطار الدعوة الاسلامية تبدو ظاهرة صحة وعافية أشبه بالأمصال المخففة التي تحقن في دم الانسان لمقاومة مرض من الأمراض وتمكينه من مجابهته وقد عرفَ طعمه ولونه وقدرته على الفتك واستعد لذلك كله . لقد أدى وجود المنافقين في صفوف المسلمين إلى أن يكونوا حذرين دوماً ، يقظين ابداً ، لا يغفلون ولا ينامون ولا يلدغون من جحر مرتين . وبسبب هذا الحذر واليقظة والسهر المستمر ، تمكن المعسكر الاسلامي ليس فقط من الانتصار على اعدائه في الخارج بل – وهذا هو الأهم – تعزيز وحــدته الداخلية ورصّ صفوفه ، وتذويب الأجسام الغريبة أو شلها وتكييسها أو طردها كي لا تدمر المجتمع الجديد وتنخره من الداخل.. انها حكمة الله في أن يوجد في كيان المسلمين ما يتحداهم من الداخل دوما ويدفعهم إلى الاستجابة والابداع .. وحكمة رسول الله ﷺ التي تتسع وتتسع حتى تشمل كل حالة وتجابه كل وضع بعيداً عن الجمود على وضع واحد يصل إلى هدفه من أقصر طريق ، لكنه ارخص طريق وأكثرهـــا

---

(7) عن المواقف القرآنية ازاء المنافقين ، انظر البحث القيم لمحمد عزة دروزة (سيرة الرسول) الجزء الثاني فصل (المنافقون في العصر المدني) ص ٧٣ — ١٢٠ ، وانظر في (صفات المنافقين وإقوالهم) سورة البقرة ٨ — ١٦ ، ٢٠٤ — ٢٠٦ ، النساء ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٢ — ١٤٣ ، ١٤٥ — ١٤٦ ، التوبة ٥٦ — ٥٧ ، ٦٢ — ٦١ ، ٦٧ — ٦٨ ، ٧٣ — ٧٧ — ٨٤ — ٨٥ ، ٩٧ — ٩٨ ، ١٠١ ، محمد ٢٩ — ٣٠ ، الحديد ١٣ — ١٤ ، المنافقين ١ — ٨ وانظر في (مواقفهم الكيدية والمساخرة) النساء ٦٠ — ٦١ ، ١٣٨ — ١٣٩ ، ١٤٠ — ١٤١ ، التوبة ٥٨ ، ٦١ ، ٦٤ — ٦٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٠٧ — ١١٠ ، ١٢٤ — ١٢٧ ، المجادلة ، ٨ — ١٠ ، البقرة ١١ — ١٤ ، الانفال ٤٩ ، النور ٦٢ — ٦٣ ، الاحزاب ٥٧ — ٦١ ، ٦٩—٧١ ، محمد ١٦ ، ٢٥ — ٢٦ المائدة ٥٠ — ٥٣ ، المجادلة ١٤ — ١٦ ، وانظر في (مواقفهم من الجهاد ووقائعه) : آل عمران ١٥٦ ، ١٦٦ — ١٦٨ ، النساء ٧١ — ٧٣ ، ٧٧ ، ٨١ ، التوبة ، ٤٢ — ٤٩ ، ٥٠ — ٥٣ ، ٨١ — ٨٣ ، ٨٦ — ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٣ — ٩٦ ، محمد ٢٠ — ٢٣ ، الاحزاب ٩ — ٢٠ ، الحشر ١١ — ١٢ .

استحقاراً للـدم الانساني ، طريق الاعدام بالجملة ، وحصد رؤوس مئات من الاتباع والمتمين لمجرد تهمة تدور حولهم، بمقصلة تنزل وتصعد ، أو سيف يضرب يميناً وشمالاً ، أو اشارة صامتة تعقبها انهار من الدماء .. ان (النبي) غـير (الزعيم) و(المعلم)غير (الارهابي) و (الانقلابي) غير (الطاغية) و(محمد) غير (روبسبيير) .

٢

كان المنافقون يتمثلون في طائفة من عرب المدينة من الأوس والخزرج ومن بعض المتهودة ومن رجال بعض البطون اليهوديـة الصغيرة ، وقد التفوا حول زعيمهم عبد الله بن أبي كما التف حوله اليهود لاتفاق مصلحة الطرفين . وقد ظل خطر المنافقين على الدولة كبيراً ما ظل اليهود في المدينة ، إذ أنهم كانوا على صلة دائمة بهم ، بل ان اليهود هم الذين اذكوا النفاق في المدينة فلما تم تطهيرها من اليهود ضعف أمر النفاق وأصبح النبي لا يخشى خطر هذه الطائفة[٨]. حيث أخذ صوتها يخفت ، ونشاطها يخمد ، وعددها يقل، وتزلفها يشتد ومداراتها تزداد، وخوفها يبدو واضحاً . وربما ندم كثيرٌ من المنافقين فعادوا إلى حظيرة الاسلام الصحيح فكانت هذه الظواهر مما ثبت الرسول على خطته في عدم أخذهم بالعنف ، ورأى فيها الصواب والمصلحة سيما وانهم كانوا يرتبطون مع كثير من المخلصين بروابط القربى والرحم،وان اخذهم بالعنف — فضلاً عن الأسباب التي ذكرناها — قد يفتح في صفوف المسلمين ثغرات واسعة ويثير ازمات داخلية حادة ، وهو الذي كان مطمئن القلب بوعد الله بالنصر النهائي واظهار دينـه على الدين كله[٩] .

---

(٨) ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، ص ٤١٥ — ٤١٨ .

(٩) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ٧٨/٢ — ٧٩ .

ولعل من الدلائل على ارتباط حركة النفاق بالنشاط اليهودي ضد الاسلام ما ورد في الآيات الأولى من سورة البقرة ، التي هي أول السور المدنية في ترتيب النزول ، فقد جاء فيها بصدد المنافقين : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون)[١٠] ، فقد قال جمهور المفسرين ان شياطينهم هم اليهود ، ولم يغب ذلك عن النبي والمسلمين[١١] .

ان الآيات الواردة في حق المنافقين تلهم ان حركة النفاق انما قام بها وتولى كبرها أفراد من البارزين في قومهم وعشائرهم قليلاً أو كثيراً، بل اننا نكاد نقول ان أعظم أفراد هذه الفئة كانوا من تلك الطبقة، وانه إذا كان اندمج فيها أناس من العامة فانهم لم يكونوا كثيرين وإنما انساقوا فيها بتأثير أولئك من ناحية زعامتهم وعصبية الأرحام التي تربط بينهم ، ومن ناحية الاغراء والمنفعة. وهذا طبيعي لأنه ليس لأفراد من العامة مناوأة حركة اندمج فيها غالب قومهم .. كما انه قلما يكون في هؤلاء من يظن انه اعقل من أن يندمج في حركة اندمجت فيها الكثرة الكبرى ، وان الذين اندفعوا في مناوأتها واغتاظوا منها وحقدوا عليها لا يمكن أن يكونوا إلا أفراداً من البارزين الذين يمكن أن يتوهموا فيها ضرراً وخطراً على مركزهم ومصلحتهم ، وان يأنفوا هذه الحركة . فالذين أخذوا على عاتقهم مهمة تغذية هذه الحركة لا يمكن أن يتصلوا بشأنها إلا مع أمثال هؤلاء كما لا يخفى[١٢]

اتخذت أساليب المنافقين أشكالاً شتى، بعضها مخطط مدروس وبعضها عفوي مرتجل ، وهي في كلتا الحالتين جاءت تعبيراً عن التكوين النفسي والاجتماعي لشخصية (المنافق) واستهدفت وضع الحواجز والعوائق في طريق الحركة الاسلامية . وسنتتبع هنا أساليبهم هذه وفق مجراها الزمني، منذ ظهور

---

(١٠) البقرة : ١٤ .
(١١) دروزة : المرجع السابق ١٢١/٢ .
(١٢) المرجع السابق : ٨٠/٢ .

هذه الكتلة في أعقاب بدر حتى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

عندما حاصر الرسول صلى الله عليه وسلم بني قينقاع ، أول قبيلة يهودية كبيرة تنقض عهدها مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونزلوا عند حكمه ، بعد أن رأوا ألا فائدة من المقاومة،وجد عبد الله بن أبيّ أن انتصاراً آخر- بعد بدر- سيحرزه المسلمون في داخل المدينة هذه المرة ، وان هذا ربما سيستفز أعداء الاسلام : عرباً ويهوداً ، ويؤلبهم على المسلمين وان هؤلاء ربما وجدوا أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه.. فليتحرك زعيم المنافقين بسرعة اذن وليقف إلى جانب بني قينقاع مدافعاً عنهم ازاء هجوم المسلمين ، علّ الدائرة تدور على هؤلاء فيكون ابن أبيّ قد أوجد لنفسه ولأتباعه ثغرة ينفذون منها بجلودهم ، سيما وأن يهود بني قينقاع كانوا مواليه في الجاهلية فلا يعقل أن يسلمهم لمصيرهم دون أن (يظهر) على الأقل اسناده في محنتهم .

تقدم إلى الرسول ﷺ متوسلا : يا محمد أحسن في مواليّ . فلم يجبه الرسول فاعاد : يا محمد احسن في مواليّ . فأعرض عنه ، فادخل يده في جيب درع الرسول وراح يكرر توسلاته : فرد عليه الرسول ، وقد كست وجهه ملامح الغضب: ويحك ارسلني فأجاب ابن أبيّ : لا والله لا ارسلك حتى تحسن في مواليّ اربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ؟ اني والله امرؤ اخشى الدوائر . ويبدو أن الرسول ﷺ ما كان ليريد انزال عقاب بهم ، بل أن يغادروا حصونهم إلى حيث يشاؤون ،ما داموا قد نزلوا عند حكم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذا أجاب عبد الله : هم لك ! ثم التفت إلى أصحابه قائلا : خلّوهم ، لعنهم الله ولعنه معهم !!

ونزلت آيات القرآن منددة بهذا الموقف المنافق ، المتأرجح بين ولاية الاسلام وولاية اعدائه (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم اولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى

الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما اسروا في أنفسهم نادمين[١٣]).

وفي حصار بني النضير، القبيلة اليهودية الثانية التي طردت من المدينة في أعقاب تآمرها على حياة الرسول ﷺ في السنة الرابعة للهجرة، اعاد ابن أبي و كبار المنافقين (تمثيل نفس الدور) الذي مثلوه مع بني قنيقاع، إذ بعثوا إلى بني النضير، وهم يعانون من حصار المسلمين وقبضتهم المحكمة ان « اثبتوا وتمنعوا، فانا لن نسلمكم. ان قاتلتم قاتلنا معكم، وان اخرجتم خرجنا معكم ». إلا أن المنافقين الذين كانوا (يقولون ما لا يفعلون) مع المعسكر الاسلامي، كانوا يقولون ما لا يفعلون مع كل معسكر يظهرون له الودّ والاخلاص، ذلك ان أياً منهم لم يكن شخصية واحدة تتخذ موقفاً موحداً ازاء القضية، وانما شخصيتين. ولقد ظل بنو النضير ينتظرون نجدة رفاقهم دونما جدوى حتى سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم الجلاء عن ديارهم، بعد ان سدّت كل المنافذ.. وبعد قليل جاءت آيات القرآن، فاضحة منددة كاشفة (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن اخرجتم لنخرجن معكم..)[١٤].

وعندما سمع الرسول ﷺ نبأ تحرك قريش بقواتها التي تفوق المسلمين بكثير ونزولها في أحد لقتال المسلمين انتقاماً لما لحق الكفار في بدر، ومحاولة للقضاء على الدولة الجديدة، وطرح رأيه بقتال قريش في المدينة نفسها، قتال الشوارع والحارات، وافقه عبدالله بن أبيّ على رأيه هذا وألح على ضرورة تنفيذه قائلاً « يا رسول الله أقم بالمدينة، لا تخرج اليهم، فوالله ما خرجنا إلى عدوّ لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فان أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا »[١٥]، ربما

---

(١٣) ابن هشام ص ١٧١ — ١٧٢ . الطبري، تاريخ ٤٨٠/٢ — ٤٨١، البلاذري : انساب، ٣٠٩/١، الواقدي : ١٧٧/١ — ١٧٨ .

(١٤) ابن هشام ص ٢٠٤، ٢٠٦، الواقدي ٣٦٨/١ — ٣٧٢ .

(١٥) ابن هشام، ص ١٧٤ — ١٧٥ .

حرصا من زعيم المنافقين على الظهور بمظهر المتحمسين لتنفيذ رأي رسولهم ، سيما بعد أن رأى أكثرية المسلمين تطالب بموقف آخر هو الخروج والقتال في الأرض المكشوفة . وهـو من خلال حرصه وإصراره سيزيد - حسب اعتقاده - شقة الخلاف بين الطرفين ، وليكن بعدها ما يكون .. وربما رأى - وهو الأرجح - ان قتال المسلمين لأعدائهم داخـل المدينة سيمكن المنافقين من الاختباء وسيتيح لهم التسلل من سوح القتال وطلب النجاة بأنفسهم دون أن تلحظهم عين ، وهم في مخابئهم تلك سيعرفون لمن سترجح الكفة ، فيتسللون ثانية إلى معسكرات المنتصرين ، فان كانوا مـن المسلمين قالوا : ألم نكن معكم ، أولم تكن فكرتنا في القتال داخل المدينة أصوب وأحسن ؟ وإن كانوا من المشركين بينوا لهم أنهم هم الذين ألجؤوا المسلمين إلى انتظار أعدائهم لكي يقضى عليهم في المدينة ، وأنهـم انسحبوا من القتال وفتّوا في عضد أتباع محمد ﷺ .ومن ثم ستكون لهم الحظوة على أي حال سيؤول اليها القتال .

إلا أن الرسول ﷺ لم يشأ إلا أن يأخذ برأي أكثرية أتباعـه الراغبين في الخروج إلى القتال، ولم يتح للنقاش أن يتطور إلى انشقاق عميق بين وجهي النظر فدخل بيته ولبس عدة القتال وانطلق بأصحابه صوب أحد.ولم يمض على مسيرهم بعض الوقت حتى انسحب ابن أبيّ بثلث المقاتلين وقال مبرراً موقفه « أطاعهم وعصاني ، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ! » . وقـد لحق به عبدالله بن عمرو بـن حرام وسعى إلى إقناعه بالرجوع والانضمام إلى إخوانه ، وراح يقول للمنسحبين « يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم .. » فأجابوه « لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمنا كم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال» فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف والعودة قال : « أبعدكم الله أعـداء الله ، فسيغني الله عنكم نبيه » [١٦] .

وهذا الأسلوب الذي اتبعه المنافقون في المسير مـع المسلمين ثم الانسحاب في

---

(١٦) المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

اللحظات الحرجة يتكرر مرة أخرى في غزوة تبوك التي لا تقل خطورة عن معركة أحد ، إذ انطلق ابن أبيّ في أعقاب الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس جماعته ، وما ان اجتاز المسلمون مسافة قصيرة صوب هدفهم حتى تخلف المنافقون وقفلوا عائدين إلى المدينة[١٦] . وإذا كان لهم عذر في ذلك أول مرة أعلنوه تبريراً لانسحابهم ،فانهم قد افتقدوا الأعذار هذه المرة ولم يقولوا شيئاً !! إلا ان الموقف في كلا الحالتين هو نفس الموقف : عدم إيمان بالهدف الذي يتحرك اليه المسلمون ، وخوف من الموت في سبيل قضية لا يؤمنون بها ، وتخذيل للمسلمين في اللحظات الحرجة علّهم يجابهو نهزّة خطيرة تقضي عليهم وتعيد المنافقين إلى حياة التسيّب القديمة ، ويرجع لأبن أبي حلمه القديم في أن يكون ملكاً على قومه !!

ولقد ورد في سيرة ابن هشام ، بصدد موقف المنافقين في محنة تبوك « ان عبد الله بن أبيّ كبير المنافقين ضرب عسكره بأسفل عسكر النبي ﷺ وكان فيما يزعمون ، ليس بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله تخلف عنه فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب » . فتمسك بهذه العبارة المستشرق كايتاني وأخذ يعظم من شأن وعدد المنافقين ويشكك في عدد الجيش المرويّ . غير ان هذا وذاك في غير محلها ، فالآيات القرآنية صريحة بأن المتخلفين من الاعراب والمنافقين كانوا من الأغنياء وأولي الطول. وهؤلاء دائماً محدودو العدد . وعبارة ابن هشام تحمل الشك الصريح في المدى.وقد روى في الوقت نفسه ان عدد المتخلفين من المنافقين كان بضعة وثمانين رجلاً . وفي سورة التوبة آيات تحكي ما كان من شدة خوف المنافقين واعتذارهم وتزلفهم وايمانهم ، بما فيه الدلالة القوية على ما صار اليه شأنهم من ضعف ، وعددهم من قلة « ويحلفون بالله انهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون »[١٨] .

---

(١٧) المصدر السابق ، ص ٣٢٧ — ٣٢٨ ، الطبري : تاريخ ١٠٣/٣ .

(١٨) التوبة : ٥٦ — ٥٧ . وانظر الآيات : ٦٢ — ٦٦ ، ٧٤ ، من نفس السورة ، دروزة ٢٦٤/٢ — ٢٦٥ .

وقد وجد المنافقون في هزيمة المسلمين بأحد ميداناً فسيحاً لاظهار أحقادهم وشكوكهم والكشف عن موقفهم الصريح من الأحداث . يقول الواقدي :

« جعل ابن أبيّ والمنافقون معه يشمتون ويسرون بما أصاب المسلمين — في أحد — ويظهرون أقبح القول . ورجع من رجع من أصحابه وعامتهم جريح ورجع عبد الله بن عبد الله بن أبيّ وهو جريح ، فبات يكوي الجراحة بالنار حتى ذهب الليل ، وجعل أبوه يقول : ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي !! عصاني محمد وأطاع الولدان ، والله لكأني كنت أنظر إلى هذا . فقال ابنه : الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير ... وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله ﷺ ويأمرونهم بالتفرق عنه ، ويقولون لأصحابه : لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل . حتى سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك في أماكن ، فمشى إلى رسول الله ﷺ ليستأذنه في قتل من سمع ذلك منه من المنافقين ، فقال له رسول الله ﷺ : ان الله مظهر دينه ومعزّ نبيه . أليسوا يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله واني رسول الله ؟ قال : بلى يا رسول الله ، وإنما يفعلون ذلك تعوذاً من السيف ، فقد بان لك أمرهم وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نهيت عن قتل من قال لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله يا ابن الخطاب ! ان قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن »[19]

ويحدثنا ابن هشام كيف ان عبد الله بن أبي كان يتمتع بشرف في نفسه وفي قومه وكيف انه كان يجلس على رأس قومه ، كل جمعة في المسجد ، وكيف كان ينتهز فرصة جلوس الرسول صلى الله عليه وسلم بين الخطبتين فيقوم ويقول : « أيها الناس هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اظهركم اكرمكم الله واعزكم به ، فانصروه وعزّروه واسمعوا له واطيعوا » ثم يجلس . وكيف انه عندما أراد تمثيل نفس الدور في الجمعة التي اعقبت هزيمة أُحد أخذ المسلمون بثيابه من كل مكان وصاحوا: اجلس !! أي عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعت ماصنعت !

---

(١٩) الواقدي : ٣١٧/١ — ٣١٨ .

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بجرا[٢٠] ان قمت اشدد أمره !! فلقيه رجل من الأنصار يردد هذه العبـــارة فقال له : ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم» فأجابه عبد الله : والله ما ابتغي أن يستغفر لي »[٢١] . وقال ابن اسحق « وكان يوم أحـد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص اختبر الله به المؤمنين ومحص بـه المنافقين ، ممن كان يظهر الايمان بلسانه ، وهو مستخف بالكفر في قلبه »[٢٢] .

ومن أجل التعويض عن خوائهم الروحي وتغطية دورهم السلبي في حركة الدعوة ، وملء الفراغ الذي يمانونه ، كانوا يظهرون بين الحين والحـــين بمظهر الناصحين ، الحريصين على مصير الدعوة وحياة أصحابها .. قال رجال منهم ، تعقيباً على مأساة الرجيع التي ذهب ضحيتها سبعة من الدعاة « يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهلهم ولا هم ادّوا رسالة صاحبهم» لكن القرآن الكريم ما لبث أن فضح ازدواجيتهم هذه ، ومزّق عن وجوههم أقنعة الحرص والاهتمام (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو الدّ الخصام. واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . واذا قيـــل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد)[٢٣] .

في معركة الخندق حيث المحنة التي كشفت عن صفوف المنتمين إلى معسكر الاسلام وسلطت وهجها اللافح على اعماق سرائرهم ، وقف المنافقون في آخر الصفوف يثيرون شائعات الخوف والهزيمة ويطلقون سخرياتهم بوجه الجد الصارم الذي كان يدفع المؤمنين إلى العمل والسهر المتواصل ليل نهار ، قبل أن يفلت الزمـام من أيديهم ويصبحوا خبراً من الأخبار .

---

(٢٠) البجـر : الشر .
(٢١) ابن هشام : ص ١٩٣ — ١٩٤ الواقدي : ٣١٨/١ — ٣١٩ .
(٢٢) ابن هشام : ص ١٩٤ .
(٢٣) المصدر السابق : ص١٩٨ .

وكان الرسول ﷺ يجابه حملاتهم النفسية الخفية هذه بروح الأمل ينفخها في قلوب اتباعه، ويحدثهم بيقين ثابت طموح، وهم يعملون في الخنادق محاطين بالظلام من كل مكان، بأن مفاتيح الكعبة ستسلم اليه عما قريب وان خيولهم ستطأ في السنين القادمة عواصم كسرى وقيصر، وتسقط عروشهم واحداً بعد الآخر. وكما كان المنافقون ينسحبون من المعركة قبل أن تلتحم السيوف، كما حدث في موقعي أُحد وتبوك، فانهم الآن يظهرون للمؤمنين أنهم يعملون معهم في حفر الخندق، و (يمثلون دورهم هذا) وكلما وجدوا فرصة سانحة تسللوا من الخندق دون إذن من قائدهم، ولاذوا بأهليهم، بينما كان المؤمنون لا يغادر أحدهم موقع عمله إلا ان يستأذن الرسول ﷺ. ولقد تحدث القرآن الكريم بعد قليل عن هؤلاء وعن هؤلاء .. وشتان !! (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم، وأستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم .. قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ..) [٢٤].

وعندما أحاطت الأحزاب بالمدينة، وانتقض يهود بني قريظة، وعظم البلاء على المسلمين واشتد الخوف، تصاعدت حملات المنافقين، وأسفر بعضهم عن شخصيته المخفية، وقد ظنوا أن الاسلام قد فقد قدرته كلية على الرد، وقال قائلهم : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدهم اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط !! وراح آخرون يقولون للرسول ﷺ : يارسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا فانها خارج المدينة .. ولكن المحنة انجلت، وتفتتت جيوش الأحزاب، وأعدم مجرمو الحرب من يهود بني قريظة، وعاد الاسلام أقوى مما كان، ونزلت آيات القرآن تصفع المنافقين الذين لم يكونوا بقادرين على أن يتجاوزوا رؤية الحدث الى ما يمكن أن

---

(٢٤) ابن هشام : ص ٢١٣ ، الطبري : تاريخ ٥٦٧/٢ .

يتمخض عنه (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم يا أهـــل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهـم النبي يقولون : ان بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، ان يريدون الا فراراً . ولو دخلت عليهـم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها الا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من المـــوت أو القتل ، واذا لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءاً أو أراد بكمْ رحمة ؟ ولا يجدون من دون الله ولياً ولا نصيراً . قد يعــلم الله المعوّقين منكم والقائلين لاخوانهم هلمّ الينا ، ولا يأتون البأس الا قليلا . أشحة عليكم ، فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حـداد ، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وان يأت الأحزاب يودوا لو أنهـم بادون في الاعر ب يسألون عن أنبائكم !! ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا) [٢٥] .

٣

لما فشلت محاولات المنافقين (التخذيلية) وخابت آمالهم في هزيمـة المسلمين عبر صراعهم الطويل مع الوثنية واليهـود ، وحقق الرسول صلى الله عليه وسلم انتصارات متتالية حاسمة على كلتا الجبهتين ، رأى المنافقون ان يبحثـــوا عن (أسباب) أخرى لاضعاف جبهة المسلمين وتفكيكها ونشر الفوضى فيها ، لكي ينفذوا من خلال ذلك إلى أهدافهم ومطامحهم ، فلجؤوا إلى أسلوب التخريب الداخلي ونشر الشائعات الهدامـــة . معتمدين على تسربهم في صفوف المؤمنين واحتكاكهم المباشر بهم وقدرتهم على التخفّي والانزواء . وفي أعقاب غزوة بني

(٢٥) ابن هشام ص ٢١٦ ، ٢٣٠ ـــ ٢٣١ ، الطبري : تاريخ ٥٧٠/٢ .
الواقدي : ٤٥٩/٢ ـــ ٤٦٠ .

المصطلق[26] أطلق المنافقون على يد زعيمهم ابن أبيّ وعدد من رؤوسهم سهمين فتاكين إلى قلب المجتمع الاسلامي كادا ان ينزفا الكثير من دمه، احدهما باتجاه الحسّ القبلي الذي لم يكن قد استؤصل بعد، والآخر باتجاه القيم الخلقية التي تميز المجتمع المسلم عن سائر المجتمعات، فيما عرف بـ (حديث الافك) . فلقد حدث - حينذاك - ان ازدحم على بئر هناك غلام من بني غفار لعمر بن الخطاب رضي الله عنه مع غلام جهني من يثرب، فاقتتلا، فصرخ الجهني : يا معشر الانصار، وصرخ الغفاري : يا معشر المهاجرين !! إلا ان أحدهما ما لبث ان عفا عن الآخر واصطلح الطرفان في أعقاب وساطة عدد من المهاجرين والانصار .[27] ورأى عبد الله بن أبي ان ينتهز الفرصة فاظهر غضبه وقال بعصبية أوقد فعلوها ؟! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول (سمّن كلبك يأكلك) !! والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل» ثم أقبل على من حضره من قومه - وفيهم زيد بن أرقم، وكان غلاماً حدثاً - فقال لهم « هذا ما فعلتم بأنفسكم، احللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم »[28].

توجه زيد بن أرقم فوراً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر فقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان يقف إلى جواره : مر عبّاد بن بشر فليقتله. فاجابه الرسول صلى الله عليه وسلم : إذن لأرعدت له أنف بيثرب كثيرة .. وكيف يا عمر اذا تحدث الناس ان محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ولكن اذّن بالرحيل . وذلك في ساعة لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها . فتحرك المسلمون، وعندما سمع ابن أبي ان أمره قد انكشف مشى إلى الرسول

---

(26) اختلفت الروايات في تحديد زمن هذه المعركة هل وقعت قبل الاحزاب ام بعدها ؟ ويمكن الاخذ برواية الواقدي (1/404) الذي يجعلها في مطلع شعبان عام 5 هـ نظرا لدقته في تثبيت التواريخ .

(27) ابن سعد 2/1/46 .

(28) ابن هشام ص 237 - 238، الطبري : 2/605، ابن سعد 2/1/46، الواقدي 2/415 .

صلى الله عليه وسلم متوسلاً وحلف بالله : ما قلت ما قاله زيد ولا تكلمت به !! فقال عدد من الانصار عطفاً على ابن أبيّ لمكانته في قومه : عسى ان يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ مــا قال الرجل! وعندما سمع اسيد بن حضير ، أحد كبار الانصار ، الخبر ، من الرسول صلى الله عليه وسلم وان ابن أبيّ زعم انه ان رجع إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الأذل قال أسيد : فأنت يا رسول الله الاعز والله تخرجه منها ان شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز . ومــا لبث أسيد ان تذكر الظروف التي أحاطت بزعيم المنافقين ودفعتــه إلى اتخاذ موقفه الحانق هــذا على الاسلام ورسوله فقال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فانه ليرى انك قد استلبته ملكاً !![29] .

انطلق الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين يومهم ذاك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم التالي . حتى آذنتهم الشمس بالمغيب ، فعسكر بهم ، وما أن وجدوا مسّ الأرض حتى وقعوا نياماً . ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حكيماً في معالجته (الموقف) بهذا الأسلوب العملي . انه موقف (نفسيّ) يتوغل بعيداً في مسارب النفوس والأعصاب ، ومجابهته بالكلام والأقوال قــد لا تجدي ، وربمــا تزيده تعقيداً ، فليكن الأمر اذن (عملاً) مجهداً يوازي في حجمه حجم الموقف نفسه ، ويمتصّ كل ما يمكن أن يغرزه في نفوس المسلمين من سموم . وسيتكفل التعب والنسيان بعــد ذاك بالاتيان على بقاياه !! ومن أجل ذلك يقول ابن هشام « وانمــا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من عبد الله بن أبيّ »[30] ويذكر الواقدي بأن الناس راحوا يتحدثون بمقالة ابن أبي وما كان منه ، فما هو إلا أن أخذهم السّهر والتعب بالمسير « فمــا نزلوا حتى ما يسمع لقول ابن أبي في أفواههم

---

(29) ابن هشام ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ، الطبري ٢/٦٠٥ — ٦٠٦ ، الواقدي ٢/٤١٧ — ٤١٩ .
(30) ابن هشام ص ٢٣٩ ، الطبري ٢/٦٠٦ — ٦٠٧ ، الواقدي : ٢/٤٢٢ .

ذكر »[31] .

وعندما بلغ ابن عبد الله بن أبيّ ما كان من ابيه، قال للرسول صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله انه بلغني انك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه ، فان كنت لا بد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل اليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني ، واني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار . فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا !![32] .

جعل ابن أبي - بعد موقف الرسول المتسامح ذاك - إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنّفونه ، وحينذاك قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله ، لارعدت له انف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ! أجاب عمر : قد والله علمت ، لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري ![33] .

أما السهم الآخر الذي وجهته حركة النفاق إلى قلب الجماعة الاسلامية ، متمثلا بزوجة نبيهم صلى الله عليه وسلم وابنة صدّيقهم ابي بكر رضي الله عنه فلنستمع إلى عائشة نفسها وهي تحدثنا: كيف انطلق. وأين استقر . ومن الذي أطلقه . وكيف تم انتزاعه بعد ما نزف من دماء !!

قالت عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين ازواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فاقرع بيننا في غزاة غزاها فخرج سهمي فخرجت معه بعد ما انزل الحجاب ، فانا أحمل في هودج وانزل

---

(31) مغازي رسول الله : 422/2 .

(32) ابن هشام ص 239 - 240 ، الطبري : تاريخ 608/2 ، الواقدي : 420/2 - 421 .

(33) ابن هشام ص 240 ، الطبري : 608/2 - 609 .

فيه . فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني اقبلت إلى الرحل فلمست صدري فاذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه. فاقبل الذين يرحلّون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي اركب وهم يحسبون اني فيه ، وكان النساء اذ ذاك خفافاً لم يثقلهن ولم يغشهنّ اللحم ، وانما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج.. وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا . فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منزلهم وليس فيه أحد ، فأممت منزلي الذي كنت فيه وظننت انهم سيفقدونني فيرجعون إلي ، فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي ، فنمت . وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء الجيش فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد انسان نائم فأتاني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين اناخ راحلته فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى اتينا الجيش بعدما نزلوا معرّسين في نحر الظهيرة فهلك من هلك !!

« وكان الذي تولى الافك عبد الله بن أبي بن سلول ، فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الأفك ، ويريبني في وجعي اني لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض انما يدخل فيسلم فيقول كيف تيكم ؟ أشعر بشيء من ذلك ، حتى نقهت ، فخرجت أنا وأم مسطح (في حاجة لنا) فعثرت في مرطها فقالت تعس مسطح !! فقلت لها : بئسما قلت أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت : ألم تسمعي ما قالوا ؟ فاخبرتني بقول أهل الافك فازددت مرضاً على مرضي .

« فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلّم فقال : كيف تيكم ؟ فقلت : ائذن لي إلى أبوي ، وأنا حينئذ أريد أن استيقين الخبر من قبلهما ، فاذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت أبوي فقلت لامي ما يتحدث الناس به ، فقالت : يا بنيّة هوّني على نفسك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة قط

.وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها ، فقلت : سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؟

« فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم، ثم أصبحت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب واسامة بن زيد حين استلبث الوحي ، يستشيرهما في فراق أهله فأما اسامة فاشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم ، فقال : اهلك يا رسول الله ولا نعلم إلا خيراً . وأما علي فقال: يا رسول لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك؟ فقالت: لا والذي بعثك بالحق ان رأيت منها أمراً أنكره عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبدالله بن أبي بن سلول فقال من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي ، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي ..

« وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندي أبواي وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالق كبدي . فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي ، فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل لي ما قيل قبلها . وقد مكث شهراً لا يوحى اليه في شأني بشيء. فتشهّد ثم قال : يا عائشة لقد بلغني عنك كذا وكذا فأن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممتِ بذَنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب الله عليه . فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة ، وقلت لأبي :أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمي : أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال . قالت : والله ما أدري ما أقول لرسول

الله ﷺ . و كنت جارية حديثة السن لا اقرأ كثيراً من القرآن . فقلت : والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدقتم به ، ولئن قلت لكم اني بريئة – والله يعلم أني لبريئة – لا تصدقوني بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر – والله يعلم اني لبريئة – لتصدقنني ، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال : (فصبر جميلٌ والله المستعان على ما تصفون) .

« ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني ، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحياً يتلى ، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري . ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها ، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت ، حتى أنزل عليه الوحي ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات ، فلما سري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة احمدي الله فقد برّأك الله . فقالت لي امي : قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : لا والله لا أقوم اليه ، ولا أحمد إلا الله . فأنزل الله عز وجلّ (إن الذين جاؤوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ،لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال : يا زينب ما علمت مما رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت عليها إلا خيراً ، وهي التي كانت تساميني ، فعصمها الله بالورع » (٣٤) .

---

(٣٤) البخاري : التجريد ٢/٢ – ٦ ، ابن هشام ص ٢٤٢ – ٢٤٩ ، الطبري : تاريخ ٢/ ٦١١ – ٦١٨ ، ابن الاثير : الكامل ١٩٥/٢ – ١٩٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٦٠/٤ – ١٦٤ ، الواقدي : ٤٢٦/٢ – ٤٣٤ .

٤

ظل المنافقون يعملون ضد الاسلام ، من داخل صفوفه ، منتهزين أية فرصة لتحقيق أهدافهم وللتعبير عن قلقهم وازدواجيتهم ، وليس أدل في هذا المجال من حادثة (مسجد الضرار) التي أعقبت عودة المسلمين من تبوك . ويتبدى مغزى الحادثة من الاسم الذي أطلقه القرآن الكريم عليها وعلى أصحابها (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وارصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن ان أردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم احق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين)[٣٥] .

ويروي الطبري أن الذين بنوه اثنا عشر رجلاً على رأسهم خذام بن خالد ، أحد بني عمرو بن عوف ، الذي تبرع باخراج المسجد من داره . ثم جاؤوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز لغزوة تبوك ، فقالوا : « يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب ان تأتينا فتصلي لنا فيه » . فأجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم : « اني على جناح سفر . ولو قدمنا ان شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه » . لكنه ما أن قفل عائداً من غزوته تلك ، وأصبح على مقربة ساعة من المدينة حتى جاءه الوحي الأمين بحقيقة ما كان يرمي اليه أولئك الرجال المنافقون في بناء مسجدهم ذاك ، ودعوتهم الرسول صلى الله عليه وسلم لمباركته !! فما لبث صلى الله عليه وسلم أن استدعى اثنين من أصحابه وقال لهما : « انطلقا إلى المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه » . فخرجا مسرعين حتى دخلا المسجد وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه حتى تفرق عنه أصحابه[٣٦] .

---

(٣٥) . سورة التوبة ١٠٧ — ١١٠ .

(٣٦) الطبري : تاريخ ١١٠/٣ — ١١١ ، الواقدي ١٠٤٥/٣ — ١٠٤٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢١/٥ — ٢٢ .

وقد سئل عاصم بن عدي : لِمَ أرادوا بنـاءه ؟ فقال : كانوا يجتمعون في مسجدنا ، فانمـا هم يتناجون فيما بينهم ، ويلتفت بعضهم إلى بعض فيلحظهم المسلمون بأبصارهم ، فشق ذلك عليهم ، وأرادوا مسجداً يكونون فيـه ، لا يغشاهم فيـه إلا من يريدون ممن هو على مثل رأيهم . فكان ابو عامر يقول : لا أقدر أن أدخل مربدكم هذا ، وذاك ان أصحاب محمد يلحظونني وينالون مني ما أكره قالوا : نحن نبني مسجداً تتحدث فيه عندنا (٣٧) .

ويروي البلاذري عن سعيد بن جبير ان بني عمرو بن عوف ابتنوا مسجداً في (قباء) فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، فحسدتهم اخوتهم بنو غنم بن عوف فقالوا: لو بنينا أيضاً مسجداً وبعثنـا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيه كما صلى في مسجد أصحابنا ، ولعل أبا عامر — الذي كان قد فرّ من الله ورسوله إلى أهل مكة ثم لحق بالشام فتنصّر وأقسم أن يحارب الرسول أينما وجد فرصة لذلك — أن يمر بنا إذا أتى من الشام فيصلي بنا فيه . فبنوا مسجداً وبعثوا إلى رسول الله يسألونه أن يأتي فيصلي فيه . فلما قام رسول الله لينطلق اليهم ، أتاه الوحي بالآية السالفة (٣٨) .

ويبدو من دراسة هذه الحادثة أن حركة النفاق كانت قد حذقت خلال سني الدعوة الطويلة مزيداً من الأساليب لتخريب المجتمع الاسلامي من الداخل ، بعد أن أعيتها كل الحيل السابقة . وها هي الآن تسعى في ظاهر الأمر إلى مزيد من الاندماج في المجتمع الاسلامي وإلى اعتماد مؤسساته نفسها كالمسجد الذي هو رمز العبادة الاسلامية وحرمها للوصول إلى أهدافها بضمان أكبر حيث سيحقق لها ذلك العمل خفاء أكثر ويظهر من نياتها وأعمالها مـا هو طيب مقبول ، ولكنه سيؤدي في الوقت نفسه إلى تمـزق وانشقاق في قلب المجتمع الاسلامي ، وفي أي

---

(٣٧) الواقدي : ١٠٤٨/٣ — ١٠٤٩ .

(٣٨) فتوح البلدان ١/١ — ٢ ، انساب الاشراف ٢٨٢/١ — ٢٨٣ .
وانظر السمهودي : وفاء الوفا ١٦/٢ — ١٧ .

شيء ؟ في المسجد الذي هو مركز الجماعة الاسلامية ومنطلق نشاطاتها المختلفة ، وقلبها الذي لا يكف عن الخفقان !!

ومن هناك ، وبعد المباركة التي سيمنحها الرسول ﷺ مسجدهم هذا، سينطلق المنافقون ، وقد أبدوا نية حسنة وبنـوا مسجداً جديداً ، لاستقطاب العناصر القلقة في المجتمع الاسلامي وضمها إلى صفوفهم ، وتوسيع قواعدهم بين المسلمين ، وإطلاق الشائعات وبذل نشاط واسع من هذا المسجد ، بقيادة زعيمهم الذي كان قد لحق بالشام وتنصّر !! للاتصال بغير المسلمين كذلك لرسم الخطط وتحـديد أساليب العمل ، وهم في حمايـة من غضبة المسلمين وفي أمان من الانكشاف ، ما داموا يمارسون نشاطاتهم تلك من قلب المسجد الذي باركه الرسول ﷺ. والذي يؤكد هذا ، أن تصاعد نشاط المنافقين في أقوالهم وأعمالهم ، والذي رافق محنة تبوك - كما رأينا - جاء موازياً لبناء هذا المسجد الذي تم إنشاؤه قبيل التجهز لغزو الروم . وعندما هرع مبعوثا الرسول ﷺ لتهديم بؤرة النفاق هذه وجدا في باحتها اولئك الذين أقاموها.. وربما كانوا يمارسون من هناك نشاطهم المسموم. وهذا الأسلوب في العمل التخريبي ، وهو اعتماد قيم ومؤسسات مجتمع أو عقيدة ما لتخريب أسس ذلك المجتمع وعقائدياته وتدمير معنويات أصحابه ، معروف على مرّ العصور ، وليست هذه التجربة الـتي فضحها القرآن الكريم إلا علامة تحذير دفعت المسلمين إلى مزيد من الحذر واليقظة !!

٥

وكما حدث بالنسبة لليهود ، مضت المراحل الأخـيرة من حياة الرسول ﷺ والاسلام يزداد قوة ومنعة وانتشاراً ، وزعماء القبائل العربية وأمراؤها ينهالون على المدينة معلنين إسلامهم ومبايعين رسولهم الكريم . ولم يجد المنافقون منفذاً يتسللون منه لتسديد ضربة مؤذية أو تنفيذ مخطط تخريبي جديد ، سيما وأن

زعيمهم عبدالله بن أبيّ كان قد توفي في أواخر السنة التاسعة [٣٩] ، وكانت الآيات القرآنية قد نزلت - أخيراً - تندد بما فعل ويفعل اولئك المنافقون ، وتمزق - بشكل نهائي - الأستار التي يتوارون خلفها . وكانت ألاعيبهم قبل تبوك وبعدها هي النهاية الحاسمة للسماحة التي مرحوا في سعتها طويلاً ولم يقدروها حق قدرها ، وأمر النبي ﷺ أن يعلن على الناس ذبذبتهم ونكوصهم ، وكلف ألا يقبل منهم ولا يصلي عليهم [٤٠] ، بل اعلم أن استغفاره لهم لن يجاب ، ثم طولب المسلمون كافة أن يقاطعوهم [٤١] .

إلا ان الرسول ﷺ ما ان توفي حتى وجد المنافقون المتسربون في حنايا المجتمع الجديد ، والذين ازداد عددهم كثرة في اعقاب انتصار الاسلام الحاسم وتفرده بالسلطان ، حيث انتمى اليه الكثيرون من العرب رغباً ورهباً ، وهم لا يزالون يحملون عاداتهم وممارساتهم القديمة وتسيبهم وانفلاتهم الجاهلي المعروف ، وجدوا فرصتهم السانحة فراحوا يتكالبون ، كما تكالب غيرهم من اعداء الاسلام ضد الدولة التي مات قائدها ومؤسسها . وليس أدل في هذا المجال من حديث عائشة رضي الله عنها حيث تقول « لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ حتى جمعهم الله على أبي بكر » [٤٢] . ومن ثم فان لنا أن نتصور حجم الدور الذي مارسه المنافقون في حركات الردة والتنبؤ في عهد أبي بكر .. وفيما بعد ، في الفتنة التي زعزعت اركان الخلافة الراشدة ، وهو ولا ريب دور كبير وخطير بمجرد أن نطلع على التكوين القبلي للمنتمين إلى الفتنة وعلى اسماء قادتها وزعمائها !!

---

(٣٩) الطبري : تاريخ ١٢٠/٣ .
(٤٠) التوبة : ٨٤ .
(٤١) الغزالي : فقه السيرة ص ٤٤٨ . وانظر دروزة ٨٢/٢ .
(٤٢) ابن هشام : ص ٤٠٤ .

الخاتمة

عندما حان موعد الحج من العام العاشر للهجرة ، أعلن الرسول ﷺ انه سيحج بنفسه في الناس هذا الموسم ، وأمر بالتجهز للذهاب إلى مكة . ثم مالبث أن غادر المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة . وانهال المسلمون على مكة من كل مكان لكي يشهدوا أول حجة على الطريقة الاسلامية التي لا دخل فيها من طقوس وثنية ، وليلتقوا برسولهم الكريم ويقبسوا عنه مزيداً من التعاليم .

وبدأت مراسيم الحج فانطلق آلاف المسلمين ، القدماء والجدد ، وراء نبيهم ومعلمهم وهو يريهم مناسكهم ويعلمهم سنن حجهم . ورأى أن يفيد من فرصة التجمع الكبير هذه فيلقي في أتباعه خطاباً جامعاً يؤكد فيه القيم والتعاليم التي بعث من أجلها ، وكأنه كان يدرك ، باحساسه العميق ، ان هذه هي آخر فرصة يلتقي فيها بحشد كبير من أتباعه كهذا الذي يلتقي به اليوم . فوقف بين أيديهم في عرفات ، وشفق المغيب يلقي على جبهته مزيداً من النور والمهابة والجلال ، وراح يلقي كلماته التي سميت فيما بعد بخطبة الوداع ، ومن ورائه رجل جهوري الصوت يصرخ بكلمات الرسول ليسمعها ألوف الحجيج « أيها الناس ، اسمعوا قولي

فاني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم – وقد بلغت – فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وان كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله انه لا ربا ، وان ربا عباس ابن عبد المطلب موضوع كله ، وان كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وان أول دمائكم اضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب « الذي قتلته هذيل » فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية ... أيها الناس ان الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه ابدا ، ولكنه يطمع فيما سوى ذلك ، فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن (النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلّوا ما حرم الله ....) .. أيها الناس ان لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً . واستوصوا (بهن) خيراً فانهن عندكم عوان (اسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وانكم إنما أخذتموهن بأمانة الله .. فاعقلوا أيها الناس قولي فاني قد بلّغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا ابداً ، امراً بينا كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن ان كل مسلم أخ للمسلم ، وان المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما اعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت؟ » أجابه المسلمون جميعاً : اللهم نعم ، فقال « اللهم اشهد »[1] . وبعد ذلك بقليل ، قال الرسول للوفود المحتشدة حوله عند جمرة العقبة ، ما يشعر بحلول الأجل القريب (خذوا

---

(١) ابن هشام ص ٢٧٢ – ٢٧٤ الطبري ٣/ ١٤٨ – ١٥٢ ابن سعد ٢/١/ ١٢٤ – ١٣٦ البخاري تجريد ٢/٩٨ – ٩٩، اليعقوبي:تاريخ ٢/٩٩ – ١٠٢ المسعودي : مروج ٢/٢٩٠، التنبيه ص ٢٣٩ – ٢٤٠ ابن الاثير : الكامل ٢/٣٠٢ – ٣٠٣ . وعن نص الخطبة انظر : حميد الله : الوثائق-ص ٣٠٧ – ٣٠٩ ، ابن حزم : جوامع ص ٢٦٠ – ٢٦٢ . وعن تفاصيل حجة الوداع انظر : ابن كثير : البداية ٥/١٠٩ – ٢١٤ .

عني مناسككم ، فلعلي لا أحج بعد عامي هذا)[٢].

***

في مطلع ربيع الأول من العام التالي (١١هـ) خرج الرسول ﷺ إلى بقيع الغرقد حيث تنتشر مقابر أهل المدينة ، فناداهم واستغفر لهم (السلام عليكم أهل المقابر ليهنىء لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شرّ من الأولى ..) ورجع إلى أهله . وحينذاك بدأ وجع الرسول ﷺ الذي انتهى بانتقاله إلى الرفيق الأعلى . عن عائشة رضي الله عنها قالت « رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي ، وأنا اقول : وا رأساه ! فقال : بل أنا والله يا عائشة وا رأساه ... » وراح يدور على نسائه ، وأوجاعه تزداد وطأة ، حتى غلبته على نفسه فاستأذن ازواجه أن يمرّض في بيت عائشة رضي الله عنها فأذن له. وخرج يمشي بين رجلين من أهله ، علي والفضل بن عباس ، عاصباً رأسه، تخط قدماه ، حتى دخل بيت عائشة[٣] .

أخذت الحمى تزداد شدة ، حتى ان الرسول طلب من أهله أن يريقوا عليه « سبع قرب من آبار شتى » ولما راحوا يصبون عليه الماء طفق يقول « حسبكم حسبكم » ، وعندما أحسّ ببعض الارتياح خرج إلى المسجد عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر فكان أول ما تكلم به انه صلى على اصحاب أُحد واستغفر لهم ثم قال « ان عبداً من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله » فهم ابو بكر مغزى كلام الرسول وعرف انه يريد نفسه ، فبكى، وقال : بل نحن نفديك بانفسنا وابنائنا فأجاب الرسول ﷺ « على رسلك يا أبا بكر » ثم التفت إلى من حوله وقال(انظروا هذه الأبواب اللافظة في المسجد فسدّوها،

---

(٢) الغزالي : فقه السيرة ص ٤٩٠ .

(٣) ابن هشام ص ٣٧٧ — ٣٧٨ ، ٣٨٥ الطبري ٣/ ١٨٨ — ١٨٩ ابن سعد ٢/٢/٩ — ١١ البلاذري : انساب ١/ ٥٤٣ — ٥٤٥ .

إلا بيت أبي بكر ، فاني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه .. ولو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صحبة وإخاء وايمان حتى يجمع الله بيننا عنده) ... وعاد إلى بيته ودهمته نوبة الحمى والألم مرة أخرى[٤] .

طلب الرسول – بعد أن أعجزه المرض عن اداء مهامه – أن يأمروا أبابكر ليصلي بالناس . فقالت عائشة : يا نبي الله إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن . قال مروه فليصل بالناس .. وكانت عائشة ترمي من وراء ذلك ألا يُدفع أبوها إلى موقف يؤدي إلى تشاؤم الناس منه « لأن الناس لا يحبون رجلا قام مقام نبيهم أبداً » .. فصلى ابو بكر بهم ثلاثة أيام[٥] .

وفي يوم الاثنين الذي توفي في ضحاه (١٢ ربيع الأول) خرج ﷺ لكي يلقي نظرة على أصحابه ، وهم يقفون صفوفاً يؤدون الصلاة ، وما أن رفع الستر وأطل على المسلمين حتى كادوا يفتنون في صلاتهم برسول الله حين رأوه فرحاً به ، وانبسطت سرائرهم فأشار اليهم ان أثبتوا على صلاتكم ، وتبسّم سروراً لما رأى من هيأتهم في صلاتهم . ونكص ابو بكر إلى الوراء اعتقاداً منه ان الرسول سيؤم بنفسه المسلمين في صلاتهم هذه ، إلا أن الرسول تقدم اليه ودفعه في ظهره قائلا : صلّ بالناس ، وجلس إلى جنبه ، وصلى قاعداً عن يمين ابي بكر . فلما فرغوا من الصلاة راح الرسول يتحدث اليهم رافعاً صوته ، حتى ظن أصحابه ان قد زال ما به من وجع واستأذنه أبو بكر في الذهاب إلى أهله بالسنح ، احدى ضواحي المدينة ، وسأل الناس علياً : يا أبا الحسن كيف أصبح

---

(٤) ابن هشام ص ٢٨٥ – ٢٨٦ الطبري ٣/ ١٩٠ – ١٩١ ابن سعد ٢/٢/ ٢٥ – ٢٦ البلاذري ١/ ٥٤٦ – ٥٤٧ .

(٥) ابن هشام ص ٢٨٨ الطبري ٣/ ١٩٦ – ١٩٧ ابن سعد ١٨/٢/٢ ، ٢٠ – ٢١ البلاذري ١/ ٥٥٤ – ٥٥٧ .

رسول الله ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئاً[٦] !!.

لكن تلك الاشراقة لم تكن سوى صحوة الموت، ولنستمع إلى عائشة رضي الله عنها وهي تحدثنا عن اللحظات الأخيرة من حياة الرسول ﷺ « رجع إلي رسول الله ﷺ في ذلك اليوم حين دخل من المسجد ، فاضطجع في حجري ، فدخل عليّ رجل من آل أبي بكر وفي يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله اليه في يده نظراً عرفت انه يريده فقلت : يا رسول الله أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال : نعم . فأخذته فمضغته حتى ليّنته ثم أعطيته إياه ، فاستنّ به كأشد ما رأيته يستنّ بسواك قط ثم وضعه . ووجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجري ، فذهبت انظر في وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول (بل الرفيق الأعلى من الجنة) ، فقلت : خُيّرتَ فاخترتَ والذي بعثك بالحق ! وقبض رسول الله ﷺ[٧] وهو يقول (قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ويردّد (الصلاة وما ملكت أيمانكم) حتى جعل يغرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه[٨] .

انقضّ نبأ وفاة الرسول ﷺ على أصحابه المتجمهرين في الخارج انقضاض الصاعقة ، وراح عمر بن الخطاب يقول : « ان رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفي، وان رسول الله ﷺ ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع اليهم بعد أن قيل :قد مات. والله ليرجعنّ رسول الله ﷺ كما رجع موسى ،فليقطعن أيدي رجال

---

(٦) ابن هشام ص ٣٨٩ — ٣٩٠ ، ٣٩١ الطبري ٣/ ١٨٧ ، ١٩٨ — ١٩٩ ابن سعد ٢/٢/ ١٧ — ١٩ البلاذري : انساب ١/ ٥٥٧ — ٥٥٨ ، ٥٦١ .

(٧) ابن هشام ص ٣٩١ — ٣٩٢ الطبري ١٩٩/٣ ابن سعد ٢/٢/ ٢٧ — ٢٨ ، ٣٠ البلاذري : انساب ١/ ٥٤٩ البخاري : تجريد ٢/ ١٠٥ — ١٠٦ .

(٨) ابن ماجه ٢/ ١٥٥ ، احمد ٣/ ١١٧ وانظر الحديث الذي اخرجه احمد (٢٤٦/١) « اللهم لا تجعل قبري بعدي وثنا يعبد » . وانظر : ابن هشام ص ٤٠٤ ابن سعد ٤٧/٢/٢ البلاذري انساب ٥٥١/١ .

وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات »[٩] .

وأقبل أبو بكر – حين بلغه الخبر – حتى نزل على باب المسجد ، وعمر يكلم الناس فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة، ورسول الله مسجى في ناحية البيت .. فأقبل حتى كشف عـــن وجهه وقبله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، أما الموتة الـــتي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً. ثم ردّ الغطاء على وجه رسول الله ثم خرج، وعمر يكلم الناس، فقال : على رسلك يا عمر ، انصت !! فتجمهر حوله الناس ورنوا اليـه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس انه من كان يعبـد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت . ثم تلا (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين) .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فوالله ما هو إلاّ أن سمعت أبا بكر تلاها فدهشت وتحيرت ، حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجـلاي ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات[١٠] !!

---

(٩) ابن هشام ص ٣٩٢ الطبري ٣/ ٢٠٠ ابـــن سعد ٢/٢/ ٥٣ – ٥٤ ، ٥٥ – ٥٦ ، ٥٧ البلاذري انساب ١/ ٥٦٥ – ٥٦٧ .

(١٠) ابن هشام ص ٣٩٣ الطبري ٣/٢٠٠ – ٢٠١ ، ٢٠٢ – ٢٠٣ ابن سعد ٢/٢/ ٥٢ – ٥٣ ، ٥٤ – ٥٧ البلاذري : انساب ٥٦٦/١ .

قائمة بأهم المصادر والمراجع



المصادر (القديمة)

القرآن الكريم .

أسفار : إشعيا ، التثنية ، دانيال ، المزامير .

أناجيل : متى ، يوحنا ، برنابا .

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي الجزري (ت ٦٣٠ هـ) .
أسد الغابة في معرفة الصحابة ، جمعية المعارف ، مصر — ١٢٨٥هـ.
الكامل في التاريخ ، دار صادر - دار بيروت ، بيروت — ١٩٦٥ — ١٩٦٧ م .

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ)
أنساب الأشراف ، الجزء الأول ، تحقيق محمد حميد الله ، معهد المخطوطات لجامعة الدول العربية ودار المعارف بمصر ، القاهرة — ١٩٥٩م. فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة — ١٩٥٦ — ١٩٥٧ م .

ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) .
جوامع السيرة ، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد ، دار المعارف ، سلسلة تراث الإسلام رقم ٢ .

الحلبي : علي بن برهان الدين الشافعي (ت ١٠٤٤ هـ) .
إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (المعروف بالسيرة الحلبية) ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة — ١٩٦٢ م ..

ابن خيـــاط : أبو عمرو خليفة بن خياط بن ابي هبيرة (ت ٢٤٠ هـ) .
تاريخ خليفة ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، مطبعة الآداب ، النجف ١٩٦٧ .

ابن سعد : محمد (ت ٢٣٠هـ .)
كتاب الطبقات الكبير ، تحقيق أدور سخاو ورفاقه ، طبع مصوراً عن طبعـــة ليدن – بريـل – ١٣٢٥ هـ (مؤسسة النصر – طهران) .

السمهودي : أبو الحسن علي نور الدين بن عبد الله (ت ٩١١ هـ) .
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، مطبعة الآداب والمؤيـــد ، القاهرة – ١٣٢٦ هـ .

الطبري : بو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .
تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابي الفضـل ابراهيم ، - دار المعارف ، القاهرة – ١٩٦١ – ١٩٦٢ م .

القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ) .
صبح الأعشى في صناعة الانشا المطبعه الأميرية القاهرة – ١٩١٣ م .

ابن كثير : ابو الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ) .
البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة–١٩٣٢م) .
تفسير القرآن العظيم ، المطبعة التجارية ، القاهرة – ١٣٥٦ هـ.

ابن المبارك : ابو العباس زين الدين أحمد الزبيدي (ت ٧٣٥ هـ) .
التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح لأبي عبـد الله بن اسماعيل البخاري ، الطبعة الثانية ، دار الارشاد ، بيروت – ١٣٨٦ هـ .

المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ) .
التنبيه والاشراف ، دار التراث ، بيروت – ١٩٦٨ م.

مروج الذهب ومعـــادن الجوهر ، تحقيق أسعد داغر ، دار الأندلس ، بيروت – ١٩٦٥ م .

المقدسي : المطهر بن طاهر (ت ٣٥٥ هـ) .
كتاب البدء والتاريخ المنسوب لأبي زيـد بن سهل البلخي ، تحقيق كلمان هوار ، باريس – ١٨٩٩ م .

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) .
إمتاع الأسماع بما للرسول من الاتبـــاع والأحوال والحفدة والمتاع ، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة – ١٩٤١ م

ابن هشام : ابو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ) .
تهذيب سيرة بن هشام لعبد السلام هارون ، الطبعة الثانيـة ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة – ١٩٦٤ م .

الواقدي : محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ) .
كتاب المغـازي ، تحقيق مارسدن جونس ، مطبعة جامعة اكسفورد – ١٩٦٦ م.

اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب المعروف بابن واضح اليعقوبي(ت ٢٩٢ هـ)
تاريخ اليعقوبي، تحقيق محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية النجف – ١٩٦٤ م .

المراجع (الحديثة)

أحمد : ابراهيم خليل (سابقاً : القسّيس ابراهيم خليل فيلبس) .
محمد في التوراة والانجيل والقرآن ، الطبعة الثانية ، مكتبة الوعي العربي ، القاهرة – ١٩٦٤ م .

ارنولد : سير توماس و .
الدعوة إلى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ورفاقه ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة – ١٩٧١ م.

بخيت : عبد الحميد .
عصر الخلفاء الراشدين ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة – ١٩٦٥ م .

بروكلمان : كارل .
تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة فارس والبعلبكي ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، بيروت – ١٩٦٨ م .

الجندي : أنور .
الاسلام وحركة التاريخ، مطبعة الرسالة، القاهرة – ١٩٦٨م .

حميد الله : محمد .
مجموعة الوثائق السياسية للعهـــد النبوي والخلافة الراشدة ، الطبعة الثالثة ، دار الارشاد ، بيروت – ١٩٦٩ م .

خطّاب : محمود شيت .
الرسول القائد ، الطبعة الثانية ، دار مكتبة الحيـاة ومكتبة النهضة ، بغداد – ١٩٦٠ م .

درمنغم : اميل .
حياة محمد ، ترجمة عادل زعيتر ، الطبعة الثانية ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة – ١٩٤٩ م .

دروزة : محمد عزة .
سيرة الرسول : صور مقتبسة مـــن القرآن الكريم ، الطبعة الثانية ، مطبعة عيسى البابي ، القاهرة – ١٩٦٥ م .

دوزي : رينهارت .
تاريخ مسلمي اسبانيا ، الجزء الأول ، ترجـمة حسن حبشي ، المؤسسة المصرية العامة – دار المعارف ، القاهرة – ١٩٦٣م .

دينيه والجزائري : اتيين دينيه (ناصر الدين) وسليمان ابراهيم الجزائري .
محمد رسول الله ، ترجمة عبد الحليم محمود ومحمد عبـــد الحليم ، الطبعة الثالثة ، الشركة العربية ، القاهرة – ١٩٥٩ م .

الشريف : أحمد ابراهيم .
مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، الطبعة الثانيــة ، دار الفكر العربي ، القاهرة – ١٩٦٥ م .

عثمان : محمد فتحي .
دولة الفكرة ، الدار الكويتية ، الكويت – ١٩٦٨ م .

علي : جواد .
تاريخ العرب في الاسلام (السيرة النبوية) ، الجزء الأول ، بغداد ، مطبعة الزعيم – ١٩٦١ م .

العلي : صالح أحمد .
محاضرات في تاريخ العرب ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، بغداد ، مطبعة الإرشاد – ١٩٦٤ م .

عنان : محمد عبد الله .
مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، الطبعة الرابعة ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة – ١٩٦٢ م .

الغزالي : محمد
فقه السيرة ، الطبعة السادسة ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة – ١٩٦٥ م .

فلهاوزن : يوليوس .
تاريخ الدولة العربية ، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة – ١٩٦٨ م .

كشك : محمد جلال .
الحق المرّ ، مكتبة عمار ، القاهرة – ١٩٦٨ م .

وات : مونتغمري .
محمد في مكة ، تعريب شعبان بركات ، المكتبة العصرية ، بيروت .

ولفنسون : اسرائيل .
تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة – ١٩٢٧ م .

Bell : The Qur'ân, Translated with a Critical Re-arrangement of the Surahs. 2 Vols. (Edinbourg 1937 - 1939).

Margoliuth: The Early Development of Mohammedanism, (London 1914).

Mohammed and the Rise of Islam. (London. 1905).

The Relations between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam. (London. 1924).

Miguel, Asin: Islam and the Divine Comedy. Tr.H. Sunderland. (London, 1926).

Muir: William: The Caliphate, its Rise. Decline and Fall, (London, 1891).

Life of Mahomet. (London, 1858 - 61).

Tor Andrae : Mahomet, Sa Vie et Sa Doctrine, (Paris, 1945, Tr London. 1936).

The Encyclopeadia of Islam, (London and Leyden 1913).

Islamic Quarterly. (London. Vol. VIII).

Jewish Quarterly Review. (London, 1903).

الفهرس